المجلد الأول 1

تهويد التاريخ

الجزء الأول

إيمانويل فليكوفسكي

عصور في فوضى

رؤى نقدية

المحرر: رضا الطويل



تهويد التاريخ

(١)

الجزء الأول

عصور فى فوضى

إيمانويل فليكوفسكى

رؤى نقدية

• الكتاب الأول :

عصور ليست فى فوضى

رضا الطويل

• الكتاب الثانى :

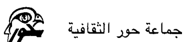
العلماء يواجهون فليكوفسكى

كارل ساجان وآخرون

ت : رفعت السيد على

تهويد التاريخ
عصور فى فوضى

تهويـد التاريـخ
عصور فى فوضى

جماعة حور الثقافية 
القاهرة ت : ٠٢/٢٥٠٠٠٠٥٥

الكتـــــاب : عصور فى فوضى **Ages in Chaos**

الـكـاتـب : إيمانويل فليكوفسكى

الترجمة : أحمد عمر شاهين - رفعت السيد على - فاروق فريد - محمد جلال عباس

المحـرر : رضا الطويل

الغـلاف : حسين جبيل

خطوط غ : حامد العويضى

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٣٥٣٤

الترقيم الدولى : **I.S.B.N 977-305-292-1**

الجمع والتنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشر

الترجمة العربية الكاملة

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
العروبة للدراسات والأبحاث
(تحت التأسيس)



اهـــــداء

استغرقت ترجمة سلسلة "عصور فى فوضى" بكتبها الستة وإعدادها للنشر، ما يتجاوز عشرين عاماً كاملة من العناء، ونحن نهدى ما تكبدناه من جهد ومشقة خلال هذه السنوات المضنية، والسنوات العشرين التى استغرقها اعداد هذا الكتاب للنشر، والكتاب نفسه الذى تم إنجازه، وجميع ما نملك وكل ما نستطيع اهداءه، إليهما معا - تغمدهما الله برحمته - الأستاذين:

أحمد عمر شاهين

و

محمد جلال عباس

اللذين لم يقدر لهما أن يشاركانا هذه اللحظة التى نعيشها ونحن نرى الكتاب بعد طول معاناة وكبد وقد أصبح بين يدى القارىء ·

رضا الطويـل　كمال رمزى　رفعت السيد على

محمود الطويل　فكرى منير　علـــى قلامـــى

خالد شاكر

" عالم الآثار مشغول بتحليل الحجارة
إنه يبحث عن عينيه فى ردم الأساطير
لكى يثبت أنى
عابر فى الدرب لاعينان لى لاحرف فى
سفر الحضارة !
وأنا أزرع أشجارى على مهلى وعن
حبى أغنى "

محمود درويش

مقدمة - قصتنا مع الكتاب

فى عام ١٩٧٩ ، تمكنا من قراءة كتاب " أوديب وإخناتون " لإيمانويل فليكوفسكى ترجمة فاروق فريد ، بعد أن اهدانيه الصديق أحمد عمر شاهين (رحمه الله) لمعرفته بمدى شغفى بالتاريخ المصرى القديم ، المتأصل فى نفسى منذ سنوات الدراسة الثانوية ، وهو شغف تبينه فى ذلك الحين ، الاستاذ فؤاد أمين ، مدرس التاريخ والأستاذ سينوت، أمين المكتبة ، وعمل كل منهما على تنميته ورعايته وتأصيله فى نفسى، أما الأستاذ فؤاد فقد دأب على تكليفى بالعديد من الدراسات والبحوث، من أهمها كما زلت أذكر بحثا عن مدينة (أون)، عده الرجل إنجازا دراسيا جيدا لمن هم فى مثل سنى، أما الأستاذ سينوت فقد أغرانى بقراءة موسوعة مصر القديمة للاستاذ الكبير سليم حسن، ودفعنى على المثابرة لاتمام قراءة أجزائها الستة عشر، ولقد هالنى بعد قراءة "أوديب وإخناتون" كيف يلقى كتاب على مثل هذه الخسة العلمية كل هذا الترحيب، فحتى ذلك الوقت وجد الكتاب صدى طيبا بين أوساط المثقفين، باعتباره تأكيدا على أن إخناتون هو الأصل التاريخى لأوديب اليونانى، ومؤشرا على تأثير الحضارة الفرعونية على آداب وفنون الحضارات الإنسانية والعالمية الأخرى .

ولم أجد فى بحثى عن صدى لهذا الكتاب فى الكتابات المصرية والعربية، غير موجز قصير جدا، وإن كان جامعا شاملا دقيقا أورده د.ثروت عكاشة فى هوامش موسوعته الفريدة "تاريخ الفن"، وأصبح فى ظنى أن أحدا آخر لم يعلق على ما كتبه فليكوفسكى، مفندا ما ذهب إليه

من ادعاءات، وقد نبهنى الصديق كمال رمزى لمقال نقدى نشرته مجلة "المجلة"، لم أتمكن من الاطلاع عليه، كما نقل إلى سمعى حوارا أبهره دار بينه وبين الاستاذ سامى خشبة، أعرب فيه خشبة عن اعتراضه على نتائج فليكوفسكى ونظرياته ٠

فى اتجاه آخر كتب الأستاذ على سالم مسرحيته "أنت اللى قتلت الوحش" متأثرا بفليكوفسكى ، وعرضها مسرح الحكيم بعد عامين تقريبا من صدور الكتاب أى عام ١٩٧٠ ٠

وقبل استعراض مقدمة على سالم لمسرحيته ، لأهمية هذه المقدمة فى تفهم الحفاوة التى قوبل بها كتاب فليكوفسكى بين أوساط المثقفين ، قد يكون من المفيد المبادرة بإثبات تعليق د٠ ثروت عكاشة فى هوامش موسوعته "تاريخ الفن" - (الفن المصرى - الجزء الثانى طبعة ١٩٧٢ ص ٧٢٣) وننقلها حرفيا:

" للكاتب ايمانويل فليكوفسكى بحث عن أوديب وإخناتون فيه الصلة بين الشخصية اليونانية الأسطورية أوديب والشخصية المصرية التاريخية إخناتن، ويذهب إلى وجود أوجه شبه عديدة بينهما : فكلاهما كان بعيدا عن مقر حكم أبيه فى طفولته، وكان ذا قدمين متورمتين، كما أن آى كان أخا للملكة تى والدة إخناتن وزوجة أمنحتب الثالث، وكان كل من تى وآى من أولاد يويا وثويا، كما كان آى نفسه والدا للملكة نفرتيتى ٠

وكما تزوج أوديب أمه " جوكستا " جهلا منه وأنجب منها طفلين وطفلتين، عاشر إخناتن أمه وأنجب منها الأميرة ماكت آتون، وثار كريون أخو جوكستا وخال أوديب على أوديب ، وظاهر آى خال إخناتن كهنة آمون ضد إخناتن ، ونفى بولينيكس أباه أوديب فى نهاية الأمر وحكم البلاد، كما انضم سمنخ - كا - رع إلى الثائرين على إخناتن ونفى اخناتن وتولى الحكم

وفى النهاية فقد كل من إخناتن وأوديب بصره ، وانتحرت كل من جوكستا وتى، ولاشك أن الباحث حاول جاهدا إيجاد شبه بين سيرة

أوديب وسيرة إخناتن، وكان الشبه أحيانا قويا لايحتاج إلى دليل، وكان أحيانا أخرى ضعيفا، فعمد الباحث إلى إيجاد شبه واختلاق علاقات لتؤدى إلى ذلك الشبه، مثال ذلك قوله : إن إصلاح اخناتن إنما هو تعبير عن ثورته على أبيه فأزال اسم أبيه من النقوش ومنع دفن أمه بجوار أبيه، والواقع أن جذور ثورة إخناتن كانت فى عهد أبيه ، وأن إخناتن محا اسم أمون الذى يدخل فى تركيب اسم أبيه ومن كل أثر ولم يقصد محو اسم أبيه بالذات ، وكان امنحتب وتى على دين آتون قبل حكم اخناتن ، أما قوله إن إخناتن ألقى بتماثيل أبولهول فى فوق سفح الجبال الغربية فى طيبة انتقاما من الاله آمون ، فالواقع ان هذه التماثيل كانت تمثل حتشبسوت وأن تحتمس الثالث ورجالاته هم الذين قاموا بتحطيمها كنوع من التخريب والانتقام من آثار الملكة بعد وفاتها .

ويشير كذلك إلى أن سمنخ - كا - رع وتوت عنخ آمون هما ابنان لإخناتن وهذا زعم لا يقوم عليه دليل حتى الآن، إذ أن المعروف أن إخناتن لم ينجب وريثا على العرش ، ولهذا أشرك معه فى الحكم زوج ابنته سمنخ - كا - رع ، وأما أن آى هو ابن يويا فهذا رأى اولبرايت وهو رأى لم يقم عليه دليل قاطع بعد . لذلك ترانا لانوافق الباحث فى كثير مما ذهب إليه".

فى مقابل دماثة د. ثروت عكاشة ، وتحفظه بهدوء على نتائج إيمانويل فليكوفسكى فى " أوديب وإخناتون " . كان لعلى سالم مذهبا آخر ، وكتب مقدمته لمسرحيته ، بصوت مرتفع النبرة ، صارخ الأداء " من أعماق الحفريات ومن فوق جدران المعابد ، ووثائق البردى القديم ، استطاع فليكوفسكى فى كتابه المجتمع أن يثبت بطريقة مؤكدة تماما - لى على الأقل - أن الأحداث الأسطورية لقصة أوديب والأحداث الفنية للمسرحية ، ليست إلا الأحداث التاريخية الحقيقية لإخناتون وأسرته فى طيبة القديمة ، وأن طيبة المذكورة فى المسرحية ليست طيبة اقليم بيوتيا فى اليونان وإنما هى طيبة مصر القديمة الأقصر الآن " .

وقد نفهم من مقدمة على سالم وجملته الاعتراضية " لى على الأقل " ، أنه قوبل باعتراضات رفضت ما اقتنع به من كتابات فليكوفسكى وما ذهب إليه من نتائج ، وهو أمر ليس بمستبعد ، وإن كان لم يفصح عن هذه الاعتراضات فى مقدمته ولم ينوه عنها ، بل وحتى على سالم نفسه الذى اندفع فى هذه الفقرة الاستهلالية مع السحر الفخم للأصوات الاستعراضية ، لم يلبث أن تراجع وأفصح عن قناعة أخرى تناقض ما صرح به عن اقتناع كامل ، من أن الأحداث التاريخية لإخناتون هى أصل الأحداث الأسطورية لأوديب اليونانى ، إذ أبدى على سالم فهما آخر ، يرجع المسرحية اليونانية إلى تأثر سوفوكليس بعمل مسرحى مصرى ، وليس بوقائع التاريخ المصرى " إن سوفوكل نفسه لم يغادر اليونان ، ولكنه كان صديقا للمؤرخ هيرودوت الذى زار مصر كثيرا ، حيث كان يقابل بحفاوة بالغة من الكهنة ، وبالطبع كان يسمح له بمشاهدة طقوس معينة محرم على الشعب نفسه أن يراها ، اننى أتساءل هل حدث هيرودوت سوفوكل عن مسرحية شاهدها فى معابد مصر ، تدور أحداثها حول ملك تزوج أمه وقتل أباه ؟ " ويضيف على سالم " وبما أن فنان المسرح يستمد مادة فنه من الأحداث الكبيرة التى تحدث فى عصره ، فإنه من الطبيعى أن تكون شخصية إخناتون بأبعادها الهائلة هى محور بعض هذه العروض المسرحية التى لها طابع درامى متميز " ، ثم يعود على سالم ويعترف بأنه لايستطيع ، القطع بأى حقيقة تاريخية أو فنية " ويعرب عن أنه لن يحس " بدهشة كبيرة إذا اكتشفنا يوما ما أن مسرحية أوديب سوفوكل ليست سوى إعداد إغريقى رائع لمسرحية مصرية تقدم نفس الأحداث ، مسرحية تولى إخراجها كهنة آمون فى معابدهم القديمة ، ولعلهم كانوا يعرضونها لكبار الشخصيات من زوار مصر كنوع من الإعلام الموجه لتشويه صورة الملك إخناتون بعد أن انتصروا عليه وعلى عبادته وأعادوا عبادة آمون مرة أخرى " .

تأرجح على سالم فى مقدمته لمسرحيته ، بين التسليم عن اقتناع

بنتائج فليكوفسكى حول إخناتون باعتباره الأصل التاريخى لأوديب ، وبين رفض هذا الرأى على اعتبار تأثر سوفوكل بأدب دعائى لكهنة آمون يرمى إلى تشويه إخناتون ، ولقد عكس هذا التناقض فى حقيقته موقف المثقف المصرى من كتاب فليكوفسكى ، وترحيبه به ، بالنظر إليه من زاوية وحيدة ترى فيه ماللحضارة المصرية من سبق ، وما لتاريخ مصر من تأثير على الحضارات العالمية الأخرى ، دون أن يعنى ذلك التسليم بما انتهى إليه فليكوفسكى من نتائج ، وما هدف إليه من تسفيه لأنبل الفراعنة وأشهر ملوك التاريخ المصرى القديم ، وما قصد إليه من ذراية بما نادى به من توحيد دينى . خاصة وقد صدرت ترجمة " أوديب وإخناتون " عام ١٩٦٨ ، أعقاب هول النكسة وما ترتب عليها من إحباط عام ، وما فرضته على الوجدان الثقافى من بحث عن منابع القوة ، وتطلع إلى مستقبل مغاير يكون بمقدوره استعادة الشعور بالاعتزاز الذاتى ، والتفوق على حس الهزيمة والاندحار .

فى هذه الظروف ، التزمت بإعداد دراسة تفند مزاعم فليكوفسكى فى " أوديب وإخناتون " مستردا شغفى المتأصل بنفسى بالتاريخ القديم ، ومع نهاية عام ١٩٨٣ قطعت شوطا كبيرا ، وانجزت جانبا كبيرا من المخطوط، نوهت عنه مجلة الموقف العربى (العدد ٤٧/٤٨ - مارس / أبريل ١٩٨٤) وهى بصدد عرض كتابى " كمال ناصر - صوتان وجرح واحد - دار الثقافة الجديدة ١٩٨٣) ، فأشارت فى نهاية عرض هذا الكتاب إلى الدراسة التى أرد فيها على المؤرخ الصهيونى إيمانويل فليكوفسكى الذى أعاد كتابة تاريخ البشرية والتاريخ الفرعونى خاصة من وجهة نظر جديدة ستثير ضجة كبيرة لوصدقت .. وقد انتهى رضا الطويل من كتابه الأول فى هذا الموضوع والذى يتناول الصهيونية والإخناتونية وسيصدر قبل نهاية العام وهو رد على كتاب فليكوفسكى " أوديب وإخناتون " الذى يزيف التاريخ بشكل ظاهره العلم وباطنه الكراهية والتعصب والزيف " . والحقيقة أن هذا المخطوط لم ينشر إلى الآن ، فخلال انشغالى بالدراسة ،

تكشفت أبعاد المرامى الخبيئة لفليكوفسكى ، وتبين أن " أوديب وإخناتون "ليس إلا كتابا واحدا من سلسلة كتب عن التاريخ المصرى يضمها عنوان واحد " عصور فى فوضى " تستهدف إعادة ترتيب قوائم تاريخ الشرق القديم وبصفة خاصة التاريخ الفرعونى ، لإفساح مجال زمنى لإحلال التاريخ اليهودى ، وتمكنه من التهام التراث الحضارى والإنسانى لمصر وبلدان الشرق ، وشاركنى الاهتمام الصديق أحمد عمر شاهين ، وأثمرت الحوارات التى دارت بيننا عن ضرورة تقديم هذه الأعمال للقارئ العربى ، واتسعت دائرة الحوار وتعمق التصميم بانضمام كمال رمزى إلينا ، وبدأت محاولات الحصول على المتن الأصلى لمؤلفات فليكوفسكى .

لم تكن الأمور تجرى بسهولة فى ذلك الوقت ، وكان الحصول على الكتب من الخارج أمرا غاية فى الصعوبة ، غيرما هو متاح لنا فى الوقت الحالى ، بعد استخدام الانترنت والبريد السريع وغير ذلك من وسائل وطرق حديثة ، وتكفل صديقنا فكرى منير بعد اتصالنا به بالولايات المتحدة ، بالتنقيب عن مؤلفات فليكوفسكى وكان أول ما أرسله لنا كتاب "الأرض فى اضطراب"، واتفقنا على تكليف الأستاذ خليل كلفت بترجمته ، وقابلت خليل وعرضت الموضوع موضحا جوانبه المختلفة ، وأفكارنا حوله، وسبب اهتمامنا بالترجمة ، وأبدى خليل كلفت استعداده للتعاون معنا ، واتفقنا ، فى جلستنا معا ، ومضى أسبوع أو نحو ذلك أو أكثر ، قبل أن يعود خليل كلفت ، بما عرف عنه من نزاهة فى التعامل ، معتذرا عن هذا التعاون ، رادا إلينا المقابل المادى بالكامل ، الذى استلمه تحت حساب هذه الترجمة ، موضحا بأن الكتاب " الأرض فى اضطراب " هو بحث فى الجيولوجية وليس فى السياسة ، ولا علاقة له باسرائيل أو بالصهيونية ، كما هى وجهة نظرنا ، ولم أحاول أن أجادل خليل فى موقفه النزيه ، والحق إن " الأرض فى اضطراب " هو كما قال لايحمل أدنى إشارة إلى التاريخ القديم أو المعاصر ، وهو كما تبين يعتمد على المادة العلمية وحدها، حاول فيه فليكوفسكى إيجاد برهنة علمية محضة على صحة

نظريته فى التاريخ الطبيعى (عوالم فى تصادم) التى استند إليها فى هدم التاريخ السياسى التقليدى كما يقول ، ذلك التاريخ الذى ينكر على اليهود أى وجود فى الأحقاب التاريخية السحيقة ، ولم نكن قد حصلنا على " عوالم فى تصادم " حتى ذلك الحين . ونبهنى موقف خليل كلفت إلى ضرورة نشر سلسلة أعمال فليكوفسكى مجمعة ومرة واحدة ، لامتوالية متفرقة ، حتى تتضح معالم نظرياته ، وما يهدف إليه منها ، ولقد كان هذا الاقتناع منى أحد الأسباب التى أدت إلى تأخر إصدار سلسلة كتب فليكوفسكى كل هذا الوقت الطويل وحتى الآن. مع هذا اعترف بأن موقف خليل كلفت كان له تأثير قوى فى خفض درجة تحفزى وحماسى ، كان هذا عام ١٩٨٥ على نحو التقريب ، وتزامن هذا الموقف مع ما تعرضنا له - أحمد عمر شاهين وأنا - من انتقادات ليست فى محلها ، عقب نشر كتابنا المشترك " تشابك الجذور " عن الشاعر الإسرائيلى يهودا عميحاى ، عن دار شهدى للنشر ، فعلى الرغم من الاهتمام الذى قوبل به ، والعديد من المقالات والدراسات التى كتبت عنه فى الجرائد والمجلات العربية بصفة عامة ، وتقدير غالبية الكتابات للجهد المبذول فيه ، ولجدية موضوعه، فلقد حمله البعض مواقف سياسية لاتعبر عن موقفنا ، على وجه الاطلاق ، ولقد نشرنا قصة هذا الكتاب بالكامل والقضايا التى أثارها وأثيرت حوله ، فى الطبعة الثانية منه عام ١٩٩٥ ، وما يهمنا هنا أن هذه المعارك التى دارت حول كتاب " تشابك الجذور " ، كانت أحد الأسباب التى نتج عنها طول المدة التى استغرقها تنفيذ مشروعنا الذى أجمعنا عليه مقتنعين بضرورة تقديم أعمال فليكوفسكى بالكامل للقارئ العربى ، ولا نعنى بذلك أن هذه المعارك التى أحاطت بكتاب " تشابك الجذور " فتت فى عضدنا ، أو أطفأت جذوة حماسنا ، بل لأمر آخر بعيد كل البعد عن كل التفاعلات الثقافية ، لقد دفعنا التأثر بهذه المعارك إلى ارتكاب أكبر حماقة يمكن أن يرتكبها مثقف له مثل أخلاقنا وإمكانياتنا ، وتعنى (نا) الدالة على المتكلمين أو الفاعلين هنا اثنين هما ، أنا بطبيعة الحال ، باندفاعى المتبصر

بالعواقب الذى لايتنازل عن الأحلام غير الممكنة ، والثانى هو الصديق كمال رمزى الذى تخلى للمرة الأولى والأخيرة عن حرصه المشهود وتعقله وشاركنى ما انتويت عليه وخلاصة ما أريد قوله أننا قررنا إنشاء مطبعة ومؤسسة نشر كبرى ، تمثل قاعدة مكينة ، نستند إليها فى معاركنا الفكرية ، بعد أن تخلى الجميع - القريب والغريب - عن مساندتنا فى معركة " تشابك الجذور " ، ونحيت مشروع تقديم فليكوفسكى جانبا إلى حين ، وانهمكت فى التخطيط لمشروع المطبعة الكبرى ، وإعداد الدراسات القانونية والاقتصادية ، يملؤنى العزم والإصرار ، أرانى فى مسوح الاقتصادى العظيم " طلعت حرب " ، وتوهم أصدقائى أيضا قدرتى على القيام بهذا الدور وما أن حل خريف عام ١٩٨٦ حتى كان المهندسون يركبون آلات الطباعة الضخمة ، ماكينة بجوار ماكينة ، وجلسنا نراقبهم فرحين برؤية أهرامنا الصغيرة ترص جنبا الى جنب ، مثقلين بديون لا قبل لنا على سدادها ، ثم وجدنا أنفسنا إلى نهاية الربع الأول من عام ١٩٨٧ غارقين لآذاننا فى تجارب التشغيل ، ومشاكل العمالة ، ومحاولة التعامل مع التجار ورجال الأعمال ، ودور النشر، ملاحقين بمطالبات البنوك ، وهموم الضرائب وغير ذلك كثير واستهلكنا الوقت أو استهلكنا الوقت ، وابتعدنا عن اهتماماتنا الثقافية ، غرقا فى مشاكل عاتية ، نحن غير مؤهلين للتعامل معها ، ما علينا ، فهذه وحدها قصة كقصص ألف ليلة ، تحكى لتكون عبرة من العبر وعظة لمن يتعظ ، ونعود إلى قصتنا مع مؤلفات فليكوفسكى ، ففى خضم هذه الأحداث التى أتيت على ذكرها ، جمعت الصدفة بينى وبين الأستاذ محمد جلال عباس ، وجرنا الحديث إلى فليكوفسكى ، ونظرياته ، وملأ الحماس أستاذنا ، والحق أن الفضل يعود إليه فى المضى بالمشروع قدما إلى الأمام ، خلال فترة اهتمامنا بتأسيس المطبعة ، وبادر الأستاذ محمد جلال عباس بالعمل فى ترجمة (الأرض فى اضطراب)، كما بادر بتصوير نسخة من كتاب (عوالم فى تصادم) بعد عثوره عليه بالمكتبة الأمريكية ، وفى الوقت نفسه أرسل فكرى منير نسخة

من كتاب آخر " من الخروج إلى الملك إخناتون " كان من نصيب الصديق رفعت السيد على ، الذى لم يتمهل على الرغم من حنكته العملية فى الانضمام إلى مشروعينا ، أعنى شريكا فى المطبعة - أسفا عليه - وشريكا فى التحمس الثقافى المحموم الذى يعتمل فى صدورنا لتقديم أعمال فليكوسكى ، ولرفعت السيد قصته مع كتاب (من الخروج إلى الملك إخناتون)، وكيف التهمت نيران الحرب بالخليج مخطوطة الترجمة ، والمتن الأصلى للكتاب ، فيعيد بذل الجهد مرة أخرى لترجمة الكتاب من جديد ، وانضم إلى الفريق المتحمس للترجمة فى نهاية المطاف الصديق أحمد عمر شاهين وشرع بدوره فى ترجمة آخر الكتب التى عقدنا العزم على تقديمها، وهو كتاب " رمسيس الثانى وعصره " . فى الوقت الذى أوشك الأستاذ محمد جلال عباس على الانتهاء من ترجمة " شعوب البحر " مع عام ١٩٩٥ ، أنجز الفريق العمل ، وبعد مضى ما يناهز السنوات العشرة توفرت لدينا مخطوطات الترجمة للأستاذ محمد جلال عباس ثلاثا منها ، هى بترتيب الترجمة الأرض فى اضطراب ، عوالم فى تصادم ، شعوب البحر . ولرفعت السيد على من الخروج إلى الملك إخناتون ، ولأحمد عمر شاهين " رمسيس الثانى وعصره ، أما كتاب " اوديب واخناتون " فلقد رأيت من الإنصاف الاحتفاظ للأستاذ فاروق فريد - الذى لا نعرفه - بالترجمة التى قدمها لهذا الكتاب عام ١٩٦٨ ، اعترافا منا بدوره فى تعريف القارئ العربى بإيمانويل فليكوفسكى ، ولقد أعيانا البحث جميعا فى محاولة العثور على الرجل ، والالتقاء به ، ثم اكتفينا بمحاولة العثور على أى معلومات عنه ، واستغرقت هذه الجهود أمدا طويلا دون جدوى وكل ما أمكننا التوصل إليه من معلومات ، على نحو مبتسر شديد الغموض ، أن الرجل ترك مصر منذ وقت مبكر ، وعمل بالتدريس باليونان فى فرع من فروع المعرفة أو الآداب ، لا نعرف ، وانتقل منها إلى الولايات المتحدة فى سنة ما تسبق ترجمته لأوديب وإخناتون إلى العربية ، وقيل من بين القليل الذى ذكر عنه ، أن المنية وافته هناك ، وهذا كل ما نعرفه عنه

على وجه التحديد ، وحتى الآن . ولقد ذهب البعض إلى أنه من الأسهل ترجمة أوديب وإخناتون ترجمة جديدة ، مادمنا لم نستطع العثور عليه ، وظللت محتفظا بما أنا مقتنع به ، بأنه من العدل ، الاحتفاظ لما لفاروق فريد من فضل ، وقد كان.

لم تكن تلك هى الصعوبة الوحيدة التى صادفتنا ، فقبل عام ١٩٩٥ ، بوقت طويل ، يعد بالسنين ، سنتين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ، لايمكننى التذكر على وجه التحديد ، وبعد أن مضت سنوات ثلاث على انتهاء الصديق والشريك رفعت السيد على من ترجمة " من الخروج إلى الملك إخناتون " ، وبعد عودته إلى الوطن من الخليج ، واندماجه فى الحياة الثقافية ، متفاعلا معها ، طلب نسخة مصورة من مخطوطه المترجم لدينا ، ولم أر بأسا من ذلك ، وحدثنى بعدها عن حوارات مفيدة جرت بينه وبين الأستاذ سيد إلقمى ، حول الموضوع ، وبوغت رفعت بعدة مقالات نشرت متوالية للاستاذ القمنى حول نظريات إيمانويل فليكوفسكى وكتبه ، وانقلبت الصداقة الوليدة بينهما ، بالنسبة له على الأقل ، ولم يزعجنى الموضوع ، إيمانا منى بأن الثقافة ليست حكرا على أحد ، وليست امتيازا نتسابق إليه ونختلف عليه ، وأن سيد القمنى كان بإمكانه الرجوع إلى فليكوفسكى فى لغته الأصلية ، دون الاعتماد على الترجمة العربية للمخطوط ، وأن موضوعا على هذه الدرجة القصوى من الأهمية كما نحن مقتنعون من الضرورى أن يستفز إحساس المسئولية الوطنية لدى غيرنا ، ولم يقدم سيد القمنى إلا على ما نحاول نحن الإقدام عليه ، وقد طال بنا الوقت ، وأخرتنا الظروف التى نعيشها عن المبادرة بتقديمه ، ومرت الأزمة، إلى أزمة بعدها ، حين طلب رفعت متململا من طول الفترة التى انقضت دون أن نتمكن من النشر ، أن ينشر ترجمته ، ولم نكن حتى وقتها قد أنجزنا كل ترجمة الأعمال ، مع اقتناعى الكامل الذى توصلت إليه بعد موقف خليل كلفت ، وثقتى فى تقديره للأمور ، بضرورة نشر هذه الأعمال مجتمعة ، لا منفصلة ، إلى جانب معرفتى بأن الوقت مازال بعيدا

جدا أمامنا حتى نتمكن من النشر ، وكان فى تقديرى أن المخطوط الذى يطالب رفعت بنشره متضجرا منا ومن تأخيرنا ، يتناول التاريخ السياسى ، ولا ضرر من نشره منفردا ، فلن يتسبب عن النشر أى سوء فهم ، كالذى وقع فيه خليل كلفت فى " الأرض فى اضطراب " ، وسايرت رفعت فيما طلبه موافقا ، راجيا فى نفس الوقت أن يحقق الكتاب ما نرجوه من تأثير ، وأن يلقى ما نأمل من اهتمام ٠

قلنا فى عام ١٩٩٥ ، انتهى فريق الترجمة من العمل ، وآن الأوان ، لتقديم الكتاب بأكمله كما أردنا ، ومع هذا ، فإن النشر لم يتم ، فى بداية هذا العام وصل اليأس بنا إلى درجته القصوى بالنسبة للمطبعة ، بما تعنيه من أنشطة الطباعة والنشر ولم يكن أمامنا إلا أن نقر بالفشل الذريع ولا نكابر ، ولم تتح الظروف حقيقة الحال أى فرصة للمكابرة ، أو التعلل بالأمانى والأحلام ٠وكتب علينا أن نشاهد بنفوس خابية المهندسين وهم يفككون أوصال الآلات بعد أن فارقتها الحياة ٠ ويحنطون أجزاءها ، ويكفنونها بالشحوم ، ونحن نرقبهم عن كثب كسيرى القلوب ، نلوك فى صمت خيبتنا ، حريصين ألا تلتقى عيوننا ، وخرجنا من التجربة مثقلين بعدة قضايا ، غارقين فى الديون ، نزعت التجربة العنيفة أوهامنا الكبيرة حول النشر ، وجردتنا من نشوة الكتاب ، وهم يتلقون النسخ الأولى من مؤلفاتهم وهى مازالت تنبض بمداد الطباعة الدافىء ، أصبحنا نعرف الكثير عن نسب التوزيع ، وعن الدورة المضنية التى تستغرقها الأموال المدفوعة فى تكاليف الكتب الباهظة ، حتى تعود إلى المنبع قطرات، قليلة بعد قطرات ،كنا أمام جهد ضخم ، يتطلب تكلفة مرتفعة ، لانملكها ، فى وقت عصيب تثقلنا فيه الخسائر والديون ، ولا نملك حتى الأمل فى أن ما سننفقه سوف يعود ، ومع كل هذا فلم نفرط فيما عقدنا العزم عليه ، راضين بالتضحية مقدمين على تدبير الأموال التى يتطلبها النشر ، وبدأنا بالمرحلة الأولى من مراحل الطباعة ، الجمع ٠ بكتاب من كتب أستاذنا محمد جلال عباس " عوالم فى تصادم " ، استغرق ذلك وقتا ليس

بالقصير، وأرسلنا النسخ للأستاذ للمراجعة الأولى ، وقطع شوطا قصيرا ، قبل أن يداهمه المرض للمرة الأولى ، واقترحت عليه حينئذ أن نكلف أحدا بالمراجعة ، فأبى الرجل بشدة ، ومرت فترة قبل أن يسترد عافيته ، ويتمكن من المراجعة من جديد ، ليعاوده المرض كرة أخرى ، وثالثة ، ثم يشتد عليه ويعوقه ، ولم يكن أمامنا إلا الاعتماد على مراجع ، فى هذه الظروف السيئة ، لم أجد من اطمئن إلى نزاهته ودقته وأمانته اطمئنانا مطلقا ، إلا الأستاذ على قلامى ، بما أعرفه عنه من حرص وخلق لأكلفه بهذه المهمة ، وقد كان ، هذه الصفات الأخلاقية التى آنسها فيه ، يقابلها ما يفرضه التأنى الأمين من وقت طويل ، يتناسب مع ما نحن بصدده من تدبير أموال ليست بالقليلة تغطى تكلفة الطباعة ، ومما زاد الأمور تعقيدا أن الأستاذ محمد جلال عباس فضل استخدام القلم الرصاص فى مخطوطاته المترجمة ، وأثر طول الوقت الذى مر على تسليمها لناعليها ، فبهتت بعض الحروف، ومحا بعضها الوقت الضائع ، واضطر على قلامى للاستعانة بالمتن الأصلى بعد أن حال المرض بيننا وبين الرجوع إلى الأستاذ محمد جلال للاستفسار عن بعض الكلمات ، مما أطال مدة المراجعة ، وخلال المدة الطويلة التى استغرقتها عمليات جمع ومراجعة الكتب التى ترجمها، توفاه الله فى الرابع من أبريل عام ١٩٩٨ ، وبوفاته تعاظم احساسى بالمسئولية ، وشعرت بالتزام أقوى للانتهاء من مشروع مؤلفات فليكوفسكى ، مهما كبدنى من مشاق وأعباء ، تقديرا شخصيا للجهد الذى أضنى الرجل ، والذى تكبده ، وانتهت المراحل الأولى من جمع ومراجعة حوالى عام ٢٠٠٠ ، وأصبحنا على أتم الاستعداد للطباعة، لا ينقصنا غير أمر واحد ، ألا وهو توفر الأموال اللازمة لسداد التكاليف ، وهى ليست بالقليلة أو المتاحة ، أو فى الحدود التى يمكننا توفيرها ، وكان علينا أن ننتظر وقتا آخر ، حتى نتمكن من تدبير تلك الأموال ، ولم نقتنع بالبدائل العديدة التى طرحناها حلا لهذا المشكل ، خلال هذه المحنة، فجعنا بوفاة الصديق أحمد عمر شاهين ، أول اكتوبر ٢٠٠١على حين غرة

اختطفه الموت منا ، مخلفا فى القلب لوعة ، وحول العنق أمانة ، واندفعنا فى نشاط محموم ، دافعين كتابا بعد كتاب إلى المطبعة بادئين بالجزء الأخير ثم ماقبله .. وهكذا منذ أواخر عام ٢٠٠٢ وحتى الآن ، بلا توقف وإن كان على مهل .

منذ عام ١٩٩٥ كما تعلمنا من تجربة تشابك الجذور ، شعرت بأهمية تقديم الكتاب ، ليس تقديما تقليديا ، فإزاء المغالطات الهائلة التى ارتكبها إيمانويل فليكوفسكى فى كافة فروع المعرفة ، كان لابد من تقديم نقدى يفند افتراضاته ونتائجه المزيفة ، خاصة وقد أبدع فى نسج خيوط شباكه وهو الطبيب النفسى العالم بطبائع النفس الإنسانية وسبل التعامل معها وآليات الإقناع ، وحاولت، وحاولت ، ومصمما استمريت ، متحمسا حينا، ومحبطا معظم الأحيان ، ومقتنعا دائما بأنه لايمكن لفرد مهما كانت قدراته أن يقدم رؤية نقدية متكاملة لأعمال فليكوفسكى ، وهو الذى يتقافز بين كثير من فروع المعرفة والعلوم ، بحيث يصبح من العسير تعقبه وملاحقته ، محوما بمزاعمه حول علوم الفلك والجيولوجيا والطب والجغرافيا والتاريخ والأدب والفلسفة وعلم الأساطير والتوراة وغير ذلك كثير مما لايسعنى فهمه ، أو عرضه ، أو تفنيده ، وكثيرا ما اعترفت للصديق كمال رمزى بالصعوبات الجمة التى تواجهنى ، وعزمى على أن انفض يدى ، ثم أجبر نفسى على الاستمرار ، وليس من المبالغة القول إن عدد الكتب التى قرأتها أكثر بكثير من تلك التى استعنت بها فى تقديم رؤيتى النقدية التى أعرف تماما أنها غير كافية ، وأن عملية تزييف التاريخ التى قام بها فليكوفسكى أكبر وأخطر وأهم بالنسبة لنا من أن يتعرض لها فرد واحد ، لكل هذا رأينا انه من المفيد أن ندعو كل من يريد المشاركة، بالرد وتفنيد مزاعم فليكوفسكى لمشاركتنا هذا الجهد ، وهى دعوة مفتوحة للمثقفين والمتخصصين فى كافة فروع المعرفة ، خصصنا لها سلسلة نأمل فى إصدارها تحت عنوان تهويد التاريخ ، لتستقبل هذه الجهود ، كما نفكر فى أنه قد يكون من المناسب تقديم إصدار غير دورى

لنفس الغرض ، يختص بالتاريخ الفرعونى أو تاريخ الشرق القديم ليستقبل الدراسات والمقالات القصيرة التى قد ترد الينا حول هذا الموضوع، وفى النهاية لابد لى أن اعترف ، بأن الوقت الطويل الذى استغرقه عملى فى إعداد هذه الرؤية النقدية كان سببا من الأسباب العديدة التى نتج عنها تأخير النشر .

رضا الطويل

المترجمون

• محمد جلال عباس :

– ولد المترجم فى القاهرة يوم ٧ يونيو عام ١٩٢٩ وتوفى يوم ٤ أبريل ١٩٩٨ وشغل هذه المناصب :

– عضو لجنة تعريب المناهج التعليمية فى السودان .

– رئيس قسم الشئون الإفريقية للجنة العليا للعلاقات الثقافية ١٩٥٨ – ١٩٦١

– الملحق الثقافى بسفارة مصر فى مالى ورئيس البعثة التعليمية هناك ١٩٦١ – ١٩٦٥

– مدير المركز الثقافى العربى فى نيجيريا ١٩٦٩ – ١٩٧٢

– مستشار لجنة مناهج التدريب لمدارس المعلمين فى غرب أفريقيا

– عضو لجنة الجغرافيا والتطبيقات البشرية والتطبيقية بالجامعات النيجيرية .

– أستاذ الجغرافيا ورئيس قسم الآداب والعلوم الاجتماعية بكلية كانو للدراسات العليا – نيجيريا

– عضو فى هيئة تحرير مجلة مستقبل التربية العربية .

– مدير تحرير الطبعة العربية للمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية تصدر عن اليونسكو .

– مدير تحرير الطبعة العربية لمجلة المتحف تصدر عن اليونسكو

بعض المؤلفات :

– الاستعمار المقنع بالاشتراك مع آخرين ١٩٦٠ لجنة الدراسات الافريقية

– قصة كفاح شعب فيتنام ١٩٧٠ دار المعارف
– المد الاسلامى فى أفريقيا ١٩٧٨ دار المختار الإسلامى
– ISLAM & SCIENCE دار المختار الإسلامى

بعض الكتب المترجمة :

– السلالة والمجتمع – الألف كتاب العدد ٦١٥– ١٩٦٧ دار الفكر العربى
– ترجمة لكتاب RACE & SOCIETY تأليف KENNETH L. LITTLE
- المفسرون – روايات الهلال العدد ٤٥٧ ١٩٨٧ دار الهلال ترجمة الرواية التى فاز كاتبها وولى سوينكا بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٦
– الشمس العارية – روايات الهلال العدد ٤٦٩ – ١٩٨٨ دار الهلال – ترجمة كتاب THE NAKED SUN تأليف ISAAC ASIMOV
– مابعد الحياة ١٩٨٩ دار الآداب - ترجمة لكتاب كولن ولسون

المجلات والدوريات والصحف :

له عديد من المقالات المنشورة والمترجمة فى الكثير من الدوريات والصحف المصرية والدولية منها :

– دايوجين
– المتحف
– المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
– مستقبليات
– مستقبل التربية العربية
– عالم التربية
– الكويت

• أحمد عمر شاهين

– من مواليد مدينة يافا سنة ١٩٤٨ انتقل مع أسرته إلى خان يونس فى قطاع غزة ، وهناك أكمل دراسته الإبتدائية والإعدادية والثانوية . ترك كلية الهندسة لظروف مالية قاسية ، وعمل بالتدريس ثم حصل على

الثانوية القسم الأدبى والتحق بجامعة القاهرة وتخرج فيها ١٩٧٠ .
حاصلا على ليسانس الآداب فى اللغة الإنجليزية .

- نشر العديد من المقالات والقصص ومسرحيات الفصل الواحد فى جريدة أخبار فلسطين التى كانت تصدر فى غزة فى الفترة من ١٩٦٣ - ١٩٦٧ ويرأس تحريرها زهير الريس .
- يقيم فى القاهرة منذ ١٩٦٧ .
- استقال من التعليم ليتفرغ للكتابة وينتظر العودة إلى الوطن .
- توفى بالقاهرة فى ٢٠٠١/١٠/١ دون أن يتحقق حلم العودة.

مؤلفاته الإبداعية :

- ونزل القرية غريب - رواية - اتحاد كتاب فلسطين - بيروت ١٩٧٧ .
- وإن طال السفر - رواية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٧٧ .
- زمن اللعنة - رواية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٨٣
- توائم الخوف - رواية - دار الموقف العربى - القاهرة ١٩٨٣
- الاختناق - رواية - دار شهدى - القاهرة ١٩٨٥ .
- الآخرون - رواية - دار العروبة - القاهرة ١٩٨٩ .
- بيت للرجم بيت للصلاة- رواية- دار الثقافة الجديدة- القاهرة ١٩٨٩ .
- المندل - رواية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٩١ ، وط ٢ عن وزارة الثقافة الفلسطينية ١٩٩٧ .
- إيماءات - قصص - دار العروبة - القاهرة ١٩٩٠ .
- حالات - قصص - دار العروبة ١٩٩٢ .
- رجل فى الظل- رواية- الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة ١٩٩٧.
- حمدان طليقا - رواية - دار الحضارة العربية - القاهرة ١٩٩٨ .

كما ترجم القصص التالية :

- أطفال الحصار- بولين كنتج- دار العروبة- القاهرة ١٩٨٩ .
- كيف أصبحت روائيا . أرسكين كالدويل- دار الهلال- القاهرة ١٩٩١ .
- تجربتى فى كتابة الرواية - جراهام جرين - دار الأخبار - القاهرة

. ١٩٩٢

- النهاية - قصص لصمويل بيكيت - دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٣ .
- أيام من حياتى - هرمن هسة - شرقيات - القاهرة ١٩٩٤
- قصص التحول فى الأدب العالمى الحديث - شرقيات - القاهرة ١٩٩٤
- يوميات عبقرى - سلفادور دالى - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٥ .
- الرواية اليوم- مالكوم برادبرى- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ .
- صورة شخصية فى السبعين - سارتر - شرقيات - القاهرة ١٩٩٦ .
- كتابة القصة القصيرة - هالى بيرنت - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٦ .
- الجنس والشباب الذكى - كولن ويلسون - دار الحضارة - القاهرة ١٩٩٦ .
- معجم تفسير الأحلام - توم شتوانيد - شرقيات - القاهرة ١٩٩٦ .
- ساعى البريد يدق الباب مرتين - جيمس كين - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٧ .
- وصل القطار فى موعده - هانيريتش بول - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٧ .
- يوميات لص - جان جنيه - شرقيات - القاهرة ١٩٩٨ .
- مالون يموت- صمويل بيكيت- دار الهلال - القاهرة ١٩٩٩ .
- فن الرواية- ميلان كونديرا - شرقيات- القاهرة ١٩٩٩ .
- قط وفأر- جونتر جراس- دار الهلال - القاهرة ١٩٩٩ .

كما حرر الكتب التالية :

- رمسيس الثانى وعصره - فليكوفسكى تحت النشر .
- تتشابك الجذور (عن الشعر الاسرائيلى المعاصر) مع رضا الطويل - دار شهدى ١٩٨٥ ، ط ٢ دار العروبة ١٩٩٥ .
- معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية (مع فؤاد عباس) - دار الجليل - عمان ١٩٨٩ .

- موسوعة كتاب فلسطين فى القرن العشرين - دار الأهالى - دمشق ١٩٩٢ وط ٢ عن المركز القومى للدراسات والتوثيق - غزة ١٩٩٩ .
- إسعاف النشاشيبى - دار المبتدا - بيروت ١٩٩٢ .
- خليل بيدس رائد القصة القصيرة فى فلسطين - دار المبتدا - بيروت ١٩٩٢ - وغيرها .

• رفعت السيد على

- تاريخ الميلاد ١٤/٩/١٩٤٩
- بكالوريوس الطب من جامعة القاهرة عام ١٩٧٥
- دبلوم الدراسات العليا فى الأنثروبولوجى - جامعة القاهرة - ١٩٩٦.
- كاتب مقال ومترجم.

الأعمال المترجمة :

١- من الخروج إلي الملك إخناتون - إيمانويل فلايكوفسكى - دار سينا ١٩٩٥.

٢- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الأول - كولن ويلسون - جماعة حور الثقافية - ديسمبر ٢٠٠١

٣- الحياة الجنسية فى مصر القديمة -ليز مانيش - جماعة حور الثقافية- ٢٠٠٢.

٤- والت ديزنى - كاترين وريتشارد جرين - جماعة حور الثقافية - مختارات ثقافية ٢٠٠٣.

٥- قزم بين العمالقة - مات رولوف وتريسى سومنر- شرقيات ٢٠٠٢

تحت الطبع :

١- الطريق إلى مكة - محمد أسد - دار التراث - الرياض.

٢-توت عنخ آمون .. مؤامرة الخروج - اندرو كولينز وكريس أوجليفى هيرالد.

٣- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الثانى - كولن ويلسون.



عصور فى فوضى
رؤى نقـديـة
الكتاب الأول

عصور ليست فى فوضى

رضـــا الطـــويل



القسم الأول

فليكوفسكي - لمن يقرع الأجراس؟

١

فليكوفسكى وإخناتون

فى أواخر عام ١٩٦٨ ، أصدرت دار الكاتب العربى ترجمة فاروق فريد لكتاب إيمانويل فليكو فسكى " أوديب وإخناتون " . وأضافت هذه الترجمة اسما جديدا جهلته أو تجاهلته المكتبة العربية ، على الرغم من أهمية وحيوية وخطورة الموضوع الذى يتعرض له ويتناوله فى مؤلفاته ، وبالنسبة لنا كمصريين أولا وكعرب ثانيا - على الأقل ، ذلك لأن الكتاب "أوديب وإخناتون " - جزء مستقل ومتصل فى نفس الوقت بعدة كتب أو أجزاء أخرى تتناول تاريخ مصر الفرعونية الذى يمثل مرحلة رائدة من مراحل الحضارة الإنسانية ، مما يفرض هذه الأهمية على جميع المهتمين بمسار الحضارة والتطور الإنسانى .

ولم يصدر فاروق فريد مترجمه بتقديم يبرز أهمية الكتاب أو يوضح هوية الكاتب ، كما لم يعلن عن الأسباب التى أملت عليه الاهتمام بترجمته .

أما الأسباب ، فقد يكون من الهين التكهن بها على سبيل الترجيح لا التأكيد ، حيث تواكب هذه الترجمة بدايات الأعوام الستة التى أعقبت الأيام الستة ، بكل ما تعنيه تلك الأيام وهذه الأعوام من اتقاد حس الوعى الوطنى والقومى ، ربما كان هذا صحيحا ، وربما كان مرجع الاهتمام بالكتاب مجرد طرافته وصياغته الشيقة مهما بلغت بنا درجة الاعتراض على موضوعه برمته ورفض نتائجه بأكملها .

أما عن الكاتب - إيمانويل فليكو فسكى ، فلا يمكن اعتباره - بأى معيار من المعايير - مؤرخا من طراز هؤلاء المؤرخين المدققين الذين أضاءوا لنا مجاهل التاريخ القديم ، وتعلموا وتعلمنا عليهم عشق المسيرة الإنسانية عبر مراحل التقدم الحضارى والتمدن البشرى ، فقامة

فليكوفسكى فى هذا المضمار من المستحيل أن تضاهى بقامة ول ديورانت السامقة - على سبيل المثال ، فعلى نقيض ديورانت بنظرته الشمولية لتاريخ الحضارات الإنسانية ، واستيعابه لمنجزات الفكر والأدب استيعاب العاشق الفطن لدقائق التطور ، يتقوقع فليكوفسكى فى صدفة قناعاته المقدسة ، فلا يرى من التاريخ إلا ما يتوافق مع الأساطير التوراتية أو بتعبير أدق يرغم التاريخ على الخنوع لسيطرة هذه النزعة المحددة ، وهكذا ، بينما يرى ديورانت فى مقدمة موسوعته التاريخية - قصة الحضارة ، أن البحث فى التاريخ مهمة تبعث السرور فى نفسه ، يعتبرها فليكوفسكى محرضا يستفز أسلحة القتال وكراهية الأغيار وازدراء إنجازاتهم الحضارية أو سلبهم إياها لمصلحة أسباطه اليهودية .وبينما يحدد ديورانت مهمته فى "أن أروى تاريخا للمدنية " أروى فيه أكثر ما يمكن من النبأ فى أقل ما يمكن من الصفحات ، بحيث " أقص فى روايتى ما أدته العبقرية وما أداه دأب العاملين فى ازدياد تراث الإنسانية الثقافى" ما أصاب الإختراع من تقدم ، أنواع النظم الإقتصادية والتجارب فى ألوان الحكم ، ما تعلقت به العقيدة الدينية من آمال ، وما اعتور أخلاق الناس ومواصفاتهم من تغيرات، وما فى الآداب من روائع وما أصاب العلم من رقى ، وما أنتجته الفلسفة من حكمة ، وما أبدعه الفن من آيات ، على عكس هذا الإهتمام الشمولى بديمومة النشاط والإبداع الإنسانى ، لم يستهدف فليكوفسكى احتواء الظاهرة التاريخية فى تعددها وشمولها ، ولم يلزم نفسه بمشقة البحث العلمى ، فتعامل مع التاريخ بأدوات وأساليب التحرى البوليسى ، وهى أساليب توفر عليه مغبة التعرض للظاهرة التاريخية وتعفيه من احتواء هذه الظاهرة وتفهمها ، كما تكمنه من تفتيت الحقيقة التاريخية الموضوعية وإعادة تشكيلها وبنائها بما يتناسب مع أغراضه ، ففليكوفسكى كما سبق القول لايهتم بالتاريخ ولاتسره دراسته ، فما يهتم به حقا ليس تاريخ التمدن الإنسانى ، وإنما تاريخ الأسباط اليهودية ، وهكذا روى أقل ما يمكن من النبأ فى أكثر ما

أمكنه من الصفحات .

ولا يمكن على أى وجه من الوجوه مقارنة نهج فليكوفسكى بالمنهج العلمى الذى التزم به ديورانت ، فى رفضه للطريقة المعتادة فى كتابة التاريخ مجزءا أقساما ينفصل بعضها عن بعض ، حيث يتناول كل قسم ناحية واحدة من نواحى الحياة ، تاريخ اقتصادى ، تاريخ سياسى ، تاريخ دينى ، تاريخ للفلسفة ، تاريخ للأدب ، تاريخ للعلوم ، تاريخ للموسيقى ، وتاريخ للفن ... الخ ، فهذه الطريقة فى نظر ديورانت – وهو على حق – مجحفة بما فى الحياة الإنسانية من وحدة فالتاريخ يجب أن يكتب عن كل هذه الجوانب مجتمعة ، كما يكتب عن كل منها منفردة ، وأن يكتب على نحو تركيبى كما يكتب على نحو تحليلى ، فـ " إن علم تدوين التاريخ فى صورته المثلى لابد أن يهدف فى كل فترة من فترات الزمن إلى تصوير مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة بما فيها من مؤسسات ومغامرات وأساليب عيش».

واذا تناسينا أهداف فليكوفسكى من تناول المادة التاريخية وتطويعها بأساليب التحرى البوليسى واعتبرناه أديبا وليس مؤرخا ، واجهتنا مفارقة أخرى طريفة ، تجعل البون شاسعا بينه وبين أجاثا كريستى ، الروائية العالمية الشهيرة برواياتها البوليسية ، فحين كتبت أجاثا عملها الأدبى وربما الوحيد غير البوليسى عام ١٩٣٧ أثناء إقامتها بمدينة الأقصر ، وهو عن إخناتون وثورته الدينية أيضا ،أثبتت مقدرة فائقة على استيعاب عناصر الظاهرة التاريخية ، وأبدت تفهما كاملا للقوى الأساسية المحركة للتاريخ ، واحتوت ببراعة مقدرات هذه الفترة المضطربة ، معربة عن افتتانها بهذا الفرعون النبيل ، متخلية عن أسلوبها البوليسى المتميز ، تقديرا منها لعدم تناسب هذا الأسلوب مع المادة التاريخية التى تتناولها ، حتى لو كان هذا التناول يتمثل فى دراما أدبية .

ولد إيمانويل فليكوفسكى في تسبك بروسيا فى العاشر من يونيه عام ١٨٩٥ ، وتميز أثناء دراسته فى الروسية والرياضيات، وتخرج عام ١٩١٣

فى جمنازيوم ميدفونكوف حاصلا على الميدالية الذهبية ، ثم سافر إلى أوروبا ودرس كورسا فى الطب بجامعة مونبلييه بفرنسا ، إلى جانب عدة دورات دراسية فى جامعة أدنبرج ، وفى أثناء هذه الفترة زار فلسطين ، وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى عاد إلى روسيا ، والتحق بجامعة موسكو ، وتخرج فى كلية الطب عام ١٩٢١ ، ومن موسكو إلى برلين حيث تزوج إليشيفا كرامر - عازفة الكمان الصغيرة ، وأصدر جريدة " سكربتا يونيفر ستانس " التى حرر الباب العلمى فيها البرت أينشتين ، ثم انتقل ليقيم فى فلسطين من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٣٩ ليمارس التحليل النفسى بعيادته ، ناشرا بعض كتاباته فى مجلة سيجموند فرويد (أماجو) ، التى نشرت الجزء الأول والثانى من دراسة فرويد " موسى والتوحيد " عام ١٩٣٧ . وأحدثت قراءة فليكوفسكى لهذه الدراسة تحولا كاملا فى حياته، فتخلى عن التحليل والطب النفسى ، وكرس نشاطه لهدم شخصية إخناتون إعلاء لشأن موسى كزعيم وقائد لليهود ، ثم من بعد ذلك لإعادة ترتيب أحداث التاريخ المصرى القديم .

هذا عن إيمانويل فليكوفسكى

أما عن الكتاب " أوديب وإخناتون " فلا يزيد أو لا يقل عن أطروفة تثير كوامن الاستياء وهى دراسة تبدو جادة على غير حقيقتها ، برع فليكوفسكى فى إحكام أنساق الإقناع بمهارة الطبيب النفسى المتمكن بحكم مهنته من معرفة أغوار النفس البشرية وآليات السلوك وقواعد الإدراك .

كتب فليكوفسكى" أوديب وإخناتون " متوازيا مع كتاب فرويد "موسى والتوحيد" الذى نشر جزءه الأول عام ١٩٣٧ ثم نشره كاملا بأجزائه الثلاثة فى يونيه ١٩٣٦ .

فبعد قراءة فليكوفسكى فى الجزئين الأول والثانى من " موسى والتوحيد " أصابته الدهشة من التشابه الوثيق بين هذا الفرعون وبين أوديب الاسطورى ، ولا ندرى كما لم يدرى أحد كيف انبثق . هذا

التشابه بين إخناتون وأوديب من ثنايا متن يناقش موسى كتنظير لمرحلة من مراحل الحضارة هى المرحلة الدينية التوحيدية التى أعقبت المرحلة الدينية متعددة الآلهة ، فتناول فرويد لموسى واليهودية كما يرى د. عبدالمنعم الحفنى تناول واقعى مادى وليس تناولا ميتا فيزيقيا ، ومهما كان الأمر فلا يمكن لكتاب هذا شأنه أن يشير من قريب أو بعيد الى أوديب كما ورد فى الأساطير اليونانية ، ولا يوجد أى فرصة لديناميكية هذا التداعى إلا فى أمر واحد فقط ، هو أن فرويد مؤلف موسى والتوحيد هو نفسه عالم النفس صاحب نظرية عقدة أوديب ، تماما كما يذكر فليكوفسكى فى مقدمته " لأوديب وإخناتون"، من سخرية مضمون هذا الكتاب - أوديب وإخناتون - ان كلا منهما كان بطلا لمؤلفات فرويد ولم يدرك فرويد تماثلها الوثيق حتى فى تكوين الشخصية ، إذ رأى فى الأول نموذجا يرمز إلى الزانى الذى يتعذب من جراء بواعث خطيئة يرضخ لها ، وإن كانت هذه البواعث إنسانية إلى حد بعيد ، على حين رأى فى الآخر قديسا " أول الموحدين " سابقا لموسى المشرع .

" أوديب وإخناتون"، لإيمانويل فليكوفسكى كما سبق القول لايزيد ولا يقل عن غيره من الكتب والدراسات العديدة التى كتبت عن هذا الفرعون ، وما أكثرها ، فلا يوجد فى تاريخ مصر قديما وحديثا حاكم حظى بكل هذا الاهتمام ، وخطت الأقلام عنه وحوله كل هذا الكم الهائل من الدراسات والبحوث والمؤلفات ، رفعته بعض هذه الدراسات إلى مصاف الأنبياء وخسف بعضها الآخر به الأرض ، وما أقل ما حظى به من آيات التبجيل والتكريم - القليل ، وما أكثر ما تحمل من صنوف التسفيه والتجريم .

لقد انفجرت كل هذه الادعاءات بعد أن أكد بعض علماء الآثار وعلى رأسهم برستيد ، أن التعبيرات المتشابهة بين أناشيد إخناتون والمزمور ١٠٤ من العهد القديم إنما تدل دلالة واضحة على الاشتقاق بل ان هذا المزمور يكاد أن يكون منقولا من النشيد الكبير وليس من قبيل توارد

الخواطر ، وهذا ما جعل برستيد يذهب إلى أن إخناتون قد " نشر من الأفكار ما تجاوزمفاهيم عصره وارتفع عليها وإن لم يستوعبه الكثيرون ، وقد سبق بذلك الفكر العبرانى بنحو سبعة أو ثمانية قرون " لقد " كان أول الموحدين وأول الأنبياء العالميين فهو أعظم شخصيات الدنيا القديمة " .

ومن ثم انبرت الأقلام وانطلقت الألسن لتسفيه إخناتون والتقليل من شأنه والحط من قدره ، وتبارت الأقوال والأحكام ، وتعددت الدلائل وتفننت البراهين .. أبسطها ما ردده بعض المؤرخين مستعيرين نفس الصفات المكرورة التى أطلقها عليه أعداؤه من فراعنة الأسرة التالية عليه والتى أجهضت دعوته الدينية فوصفوه على غرارهم بالمارق والكافر والزنديق والمجنون العائش فى الضلال والخيال .

ولا ينفى ذلك بالقطع وجود دراسات علمية جادة تناولت إخناتون ودعوته الدينية بموضوعية ، تعالت بجديتها عن تلك التخيلات والشطحات الفارغة ، والتخريجات المغرضة التى وردت فى كثير من البحوث والدراسات التى تناولت إخناتون وعصره كما يذكر د. محمود ماهر طه فى تقديمه لكتاب سيريل الدريد عن إخناتون والذى يضيف مصيبا " لسنا نزعم لإخناتون مكانة النبى أو القديس ولكننا نكره الانسياق وراء الخيال فى دراسة التاريخ مالم توجد الأسانيد المادية التى تثبت صحة النظريات المطروحة " .

ومع تعدد الاتجاهات التى نحت صوب تحقير إخناتون وتسفيه دعوته الدينية ، فمن السهل على البحث أن يصنفها بسهولة فى ثلاثة اتجاهات رئيسية ، الاتجاه الأول يذهب بالبحث نحو تفريغ ديانة آتون من محتواها التوحيدى والروحى ، ومن أمثلة هذا الاتجاه ما كتبه الأستاذ ت.أ. بيت عن طبيعة عبادة القرص الشمسى بالتحديد كما توصل إليها إخناتون ورفضه لكل ما كتب عن هذه الديانة ، واصفا هذه الدراسات بالهراء وإطلاق العنان للخرافة والخيال ، فما من شىء فى مظهر الإله وشكله يبرر الاعتقاد الشائع بأن الإله آتون ليس قرص الشمس المادى ، بل القوة

والطاقة التى تكمن فيه ، ويرى بيت " أنه لم يحدث على الإطلاق أن صور إله مصرى فى شكل مادى خالص مثلما صور هذا الإله ، إذ كان لآلهة الطبيعة نفسها أجساد كالإنسان ، وكلمة آتون ذاتها تؤيد نفس القول ، فهى بكل بساطة كلمة مصرية عامية تعنى قرص الشمس بمعنى مادى بحت ، وإن كان هناك تطوير حقيقى ما فى فكرة إخناتون الجديدة عن إله الشمس كما يتضح من شكله واسمه فقد كان تطويرا يهدف إلى مادية أكثر تطرفا " إلا أن هذه الاتجاهات لا تصمد أمام قراءة نصوص الأناشيد الإخناتونية التى تدحض تماما مثل هذه الدعوات ، وتجعلها مجرد لغو فارغ من أى قيمة فكرية حقيقية ، وعلى قمة هذه النصوص نص النشيد الكبير ، وقد يكون من المناسب أن نقتطف منه بعض المقاطع:

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه
لأنك تعنى به وهو فى الرحم
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس
فى اليوم الذى يولد فيه
تفتح فمه وتمده بكل ما يحتاج إليه
وعندما يصرخ الكتكوت وهو داخل البيضة
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش
وعندما تتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرها
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها
ما أعظم أعمالك التى عملتها
إنها خافية على الناس

أيها الاله الأوحد الذى لاشبيه له
لقد خلقت الدنيا كما شئت
عندما كنت وحدك
الناس والماشية والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه
وكل ما يرتفع فى السماء ويطير بجناحيه
. . . .
فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر
تضع كل شىء فى مكانه
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
ويحصل كل شخص على طعامه وسنوات عمره مقدرة له
يختلف الناس فى لغاتهم
كما يختلفون أيضا فى طبائعهم
ويمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض
لانك أنت الذى يميز أهل الأمم الاجنبية
. . . . .
أنت الذى يعطى الحياة أيضا لكل البلاد الأجنبية البعيدة
لأنك خلقت نيلا فى السماء
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال
مثل أمواج البحر
لتروى حقولهم فى قراهم
ما أجمل أعمالك يارب الأبدية
. . . .
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك
وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم
إنك أنت الحياة بعينها

ويعيش الانسان فقط إذا أردت

" عن د . أحمد فخرى - مصر الفرعونية " .

وبلا أدنى ريب ، فإن هذه المفاهيم والتصورات الدينية التى تستشف من النصوص الإخناتونية ، تجعل من مثل هذه الدراسات التى تحط من قدر عقيدته مجرد تجنى فكرى محض ، لايقوم على أى أسانيد علمية ، ولا يصمد على الاطلاق أمام شرط الموضوعية ، وعقلانية البحث المنزه عن الأغراض . فهل من الممكن أن يعتد أمام هذه المفاهيم برأى الأثرى الشهير جلانفيل الذى يذهب إلى أن إخناتون ملكا لا يستحق سوى اللوم والتأنيب ؟ أو هل من الممكن أن نأخذ بجدية النتائج التى ينتهى إليها جاردنر ، عالم المصريات الذائع الصيت حين يصم إخناتون بالتعصب وبلبلة الفكر ؟ أليس من التجنى أن يتخذه جاردنر نموذجا للمصابين بالهوس الدينى ؟ هل من الممكن حقا أن يعتد علميا وتاريخيا بمثل هذه الأفكار ؟ ثم ألا يدفعنا كل هذا التشويه المقصود ، والتأويل المتحامل السخيف إلى التساؤل عن الأسباب التى أثارت حفيظة كل هؤلاء المؤرخين ضد إخناتون، وضد الإنجاز الحضارى المصرى القديم .

ولقد نحت بعض الدراسات نحوا آخر ، ربما لأنها تبينت مدى الصعوبة فى تقويض مفاهيم إخناتون التوحيدية ، ولكنها - أيضا - فى هذا الاتجاه الثانى بدت أكثر سخفا ، وأتم ضعفا من الاتجاه الأول ، الذى حاول التمسح بمسوح العلم ، والبحث التاريخى ، ففى هذا الاتجاه ، لم تلتفت الدراسات للنصوص الإخناتونية ، وأهملت الآثار التاريخية وانهالت بمعاول الهدم على شخص إخناتون كإنسان ، وتفننت الدراسات فى وصف ضعفه الجسمانى وتشخيص علله وأمراضه ، للحط من قدره ، والزراية به على أى نحو كان ، وكأنما للعيوب الجسمانية - إن صدقت - أثرها نحو جلال الأفكار وعظمة العقائد ، كما أرادت أن تؤكد ، وهو الاتجاه الذى لايختلف فى سفهه عن مباذل التفكير السوقى ، فلقد تدنت

الآراء إلى أحط درجات التفكير ، بما لايمكن أن يعد منهجا جادا يتبنى أبسط قواعد الوعى التاريخى . ولا يمكن هنا أن نميز بين عالم الآثار أو المؤرخ وبين رجل الشارع الذى لم يواته الحظ لنيل أدنى درجات التعليم، وهكذا لم ير "ماريبت " فى إخناتون ما يشين ،غير التشكيك فى رجولته ! ، فإخناتون رجل حقا ، إلا أنه كان خصيا من أسرى إحدى الحملات على السودان .

أما الباحث الفرنسى ليفيبور ، فلقد حاول أن ينصف إخناتون باعتباره أنثى متنكرة ومتشبهة بالرجال ، على غرار اغتصاب حتشبسوت للعرش وتصويرها نفسها فى هيئات الرجال وأشكالهم حتى أن بعض النقوش أبرزتها ذات لحية مستعارة .

وتفوق الدريد على كل هؤلاء المؤرخين بجدارة لايحسد عليها، ففى مؤلفه عن إخناتون بذ الجميع فى انحطاطهم الفكرى ، حين أبدى حيرته من تصوير إخناتون فى تمثال من تماثيله بدون أعضاء التذكير مما يتعارض تماما مع ما كان يوصف به إخناتون من فحولة ،وبالرغم من تمجيد قدراته الجنسية الخارقة كما يتضح من أحد القابه " الثور القوى " ويرفض الدريد الدراسات التى تعرضت بالتحليل لهذا المنحى فى تصوير إخناتون ، وتعليلها ذلك بالفكرة الدينية التى تصف آتون بأنه الأب والأم ، وأن هذا الاتجاه تجسيد لفكرة ازدواجية الجنس ، وارتقاء بالإبن لمصاف الأب الخالق ، ويصر الدريد على فكرته الغريبة التى لاتقدم ولاتؤخر، فى مطالبة الفن الفرعونى بالتنازل عن قواعده وتقاليده فى تصوير الملوك ، وكأنما صور الفنان الفرعونى من قبل فحولة خوفو ، أو رجولة تحتمس أو أبرز من بعد هوس رمسيس الثانى الجنسى ، وإذا جال بذهن أحد أن يحتج بإنجازات الثورة الفنية التى أحدثتها نزعة مطابقة الطبيعة فى عهد إخناتون ، فإن " أرنولد هاوزر " فى كتابة القيم " الفن والمجتمع عبر التاريخ يقدم إلينا إجابة يعتد بها ، فالنمطية التى احتلت مكان الصدارة فى تاريخ الفن الفرعونى ، تعبر عن سيادة نوع أعلى فوق الفردى من

النظم الاجتماعية ، وعن عالم يدين بعظمته وروعته لفضل الملك ، وبالتالى هى نزعة محافظة تناقض الروح الفردية ، وكل القواعد السلوكية المتبعة تتخذ فى الفن طابع آداب الأصول واللياقة ، وآداب اللياقة هى أعلى قانون وتحكم فى تصوير الملك بصورة نمطية أو تمثيلية خالصة ، اختفت منها الخصائص الفردية ، ولا ينكر أحد أن فنانى إخناتون تغلبوا على الإسلوب الأكاديمى الجامد مسايرين صراع إخناتون ضد التقاليد الحرفية العظيمة فى الدين ، وبفضله حلت محل النزعة الشكلية السكونية السائدة فى المملكة الوسطى نظرة أخرى ذات طبيعة ديناميـة فى مجالى الدين والفن، وحقا حاول الفن تصوير الحياة الروحية الفردية الباطنة ، بتقديم صور شخصية تحمل معانى التوتر العقلى ، والحساسية المرهفة الحيوية ، وحقا ظهرت البوادر الأولى لاستخدام التطور فى الرسم ، والاهتمام الأعظم بالمناظر الطبيعية ، والميل إلى تصوير أحداث الحياة اليومية ، إلا أن الفن - كما يؤكد هاوزر - ظل على الرغم من كل التجديدات فنا ملوكيا ، شعائريا - رسميا . تقليديا ، فالفن وإن أبرز أمنحتب الرابع وسط أسرته فى مواقف من الحياة اليومية ، تسودها روح إنسانية عميقة ، فلقد احتفظ للملك بالمسطحات قائمة الزوايا ، وباستدارة مساحة صدره بأكملها نحو المشاهد ، كما بلغ حجمه ضعف حجم الناس العاديين ، ومن ثم ظلت الصورة نتاجا لفن خاص بالسادة تستهدف التأكيد على هيبة الملك ، وتخليد ذكراه ، وبمعنى أوضح ظل تصوير الملك خاضعا لقواعد اللياقة الكلاسيكية الخاصة بالبلاط . أى بالقواعد الشعائرية التى تصور الملك كما يجب أن يكون فى صورته النمطية ، وعليه فإنه من العبث أن نبحث فى صورة الملك عن سمات أو خصائص فردية دون توخى الكثير من الحذر .

وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع هاورز فإن الدريد لم يهتم بالبحث عن إجابة لتساؤلاته فى تاريخ الفن ، ولم يكترث بالمبادىء التى تحكم تطوره ، فدافعه للبحث ليس التوصل إلى الحقيقة وإنما الإصرار على الزراية

بشخص إخناتون وتحقير عقيدته . ويسهب الدريد للتأكيد على ضآلة إخناتون مستعرضا تشخيص بعض الأطباء وبعض علماء الباثولوجيا (علم الأمراض) للتشوهات الجثمانية التى تظهرها بعض التصاوير ، واكتفى الأطباء المتحازون هنا بالكشف الطبى على التماثيل ، فجثمان إخناتون لم يتم العثور عليه إلى الآن ، وانتهى الأطباء من فحوصهم بأن هذه التشوهات ما هى إلا أعراض اضطراب فى الغدد الصماء ، بل على الأرجح هى نتيجة عجز فى أداء الغدة النخامية بالذات ، وأن الظواهر الجثمانية التى تبدو على المريض - إخناتون هى نتيجة لمرض من الأمراض المعروفة للأطباء والباثولوجيين باسم " متزامنة فرهليش " ، حيث تتزامن عدة أعراض ، فيصاب الذكور بحالة من الترهل شبيهة بما يبدو على إخناتون ، وفى نفس الوقت تضمر الأعضاء التناسلية ، وقد يغطيها الشحم فيخفيها ، ويتوزع الشحم فى الجسم بدرجات متفاوتة ، ويتراكم نوع من الشحوم الأنثوية فى منطقة النهدين ، والبطن ، والعانة ، والفخذين ، والردفين ، وتميل الأطراف السفلى للاستدارة ، وتصبح الأرجل عريضة وقصيرة ، وفى مراحل المرض المبكرة قد يحدث نشاط انفلاتى للغدة النخامية قد تتسبب فى اضطرابات الجمجمة على نحو غير طبيعى للفكين ، ويتبع ذلك تقلص فى نشاط الغدة يليه ضعف فى النشاط الجنسى ، ويضيف الأطباء أن ضمور الغدة أمر نادر الوقوع قبل سن البلوغ ، فبدايات الاضطرابات تتزامن عادة مع البلوغ ، وفى الحالات المتأخرة للمرض يحدث تضخم فى الثديين والبطن والردفين والفخذين وأحيانا يصاحب ذلك استسقاء الرأس ، ولقد وجد الدريد فى تشخيص الأطباء والعلماء البراهين الكافية التى تجيب على أسئلته الملحة حول فحولة إخناتون " الثور القوى " أو عجزه الجنسى ، ففى بداية حكم إخناتون أظهرته التماثيل فى صورة الملك المثالى ، طبيعى التكوين، إذ إنه فى أوائل سن الرجولة لم تكن الأعراض الخارجية لاضطرابات الغدة النخامية قد تفاقمت بعد ، وهى الفترة التى وفقت بينه وبين زوجته الجميلة

جنسيا ، وسجلت اسمه فى لوحات الشرف للرجال الفحول ، ثم فعلت متزامنة فرهليش فعلها ، التى من شأنها أن تسبب للمريض فى النهاية العقم والعجز الجنسى ، وهذا ما حدث ، وما أظهره فن النحت بعد ذلك ٠

والحق يقال ،إن هذا الاتجاه لم يرض ضمائر بعض المؤرخين الآخرين ولم يقتنعوا بالعلاقة التى حاول أصحاب الاتجاه السابق عقدها بين ضعف إخناتون الجثمانى وعدم قدرته على مضاجعة زوجته الحسناء ، وبين قدرته على تأسيس عقيدة التوحيد ، وانتهى الأمر بهؤلاء المؤرخين لتبرئة إخناتون من وصمة الضعف الجثمانى والوهن الجنسى ، فاحتفظوا له بقواه الجنسية ، حتى يتمكنوا من إخضاعه لنزوات التشوه الأخلاقى ، وبذ المؤرخون هنا قرناءهم السذج ، وتباروا فى تلطيخ وتسفيه إخناتون ملصقين به صنوف التشويه الأخلاقى ، فنعت بكل الصفات الأخلاقية الذميمة ، إلى حد التأكيد الذى لايقبل الشك فى أنه لاط بأخيه الأصغر "سمنخح كارع" الذى خلفه فى الحكم ، فالباحثون المحترفون كما يذكر شفيق مقار فى دراسته القيمة " السحر فى التوراة والعهد القديم " وقد رفضوا الأخذ بالحقائق الموثقة توثيقا لاسبيل إلى دحضه ، وجهوا طاقاتهم القصوى لاختلاق هذه النظريات ، ومنهم من أكد لنا إلمامه بخبايا العلاقة الحميمة التى تجمع بين إخناتون وزوجه نفرتيتى الجميلة فى فراش الزوجية ، وأسهبوا فى رسم صورة لإخناتون مبهمة وغائمة ، أسقطوا عليها انفعالاتهم العاطفية لتشويه حقيقته التاريخية ، والهدف المشترك الأعظم لكل هذه الضروب والمذاهب والاتجاهات من الآراء والتفسيرات المتضاربة فيما بينها ، هو الإصرار على إقناعنا بأن إخناتون كان أبعد ما يكون عن الفكر العقلانى الجاد الذى يمكن تقبله علميا ، ومن الواضح أن هذا التسفيه لإخناتون – كما يستمر شفيق مقار فى تأكيداته – إنما يستهدف إنجازه الفكرى والدينى الذى يعد ذروة لتيار الوحدانية الضارب بجذوره فى أعماق أقدم عصور الديانة المصرية ، بغرض واحد يتمثل فى

رغبـة لا مـعـقـولة فى طمس جـدية الدليل الذى لا يدحض على أن الفكر الدينى التوحـيدى كما جسدته عبادة آتون ، هو النبع الحقيقى الأصيل الذى اغترف منه موسى مفهومه التوحيدى وشعائره وطقوسه .

فى ضوء كل هذه الآراء ، لايمكن أن يعد كتاب فليكوفسكى نتاجا فكريا مختلفا فى سياقه أو مضمونه أو نتائجه عن كل هذه النظريات ، كما لايختلف عنها فى مراميه وأهدافه ، وهو ما قد يثير تساؤل البعض عن أهميته والقول بأنه يعد إضافة جديدة للمكتبة العربية ، أو لماذا يفرض علينا الآن حتمية وضرورة تفنيد كل هذه النظريات دفاعا عن موروثنا الحضارى ، والإجابة سهلة ويسيرة ، **ففليكوفسكى الذى استفزه فرويد بدراسته " موسى والتوحيد " عام ١٩٣٧ ، والذى كرس جهده بعد ذلك للرد عليه ، لم يتوقف مثل غيره عند هذه الحدود التى تصم إخناتون بكل نقيصة ، وبداية من العام ١٩٤٠ توقف عن مواصلة الزراية بإخناتون مؤقتا ليكرس حياته منذ ذلك الحين لإعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، مختلقا تاريخا موغلا فى القدم ، والعراقة لبنى جلدته ، كما يهبهم من لدنه حضارة لم يشيدوا أركانها فى يوم من الأيام ، مما يعد معه فليكوفسكى مؤسسا ورائدا لتيار نظرى يستهدف توظيف التاريخ المصرى القديم لتحقيق عدة مآرب خاصة كما سيرد عند تناول أعماله الأخرى ، وليس أدل على أهمية هذا التيار الذى اتبعه فليكوفسكى من أنه لم يتوقف بعد وفاته ، ومازال حتى الآن مستمرا على أيدى تلامذته ومعاونيه وأشياعه وغيرهم ممن يريدون تحقيق وإرساء الأغراض والأهداف التى عقد النية على تحقيقها ، وهى بطبيعة الحال ليست أهدافا خاصة أو ذاتية . وإلا لما أصبح لهذا التيار مجلته التى تواصل إستكمال مشواره الفكرى . والمسماة باسمه " الفليكوفسكية" والتى تصدر بصفة منتظمة ربع سنوية اعتبارا من العام ١٩٩٣ م.**

والفكرة المحورية لأوديب وإخناتون فليكوفسكى هى نفس الفكرة التى طرحها من قبل "كارل إبراهام " وهو طبيب نفسى أيضا ، ففى مقال عن إخناتون نشره عام ١٩١٢ بالعدد الأول من مجلة " ايماجو" التى أصدرها سيجموند فرويد ، اكتشف إبراهام فى هذا الفرعون شعورا عدائيا تجاه أبيه ، يقابله ارتباط قوى بأمه ، وفى ضوء ذلك يعتبر كارل إبراهام أن إصلاحه الدينى لم يكن غير ترجمة لشعور مرضى مكبوت ، تجلى فى ثورته ضد أبيه ، أو بمعنى أوضح ضد ذكرى أبيه ، فأزال اسم أبيه عن كل ما وجده أمامه من نقوش ، كما أزال اسم الإله آمون ، أينما وجده ، وتحول إلى عبادة آتون ، وعلى نقيض الاعتقاد السائد بأن إزالته لإسم الاله آمون هى من قبيل التحمس الدينى ، فإن إبراهام يرى ان اسم آمون كان كريها على نفس الملك الشاب ، إذ يدخل ضمن تكوين اسم أبيه أمنحوتب الثالث ، ولهذا أزال اسم آمون واسم أبيه من كل النقوش والآثار، ووضحت لدى إبراهام كراهية الابن الدفينة لأبيه ، فى حركة التطهير التى بدأها بتغيير اسمه من أمنحوتب إلى إخناتون، لقد وجه كراهيته اللا شعورية العنيفة ضد أبيه الذى ما كان بإمكانه الوصول إليه وهو فى عداد الأموات ، ولم يكن بإمكانه التنفيث عن مشاعر الكراهية والمقت إلا بازالة ذكرى والده وإزالة اسمه ، فعند إزالة اسم شخص متوفى ، يكون مصير روحه (كا) الزوال أيضا فى العالم الآخر ، وعندما ماتت الملكة " تى " أم إخناتون ، لم يدفنها بجوار زوجها ، فلقد امتدت منافسته لأبيه حول امتلاك أمه إلى ما بعد الممات ولم يحاول إبراهام أن يرى فى توحيد اخناتون الدينى سوى ذروة الكراهية - كما يتصور - فقد عبد الشمس بدلا من أبيه ، والشمس هى مصدر الضوء الوحيد فى سماء النهار ، فجعل من آتن الإله الوحيد، عندما أراد أن يرتبط ارتباطا واضحا بأب له.

ويوضح فليكوفسكى أن كارل إبراهام اكتشف فى إخناتون إحساس أوديب ودوافعه ، وأن هذه الدوافع لم تكن سوى دوافع خفية إلا أن

إبراهام لم يدرك أن إخناتون لايعانى من عقدة أوديب فحسب ، بل إنه هو النموذج التاريخى الأصلى لاوديب نفسه ، فإخناتون لم يشته أمه فحسب، كما يحدث لبعض المرضى ، بل استحوذ عليها بالفعل ، وقضى وطره منها وهكذا حول فليكوفسكى تحليل إبراهام إلى واقع تاريخى ، وتحول إخناتون من ثائر دينى يدعو للتوحيد إلى مجرم عتيد ، قتل أباه ليزنى بأمه، وعندما استنكر كهنة آمون سلوكه المشين، أعلن الثورة عليهم وعلى ديانة آمون برمتها ٠

ومن الطبيعى حين يحاول فليكوفسكى ان يجعل من إخناتون الأصل التاريخى لأوديب ، فلابد ان يعزل أوديب عن وسطه الثقافى والتاريخى ، وليس له من سبيل إلى ذلك إلا بحرمان أوديب من جنسيته وهويته الإغريقية ، ولن يتأتى له ذلك إلا بالتشكيك فى تاريخ اليونان ذاته ومنجزاتها الحضارية ، وهذا ما ذهب إليه تماما ، فأقدم الإشارات لأسطورة أوديب ترد فى أوديسة هوميروس ، " ويحتمل أن تكون هذه الملحمة قد دونت فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، وطبقا للتقويم الأسطورى حدثت حرب القادة السبعة ضد طيبة قبل نشوب حرب طروادة بعشرين عاما ، وقبل سقوط هذه المدينة بثلاثين عاما ، وتحدد زمن حرب السلالة ضد طيبة بعشرة أعوام، أو أربعة عشر عاما بعد حرب القادة السبعة ضد طيبة، وهى بذلك تأتى قبل قيام حملة أجاممنون ببضع سنين"، ويعتبر علماء كثيرون أن قصة أوديب من " مخلفات حرب تاريخية شنها ائتلاف من أمراء أرجوس ضد طيبة " ، و" لكن تاريخية حرب طروادة ذاتها أمر مشكوك فيه " ، بل وغالبا ما كان أبطال الملاحم الهوميرية " يشخصون بوصفهم شخصيات أسطورية ٠ ومن ثم ، أصبح من اليسير على فليكوفيسكى أن يبحث عن جذور قصة أوديب بعيدا عن موطنه – اليونان – ، وأن يوطنه كما يهوى فى أرض مصر بالذات ، وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة تحديدا ، وفى الزمن التالى لفترة حكم أمنحوتب الثالث على وجه الدقة ، وأن ينصبه ملكا ويكلله بالتاج المزدوج

فرعونا لمصر .

فأبو هول طيبة ، و"السفينكس" التى ظهرت فى إقليم بيوتيا لم يكن ضيفا وفد من أرض النيل فحسب ، بل كان على نحو أدق صورة ظهرت فى طيبة المصرية لأول مرة أثناء حكم الملكة (تى) زوجة أمنحوتب الثالث وأم أخناتون ، ويواصل فليكوفيسكى سلسلة مقارناته راسما صورة لأوديب تطابق السمات الشخصية لإخناتون ، أو العكس ، طبقا للقاعدة الروائية التى أسس حولها منهجية دراسته ،" بينما يلقى التاريخ الضوء على الأسطورة القديمة ، تفسر الأسطورة بدورها التاريخ " .ولقد مكنت هذه القاعدة المغلوطة فليكوفسكى من التحلل من الواقع التاريخى ، بحقائقه الدامغة ، وحررته شطحاته من الالتزام بأبسط قواعد المنطق والموضوعية ، بمحو الحدود الفاصلة بين التاريخ والأسطورة ، بين الواقع والخيال ، ولم ينتبه فليكو فسكى للتناقض الذى سقط فيه دون أن يدرى ، فهو إذ يرتفع بالأسطورة إلى مصاف الحقيقة الواقعة فى أثناء تناوله للتاريخ المصرى ، بحيث أصبحت الأسطورة تعادل التاريخ وتساويه ، فإنه قد سبق ورفض نفس المبدأ بالنسبة للتاريخ اليونانى .

والحق أن فليكوفيسكى قد طبق هذه القاعدة بذكاء وحرص شديدين ، فهو يكتفى بالتشكيك فى الحقائق المؤكدة ، ولا يحسم بالبحث مشاكل التاريخ . ولا يصل بالدراسة لنتائج واضحة ومحددة، فهو يدرك أكثر من أى أحد آخر أن معطيات الواقع التاريخى لن تسعفه ، وحين يزاوج بين الحقائق والخيال يعتمد على حنكة ومهارة الطبيب النفسى ، فيترك للتشكيك فى الوقائع الفرصة كاملة لخلخلة النتائج اليقينية الثابتة ، وإثارة الهواجس باتجاه استنتاج حقائق بديلة مغلوطة وغامضة ، ولكنها بتراكمها المتتالى تستمد مصداقيتها من هذا التوالى وحده ، وتتسق فى النهاية فى بناء الإقناع الذى لايعتمد على تأكيدات الباحث بقدر ما يعتمد على ما يمكن لمخيلة القارىء أن تستنتجه ، فإذا كان لايوس على سبيل المثال قد قتل على يد ابنه أوديب فى الأسطورة اليونانية ، ففليكوفسكى

لايصرح مباشرة بأن إخناتون قتل أمنحوتب الثالث ، وإنما يكتفى بالصياغات إلتى تثير الريبة والشك ، الى أن يصل القارىء إلى نفس النتيجة ، فيكتفى فليكوفسكى بالتلميح " لم يصلنا تقرير عن آخر صيد قام به أمنحوتب الثالث .. ويدعى التاريخ أنه لايعلم .. هل هذا الملك قد مات ميتة طبيعية ، أو كان ضحية لمؤامرة نسجت فى القصر أو أنه فشل فى العودة حيا من إحدى رحلات الصيد ، لقد كانت نهاية مفاجئة كما لوكان الستار قد أسدل فجأة على طيبة " ، ففليكوفسكى لم يلزم نفسه بتفنيد هذه الواقعة تاريخيا ، فهو يعرف تماما أنه لايوجد سند تاريخى واحد من الممكن أن يستند إليه ، ومن ثم يلقى بشبهاته تلميحا ، ويترك للأسطورة اليونانية فرصة تقديم الإدانة ، والبرهنة على وقوع الجريمة ، فكما كان أوديب غريبا على أرض بيوتيا ، كان إخناتون غريبا فى طيبة على أرض مصر ، فقد أمضى طفولته وصباه بعيدا عن الوجهين ، إما فى سورية ، وإما فى غيرها ، متنقلا بين بلد وأخر ، وفجأة بعد موت الملك الصياد المريب ، وبعد تقلد الملكة تى مقاليد الحكم وبعد أن تحتل مركزها كرئيسة للدولة لبضعة شهور أو أسابيع، يظهر ابنها على مسرح الأحداث ويتسلم مقاليد الأمور ويحتل العرش ، حتى ساد الاعتقاد بأنه قد اغتصب الحكم".

ويعود فليكوفسكى ليكرر نفس المعنى ، مرة ومرة ومرات ، وبراعة الطبيب النفسى ، الذى يدرك تماما أن القاعدة السلوكية أو الفكرية لن تكتسب صفة الاستقرار والدوام إلا بالتكرار المتوالى ، ولقد حافظت الصياغة دون ملل على هذا المبدأ الاساسى فتكرر وتعود من جديد لتكرر " إذا قارنا هذه الظروف بظروف أسطورة أوديب وجدنا أن إخناتون قد أمضى طفولته وصباه بعيدا عن البلاد مثله مثل أوديب تماما ، وعندما مات أبوه تولت تى أمه هذا الحكم بمفردها ، مثلما فعلت جوكستا عندما مات زوجها لايوس ، ثم تربع إخناتون على العرش بعد مرور فترة قصيرة وهو جاهل بالأحوال التى كانت عليها الدولة فى أثناء حكم أبيه ، غير أنه

يعلم علم اليقين أن تى أم له وأن الملك الراحل أبوه ، ولا نستطيع أن نفهم سبب الزج بالجملة الأخيرة فى البيان السابق عليها إلا اذا وضعنا فى الاعتبار أسطورة أوديب الذى قتل أباه وتزوج أمه وهو يجهل علاقته بهما كل الجهل ، ففليكوفسكى هنا يعرض بإخناتون الذى كان يعلم علم اليقين بعلاقته بالملك القتيل وبالملكة التى تولت الحكم ، وهذا التعريض بإخناتون يشير فى نفس الوقت بإشارة قوية فى إيحائها الضمنى للجريمة المزدوجة التى ارتكبها الابن الآثم . وهى الجريمة كاملة الأركان ، القصد العمد والفعل المشين .

على هذا المنوال نفسه استمر فليكوفسكى ينفث حقائقه المزيفة ، لايمنعه حياء علمى ، ولاتحد من شطحاته موضوعية ، فإذا كان لايوس (والد أوديب) قد اعتدى على فرسيبوس واغتصبه ، مما دفع الصبى للإنتحار، مما آثار سخط الآلهة على لايوس فحقت عليه اللعنة وعلى أسرته من بعده ، فقصة ما ارتكبه لايوس من فعل شنيع ، تبدو غريبة على أرض اليونان ، التى لاتستنكف اللواط ، وكدأبه دائما يضيف فليكوفسكى " أن أمنحوتب الثالث هو الفرعون الوحيد الذى يسمح لنفسه بأن يرسم وهو يرتدى ملابس أمرأة ! ، لقد انغمس فيما سمى فيما بعد ذلك بالعشق الإغريقى" . ولا نعرف بالإضافة إلى ما قدمناه من قبل من تحليل ، من أى المصادر الموثقة قد أتى بهذه الحقيقة الأخيرة .

واذا كان فليكوفسكى قد اعتمد على حرفية العالم النفسى فى الإقناع، فلقد اعتمد أيضا على المنهج النفسى فى التحليل التاريخى ، مركزا على أهمية الدوافع الأولية والغرائز فى مسار التاريخ ، فعداء إخناتون لكهنة آمون يرجع فى نظره لنقمته عليهم ، حيث تسببت نبوءتهم فى تشرده وغربته - صبيا - عن وطنه ، وهوانه فى البلاد الأجنبية ،" ذلك لأنه من المؤكد ان أمنحوتب الثالث قد استشار نبوءة آمون فى أمور الخلافة ، بل ويحتمل أيضا أنه قد فعل ذلك قبل أن يولد ابنه ، ولا بد أن تربية إخناتون، وظروف نشأته بعيدا عن طيبة وعن مصر ، قد ترتبت على مانطقت به

النبوءة ، وإلا فما الداعى إلى تربية ابن ملكى سيرث التاج عن أرضه ، وفى قطر غريب ، لقد كانت نبوءة ذات نزعة تشاؤمية ، اقتضت إلقاء الطفل بعيدا بهدف القضاء عليه .. وعندما نجمع تلك الاحداث التى أحاطت بإخناتون فى باكورة حياته ، قد نفهم بصورة أوضح عداءه لكهنة آمون ولآمون نفسه ، كما نفهم الدافع الرئيسى لما قام به من إصلاح دينى فى المستقبل " ولا يسأل أحد عن الأسانيد التاريخية لكل هذه التصورات ، ففليكوفسكى لن يشغل باله بأدنى درجة من درجات التدقيق العلمى ، وهو المشغول بيقينه التلمودى " إن هذه الحذلقات الدينية التى يخرج بها العلماء المحدثون ، ثم يعزونها الى المصريين القدماء ، ويرون فى هذا التغيير إصلاحا دينيا رائعا ، هذه الحذلقات ليست بالحجج المقنعة " ، ومن الواجب هنا أن نتساءل ليست مقنعة لمن ؟ .

ويواصل فليكو فسكى بحثه بإصرار ،عن سبل المقارنة بين أوديب وإخناتون ، ويستميت للتوصل إلى تشابه متطابق تمام المطابقة بين الأسطورة والتاريخ ، من أوديب وإخناتون ، وهو فى بحثه لن يتورع عن تأويل التاريخ كما سلف القول الى أن يستحيل التشابه فيتحول إلى تأويل الأسطورة ، فإذا كانت الأسطورة تصور قدمى أوديب متورمتين ، على حين تظهر الصور فخذى اخناتون هما المتورمتان ، ففى الأدب الشعبى قد تحل القدمان محل الساقين ، كما أن لغات كثيرة تفتقر إلى غنى المفردات التى تميز بين القدم والساق ، ويتعجب" بعض دارسى الأدب القديم للقسوة الزائدة التى لحقت بالطفل المنبوذ ألا وهى خرق قدميه ، ويفسر البعض هذا الإجراء بأنه يهدف إلى منع روح الطفل من الضياع بعد مماته ، الا أن لفيفا من العلماء الحاذقين أفصحوا "عن اعتقادهم بأن خرق القدمين قصة دخيلة أضيفت فيما بعد ولم تكن ضمن فقرات الأسطورة الأصلية " ، ويستمر فليكوفسكى فى دراسته حسب ما تمليه عليه أهواؤه ، فى خلخلة بنيان الحقائق التاريخية بإلقاء ظلال الشكوك والشبهات على نصاعة الواقع ، ومن نتيجة غير مؤكدة تترتب عليها نتيجة أخرى لم تثبت

صـحـتـهـا يسـتكمل تصـوره المغلوط للتـاريخ ، وفى هذا البناء العنكبوتى يفتـرس وهم الخيـال الحقـائق المؤكدة ، ويحـار العـقل الناضج فى التـغلب على هـذه الشـبكة الواهيـة التى تكبل التـفكيـر، فيـسـتـحيل التـحرر من المغالطات ، كما يسـتحيل تفنيد النتائج ، أمنحوتب الثـالث يمثل الأصل التـاريخى للايوس الإغـريقى ، يقتله أمنحـوتب الرابـع - إخنـاتون - الذى يتميز بتضـخم أطرافه السفلى ، ويعود إلى أرض وطنه ، ومملكته ، التى تحكمـهـا الملكة الأرملة تى التى هى أيضـا الأصل التـاريخى لجـوكسـتـا ، فيمحو اسم أبيه ويشوه لوحاته وآثاره ، ثم يعيش حياة زوجية مع أمه ، وينجـب منها أطفالا ، وتحل على المملكة كوارث متتالية ، يرجع الجميع أسبابها الى آثام الملك فيضطر أمام ثورة الشعب للفضيلة ، للتنازل عن العرش اضطرارا ، بعد حكم استغرق ستة عشر عـاما ، وتتوالى عليه المصائب ، فـيفقد بصره ، ويسـجن ، ثم يتم نفيه ، وفى كل هذه المراحل يبرز الدور الذى قـام به أخـو الملكة بداية من ثورة القـصـر ، ثم الاتفـاق الذى بموجـبه يحكم ولدا الملك الزنيم بالتناوب ، ثم رفض الأخ الأصـغـر (تون عنخ آمون) ، إخلاء العرش لأخيه عندما يحين دوره ، والتـأييد الذى يعضد الأمير المتربع على العرش من جانب نفس القريب - كريون فى الأسطورة وآى فى التـاريخ - ثم نشوب الحرب بين الأخوين الصـغيرين ، وموتهما فى معركة حول أسوار طيبة المحاصرة ، وتحريم الحاكم دفن الأمير المطالب بالعرش ، دفنا يليق به ، وأبهة الطقوس الجنائزية التى تقام فى مقبرة الأمير الآخر ، وبعدها تقوم الأخت التقية سرا بدفن القـتيل المنافس ، بالرغم من أوامر الحاكم ، فيأمر بسجنها فى كهف عقابا لما أظهرته من عطف ومحبة تخـالف قرار الحـاكم ، إلى أن يئول التـاج إلى الحـاكم العجـوز فى نهاية الأمر ، وهو نفس القريب كريون - الذى رسم هذه الخطة بالكامل ونفـذها طوال هـذه المراحل ليـصل الى هذه الغـاية وهكذا كما فى تصور فليكوفسكى ، وكما يؤكد ، نجد كل هذه العناصر متماثلة فى المسرحيات اليونانية التى تتناول أحداث طيبة ذات الأبواب

السبعة التى فى " بيوتيا " ببلاد اليونان ، وفى أحداث التاريخ المصرى التى تسرد ماحدث فى طيبة ذات المائة باب على ضفاف النيل ، ولسنا أمام عنصر واحد مماثل فقط ، بل نجد أن المأساة الكاملة لثلاثة أجيال متوالية قد حدثت فى طيبة بأرض مصر ، وتجسمت فى ثلاثية طيبة التى كتبها الشعراء اليونان (أوديب ملكا - أوديب فى كولونا - أنتيجونا - السبعة ضد طيبة) .

ولا ندرى كيف غاب عن فطنة فليكوفسكى ، وهو الذى مارس النقد الأدبى فترة ليست بالقصيرة من حياته أن يدرك آثار المبالغة فى تأكيد التطابق الكامل بين الروائع المسرحية اليونانية بأحداثها وشخصياتها وبين وقائع التاريخ المصرى بشخصياته وأحداثه فالنتائج التى سوف ينتهى بها هذا التطابق لابد أن تفقد مصداقيتها ، إلا إذا اعتبرنا أن سوفكليس وإسخاليوس مؤرخين تقصيا بالدراسة والبحث دقائق تاريخ نهايات الأسرة الثامنة عشرة وبدايات الأسرة التاسعة عشرة ، وهو أمر لايمكن لفليكوفسكى أو غيره أن يزعمه أويدعيه ، فلم يكن سوفكليس أو إسخاليوس معنيين بالتاريخ المصرى أو بأى تاريخ آخر ، ولم يزعم أى منهما أيضا احترافه للتأريخ ، فكلاهما أخلص الإخلاص كله للإبداع الدرامى ، واعتبر من مؤسسيه ، وحين يعتمد فليكوفسكى على التراجيديا فى استخلاص مادته التاريخية ، بالكيفية التى تعمدها ، يكون قد أسقط من حسابه تماما حدود العلاقه بين الأدب والتاريخ ، بين الواقع والفن . فحتى لوكان أى منهما - سوفكليس أو إسخاليوس - مسرحيا مصريا عاش هذه الفترة أوالفترة اللاحقة عليها شاهدا أحداثها وشاهدا عليها، متعايشا مع أبطالها ، ما كان لأى من كان الاعتماد على أعماله المسرحية كوثائق تاريخية تؤرخ لحكم أمنحوتب الثالث والد إخناتون نفسه ويليه أبناؤه الذين خلفوه ، ومن بعدهم الملوك والأمراء اللاحقون عليهم . وسيتحتم على من يتناول تراجيديا هذا السوفكليس أو الإسخاليوس المصرى أن ينتبه من البداية وحتى النهاية لخصائص الدراما التى

يتعرض لها ، وأن يتبين بوضوح التمايز النوعى بين بنية الإبداع وموضوعية التاريخ ·

وأخيرا ، ينتهى فليكوفسكى من حيث بدأ ، فلم يكن " أوديب واخناتون " بحثا فى الجذور التاريخية لأسطورة أوديب ، ولا يعد دراسة فى التاريخ المصرى القديم · فهو لايعدو أن يكون محاولة طريفة لهدم نظرية فرويد فى " موسى والتوحيد " - والنظريات الأخرى المثيلة - وإهالة أنقاضها على رأس العالم النفسى الشهير · ففى السطور الأخيرة من دراسته لايتمالك فليكوفسكى عن صب جام غضبه على فرويد الذى تجرأ وحط من شأن موسى وقدره عندما أنكر أصالته ، وحرمه إياها ، وهاجم شعب اليهود بحرمانهم من زعيمهم وقائد جنسهم ، عندما جعل من موسى مصريا ، وقلل من شأن إله اليهود بأن جعل من ياهوه معبودا محليا أو مجرد روح شريرة تسكن جبل سيناء ، وما كان لفرويد - فى رأى فليكوفسكى - وهو على أهبة الرحيل ، من حياة طال أمدها أن يلعن إله اليهود ، ويحط من شأن نبيه ، على حين يمجد مرتدا مصريا ، ويعتبره مؤسسا لدين عظيم الشأن · فلقد كان من الجدير بفرويد أن يتمعن فى المعنى النفسى لإلغاء إله - من حيث هو فى نظرية التحليل النفسى تجسيم لصورة الأب ، وفى المعنى الرمزى للشمس ، التى هى أيضا صورة الأب فى الأحلام · وكان من الواجب على فرويد أن يطبق تفكيره الثاقب على بعض الملامح فى إخناتون ليبرز جنون العظمة فيه ، وهو مرض من أبرز أعراضه الشعور الوهمى بالجلال والكبرياء والخوف من الاضطهاد والمؤامرات ، والإحساس الوهمى بالقدرة على قيادة الجنس البشرى كله إلى التوبة والخلاص · فلو تمكن هذا الإخناتون أن يتعدى حدود الزمن ويستلقى على أريكه محلل نفسى كفرويد لكشف التحليل من بدايته عن مظاهر ذاتية أو نرجسية ، وعن ميول شذوذ جنسى تقترن بسادية مكبوتة ، وظواهر تخنث على وشك الظهور ، وعن انبثاق واضح لم يكبت لعقدة أوديب ·



٢

التأريخ بالتمنى



أنجز فليكوفسكى كتابه أوديب وإخناتون أوائل عام ١٩٤٠ بالولايات المتحدة التى سافر إليها من فلسطين ، فى إجازة لمدة عام ، قبل نشوب الحر ب العالمية بقليل ، للإستعانة بمكتباتها فى إتمام مخطوطه، وبنهاية العام قرر الاستمرار فى الإقامة بها حيث توطن بها إلى تاريخ وفاته.

وعلى غير المتوقع لم يبادر فليكوفسكى بنشر كتابه ، بل تأجل هذا النشر عشرين عاما كاملة ليصدره عام ١٩٦٠ ، ولا يمكن أن يفسر تأجيل نشر أوديب وإخناتون كل هذا الأمد الطويل بفتور حماسه فى الدفا ع عن موسى ، فهو فى نهاية الأمر قد نشر ، فى التوقيت الذى ارتآه مناسبا لصدوره ، بعد أن نشر ثلاثة كتب من سلسلة أبحاثه التى بدأ فى كتابتها عقب انتهائه من دراسته عن إخناتون والتى توالى إصدارها إعتبارا من العام ١٩٥٠ تحت عنوان رئيسى واحد " عصور فى فوضى " وهى بترتيب النشر " من الخروج إلى الملك إخناتون " ، "عوالم فى تصادم " ، " الأرض فى اضطراب " ثم يأتى بعدها أوديب وإخناتون محتلا المركز الرابع من هذه الإصدارات ، ويليه فيما بعد كتابان آخران " شعوب البحر " ، و"رمسيس الثانى وعصره " ومن بعدها باقى كتبه ، وتسجل هذه الأبحاث نظريته فى إعادة ترتيب ما يناهز ألف ومائتى عام من أحداث التاريخ المصرى القديم .

ومن الملاحظ أن تأجيل إصدار أوديب وإخناتون يبدو للوهلة الأولى بلا مبرر منطقى ، فلا توجد علاقة نظرية تربطه بالنسق الفكرى لمشروعه فى إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، ويظل إصراره على وضعه بين سلسلة هذه الدراسات من الأمور التى تثير الدهشة وتحتا ج إلى تفسير، ومبدئيا يمكن القول بأن فليكوفسكى قد انتبه إلى تهافت أسانيد أوديب

وإخناتون كرد مقنع يعتد به فى هدم نظرية فرويد فى موسى والتوحيد ، فمهما بلغت براعته فى تسفيه إخناتون ، وهو قد نبغ حقا كما رأينا فى ذلك ، إلا أنه لم يدحض الأساس التاريخى الذى يتمحور حوله كتاب فرويد، وتظل عقيدة التوحيد بشعائرها وطقوسها سابقة زمنيا على الموسوية ، ومصدرا من مصادرها ، حتى لو افترضنا صحة جميع الافتراءات التى ألصقت بإخناتون ، وتظل الستمائة عام التى حددها برستيد قائمة وثابتة كما هى على سياق التاريخ تفصل بين عصر إخناتون وعهد موسى ، مما جعل البعض يظن بأن هذا هو أساس الدافع النظرى لفليكوفسكى فى إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ليجعل عقيدة موسى متقدمة تاريخيا على توحيد إخناتون ، وهو ما انعكس على اختياره لعنوان كتابه الأول من سلسلة أبحاثه المعنون " من " الخروج إلى الملك اخناتون " بكل ما يوحى به من دلالات تاريخية .

وقد يدلل البعض على صحة هذا الرأى بأن فكرة إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم قد واتته فى ربيع عام ١٩٤٠ أى قبل أن يجف مداد مخطوطه عن إخناتون ، بل وقبل أن تتوفر لديه المادة التاريخية التى تمكنه من الأساس النظرى الضرورى لإعادة النظر فى بناء التاريخ ، وقد تكون كل هذه الشواهد صحيحة ، تؤكد بصفة عامة على رغبة فليكوفسكى فى نفى تأثير الحضارة المصرية القديمة فى مجملها على المحتوى الدينى والنصى للتوراة ، معبرة عن انحياز مطلق وغير موضوعى يستهدف منح العبرانيين أولوية تاريخية متوهمة ، وأن فليكوفسكى بواقع هذا الانحياز انهمك بكليته منجرفا بفرضياته الغريبة لإثبات فضل السبق التاريخى لبنى إسرائيل على حضارات الشرق القديم ، وعلى الأخص الحضارة المصرية.

ومهما بلغت منطقية ووجاهة هذه الآراء ، فهى من وجهة نظرنا لاتقدم تفسيرا مقبولا لتأجيل نشر " أوديب واخناتون " كل هذا الأمد الطويل ، كما لا تفسر التحول الكبير الذى طرأ فجأة على تفكير فليكوفسكى وجعله

يعدل من ترتيب أولويات اهتماماته الفكرية ، متحولا من الشاغل الدينى إلى المشكل السياسى ، فإذا كان من الممكن القول بأن دوافع فليكوفسكى لإنجاز أوديب واخناتون هى من قبيل الدوافع الدينية كما نستشفها من دفاعه المستميت عن موسى وعقيدته ، فإن هذا أبعد ما يكون عن دوافعه لكتابة سلسلة أبحاثه الأخرى عن إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، وهى السلسلة التى كرس لها سنوات عمره المديد منذ تلك اللحظة التى واتته فيها تلك الفكرة أى منذ عام ١٩٤٠ إلى تاريخ وفاته عام ١٩٧٩ . فلقد اختفت الصياغات الشاعرية الملتهبة الحماس الممجدة لقائد الشعب اليهودى وزعيمه الروحى على حد تعبيره - وانصرف شاغله الأساسى لنفى أى انتقادات تاريخية أو زمنية تستهدف مصداقية العهد القديم ، ليس ككتاب مقدس ، بل كسجل لأحداث تاريخية واقعية حدثت بالفعل ، وهو لم يخف هذه النية التى بيتها والتى التزم بها - كما سنرى - متصديا لأى اعتبارات تتناقض مع هذا التصور . غير ملتفت لحقائق التاريخ الدامغة ، أو لقداسة النص التوراتى التى تسلم بالمعجزات . ومن ثم يمكننا فى حدود هذا الإطار تفهم اعتراضاته على فلسفة " سبينوزا" كما يتعرض له فى كتابه " عوالم فى تصادم" حيث تقتصر انتقاداته لفلسفة سبينوزا حول تصوره عن " المعجزات " ، دون أن يتعرض لنسق بنائه الفلسفى ، فالطبيعة عند "سبينوزا " تتبع دائما قواعد وقوانين ... ربما لانعرفها جميعها .. وهى ثابتة تسير بنظام دقيق صارم ، أما المعجزات فإنها تمثل فقط الأحداث التى لايمكن أن تفسر فيها الظاهرة بأسبابها الطبيعية"، ويشرح سبينوزا أمثلة من الكتاب المقدس ، مصرا على أن "التقدير البدائى والطريقة الخاصة فى التعبير التى اتبعها العبرانيون القدامى هى السبب الوحيد الذى ترجع إليه المعجزات " ، كخوارق تشذ عن القوانين الطبيعية ، " ففى عصر يشوع كانت الفكرة الشائعة عند العبرانيين اليهود هى أن الشمس تتحرك حركة يومية حول الأرض الثابتة ، وبناء على هذه الفكرة الخيالية بنوا تصوراتهم عن

المعجزات التى أوردتها الروايات التوراتية ، ومنها أن الشمس والقمر "توقفا عن السير وامتنعا عن الحركة " استجابة لدعوات يشوع حتى يتمكن من القضاء على أعدائه ، فالعبرانيون من خلال الدوافع الدينية والأفكار الخيالية المسيطرة عليهم تصوروا وقوع أشياء مختلفة تماما عما حدث وتختلف أيضا عن المعرفة العلمية ، مما يفرض علينا بالضرورة " أن نعرف آراء أول من رويت عنهم تلك الأحداث ، وأن نميز بين تلك الأفكار والانطباعات العقلية التى تركتها على المشاعر ، وإلا نكون قد بنينا حكمنا على أن المعجزة قد حدثت بالفعل ، لاأكثر ولا أقل وبذلك نكون قد ربطنا الأحداث الفعلية بالرمزية الخيالية، ويلخص سبينوزا موقفه فى النهاية برفض فكرة المعجزات كخوارق تشذ عن قواعد وقوانين الطبيعة التى تتصف بالثبات والدوام والانتظام ، فـ " الكثير من الأحداث التى وردت فى الكتاب المقدس تعتبر تعبيرات يهودية ... وبلاغة عبرانية خاصة لاتتوخى الحقيقة " .

أما فليكوفسكى فلم يقل نزوعا ماديا عن مادية سبينوزا، وعلى غراره لم يتقبل أى تفسيرات ميتافيزيقية لخوارق العهد القديم ، كما لم تساوره على الإطلاق فكرة وجود إرادة عليا ذات مشيئة وهيمنة مطلقة تتدخل فى الأحداث وتعلو النظام الطبيعى بقواعده وقوانينه ، إلا أنه على خلاف سبينوزا رفض فكرة الرمزية وتفسير الخوارق كنتاج خيالى وبلاغى للعبرانيين ، فالأحداث التى وردت بأسفار العهد القديم قد حدثت بالفعل ، كظواهر طبيعية تشذ عن قوانين الطبيعة المعروفة حتى الآن ، وهى تخضع كغيرها من الظواهر الطبيعية لقواعد وقوانين صارمة ومنتظمة ، وإنما وفقا ليقين علمى آخر لم يتم التوصل إليه بعد ، وبإيجاز شديد فإن ما رفضه سبينوزا من منطلق اليقين العلمى الثابت ، أكده فليكوفسكى من منطلق يقين علمى مفترض ، لم يتم اكتشاف نظرياته بعد .

وعلى نحو ما ، فإن الخلاف بين فليكوفسكى وسبينوزا يعد خلافا جوهريا أعمق بكثير مما يبدو عليه . فحين تقبل سبينوزا الموروث

التوراتى كموروث رمزى أسطورى ، جرد هذا الموروث من مضمونه التاريخى ، وعراه من أى صحة واقعية ، متحديا بواقع رفضه للتفسير الغائى للحوادث والموجودات مصداقية الحقائق بأسفار العهد القديم ، وما يترتب على هذه المصداقية من نتائج عملية تتعلق بفكرة العهد الذى قطعه الله على نفسه لليهود وبالتالى فكرة الدولة اليهودية أو إحياء إسرائيل القديمة منة الله لشعبه المختار ، وهى الأفكار الأثيرة لدى فليكوفسكى ، والتى ألزمته بعدم التفريط فى مصداقية العهد القديم بأساطيره ورموزه كيقين تاريخى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لقد رفض سبينوزا بشدة فكرة امتياز شعب على شعب آخر، أو على بقية الشعوب فالفضل الإلهى يعم الناس جميعا على السواء ، فاليهودى الفرد لايملك أية موهبة يخصه بها الله دونا عن سائر البشر. ولا يوجد على الإطلاق فى الوقت الحالى أى شىء يستطيع به اليهود أن يباهوا غيرهم من الشعوب ، وإن ممارسة الفضائل الأخلاقية أجدى من ممارسة شعائر العقيدة اليهودية ذاتها ، والسعادة والبركة الحقيقية لكل شخص ، إنما تكون فقط فى تمتعه بما هو خير ، لا فى مباهاته بأنه هو وحده الذى يتمتع به ، دون كل من عداه ، أما ذلك الذى يعتقد أنه أكثر من غيره سعادة لأنه يتمتع بنعم يفتقر إليها الآخرون أو لأنه أكثر غبطة أو أسعد حظا من أقرانه ، فإنه جاهل بطبيعة السعادة والبركة الحقة ، ولا يمكن أن يكون السرور الذى يحس به ، إلا سرورا صبيانيا أو حسدا خبيثا ، إن سعادة الإنسان الحقة لاتكون إلا فى الحكمة ومعرفة الحقيقة ، وهى لاتكون أبدا فى شعوره بأنه أحكم من الآخرين ، أو أن الآخرين يفتقرون إلى مثل هذه المعرفة ، وكل من يغتبط لأسباب كهذه إنما يغتبط لتعاسة الآخرين ، وبذلك يكون خبيثا شريرا لايعرف السعادة الحقة ، ولاطمأنينة الحياة الصحيحة . فحتى لوكان اليهود ممتازين عن غيرهم بحق ، فإن تباهيهم يكفى لجعلهم أشرارا ، وعليه فإن فكرة الشعب المختار ذاتها ليست مما يشرف أى أمة. أو يفخر به أى فرد يعرف معنى الأخلاقية ، إذ

إنها تنطوى على مقارنة تحط من شأن الآخرين . فضلا عما تتضمنه الفكرة من أنانية واضحة .

أما فكرة إحياء الدولة القديمة ، فلم يتعرض لها سبينوزا تعرضا مباشرا ، إلا أنه لم يكن من الصعب على المفكرين الاستدلال عليها ، وكالعادة إذا كان الباب مفتوحا أمام الإجتهادات فلابد أن تتعدد وتتباين التفسيرات ، ونحن نميل إلى ما ذهب إليه كل من د. عبدالرحمن بدوى فى موسوعته الفلسفية ، ود . فؤاد زكريا فى كتابه القيم عن سبينوزا الذى اعتمدنا عليه فى هذا السياق ، فلقد أكد سبينوزا تأكيدات قاطعة وواضحة أن الدين ينبغى أن ينفصل عن الدولة التى تنبنى على عقد بشرى وتستمد سلطتها من سيادتها لا من الأوامر الإلهية ، وقد خلط اليهود فى الدولة القديمة بين السلطتين الدينية والزمنية ، بعد أن ولوا موسى على أساس أنه هو المعجزة الإلهية بينهم ، واختاروا خلفاءه على أساس هذا التقرب إلى الله ، وبعد أن نقلوا حقهم إلى الله اعتقدوا أن دولتهم تنتمى إلى الله وأنهم هم أنفسهم أبناء الله.ونظروا إلى الأمم الأخرى على أنها عدوة الله، وهو خلط لابد أن ينعكس على دولتهم الحديثة. ولقد استند هذا الاتجاه فى تحديد موقف سبينوزا من الدولة الصهيونية على تأكيداته الفكرية حول مبدأ فصل الدين عن الدولة ، بينما ذهب اتجاه فكرى آخر إلى أن موقف سبينوزا ينحصر فى هذه الحدود التى تحتلها فكرة الدولة الدينية ، وبمعنى ما إذا نجحت اليهودية فى أن تصبح عقيدة مادية علمانية تماما لأمكنها أن تنقذ اليهود وتمكنهم من تأسيس مملكتهم الصهيونية . ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه أن المشروع الصهيونى تنفيذ حرفى للمشروع الاسبينوزى ، إذ إن الصهيونية علمنت اليهودية وطهرتها من الغيبيات والغايات الأخلاقية وهو رأى مردود عليه ، ويحق لنا القول - ونحن نقصر الحديث هنا حول فليكوفسكى - إنه إذا صح هذا بالنسبة لفليكوفسكى لما كان هناك أى داع لأن يبذل هذا الجهد الهائل لإثبات تاريخية العهد القديم وصحة كل مايحتويه من خوارق

وأساطير إنقاذا لفكرة الوعد الإلهى لبنى إسرائيل .

إن سعادة فليكوفسكى الحقة ليست كسعادة سبينوزا المتحققة فى الحكمة ومعرفة الحقيقة، ومبعث غبطته ومنى نفسه يرتبط بأمر آخر يختلف تماما عن نبل سبينوزا وسمو مقاصده . ويفصح فليكوفسكى من الوهلة الأولى عن أهدافه بوضوح ، فى إهدائه لسلسلة كتبه عن التاريخ القديم ، فلم يجد خيرا من أبيه يتوجه إليه به ، ليس عرفانا عاطفيا أصيلا بفضل الآباء كما يدين كل منا بالفضل لوالديه ، وإنما لأسباب أخرى جعلت من أبيه - سيمون إيمانويل فليكوفسكى أحق بهذا الإهداء ، وقد أوردها بإسهاب ونعرضها بالتفصيل حتى لانترك مجالا للبحث والتأويل :-

(١) ذلك لأنه من اليوم الأول وهو فى الثالثة عشرة من عمره حين غادر منزل والديه وذهب سيرا على الأقدام إلى واحد من تلك المراكز المتخصصة لتدريس التلمود فى روسيا وحتى ذلك اليوم من ديسمبر عام ١٩٣٧ حين وافته المنية على أرض إسرائيل ، كل ذلك العمر كرسه مع كل ثروته وراحة باله وكل ما ملك لتحقيق ما كان فى يوم ما مجرد فكرة . ألا وهى إعادة بناء نهضة الشعب اليهودى على أرضه القديمة .

(٢) ولأن هذا الأب أنجز كثيرا من إحياء لغة الكتاب المقدس وتطوير العبرية الحديثة بإصداره مع آخرين " الأعمال المجمعة بالعبرية القديمة " .

(٣) كما أنه ساهم فى إحياء الفكر العلمى اليهودى بنشر كتابه (المخطوطة العالمية) عن طريق المؤسسة التى أنشأها والتى ساهم فيها عديد من علماء العالم ، والتى مثلت فيما بعد البنية التحتية التى قامت عليها أركان الجامعة العبرية بالقدس .

(٤) ولأنه كان من أوائل الرواد الذين استعادوا الأرض فى " النقب " أرض الأجداد ، وأنشأ بها مستعمرة تعاونية أطلق عليها اسم " روحاما " وتعد اليوم من أكبر المنشآت الزراعية المتطورة فى شمال النقب .

وبهذا الوضوح الذى أجمله فليكوفسكى فى إهدائه ، يصبح من السهل

تفسير قراره الذى اتخذه عام ١٩٤٠ بالإقامة فى الولايات المتحدة التى انتقل إليها نشاط الحركة الصهيونية من المملكة المتحدة التى بدأت تفقد قواها المؤثرة المحركة للأحداث ، دون أن نخوض كثيرا فى التفاصيل،كما يمكن أن نتفهم قراره بتأجيل نشر مخطوطه عن أوديب وإخناتون، بالإضافة إلى ما سبق أن أوردناه، لانهماكه فى عمل أهم بكثير من الدفاع التاريخى عن موسى ، القائد الروحى لليهود. ولا يخفى فليكوفسكى سباقه مع الزمن لإنجاز مشروعه وإن كان لم يفصح عن أهدافه فى مقاله " كيف توصلت إلى مفاهيمى " وبعد أن استعرض قصته مع فرويد ، وانتهائه من مخطوطه عن إخناتون أوائل عام ١٩٤٠ ، داهمته كما يذكر فكرة كتابه "عصور فى فوضى " كان هذا فى ٢٠ أبريل ١٩٤٠ لكن التقدم الحقيقى وقع بعد أسابيع قليلة ، حين أدركت أن الآمو " الذين وصفوا بأنهم غزوا مصر وهى منهارة ، ما هم إلا العماليق الذين قابلوا الإسرائيليين أثناء خروجهم من مصر كما جاء فى الكتاب المقدس ، ولم أجد كتاب فولدكه عن العماليق فى مكتبة نيويورك وهى أكبر مكتبة فى العالم ، فذهبت لأول مرة إلى مكتبة جامعة كولومبيا . وعلمت من كتاب فولدكه أن المؤلفين العرب فى العصر الذهبى لهم زعموا أن العماليق الذين جاءوا من مكة قد غزوا مصر ، وحكموها عدة قرون فى زمن ما فى الماضى ، ولم يصدق فولدكه هذا التراث ، لكن بالنسبة لى كان شاهدا قويا لما اعتبره فتحا مبينا " ؛ ولم يبرر فليكوفسكى بطبيعة الحال بالأسانيد التاريخية الموثقة – كعادته – لماذا يرجح هذا الرأى دون سواه ، ولم يلتفت إلى أن المؤرخين العرب فى عصرهم الذهبى حين زعموا أن العماليق قد حكموا مصر قد أرجعوا مدة هذا الحكم إلى فترة تاريخية سابقة على تاريخ الخروج كما يتمناه ، بالإضافة إلى أن كل هذه الروايات لم تجد لها أى سند تاريخى تماما كما ذهب فولدكه ، لقد نحى فليكوفسكى كل ذلك جانبا مستمرئا فتحه المبين دون أن يتأنى " وخلال أيام قلائل فى يونيه ١٩٤٠ كانت الفكرة الكلية لكتاب عصور فى فوضى قد بزغت فى عقلى وفى

يومين توصلت إلى أن الأسرة الثامنة عشرة فى مصر لابد أن تكون معاصرة لملوك أسرة داود ، ليس هذا فقط ، بل توصلت إلى أن حور محب المفترض أنه آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، كان فى الواقع معاصرا للملك سناحريب الآشورى ، فرق يصل إلى ستة قرون بين التاريخ المقبول والتاريخ الجديد الذى أقول به"، هكذا وبدون تعليق، ويتابع فليكوفسكى "أعرف بالطبع من ألواح تل العمارنة التى وجدت فى عاصمة إخناتون قصيرة العمر . أنها تحتوى على المراسلات الملكية لأواخر الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنى لم أقرأ نصوص هذه الألواح ، وذهبت إلى مكتبة متحف المترو بوليتان وأنا أتوقع أن أجد فى تلك الألواح رسائل من الملك يشوبات ملك القدس ، ومن الملك أهاب ملك سامراء ، ومن ميكى بن حداد وهازئيل ملكى دمشق ، ولقد وجدتها هناك بالفعل ، كما ذهبت إلى مكتبة نيويورك ، وأحضرت زوجتى اليشيفا التى تشاركنى فى بحثى وصفا لرحلة بونت .التى قامت بها الملكة حتشبسوت ، وهى طبقا لحساباتى ملكة سبأ التوراتية ، وتوقعت أن أرى فى النقوش المستنسخة فى ذلك الكتاب ، كيف كان شكل الإسرائيليين أيام سليمان ، وفتحت الكتاب وأنا فى حالة قلق وتوتر، وكما توقعت أن أرى كنوز معبد سليمان التى أخذها تحتمس الثالث كغنائم ، رأيت – فى الأطلس التاريخى للآثار المصرية القديمة الذى أعده ديزنسكى – صورا للأثاث والأدوات المقدسة لمعبد سليمان حتى بالأعداد نفسها التى وردت فى الكتاب المقدس ، هكذا بجرة قلم دون أن يلتفت فليكوفسكى أقل التفاتة لنظريات نشوء وارتقاء الحضارات يغتصب الإنجاز الحضارى لفراعنة وادى النيل وينسبه لقبائل البدو الرحل الذين لم تتهيأ لهم فرصة الاستقرار أو الازدهار.

خلال أيام قليلة من يونيه ١٩٤٠ أعاد فليكوفسكى ترتيب أحداث العالم القديم ، أو على الأقل توصل إلى فكرة إعادة الترتيب ، ويلاحظ أن كل أسماء الملوك التى ذكرها فى هذا المقال تنتمى إلى قائمة ملوك الأسرة

الثامنة عشرة ، وهو أمر طبيعى وقد فرغ لتوه من مخطوطه عن إخناتون أشهر ملوك هذه الأسرة ،أما أسماء الملوك الآخرين فمرجعه فيها تاريخه المقدس ، ولسنا بمتجاوزين حدود الموضوعية الواجبة إذا قلنا إنه حتى هذا التاريخ من يونيه ١٩٤٠ لم يكن على علم بالمصريات ، إلا فى هذه الحدود التى ذكرها وذكرناها ، ففى نفس المقال عن كيفية توصله إلى مفاهيمه سنجد هذه الفقرة ، " فى مناسبة إجتماعية فى بيت د.بول فدين عالم النفس المشهور وهو عالم مصريات أيضا . طرحت التساؤل أمام أحد الضيوف: ما هو المرجع الذى يشير إلى تحول ماء النيل إلى دم ؟ وأحالنى فدين إلى كتاب من تأليف ينكر ... فى اليوم التالى وفى المكتبة فى شارع ٤٢ قرأت الفقرة وهى ترجع إلى كلمات أبوور وكان على أن أرجع إلى المصدر الأصلى وأعرف من هو " أبوور" وطلبت مساعدة د.و.س هايز فى متحف المتروبليتان وظل يبحث لمدة ساعة فى مادة المصريات وأخيرا وجدت بنفسى النص وترجمة البردية .. وقد نشرها آلان جاردنر ١٩٠٩ تحت عنوان شكوى حكيم مصرى "، أى أن فليكوفسكى حتى العشرين من أبريل عام ١٩٤٠ لم يكن لديه أدنى معرفة بأبسط وأشهر النصوص القديمة التى يحفظها عن ظهر قلب تلاميذ المدارس فى المرحلة المتوسطة من التعليم .

ولنتقبل بعقل مغلوب على أمره فكرة أنه بالإمكان أن يطرأ تصور عبقرى على درجة عظمى من الأهمية كهذا التصور عن إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، دون إلمام كاف بأحداث وشخصيات ووثائق هذا التاريخ ، بشرط واحد أن تخضع هذه الفكرة الطارئة كالإلهام لأصول وقواعد البحث العلمى المنهجى ، خاصة ، إذا كنا بصدد موضوع مثل هذا الموضوع الذى يتضمن بالضرورة تتبعا للنسق الزمنى التاريخى لإثنى عشر قرنا من الأحداث المتتالية والمتعاقبة ، حيث يحمل معنى التتالى مبدأ العلية التاريخية فكل حدث متحقق ينشأ مترتبا على ما سبقه من ظروف وأحداث كما يتموضع أيضا فى إطار ظروف وأحداث أخرى، وهذا على

وجه التحديد مالم يصنعه فليكوفسكى فى التاريخ المقبول الذى يقول به ، كما يوضح فى تمهيداته لعصور فى فوضى ، فتاريخه" لايعد تاريخا وصفيا بالمعنى المتعارف عليه ، فهو مجموعة متتابعة من الفصول ، كل منها أقرب ما يكون إلى جلسات المحاكم ، حيث يقف الشهود على منصة الشهادة ليقولوا ببطلان تاريخ تقليدى ، زائف، ويشهدوا بصحة مفهوم آخر حديث للتاريخ ،....، يتقدم فيه بناء جديد ليسترد مكانه " ، وبغض النظر عن أن هذا البناء لم يقم أصلا ، فإن طبيعة هذه الشهادات تبدو أقل بكثير من جلال الموضوع الذى يتعرض له فليكوفسكى ، فهو قد وضع كتابه بنفس المنهج الذى استخدمه فى أوديب وإخناتون" طريقة قصص التحرى البوليسى" ومن المعروف أن قصص التحرى تبنى البراهين والأدلة غير المتوقعة على أشياء كبصمة أصبع على قضيب معدنى، أو شعرة على عتبة نافذة أو عود ثقاب محترق بين الأعشاب، ومن هنا فقد يبدو الاهتمام ببعض التفاصيل الواهية فى علم الآثار، أو ترتيب الأحداث زمنيا، وكذا القوى القديمة التى حكمت البلاد - قد يبدو- كل ذلك قليل الأهمية " ، فالأهم من هذه العوامل من وجهة نظره هى " بصمات الأصابع فى قصة تحرى، تختص بشكل مباشر بتاريخ كثير من الأمم وكثير من الأجيال " وليس أمامنا إلا أن نتساءل هل من الممكن أن يصل استخدام أسلوب التحرى البوليسى إلى نتائج يقينية بالنسبة لموضوع إعادة بناء التاريخ القديم ، وهل يتفق هذا النهج هنا بديلا عن المنهج العلمى ، إن الإجابة تأتى فى نهاية مقدمته لعصور فى فوضى واضحة وقاطعة " أنا أومن أن الأدلة المجمعة فى عصور فى فوضى مبرر قوى لإعادة بناء التاريخ القديم، وعاجلا أو آجلا وفى يوم ما فإن إكتشافا أثريا جديدا سيثبت تماما صحة فرضيات الكتاب وحينئذ سيثبت لأى متشكك أن الحجج لاتصدق إلا بعد تحقق النبوءة، وهكذا ينتهى فليكوفسكى إلى حيث بدأ بفرضيات بحاجة إلى إثبات ، وبتصورات لم يستطع أن يصل بها الى مستوى اليقين التاريخى ، أى ظل بناء التاريخ التقليدى قائما

وثابتا كما كان متحديا نبوءة فليكو فسكى وطموحاته نحو بناء تاريخ آخر، وهو الأمر الذى يعود مرة أخرى إليه فى نهاية تمهيده لعصور فى فوضى " لازالت مراجعة تاريخ مصر والأشوريين والبابليين تحمل أهمية قصوى، وكذا مراجعة مفاهيم التاريخ الإغريقى، وتصحيح التزامن دون تغيير التاريخ اليهودى"!!

وبفرض صحة افتراضات فليكوفسكى فى إعادة بناء التاريخ القديم ، فإن ذلك لايخوله الحق فى أن يطلب من أى أحد التسليم بمصداقية ما ورد فى العهد القديم ، ليس ككتاب مقدس ، وإنما كسجل تاريخى ، خاصة وأنه نفسه لم يسلم بصحة ما ورد فى التوراة تسليم المؤمن بالمعجزات ، وإن حاول إثبات حدوثها الفعلى وفق قوانين الطبيعة ، سواء تلك التى اكتشفت ، وأثبتت صحتها ، أو تلك التى لم تكتشف بعد !! ، ولا أدل على ذلك من أن فليكوفسكى لإثبات صحة نظريته التى قدمها فى " عصور فى فوضى " وغيرها من أبحاثه والتى تدور حول إعادة ترتيب التاريخ السياسى للشرق القديم ليتطابق مع التاريخ الوارد بالعهد القديم دون تغيير، قد اضطر للبحث عن نظرية أخرى تتناول التاريخ الطبيعى لا لمنطقة الشرق القديم فحسب ، بل للعالم القديم بأكمله ، هذه النظرية التى عرضها فى كتابه " عوالم فى تصادم "، والتى بدونها لا تستقيم نظريته فى إعادة ترتيب التاريخ السياسى كما سيرد تفصيلا ، وقد انتبه فليكوفسكى من البداية إلى ضرورة ذلك ، ففى مقاله السابق يواصل : "فى العشرين من أكتوبر (١٩٤٠) وأنا جالس فى المطبخ الصغير أقرأ فى سفر يشوع ، فوجئت أن الآيات التى تصف الفوضى التى حدثت للشمس والقمر " فى عهد يشوع " تسبقها آية تتحدث عن سقوط كتل حجرية من السماء " .. وبعد أقل من أسبوعين من ذلك تحققت من أن الكارثة التى وقعت فى عصر موسى ويشوع ليست محلية بل عالمية ، ....، لقد أصبحت مقتنعا منذ بداية عملى أن كوزمولوجيا النظام

الشمسى ليست تختلف كثيرا عما نعتقد فقط ، بل إن ميكانيكا النظام الكونى التى تقول بأن القصور الذاتى والجاذبية هما اللتان تعملان فى الأجواء العليا تحتاجان إلى إعادة نظر ، وكذلك نظرية التطور الداروينية القائمة على التماثل والتدرج " ، ويضيف فليكوفسكى فى مقدمة كتابه الثالث " الأرض فى اضطراب" أن " الاتساق والاستقرار فى الدائرة السماوية والدائرة الأرضية هو نقطة الانطلاق فى المفهوم الحالى عن العالم كما تعبر عنها الآلية السماوية لنيوتن ونظرية التطور لداروين، ولوكان هذان العالمان مقدسين لكان كتاب عوالم فى تصادم مجرد هرطقة" .

وهكذا فإن فليكوفسكى الذى قدم إلينا تصورا مفترضا للتاريخ السياسى القديم ، أسند صحة افتراضاته على مصداقية وصحة التاريخ اليهودى ، التى لا تثبت صحتها بدورها إلا بافتراض صحة قوانين طبيعية تخالف القوانين الطبيعية الموثوق من صحتها إلى الآن.

ولقد كنا فى غنى عن كل هذه الافتراضات ، التى عبثت سواء بهياكل التاريخ القديم أو بحقائق العلوم الطبيعية ، أو بمعجزات الرواية الدينية، لولا إصرار فليكوفسكى مثل غيره من المفكرين والمؤرخين اليهود على إسباغ صفة التاريخ على الموروث التوراتى ، وعلى التعامل مع الواقع بمنهج التفكير بالتمنى ، وبتعبير أدق : التأريخ بالتمنى . بل إن فليكوفسكى بمقارنته بهؤلاء المؤرخين نجده قد بذهم فى هذا المضمار ، فإذا كان هؤلاء المؤرخون قد استندوا إلى مبدأ أنه فى غيبة الحقيقة العلمية يتعين أن يملأ الفراغ بإحلال التراث المتناقل من الحكايات والأساطير ، هذا المبدأ الذى يتجاهل منهجية العلوم الإنسانية وتجريبية العلوم الطبيعية ، فإن فليكوفسكى يخطو خطوة أبعد من خطوات المؤرخين اليهود بتطبيق المبدأ نفسه ليس فى غيبة الحقائق العلمية ، بل أيضا فى حالة وجود هذه الحقائق ، وثبوت صحتها ، باعتبار أن هذا التراث المتناقل

من حكايات وأساطير كتسجيل بالحكى الشعبى لما حدث فى زمن ما قد أصبح من المعطيات المؤثرة على سلوك الأمم تأثيرا يفوق تأثير الحقائق العلمية أو التاريخية المتيقن منها فالمهم ما يعتقده أفراد الأمة ويستقر فى ضمائرهم من أن ماضيهم كان عليه ، لا ما كان عليه بالفعل ، فالتاريخ كما يذهب هؤلاء المؤرخون حكاية مختلقة متفق عليها .

القسم الثانى

التاريـــخ السياســـى
عصور ليست فى فوضى



١
مسألة العلاقات



مشكلة العلاقات

" من الخروج إلى الملك إخناتون " أول أسفار إيمانويل فليكوفسكى الستة ، التى أطلق عليها فى مجملها عنوان " عصور فى فوضى " والتى تمثل جماع مشروعه فى إعادة ترتيب القوائم الزمنية لتاريخ الشرق القديم وبصفة خاصة تاريخ مصر الفرعونية لمدة تمتد من نهايات الدولة الوسطى إلى بدايات غزو الإسكندر لمصر ، وتربو هذه الفترة على ما يناهز ألف ومائتى عام.

يتعرض " من الخروج إلى الملك اخناتون " لمرحلة تاريخية تغطى نحو الخمسة قرون ، تبدأ بسيطرة الهكسوس على مقاليد الحكم ثم حرب التحرير وتأسيس الدولة الحديثة وتنتهى بنهاية الأسرة الثامنة عشرة . أو بتحرى الدقة انهيار الثورة الدينية وتقوض الحكم وزعزعة الاستقرار ونهاية حكم إخناتون ، ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب أهم جزء من أجزاء سلسلة " عصور فى فوضى " ، ولا ترجع هذه الأهمية إلى ما شهدته هذه الفترة - خاصة مدة حكم الأسرة الثامنة عشرة التى تربو على المائتين والخمسين عاما ١٥٧٥ - ١٣٠٣ ق . م - من أحداث ومتغيرات جذرية فى السياسة المصرية الخارجية استهدفت الهيمنة وبسط النفوذ على مناطق سورية وفلسطين وحتى بلاد الرافدين ، وتأسيس الامبراطورية ، وإنما ترجع هذه الأهمية لما توصل إليه الكتاب من نتائج تخالف كل المعارف التاريخية المتيقن منها ، اتخذها فليكوفسكى ركيزة أساسية وجوهرية أسس عليها صرح تصوراته النظرية فى إعادة ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ القديم ، وإشاعة أكبر قدر من الفوضى والاضطراب فى

تسلسله التاريخى ، وحتى ندرك مبلغ هذه الفوضى نشير بإيجاز شديد إلى أنه أقدم على تحريك فترة الأسرة الثامنة عشرة فى مسلسل السجل التاريخى لأكثر من خمسة قرون لتستقر طبقا لما ذهب إليه من تصورات خلال القرن التاسع ق ٠ م ، مفسحا بهذا التحريك مجالا زمنيا متسعا لإحلال التاريخ الإسرائيلى ، مما فرض بالضرورة نقل الأسرة التاسعة عشرة التى يمثلها بشكل رئيسى سيتى ورمسيس الثانى ومرنبتاح إلى المدى الزمنى للأسرة السادسة والعشرين ٦٨٠ - ٥٢٨ ق ٠ م التى يمثلها بسماتيك ونخاو وإفريس (واج اب رع) أى إزاحة كل من سيتى ورمسيس الثانى ومرنبتاح من القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد وزجهم فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، وعلى هذا النحو نقل الأسرتين العشرين والحادية والعشرين من موقعيهما خلال الفترة الممتدة بين عامى ١١٩٢ - ٩٨٤ ق٠م وإبعادهما إلى فترة الحكم الفارسى لمصر باعتبار أن هاتين الأسرتين موضوعتان فى زمن مبكر بنحو ثمانية قرون فى التاريخ التقليدى المعتد به ، إلى غير ما استتبعه كل ذلك من تعديلات خلخلت قوائم التاريخ المصرى ، بل والقوائم الزمنية لتاريخ الشرق القديم ، كما ورد بكتابيه " شعوب البحر " و"رمسيس الثانى وعصره "، فشعوب البحر التى حاربت مصر أو حاربتها مصر والتى زحفت إلى المنطقة أمام موجات الجفاف فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، جاب بها فليكوفسكى آفاق القرن الرابع قبل الميلاد ، والإمبراطورية الحيثية ليست بواقع تصوراته والتاريخ الذى يقول به إلا المملكة الكلدانية، وما الأباطرة الحيثيون إلا أسماء بديلة لملوك الأسرة الكلدانية العظماء حكام بابل ، وهكذا ٠٠ وهكذا إلى غير ذلك من تصورات ، نسفت بنيان التاريخ وأنساقه الزمنية ٠

ومن البديهى أن نتساءل عن العلة الضرورية التى تحتم إعادة النظر فى ترتيب قوائم التاريخ القديم وزعزعة أنساقه وشرذمة ملوكه وتشريد حكامه وبعثرة دوله وممالكه على هذا النحو ، فلم يفترض أحد قبل

فليكوفسكى أو بعده أن هياكل التاريخ المصرى وأنساقه المتتالية تعانى اضطرابا فى ترتيبها أو فوضى فى تساوقها ، قد تعانى بعض الفترات أحيانا من عدم وفرة المعلومات بالنسبة إلى بعض الفترات الأخرى ، إلا أن ضآلة هذه المعلومات وندرتها لم تمس المعالم الهيكلية الأساسية والواضحة للبنيان التاريخى ، وعلى الرغم من وجاهة هذا الاعتبار ومنطقيته ، فمن حق فليكوفسكى أو غيره من الباحثين التمسك بطرح هذه الفرضية للدراسة والبحث المنهجى العلمى ، أى أن يؤكد أولا على ضرورتها فى ضوء نقد المصادر التاريخية المختلفة لتوضيح مدى مجافاتها للحقائق ، ومواطن الخطأ التى سقطت فيها ، وهذا مالم يقدم عليه ، أو إذا استحدث التقدم العلمى حقائق جديدة تقوض مصداقية الحقائق القديمة بتوصل الأبحاث والكشوف الأثرية إلى ما يغير من معارفنا التاريخية ، مما يفرض ضرورة المراجعة وإعادة النظر . تماما كما تمنى فليكوفسكى فى مقدمته أن يثبت اكتشاف أثرى جديد صحة فرضيات ما ذهب إليه من نظريات ، تبرر نهجه فى إعادة بناء التاريخ ، وهو مالم يحدث .

لايعدو مشروع فليكوفسكى لإعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم فى "عصور فى فوضى" غير محاولة لضبط مسلسل أحداث التاريخ المصرى مع إيقاع التاريخ الإسرائيلى الذى يقف بلا شواهد تاريخية تؤكد مصداقيته حتى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد ، وهى محاولة ترتد بعلم التاريخ لهيمنة المرويات التوراتية وحكايات العهد القديم ، التى سبق له التحرر منها بداية من مطلع القرن التاسع عشر الميلادى حين تهيأت الظروف لنشأة علم التاريخ الحديث ، بعد تطور أساليب التنقيب الأثرى ، والبحث الأركيولوجى ، والتوصل لحل شفرة ورموز كتابات الحضارات الشرقية القديمة : الهيروغليفية والحيثية والمسمارية السومرية والاكادية والآشورية والأبجدية الكنعانية والآرامية وما ترتب على ذلك من الاتصال

بالحضارات القديمة اتصالا مباشرا، والتوصل إلى حقائق لايمكن الشك بصحتها ، تستند على الوثائق التاريخية والنقوش التى دونتها وخلفتها لنا شعوب الشرق عن أحداث أزمنتها ، ومجريات حياتها ومعالم تاريخها وتاريخ العالم المجاور لها والمؤثر عليها ، فاهتمام فليكوفسكى انصب انصبابا كليا حول التاريخ الإسرائيلى ، ليس بنفى صحة أحداث الشرق القديم التى لامجال للشك فيها فى ضوء المعارف التاريخية الحديثة ، وإنما باستغلال هذه المعارف وتوظيف حقائقها اليقينية لاصطناع شواهد تاريخية تثبت صحة المرويات الإسرائيلية غير المؤكدة علميا وايجاد ركائز موثقة منتحلة لتاريخ بنى جلدته وأسباطه اليهودية .

مشروع إيمانويل فليكوفسكى على هذا النحو لايعدو البحث عن روابط بين تاريخ الشرق القديم والتاريخ الاسرائيلى ، ويستهل هذا البحث فى كتابه الأول " من الخروج إلى الملك إخناتون " بطبيعة الحال بالبحث عن هذه الروابط بين التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى ، وتشغل هذه المشكلة ثلث الكتاب على نحو التقريب ، فبالرغم من اتصال أرض فلسطين بأرض مصر ، فإن السجلات المصرية لا تورد أى ذكر لأحداث التوراة ، كما لم تذكر مصر فى قصص التوراة طوال فترة حكم القضاة ، ومن خلال الوثائق القديمة لايوجد أى ارتباط حقيقى ومباشر بين تاريخ مصر وفلسطين مما يثير تعجب فليكوفسكى ، فعلى الأقل من وجهة نظره تنتمى مسألة خروج اليهود من مصرإلى التاريخين المصرى واليهودى مما يعد ارتباطا مباشرا بينهما ، فمنذ فجر التاريخ أتى الإسرائيليون من أرض كنعان إلى أرض مصر كقبائل رحل غير مستقرة ، وأصبحوا فى مصر شعبا سقط تحت نير العبودية ، فآثر الفرار منها ، ومع ذلك لم تحتفظ وثائق التاريخ المصرى بأى إشارة عن إقامة الإسرائيليين أو خروجهم منها أومتى حدث هذا الخروج ، ولما كان من العسير أن يخترع شعب أساطيرعن رضوخه لمهانة العبودية وذل الاغتراب ، فلابد من وجود أسس

تاريخية لأساطيره التى لم يشكك المؤرخون فى مصداقيتها، وإن اختلفوا حول تحديد تاريخ وقوعها ، ولقد استقر فى وجدان الجميع على الرغم من تعدد الافتراضات والنظريات لما مايزيد عن الفى عام أن الخروج حدث فى عصر المملكة الحديثة . أى خلال القرن السادس عشر أو الخامس عشر أو الرابع عشر أو الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد ، ولا يوجد شك على الإطلاق فيما يخص هذه النقطة ، والخلاف يثور دائما حول تحديد تحت حكم أى من فراعنة المملكة الحديثة - تم الخروج !... ويواصل فليكوفسكى استعراضه للنظريات العديدة التى ثارت حول تحديد هذه المسألة ، فأقدم نظرية تضع الخروج فى زمن مبكر جدا ، وتقرن ظهور الإسرائيليين بظهور الهكسوس وتحدد زمن الخروج بتوقيت خروج هؤلاء من مصر ، وهذه النظرية مردود عليها إذ يستحيل على مصر الراضخة لعبودية الهكسوس أن تستعبد اليهود أو غيرهم، ومن ناحية أخرى يستحيل على الإسرائيليين غزو فلسطين فى عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأقوياء الذين فرضوا هيمنتهم وبسطوا نفوذهم على فلسطين، ولايمكنهم أيضا أن يتخلصوا من العبودية فى عهودهم. لكل هذه الاعتبارات ذهبت نظرية أخرى إلى أن اليهود لم يقيموا أبدا فى مصر ولكن الهكسوس هم الذين أقاموا بها، ولقد وصلت إلى مسامعهم قصة هزيمتهم وطردهم من مصر فاقتبسوا تلك القصة وضموها إلى تراثهم . وباكتشاف رسائل تل العمارنة التى تعود إلى عهد أمنوحتب الثالث وابنه إخناتون وما تضمنته الرسائل الواردة من أورشليم من تحذير للفرعون من غزو الخابيرو القادمين عبر الأردن، مع تأكيد فليكوفسكى على تطابق كلمتى اليهود وخابيرو (وهو تطابق رفضته الدراسات الحديثة) فإن الخروج لابد وقد تم قبل زمن تلك الرسائل بجيل أو جيلين ، ولما كان سليمان قد شيد معبده كما يذكر النص التوراتى (ملوك ٦ : ١) بعد الخروج بـ ٤٨٠ سنة فإن زمن الخروج طبقا لهذا التصور يقع فى عهد أمنوحتب الثانى عام ١٤٤٧ ق.م وغزو يوشع لفلسطين يتزامن بالتالى مع

توقيت رسائل تل العمارنة عام ١٤٠٧ ق ٠ م ولقد وجدت هذه النظرية فى رأيه ما يدعمها فى نتائج البحوث الأركيولوجية حول أريحا حيث وجدت آثار الدمار والنيران على حوائط المدينة، وأرجعها المنقبون إلى عام ١٤٠٧ ق٠م أى إلى نفس توقيت رسائل تل العمارنة ، وقد تم دمج نظرية خروج اليهود من مصر أيام طرد الهكسوس بنظرية غزوهم لفلسطين فى عهد إخناتون ، ولكن هذا التصور يحدد مدة مائتى عام بين زمن الخروج وغزو يوشع لكنعان وهى بمثابة زمن التيه فى الصحراء مما لايتوافق مع الرواية التوراتية التى تحدد زمن التيه بأربعين سنة ، على الرغم من توافق الزمن المحدد للخروج بعهد أمونحتب الثانى مع التسلسل الزمنى للأحداث الواردة بالتوراة ، وملاءمة الفترة التى شهدت نهاية حكم إخناتون ومطلع حكم توت عنخ آمون واضمحلال قوة مصر لما أورده النص التوراتى من أن يوشع لم يصادف أى أثر لهيمنة قوية لمصر حين غزا فلسطين ٠

ويستمر فليكوفسكى فى استعراضه للنظريات المتباينة فيتعرض للنظرية التى استدلت بالنقوش التى وجدت على الغطاء الحجرى لتابوت مرنبتاح " **أن بذرة اسرائيل قد دمرت** " على تحديد زمن الخروج حيث تعد تلك النقوش أول ذكر لاسم اسرائيل فى وثيقة مصرية ، ولكن هذه النظرية تتغافل عن حقيقة أن مرنبتاح لم يهلك فى البحر ولم يعان من فوضى فى عصره ، وكما يفهم من النقش هو من هزم الإسرائيليين وأبادهم عكس ما تصورته بالطبع الرواية التوراتية مما يضعف من نتائج تلك النظرية ويدحضها، فلا مرنبتاح هو فرعون الخروج ولا رمسيس الثانى هو الطاغية الذى استعبد اليهود وأذلهم، وذهب بعض الباحثين الآخرين إلى أن الإسرائيليين دخلوا مصر فى عهد مرنبتاح بعكس ما يقال عن خروجهم فى ذلك العهد ٠ كما ذهب بعض آخر إلى أن دخول الإسرائيليين إلى فلسطين يستحيل أن يقع إلا بعد آخر الحروب التى شنها ملوك مصر أى فى عهد رمسيس الثالث ٠

وذهبت نظرية أخرى توفيقية إلى أن خروج الإسرائيليين من مصر تم

فى موجات متتالية ، فبينما كانت قبائل بنى يعقوب ما تزال بمصر دقت قبائل أخرى أبواب أرض كنعان ، ولكن يأتى بعد ذلك أن رمسيس الثالث المنتمى إلى الأسرة العشرين شن حربا ضد الفلستيين (شعوب البحر) وسجل معاركه بالتفصيل ولم يرد فى هذه السجلات أى ذكر للإسرائيليين. كما أن وصول الإسرائيليين إلى أرض كنعان فى عهد مرنبتاح ووصول من تبقى منهم فى عهد رمسيس بعد حروبه عام ١١٨٦ ق . م لا يترك مجالا زمنيا لفترة القضاة الذين قادوا الشعب الإسرائيلى لما يزيد عن أربعة قرون ، قبل حكم شاؤول وداود عام ١٠٠٠ ق .م لقد تفاوتت النظريات من النقيض إلى النقيض وكل نظرية منها أشارت إلى الأخطاء التى وقعت فيها النظريات الأخرى ، فمائة عام من التيه فى الصحراء تهدم نظرية ، ومائة عام لعصر القضاة تقوض أخرى . وهكذا كما يرى فليكوفسكى راح كل منها يدور حول العقبة نفسها التى تبحث عن حل دون أن نصل إلى حل، فتحت أى ترتيب زمنى معقول يمكن وضع تاريخ الخروج وغزو إسرائيل لفلسطين وإنشاء الدولة .من هنا نشأت ضرورة إعادة ترتيب قوائم التاريخ القديم فى إطار التأكيد على تاريخانية التوراة، وليس نتيجة لضرورات علمية موضوعية ناتجة عن دراسات تاريخية تتصف بالحيدة العلمية .

بعد رفض فليكوفسكى لكل هذه النظريات، بدأ بحثه عن لحظة يتزامن عندها التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى، مؤكدا أن التوراة قد أبرزت الخروج كحدث عنيف صاحبته كوارث طبيعية مدمرة ، معتبرا هذه الكوارث بديلا واقعيا للمعجزات الدينية التى لم تحدث فى أى مكان على الإطلاق فى عقيدته، وأن مدى هذه المصائب يفوق أى تصور، فلقد ساهمت الأرض والبحر والسماء فى الثورة المفاجئة فارتعدت الأرض وانصهرت الجبال وانشق البحر ، ومن الغريب - كما يرى - أن السجلات المصرية التاريخية لاتذكر أى هزة أرضية ولا ترد بها أدنى إشارة إلى هذه الكارثة الكبرى التى يرجحها، وبالرغم من ذلك فهو يصر على طرح

السؤال ليعاون الشاهد الصامت - السجلات المصرية - ليفضى بما يريده أن يفضى به عن الكارثة التى وقعت على نطاق واسع ليحصل على الإجابة المستعصية التى تحدد لحظة التزامن بين التاريخ المصرى ، والتاريخ اليهودى، والتى ظلت حتى الآن كما يعترف بعد ما يقرب من ألف عام دون إجابة محددة . فليس منطقيا ألا نجد فى الوثائق المصرية أثرا لذلك الاضطراب الذى أصاب الأرض والنهر والبحر والصحراء . والأمر يحتاج فقط إلى إجراء مسح شامل ومراجعة كاملة لكل المصادر المصرية القديمة .وقد عثر فليكوفسكى كما يذكر على هذا الشاهد الصامت ، من غير أن يخبرنا كيف أجرى هذا المسح الشامل لآثار مصر، حتى عثر على بغيته فى بردية الحكيم ايبوور ، فالنص الذى ورد بالبردية والنص الوارد فى سفر الخروج يعطى انطباعا قويا بأن المصدرين يتحدثان بتطابق كامل عن الحدث نفسه والكارثة ذاتها ، بالرغم من أن البردية لم تأت على أى ذكر للإسرائيليين تصريحا أو تلميحا . بهذه النتيجة قطع فليكوفسكى نصف الطريق إلى ما يرمى إليه ، بعد أن أوجد المقابل المصرى الذى يتطابق فى رأيه مع كارثة الخروج التى ترجع إلى عوامل طبيعية لاعلاقة لها بالمعجزات الدينية ، أما عن طبيعة هذه الكارثة الكبرى فهو ما حققه فى كتابه " عوالم فى تصادم " ثم فى كتابه " الأرض فى اضطراب " ، أما متى حدثت هذه الكارثة فالإجابة فى أيام الخروج كما هو ثابت بالتاريخ اليهودى ، أما بالنسبة للتاريخ المصرى فمن الضرورى تحديد زمن الأحداث المذكورة فى بردية إيبوور مما يمكنه بالتالى من تحديد زمن الخروج وبداية التاريخ الإسرائيلى ، فإلى أى عصر ينتمى نص البردية ، ويصل فليكوفسكى إلى نتيجة تشير إلى نهاية المملكة المتوسطة والبدايات الأولى لغزو الهكسوس لمصر ، فإيبوور ينعى مأساة زمنه الذى عاشه لازمنا قديما قد سبقه ، ومن الخطأ النظر للبردية كوثيقة أدبية ، كما ذهبت بعض الآراء ، فنص البردية الذى يحكى عن حرب أهلية ، يذكر أيضا احتلالا أسيويا لدلتا النيل ، ولا توجد معلومات قاطعة عن أى غزو

أسيوى فى أى فترة من فترات التاريخ المصرى غير هذه الفترة التى تقع بعد نهاية الدولة الوسطى ·ولقد عاش إيبوور خلال عصر الاضمحلال الثانى ، فى أحلك فترات هذا العصر ، وكتب برديته فى زمن غزو الهكسوس لمصر ، ويستنكر فليكوفسكى موقف المؤرخين الذين حاولوا وضع الخروج فى ثنايا التاريخ المصرى ولم يجرؤوا على وضعه فى مثل ذلك الزمن القديم · مؤكدا على صحة مقدماته والنتائج المترتبة عليها وبالتالى فإن خروج الإسرائيليين سبق بأيام قليلة أو أسابيع غزو الهكسوس لمصر ، أى خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد ·

النقطة الجوهرية فى مسلسل فليكوفسكى ومشروعه فى إعادة ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ الفرعونى وتاريخ الشرق القديم ترتكز بصفة أساسية على تحديده للفترة الزمنية التى يتقاطع عندها التاريخ الإسرائيلى بالتاريخ المصرى ، بتطابق أحداث بردية إيبوور كوثيقة تاريخية وواقعة خروج الإسرائيليين من مصر كأحداث تتزامن مع وقوع كارثة طبيعية ذات طابع كونى هى فى يقينه بديل عن المعجزات الدينية التى أوردتها التوراة ، أى أن فليكوفسكى لكى يثبت مصداقية الحدث التوراتى كتاريخ لبنى إسرائيل لم يكن أمامه إلا الإقدام على نفى منطق الإيمان التوراتى ذاته نازعا عن النص جوهر قداسته والتسليم الدينى بصحة ما ورد به · مقوضا أسس العقيدة وأسانيدها الميتافيزيقية تقويضا تاما ، وبهذا الرفض القاطع لمنطق القداسة والأساس الغيبى الميتافيزيقى للإيمان والتمسك فى نفس الوقت بصحة واقعة الخروج التى تمثل نقطة البداية للتاريخ الاسرائيلى جرد التوراة من قيمتها ككتاب دينى مقدس واعتبرها مجرد سجل تاريخى محدود القيمة ، ولقد فرضت تناقضات فليكوفسكى عليه ضرورة اختلاق توراة بديلة خاصة به وحده تخضع أحداثها للمنطق الفيزيقى المادى، هذه التوراة الفليكوفسكية بتأويلاتها المادية وبتحريفها للنص الدينى هى ما حاول

فليكوفسكى التوفيق بين أحداثها كما يتصورها وبين حقائق التاريخ الفرعونى . فهل تمثل بردية إيبوور حقا نقطة تقاطع بين التاريخين المصرى والإسرائيلى أى كوثيقة تاريخية دونها شاهد عيان للكارثة الطبيعية الكونية التى صور فليكوفسكى ظواهرها الداهمة فى توراته المنتحلة التى كرس لها كتابيه " عوالم فى تصادم " و " الأرض فى اضطراب " ، سوف ترجىء هذه الدراسة الإجابة ، عن هذه المشكلة مؤقتا للبحث عن إجابة لسئوال آخر ملح هو : هل أغفلت وثائق التاريخ المصرى حقا العلاقة بين مصر وفلسطين مما يحتم ضرورة البحث والتأويل والاستنباط واختلاق شاهد عيان لمجريات الأمور بين البلدين .

الإله القادم من الشرق

فى بحثه عن رابط بين التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى ، ينطلق فليكوفسكى من حقيقة جغرافية مطلقة ككل الحقائق الجغرافية ، فأرض فلسطين التى تقع فى أقصى غرب آسيا تجاور أرض مصر التى تشغل الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا ، ويعبر فليكوفسكى عن دهشة - لاحق له فيها - من الوثائق المصرية القديمة التى لاتكشف عن أى ارتباط حقيقى ومباشر بين تاريخى هذين البلدين المتجاورين ، مصر وفلسطين ، حيث لم يرد بتلك السجلات أى إشارة لأحداث التاريخ الإسرائيلى ، حتى بالنسبة لحدث الخروج كحدث تاريخى بارز ينتمى إلى التاريخ الإسرائيلى كما ينتمى إلى التاريخ المصرى ، ومن الواضح أن فليكو فسكى الذى بدأ من منطلق الحقيقة الجغرافية التى لايمكن الطعن فى صحتها ، لم يلبث أن خلط بين حقائق التاريخ دون تمهل ، وإذا كانت حقائق الجغرافيا تشكل بنيان التاريخ ، فلقد اصطنع فليكوفسكى صرحا تاريخيا وهميا لاينبنى على هذه الحقيقة الجغرافية ، فالوجود الإسرائيلى المفترض على أرض فلسطين العتيدة لم يستغرق بأحسن الفروض وعلى أفضل الاحتمالات غير قرنين من الزمان على امتداد تاريخ هذه الرقعة الطيبة من الأرض التى توغل لما يربو على أربعة آلاف عام قبل الميلاد فى تاريخ الشرق القديم ، مما لايجيز التعامل مع تاريخ فلسطين باعتباره تاريخا إسرائيليا أو صبغه بالصبغة اليهودية واختزال أربعين قرنا من سنيه فى قرنين من أحداثه التى يقف نصفها عاريا من الشواهد والأسانيد التاريخية ، بل والمطابقة بين تاريخ فلسطين وتاريخ إسرائيل هى مطابقة مستحيلة بواقع مفاهيم

فليكوفسكى نفسه ، فحدث خروج الاسرائيليين من مصر يعد نقطة البداية للتاريخ الإسرائيلى قبل غزو الأسباط اليهودية لأرض كنعان وتحقيق أى وجود تاريخى مهيمن لهم فيها ، مما تنتفى معه إمكانية وجود أى علاقة تاريخية بين اليهود وتلك الأرض قبل توقيت هذا الخروج ، ولما كان فليكوفسكى قد اتخذ من تجاهل الوثائق المصرية لتاريخ فلسطين ركيزة أساسية لبحثه عن شواهد تاريخية للعلاقات المصرية الإسرائيلية التى أغفل الفراعنة ذكرها ، فمن المنطقى أن نعيد النظر فى مقولته هذه فى ضوء المعارف التاريخية اليقينية ، بوضع صياغة صحيحة للمشكلة التى يطرحها، لتكون على هذا النحو : هل أغفلت وثائق التاريخ المصرى حقا أحداث هذه الحقبة المديدة لفلسطين أم اقتصر صمت السجلات المصرية على أحداث التاريخ الإسرائيلى فقط ، مثلها فى ذلك مثل غيرها من السجلات والشواهد الأثرية العديدة للحضارات الشرقية ،والإجابة التى نبحث عنها بالتالى تدور فى نطاق إجابة أشمل عن طبيعة علاقات مصر بجاراتها الأسيويات ، ومسار تلك العلاقات على مدار تاريخ مصر الفرعونية ، وهل عاشت مصر القديمة بمعزل عن التفاعل بمجريات الأمور والأحداث التى شهدتها البلدان الأسيوية وشعوب الشرق الأدنى القديم.

أقدم الحقائق التى أجمع العلماء عليها ترجع بالعلاقات المصرية الأسيوية إلى عصور ما قبل التاريخ ، وتؤكد ليس فقط على وجود روابط وعلاقات أيا كانت بين مصر وبلدان آسيا ، بل إلى امتزاج سلالى عرقى للسكان ، جمع بين الجنس الحامى الأفريقى الأصل الذى يمثل السكان الأصليين لوادى النيل والذى ينتسب إلى لوبيى أفريقيا الشمالية وإلى السكان الحامنيين من أفريقيا الشمالية الشرقية قبائل الجالا والصومال والبيجا (١) ، وبين جنس سامى جاء عن طريق هجرة بعض العناصر الوافدة ذات أصل سامى يتمتع بمميزات خاصة تختلف اختلافا بينا عن الشعب الأصلى ، وقد اختلطت هذه العناصر الأسيوية بالسكان الأصليين

شيئا فشيئا ، واندمجوا فيهم ، وأثروا فى مدنيتهم تأثيرا نسبيا عند نهاية عصر ما قبل الأسرات (٢) ، ولم يتفق العلماء على رأى قاطع بالنسبة لموطن هذه القبائل الوافدة ، وسواء كان هؤلاء من شبه جزيرة العرب كما يذهب البعض ويؤكد برستيد ، ودخلوا مصر عن طريق البحر الأحمر ، من جهة " قفط " فى رأى ومن ناحية أعالى وادى النيل فى رأى آخر ، أو سواء أتوا من سوريا عن طريق فلسطين - مجتازين سيناء فشرقى الدلتا منتشرين منها فى منطقة الدلتا الغربية ثم الوجه القبلى ، كما يؤكد أغلب العلماء ويرجح د. سليم حسن ، فلقد أحضرت هذه العناصر معها مدنية مختلفة وربما أرقى من مدنية الجنس الحامى الأصلى ، وأهم الوثائق التى وصلت من هذا العهد هى الألواح الاردوازية المنقوشة ، والحقيقة التى من السهل استنتاجها هى أن مصر لم تكن بمعزل منذ عصر ما قبل الأسرات عن البلدان المحيطة بها ، من حيث تكوين السكان أو التأثر الحضارى ، دون أن نبالغ فى أهمية التأثير الحضارى للجنسية الأسيوية على التطور الحضارى لمصر ، فدائما وأبدا احتفظت البلاد بطابعها الأفريقى، وظلت اللغة والديانة والزراعة مصبوغة بصبغة أهلها الأصليين، لم يؤثر النازحون عليها إلا تأثيرا طفيفا ، يتمثل فى بعض الإصلاحات أو التحسينات ، ومنذ بداية العصر الأفريقى تم انصهار الجنسين انصهارا تاما وأصبح من العسير التفرقة بينهما فى نسيج الشعب الواحد الذى شكل قوام مصر الفرعونية (٣) .

هذه الحقيقة التاريخية ينعكس صداها على أسطورة إيزيس وأوزيريس، ففى رواية بلوتارك تتقاذف أمواج البحر التابوت الذى احتوى جثمان أوزيريس بعد مصرعه ، وترسو به على الشواطىء الفينيقية ، ليستقر تحت جذع شجرة الطفراء ، فتحتويه بنموها وتخفيه فى جذعها الضخم ، ويعجب " ملقاندر " ملك جبيل (بيبلوس) بضخامة الشجرة ، فيأمر بقطعها ، ليصنع منها دعامة لقصره ، وتعلم إيزيس بمصير التابوت ، وما آل إليه ، فى بحثها عن جثمان زوجها ، فتتوجه إلى فينيقيا ،

وتحتال للعمل بالقصر ، وتعهد إليها الملكة عشتروت بالعناية بابنها ، ولما تكشف عن اسمها ، والغاية من حضورها ، تتنازل الملكة لها عن الشجرة ، فتتسلم جسد زوجها وتعود به إلى مصر(٤) .

يمثل أوزيريس أحد أفراد الجيل الرابع من الآلهة المصرية ، فآتوم أو رع الذى يمثل الجيل الأول ، أنجب " شو " الهواء ، وتفنوت " الرطوبة ، ومن هذا الزواج الأول أنجب الربان بدورهما " جب " الأرض و" نوت " السماء ، ومنها ولد الجيل الرابع أوزيريس وإيزيس ، وست ونفتيس ، وعلى عكس " رع " الإله الأرستقراطى ، تعاظمت شعبية أوزيريس كإله للعامة وللسواد الأعظم من الشعب تدريجيا على امتداد التاريخ ، ووصلت شعبيته أوجها خلال الألف الأخير قبل الميلاد ، ليصبح رب الكون بكل مظاهره خلال فترة الحكم البطلمى أى منذ العام ٣٢٣ ق٠م حتى الغزو الرومانى ، هيمن أوزيريس على حكم مصر ، وتعلم الناس منه فنون الحضارة ، نشر العدل على كلتا الضفتين ، وقضى على كل من ناوأه قضاء مبرما ، فمنحته الأرض لقدرته العظيمة عرش الملكية حتى تحيا الأرضان فى رخاء ، وعصر أوزيريس هو العصر الذهبى ، والمثل المحتذى للأجيال ، الذى يؤمن به المصريون كعصر تسيد فيه الكمال العالم (٥) ، لم ينقطع مسار التاريخ بين حكم الآلهة وحكم البشر فى فلسفة المصريين القدماء ، ومثل أوزيريس حلقة الوصل بين هذين الحكمين ، ويؤكد حجر "بالرمو" الذى يرجع إلى الأسرة الخامسة على هذا التواصل التاريخى بين الألهة والبشر ، بربطه أصول الأسرات الحاكمة بأساطير خلق العالم ، وقد حافظت جداول " مانيتون " وجدول تورين على هذا التصور بدمج الأسطورة فى التاريخ ، والتأكيد على الصلة الوثيقة بين الأسرات التاريخية والعصر الذهبى للآلهة (٦) .

تعكس الأسطورة - كما يستدل الغالبية العظمى من العلماء - ذكرى حادثة تاريخية توحى بقدم العلاقات بين مصر وفينيقيا إلى أقصى حدود القدم ، وبتشعب تلك العلاقات وتفرعها ، فأول توحيد لبلاد النيل فى

المرحلة الانتقالية للتاريخ تم لصالح أوزيريس منذ البداية كزعيم أو فاتح أسطورى للدلتا قدم إليها من الشرق ، فسكان الدلتا الشرقية من الرعاة والمزارعين طغى عليهم العنصر السامى ، وتكتلوا تحت زعامة رجل يعتمر ريشتين (التاج) ويحمل بيده عصا الراعى ، وهما الشعاران المستقبليان للملكية ، وسمى هذا الرجل " عنت زى " أى الحامى واعتبر زعيما اسميا للدلتا الشرقية ، فى مواجهة العشائر الأخرى التى تشكلت فى الدلتا الغربية ، وأصبح أوزيريس الوافد من بيبلوس زعيما للدلتا الشرقية ، استعار من " عنت زى " تاجه وشاراته ، وصورته القصص الكلاسيكية بطلا قوميا ، إلها وملكا ، تمكن من تحقيق الوحدة السياسية للدلتا ، ثم وحد الوجهين فى عصور ما قبل التاريخ ، ومن بعده تولى ابنه " حورس " الحكم وأعقبته فترة أنصاف الآلهة ، ومن بعدهم بدأ العصر التاريخى بملوك الأسرة الأولى .

ويدل على الأصل الأسيوى لأوزيريس الوضع الذى آل إليه كإله زراعى، وروح للنبات ، يرمز إليه بشجرة صنوبرية هى شجرة الزند الغريبة على أرض مصر ، والتى تستورد إليها من لبنان ، حيث يعبد "أدونيس" (هاى تاو) روح النبات ، الذى يقتل بالصيف ، ويبعث فى الربيع (٧) وتمثل المصريون فى (هاى تاو) إلههم أوزيريس، وتذكر نصوص الأهرام مرات عديدة إله بلاد " نيجا " فينيقيا - لبنان ، الذى يتقمص شخصية الفرعون فى قبره ، راجيا الا يعامل مثل أوزيريس ويتحول إلى شجرة فى بيبلوس .

والشواهد الأثرية على عمق العلاقات بين مصر وفينيقيا عديدة فى مصر كما هى عديدة فى فينيقيا ، ففى حفريات معبد بيبلوس اكتشفت القرابين والهدايا المقدمة من ملوك مصر ، منها الاسطوانات المنسوبة إلى العصر المنفى ، والزهريات المهداة باسم " خع سخموى " من ملوك الأسرة الثانية ، الخ . وقد استمرت هذه العلاقات الوطيدة ممتدة بامتداد التاريخ، وخضعت مثل غيرها من الأمور لسنن التطور ، والتفاعل وتبادل التأثير

والتأثر ، ففى بيبلوس أيضا اكتشف أثر من أهم الآثار - فى رأى العلماء - يوجد قالب له فى " اللوفر " حاليا ، وهو شاهد يمثل " يهاو ملك " أحد ملوك فينيقية واقفا يقدم قربانا إلى سيدة بيبلوس ، وتسمى أيضا " بعلت جبيل " وهى من الربات التى تحمل اسم " عشتارت " وتجلس الربة على كرسى ذى ظهر عال فى هيئة إلهة مصرية ، تغطى رأسها بشعر مستعار يعلوه قرص بقرنين كبيرين ، وعليها الثوب الخفيف الضيق الذى ترتديه المصريات ، وهذه الهيئة فى جملتها هى هيئة الإلهة "حاتحور " المصرية إلهة السماء وابنة رع وزوجة حورس التى تمثل بشكل بقرة أو إلهة برأس بقرة ، والقرون على رأس عشتارت الفينيقية هى بقية من بقايا الصورة الحيوانية الأولى للإلهة حاتحور ، وتمتد إحدى يدى عشتارت بعصا نباتية ينتهى طرفها الأعلى بشكل زهرة من أزهار اللوتس ، كما عثر فى بيبلوس أيضا من بين ما عثر عليه على نقش - محفوظ فى اللوفر - مصنوع فى فينيقيا ولكنه ذو طابع مصرى ، لتمثال نصفى للإلهة حاتحور ، وبين يديها رأس فرعون بغطاء رأس قصير محلى ، وفى أعلى النقش بقايا كتابة هيروغليفية ، مما يدل على أن مصر لم تمد نفوذها على الفن فى فينيقيا فقط بل مدته إلى سورية إلى هذه الدرجة التى جعلت أهلها يصنعون بأنفسهم النقوش المصرية الصميمة (٨) .

منذ ذلك الزمن السحيق احتفظت مصر ببريق غواية لا تنطفىء نيرانه فى قلوب الآسيويين ، ولم تكن تلك الهجرة الموغلة فى القدم خلال البواكير الأولى للتاريخ بآخر الهجرات . فما أن تهن قوى مصر ويعتورها الاضمحلال ، حتى يشتد أوار الرغبة الأسيوية ، وتزحف جموع الراغبين إليها متسللين ، فرادى أو جماعات ، مهاجرين أو غازين . على نقيض المصريين القدماء ، فهم عازفون بطبعهم عن الاغتراب والترحال ، فمع اتصالهم المستمر بالممر الكنعانى - الفينيقى طيلة آلاف السنين ، وممارسة الفراعنة عليه هيمنة غير منقطعة تقريبا ، فإن تلك المناطق لم

تمثل فى نظرهم مناطق جذب أو إعمار (٩) ، وظلت السياسة الخارجية المصرية مسالمة ، لاتطمع فى غزو أو احتلال ، ولم تجتاز جيوش الفراعنة الحدود إلى آسيا إلا لقمع هجمات البدو ، أو للقيام بحملات تأديب للعناصر المتمردة التى تهدد مصالحها الاقتصادية الحيوية ، والتزم ملوك مصر بسياسة دفاعية مكتفين بتحصين الحدود الشرقية لصد هجمات النهب الأسيوية ، وغارات البدو ، واستمرت هذه السياسة معمولا بها إلى عهد الدولة الحديثة ، حين فرضت الظروف والعوامل الخارجية على مصر ضرورة اجتياز حدودها إلى خارج أراضيها ، والتخلى عن سياستها التقليدية .

إلى أول عالم شرقى تاريخى انتمت مصر " كيمى " ، ومثلت أحد أطرافه الكبرى . فى حين مثلت الطرف الآخر بلاد الرافدين "سومر" و"أكاد" ، وبينهما ازدهرت لبنان " نيجا " وكنعان (١٠) ونظرة خاطفة إلى الخريطة الجغرافية كافية لتوضيح السبب فى انتماء مصر عبر تاريخها المعروف إلى آسيا الغربية أكثر من انتمائها إلى أفريقية ، فمن السهل أن تنتقل الثقافة والتجارة إليها من بلاد آسيا بطريق البحر المتوسط ، ومنها إلى تلك المناطق ، فى حين تعترض الصحراء وجنادل النيل طريق مصر إلى سائر بلاد أفريقية (١١) ، ومنذ منتصف الألف الرابع كانت مصر وبلاد ما بين النهرين مركزى ثقافة وحضارة زراعية ، علاوة على كونهما مركزى حياة تجارية نشطة ، فموقع بلاد الرافدين الجغرافى فى قلب آسيا الغربية مكنها من تبوَّ مركز الثقل الاقتصادى فى العالم الشرقى الأول . وأما وادى النيل الممتد نحو الجنوب ، فاختزن منتجات أفريقيا الاستوائية والشرقية معا ، وفى هذين البلدين ازدهرت التجارة الداخلية ، بفضل المواصلات النهرية، مما ساعد إلى حد كبير على تطور حضارة كل منهما، ولم تعق الصحارى والبحار التى تفصل مناطق الفرات والنيل حركة التبادل التجارى بين البلدين ، كما ترتب على هذا التبادل التجارى بينهما

ازدهار مراكز زراعية وتجارية أخرى فى المناطق الوسيطة أو المجاورة ، لبنان وعيلام وشرق الأردن والنقب (١٢)

وفى مرحلة ما قبل التاريخ الأخيرة حوالى ٥٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق ٠ م تزامنت حضارات مصر وبلاد الرافدين ، كل منهما مع الأخرى، وفى حين تمكن ملوك مصر الجنوبية من توحيد مملكتى الشمال والجنوب فى وحدة سياسية واحدة تحت سيادتهم ، لم تتمكن بلاد ما بين النهرين من تحقيق الوحدة السياسية، وأقصى ما أمكنها التوصل إليه فى نفس التاريخ تقريبا حوالى عام ٣٣٠٠ ق ٠ م أنه لم يبق من المدن المستقلة العديدة التى أنهكها الصراع سوى العواصم الملكية الكبيرة ، مع انتماء سكان هذه المدن إلى مجموعتين جغرافيتين ولغويتين متميزتين ومتعاديتين ، بلاد سومر فى الجنوب البحرى ، وبلاد آكاد فى وسط البلاد ، هذا الوضع السياسى للبلدين مهد الطريق أمام مصر لبسط نفوذها على المستطيل السورى ، والالتزام بسياستها التقليدية السلمية ، ولم تلجأ مصر إلى أى سياسة أخرى إلا خلال الفترات التى تمكنت فيها بلاد الرافدين من توحيد قواها فى وحدة سياسية ذات أهداف معلنة تسعى للسيطرة على الممرات التجارية أو ضم الأراضى التى تفصلها عن البحر المتوسط مما يشكل خطرا داهما على مصالح مصر الحيوية ، ويهدد نفوذها وهيمنتها على مجالها الحيوى فى سورية الجنوبية ولبنان ٠

وفى حين دخلت كل من مصر وبلاد ما بين النهرين من بوابة التاريخ ومع كل منهما دينه وكتابته الخاصة وحضارته التى ازدهرت على طمى الأنهار ، بدأت الحياة المدنية بداية عهدها فى فينيقية وكنعان ، وبصفة خاصة فى بيبلوس " جبيل " بتأثير الوافدين الجدد إليها من المناطق المنجمية فى أرمنيا والقفقاس ، الذين تمتعوا بالحيوية والمهارة، وتمكنت جبيل من استثمار الغابات التى تفتقر مصر إلى أخشابها لبناء السفن وصنع التوابيت ومنتجات التحنيط ، معتمدة على التبادل التجارى ، ولقد نجحت من البداية فى لفت أنظار مصر إلى أهميتها ، كمجال اقتصادى

حيوى (١٣) .

ومن الطبيعى مع نمو العلاقات التجارية بين مصر وبلدان آسيا فى الشرق القديم ، أن يؤثر نمو هذه العلاقات على تبادل التأثير الحضارى والثقافى ، ولقد بالغ بعض العلماء فى مدى هذا التأثير ، إلى حد نفى خصوصية الحضارة المصرية ، إلا أنه يتضح من المعطيات التى وفرها علم الآثار أن الانتقال من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية بمصر جاء نتيجة تطور بطىء ، ولم يحدث نتيجة طفرة حادة جلبت معها أساليب تكنولوجية جديدة ، لاسيما فى مجال التعدين وبنى المجتمع ، فتنظيم المجتمع المصرى فى حواضر زراعية ، واستخدام الطوب، ومعرفة الكتابة مما تنسب أصوله إلى بلاد ما بين النهرين ، ترجع بسهولة إلى نوع من أنواع التفاعل الحضارى ، فوجود أختام اسطوانية فى مصر ترجع إلى عصر " جمدة نصر" فى بلاد النهرين ، منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، إنما يدل على العلاقات التجارية القائمة بين البلدين خلال هذه الفترة، وتأكدت أيضا بالتبادل التجارى مع سوريا وفلسطين ، ولا يمكن الاستناد إلى شهادات منفصلة للبرهنة على غزو أو احتلال ، فأسلوب زخرفة سكين جبل العركى والمحفوظ حاليا فى متحف اللوفر يشبه حقا زخارف بلاد ما بين النهرين ولكنه المثال الوحيد فى سلسلة من المصنوعات العاجية ذات التصاوير والموثقة توثيقا جيدا ، ومن الوثائق التى يتم الاستشهاد بها على تأثيرات بلاد النهرين ، إحدى قطع العاب التسلية التى ترجع إلى العصر الثينى ، وقد تم اكتشافها فى " أبورواش" وتمثل منزلا غطيت مبانيه بسقف له انحدار مزدوج خصص لانسياب الأمطار ، ولكن هذا المثال فى رأى جريمال لايعتبر برهانا سديدا حيث يمكن اعتباره مجرد قطعة مستوردة إلى جانب مالا ينبغى إغفاله من تعرض مصر هى الأخرى لهطول الأمطار الغزيرة فى تلك الحقبة ، كما لم يكن المصريون بحاجة للذهاب بعيدا بحثا وراء فن صناعة الطوب فقد

توصلوا إليه هم أيضا خلال الألف الخامسة قبل الميلاد (١٤) والخلاصة أن حضارات ما قبل التاريخ الأخيرة فى الشرق ٥٠٠٠ - ٣٥٠٠ ، أى الحضارة المصرية الأنيوليتية الثانية ، ومعاصرتها الحضارة الأنيوليتية فى سوز الثانية ببلاد النهرين هى صنيعة الشعوب الأصلية فى كل من دلتا النيل وهضبة عيلام . وكذلك حضارات الفترة الانتقالية للتاريخ التى تلت عام ٣٥٠٠ ق . م صنعها أيضا سكان وادى النيل كما صنعها سكان بلاد الرافدين(١٥).

رحلات الصيف

تدل الشواهد على استمرار العلاقات التجارية مع سوريا وفلسطين ، القائمة كما رأينا منذ مرحلة ما قبل التاريخ ، ونموها باطراد فى العصر التاريخى ، الذى بدأ بعهد الأسرة الأولى والثانية ، العهد الثينى - وامتد لخمسة قرون تقريبا من عام ٣٢٠٠ إلى عام ٢٧٠٠ ، واستهل الملك "نعرمر" أو " عحا " حكم الأسرة الأولى ، حيث يعتقد البعض أن الاسمين لشخص ملك واحد ، ينسب إليه حجر بالرمو سفنا مصنوعة من الخشب اللبنانى (١٦) ، وهى على غرار السفن التى يصف حجر بالرمو عودتها من بلاد سوريا فى عهد الملك " سنفرو " أول ملوك الأسرة الرابعة ، مما يوحى بمحافظة ملوك هذه الأسرة على نمو واطراد العلاقات التجارية مع مناطق الشام ، عن طريق فينيقية ، فلقد أرسل سنفرو حملة من أربعين سفينة لجلب أخشاب " بيبلوس " لاهتمامه بتشييد السفن ، وبناء القصور والحصون والمعابد ، وعلى مدى عامين كما ورد بحجر بالرمو أيضا صنعت عدة سفن ، يبلغ طول كل منها نحو مائة ذراع من خشب الأرز والمر المجلوب من لبنان ، عدا ستين سفينة أخرى أقل حجما بنيت على نموذج السفن النيلية ، إلا أنها أكبر حجما ، وأثقل وزنا ، بما يتفق مع الغرض منها ، وعلى جدران معبد الشمس للملك " ساحو رع " من ملوك الأسرة الخامسة تطالعنا نقوش السفن مرة أخرى (١٧) ، حيث انفتحت مصر على الخارج فى عهد هذه الأسرة ، وتشعبت علاقاتها شمالا وجنوبا، مع اتباع سياسة خارجية نشطة مع مناطق الشام ، كما بدأت العلاقات التجارية مع عالم بحر إيجه فى عهد الملك " أوسر كاف" والتى ما

كان لها أن تقوم إلا بتوطيد النفوذ المصرى فى "بيبلوس" ، ولقد تم العثور فى معبد أوسر كاف الجنائزى على آنية مجلوبة من جزيرة "كيثيرا"، وجرت الأمور فى إطار هذه السياسة المستقرة خلال عهود باقى ملوك الأسرة الخامسة : "أسيسى " و " أوناس " ومن بعدهم ملوك الأسرة السادسة.(١٨)

على امتداد تاريخ حكم الأسرة الأولى والثانية وحتى نهاية الدولة القديمة (الأسرات ٣ - ٦) التى امتد حكمها زهاء الخمسة قرون أيضا ، والرحلات إلى سوريا وفلسطين وبيبلوس تبدأ من المدن العظيمة التى أنشئت منذ عصر ما قبل الأسرات عند مصبات فروع النيل ، وعلى شواطىء الدلتا ، كمدينة ، "متليس" (فوة) ، ويرمز إليها بالخطاف والقارب على لوحة نعرمر ، ومدينة صا الحجر وأبوصير وغيرهما ، وقد بنت هذه المدن ثراءها على تبادل السلع مع مدن سواحل سوريا بتنشيط التجارة الخارجية ، والاعتماد على التجارة الداخلية مع مقاطعات الوجه القبلى ، ويلاحظ أن اسم السفينة فى اللغة المصرية " كبنت " نسبة إلى "كبن" أو بيبلوس الفينيقية ، وكانت الرحلة فى البحر نحو سوريا تتم فى شهرى مايو ويونية مع الرياح الجنوبية ، والجنوبية الغربية ، وتستغرق أربعة أيام تقريبا إلى مرافىء " بيبلوس " ، تقطع السفن فيها نحو خمسمائة وخمسين كيلو مترا (١٩) ، أما السلع المستوردة فتشمل إلى جانب الأخشاب زيت الزيتون والنبيذ ، وهى من السلع التى بدت بين المحاصيل المنقولة بأسطول الملك " ساحو رع " ، ولم يغفل الأمير " أونى " قائد الحملة العسكرية على فلسطين فى عهد الملك بيبى الأول من ملوك الأسرة السادسة عن ذكر كروم فلسطين ، كما اعتمدت مصر على فينيقيا فى استيراد أنواع الصمغ من منحدرات جبال لبنان التابعة لاقليم بيبلوس، وقد عثر فى مقابر العصر الطينى على أوان تدل أشكالها حسب فحص المختصين على أنها غير مصرية ، ومن المرجح استيرادها من تلك

البلاد ، أما اللازورد المنعدم فى جبال مصر فلا بد أنه استورد من بلاد آسيا منذ عصر قبل الأسرات ، وسوف نجده ضمن النفائس المقدمة من تلك البلاد على سبيل الجزية للفراعنة فى عهد الدولة الحديثة. (٢٠)

أكدت الحفائر التى أجريت فى بيبلوس " جبيل " اطراد ونمو العلاقات التجارية بين مصر والشام على امتداد هذه الفترة المديدة ، ففى أساس معبد بيبلوس عثر على بلط من الحجر المصقول وسكاكين من الظران ، ولوحات وخرز من الذهب والبلور الصخرى وأشياء عديدة أخرى مماثلة لتلك التى كشف عنها بأرض مصر وترجع إلى عصر ما قبل الأسرات ، كما عثر فى مقابر بيبلوس على آثار من طراز صناعة نفس العصر ، استمر استعمالها فى وادى النيل إلى ما بعد عهد الملك " مينا " واكتشفت قطعة أثرية تحمل اسم الملك " خع سخموى " من ملوك الأسرة الثانية ، وفى أساس المعبد أيضا عثر على قطع أثرية ومجموعة قرابين من أصل مصرى ، وخراطيش فرعونية ، وزهريات عليها أسماء ملوك الأسرة الرابعة ، منها إناء من حجر الديوريت ، ونقش بخرطوش الملك خوفو ، وقدح من البلور الصخرى حفر عليه بإتقان اسم الملك " منكاو رع " ، وقطعة أثرية من المرمر عليها ألقاب الملكة "مريت اتس " زوج " سنفرو" ثم زوج " خوفو " من بعده ، وكذلك إناء مرمرى نقش عليه ملك الوجهين القبلى والبحرى " وناس " عاش أبديا ، وهذا النقش يتفق مع صور السفن البحرية التى اكتشفت فى طريق معبده الجنائزى فى حفائر سقارة ، كما يتفق مع رسوم معبد الملك " ساحو رع " حيث تبرز النقوش قطع الأسطول المصرى بعد عودتها من مناطق المستطيل السورى ، وهى تحمل اسيويين ، رجالا ونساء واطفالا ، إلى جانب السلع اللبنانية المعتادة .

ومن اليسير من واقع الشواهد التاريخية الاستدلال على أن نفوذ مصر قد تطور وامتد تدريجيا مهيمنا على شبه جزيرة سيناء ، وسهول فلسطين الواقعة بين البحر الميت وساحل يافا وعسقلان وغزة، بل وحتى

سفح جبال الكرمل ، حيث سار " أونى " القائد الشهير بجنوده ، مما يؤكد على أن بلاد فلسطين الجنوبية أصبحت تابعة للفراعنة ، لاسيما خلال النصف الأخير من عهد الدولة القديمة ، وإن لم يكن نفوذ المصريين وسلطانهم عظيما فى بيبلوس مقارنة بفلسطين ومن غير المستبعد قيام المصريين بتأسيس مستعمرة صغيرة فى بيبلوس توطيدا للعلاقات التجارية بين البلدين (٢١)، لكل هذه الاعتبارات شعر الفراعنة بأهمية مراقبة الأوضاع فى هذه المناطق الحيوية للاقتصاد القومى ومتابعة حركات الأقوام والقبائل تحسبا لأى أمر من الأمور يمثل خطرا على أمن مصر ، أو يتسبب عنه المساس بمصالحها ، وبادر الفراعنة بالقضاء على أى حركة عدائية بإرسال حملات التأديب التى لاتستهدف احتلال الأراضى ، بل قمع العصاة والمتمردين الذين يهددون تلك المصالح .

مذكرات قائد حملة

فى نهاية الأسرة الأولى ، انتهج الملك " دن " (خاستى) سياسة عنيفة فى علاقاته بدول الشرق الأدنى ، ففى السنة الأولى من حكمه قاد حملة أسيوية ، عاد منها مظفرا ، وجاء اختيار اسمه النيسوبيتى بصفته ملكا للوجهين القبلى والبحرى متأثرا بنشاطه الحربى فى سوريا إلى جانب حملاته ضد بدو سيناء ، فلقب باسم " خاستى " أى الأجنبى أو رجل الصحراء ، وحرفه الإغريق إلى " أوسافيس " كما ورد عند مانيتون (٢٢) ومن الملوك المحاربين ايضا الملك " ساحو رع " ثانى ملوك الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق ٠ م) ، إذ عثر له فى شبه جزيرة سيناء على لوحة تصوره مرتديا تاج الوجه القبلى وهو يضرب الأسيويين ، وعلى جدران معبد الشمس الذى أقامه بأبى صير تدل النقوش على إرساله أسطولا إلى ساحل فينيقية ، إلا أن هذه الحملة لم توصف على جدران المعبد بالتفصيل فلم يمثل منها غير خروجها من مصر ورجوع الجيش منتصرا ، فنجد الفرعون على رسوم المعبد يتقبل غنائم الأسيويين فى لفيف من رجال بلاطه والشخصيات العظيمة ، كل ثلاثة منهم يكونون جماعة وكذلك نشاهد فصائل الجند كل فصيلة منها تحمل شعارا خاصا ، أما المناظر التى توضح أطوار الحرب بين الأسيويين والمصريين فنجدها على جدران مقبرة " انتا " فى دشاشة التى ترجع إلى عهد ذلك الملك الحربى ، حيث تصور نقوش المقبرة المصريين وهم يغزون مكانا فى آسيا يسمى " نديا " لم يحدد العلماء موقعه - ونرى أولا المصريين يحاربون الأسيويين محاربة القرن للقرن والرجل للرجل ، ثم ينتهى الأمر بانتصار

المصريين ، وفرار الأسيويين ثم احتمائهم بقلعة " ندیا " فيحاصرها المصريون محاصرة فنية منظمة ، ويثقبون جدرانها بواسطة خوابير مدببة من الخشب ، ثم يستعملون سلالم طويلة للهجوم النهائى على القلعة ، ويقبل المنهزمون على رئيسهم ويخبرونه بمصير القلعة ، فيشد شعر رأسه يأسا ، ونشاهد النساء يحملن القتلى ويسعفن الجرحى ، وبعد إحراز النصر يقود المصريون عددا من الأسرى رجالا ونساء وأطفالا . ومن المرجح أن القلاقل فى منطقة الشام استمرت خلال فترة حكم الأسرة الخامسة ، فلقد ترك الملك " نوسر رع " لوحة فى وادى مغارة يظهر فيها وهو يضرب الأسيويين ، نقش عليها " قاهر الأسيويين من كل الأقطار"، ولقد حلى معبد هرمه فى أبى صير بنقوش تتحدث عن انتصاراته على اللوبيين والأعداء من سوريا ، ومن الطبيعى أن تؤدى السياسة الحازمة التى لجأت إليها الأسرة الخامسة إلى تعاظم دور القادة العسكريين ، مما جعلهم يتجاسرون على نقش أسمائهم بجوار اسم الملك وهى ميزة اقتصرت دائما على الفراعنة ، فبداية من عهد الملك " منكاو حر" الذى خلف الملك " نوسر رع " يمكن رصد هذه الظاهرة ، فاللوحة التذكارية للحملة التى أرسلها " منكاو حر" إلى شبه جزيرة سيناء ، تجرأ قائدها على نقش اسمه لأول مرة فى التاريخ بجوار اسم مليكه وإن كان قد عثر عليه ممحوا ، أما لوحة خلفه الملك " أسيسى - ذدكا رع " والتى عثر عليها فى سيناء أيضا فلقد احتفظت باسم الضابط الأول قائد الحملة " نى عنخ خنتى خت " منقوشا بجوار اسم الملك (٢٣) .

استمرت الأوضاع متردية فى سوريا وفلسطين بعد نهاية الأسرة الخامسة ، ومع بدايات الأسرة السادسة (٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق . م) اضطر الملك بيبى الأول ثالث ملوك هذه الأسرة إلى إرسال حملة عسكرية إلى فلسطين تعد الأولى من نوعها فى تاريخ مصر إن لم يكن فى تاريخ العالم ، إذ تعد أول حملة عسكرية تشترك فيها القوات البرية مع الأسطول

البحرى ، فلقد فطن المصريون إلى الميزة التى يحققها الجيش من نقله بواسطة البحر إلى نقطة الهدف مباشرة ، مما يحقق له عنصر المباغتة الكاملة لعدوه محتفظا بقواه كاملة دون أن يبددها فوق الطرق الصحراوية الوعرة والطويلة ، وترك لنا القائد " أونى " أعظم نقوش هذه الفترة ، وقص علينا مآثره التى حققها فى عهد بيبى الأول ، وما يهمنا هنا هو ما أورده من أخبار عن الحملة التى قام بها فى فلسطين :

" لقد قام جلالته بحملة تأديبية ضد الأسيويين رؤساء الرمال ، وقد جهز جلالته جيشا مؤلفا من عشرات الآلاف من الرجال من كل الوجه القبلى من أول الفنتين فى الجنوب حتى أطفيح شمالا " ومن الوجه البحرى أيضا ، وقد جندتهم إدارة جيش المرتزقة بأجمعهم فى القلعة فى داخل القلاع ، من بين نوبى بلاد أرمنت والمجا و " ايام " و " واوات " و"كاوو" ومن بلاد لوبية " ... " وقد وضع جلالته الجيش تحت إمرتى على حين أنه فيه الأمراء .... ، وكان كل منهم على رأس فيلق من قلاع الوجه القبلى والبحرى والضياع التى يحكمونها ، وعلى رأس " النحسى " (الزنوج) من البلاد الأجنبية ، وقد كنت أنا أسهر على نظامهم مع كونى كنت مدير أوقاف القصر ، وبسبب مكانتى لم يأخذ أحد مكان جاره ، ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلا من السابلة ، ولم يأخذ واحد منهم ملابس من أية بلدة ، ولم تغتصب ماعز أى شخص.

وقد قدت هؤلاء الجنود بطريق جزيرة الشمال ، وبوابه " أمحوتب " وصقع سنفرو .. وقد استعرضت كل فيلق من هؤلاء الجنود أمامى " على أنه لم يحدث ان خادما (الملك)قد استعرض جنودا من قبل مثلى .

لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن خرب بلاد البدو ، لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن نهب سكان الرمال .

لقد عاد هذه الجيش سالما بعد أن أزال قلاعهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن قطع أشجار تينهم وكرومهم. لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن حمل الحديد والنار بين كل سكانهم ، لقد عاد هذا الجيش سالما بعد

أن ذبح كل جنودهم بعشرات الألوف العدة ، لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن جاء معه بجنود عدة أسرى ولقد أثنى على جلالته لهذا أكثر من أى شىء، ولقد أرسلنى جلالته خمس مرات لقيادة هذا الجيش لسلب بلاد البدو فى كل مرة يثورون ومعى فصائل من الجنود ، وقد عملت بطريقة امتدحنى جلالته من أجلها .

وقد حدث أن جاءت الأخبار بأن ثورة انفجرت على إثر حادث ما بين المتوحشين فى جهة الكرمل (بلاد أنف الغزال) وعلى إثر ذلك أبحرت فى سفن البحر ومعى فصائل جنود . ونزلت خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمالى بلاد سكان الرمال، وعندما سار هذا الجيش على المرتفعات سرت وقبضت على الثوار بأكملهم وقضى على كل العصاة (٢٤) .

فى إشارة موجزة إلى سبب قيام بيبى الأول بإرسال هذه الحملات إلى فلسطين ، يرجح د. سليم حسن الدوافع السياسية إلى دخول هجرات من الشمال الشرقى من " سوبو تاميا " بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ، وتوقع الفراعنة تدفقها من الحدود المصرية ، مما اضطرهم للتصدى لها لمنع غزوها للوادى . واكتفى د. سليم حسن بهذا الإيجاز عن تقصى التفاصيل ، فالحقيقة الثابتة منذ ما قبل التاريخ تؤكد على تفاعل مصر سياسيا مع الأحداث الجارية فى الدول المحيطة بها ، بمنطقة الشرق الأدنى ، ويشكل هذا التفاعل بصفة عامة تاريخ مصر السياسى .

فى أوج احتدام موجة الهجرة السامية الكنعانية الثانية حوالى عام ٢٩٠٠ ق . م ، التى وطنت الكنعانيين فى فلسطين ، والفينيقيين فى لبنان، والأموريين فى سوريا ، والأكاديين فى بلاد ما بين النهرين ، فى تلك السنوات بالذات نقلت مصر عاصمتها نحو الشمال ، من عبيدوس إلى منف ، مما دفع مانيتون إلى اعتماد هذا التغيير سببا فى قيام الأسرة الثالثة ، معتبرا زوسر مؤسسا لها ، على الرغم من عدم وجود أى انقطاع

بينها وبين الأسرة الثانية الثينية ، التى لم تتعرض لتدهور ، ولم تهز أركانها ثورة ، ولم يقوض حكمها غزو ، كما أن زوسر لم يكن مغتصبا لحكم ، فهو الوريث الشرعى لسلفه الملك " خع سخموى " آخر ملوك الأسرة الثانية(٢٥)، فما من سبب آخر لنقل العاصمة غير استجابة مصر السريعة ، ورد الفعل السياسى المباشر ، على مجريات الأحداث فى المستطيل السورى ، وفى فلسطين على نحو أخص .

ولقد تزامن تاريخ الحملات المصرية على فلسطين، مع ولادة الاستعمار المابينهرى وسعيه للهيمنة على تلك البلدان . فالحملات العسكرية للأسرة الخامسة عاصرت إمبراطورية أكاد التى أسسها سرجون الأول ، وغزوات حفيده " نارام سين " ، أما حملة " أونى " خلال عهد الأسرة السادسة فتزامنت مع اجتياح برابرة الجودى لإمبراطورية ما بين النهرين . لم تكن تلك الحملات من قبيل الحملات التأديبية ضد البدو المغيرين على مناجم سيناء ، أو المتسللين إلى الدلتا ، فهى حملات عسكرية منظمة ، تقوم بها جيوش نظامية ، تعود إلى مصر بعد القيام بمهامها منتصرة على أعداء منظمين بدورهم بشكل جيد. وتظهر النقوش مرحلة الحشد وإبحار القوات المصرية على سفن الأسطول ، وعند عودتها تستعرض الغنائم ، ومن بينها الأباريق الكنعانية ذات الآذان ، وزعماء أسرى ذوو ملامح وألبسة سامية ، وهم ينحنون بخشوع بين يدى الفرعون ، وايديهم تخفى وجوههم المنبهرة، وتحدد النقوش اسم هؤلاء الأسرى " الآمو" أى الأسيويين ، ونلاحظ ظهور أسماء أخرى الـ "فنخو " للإشارة إلى المهزومين على الشاطىء الكنعانى ، وهو الاسم الذى يرى البعض فيه أصل الكلمة " فوانيكس" الدالة على كنعانى الشاطىء الشمالى ، أى الفينيقى ، كما تظهر النقوش بعد عام ٢٦٠٠ ق . م ، صورا أخرى للقلاع الكنعانية التى يحاصرها المصريون، الحامية مؤلفة من ساميين ذوى لحى وشعر طويل، يلبسون عباءات ، وهم مسلحون بالأقواس والهراوات، والمصريون يقتحمون القلاع بواسطة السلالم ، ورمايات المنجنيق ، أما القائد " أونى " فى حملته على منطقة

رأس الكرمل " أنف الغزال" فلقد اضطر إلى خوض خمس جولات قبل أن يحسم المعركة لصالحه ، ويبدو " أونى " فى نقوشه معتزا بأداء رسالته، وإنجاز مهمته دون أى تجاوزات لجنوده ، فلم يسلب أى منهم خبزا ولم يسرق أى رجل من أية مدينة ، ولم يتعد على ممتلكات السكان والأهالى، ومن حق " أونى " أن يفتخر بانضباط قواته وأن يتباهى بأخلاقياته فى وقت كان القادة يفتخرون فيه بأعمالهم البربرية التى ارتكبوها أو سمحوا بارتكابها، من بلدان تخرب وتدمر وتحرق سكانها ، ومهزومين يذبحون وتقطع رؤوسهم أو تسلخ جلود رؤوسهم ، أو يعذبون ويشوهون وتقطع آذانهم وألسنتهم أو تفقأ عيونهم هذا الاعتدال الذى أبداه الجيش المصرى تجاه السكان الأصليين يبرهن بقوة على أن العدو الحقيقى لهذه القوات ليس الكنعانى ، بل هو خصم آخر ، دفع مصر للتخلى عن تقاليدها السلمية تحسبا لخطر يهدد أمن الوادى وتمثل هذا الخصم فى النهج التوسعى لملوك بلاد ما بين النهرين ورغبتهم فى السيطرة على بلاد ما بين النهرين وبلاد أمورو وبلاد كنعان أى ما يسمى باللغة المعاصرة سوريا الكبرى والهلال الخصيب.(٢٦)

وصل رافد من الموجة السامية الثانية التى اندفعت إلى المستطيل السورى عام ٢٩٠٠ ق٠م إلى بلاد ما بين النهرين الوسطى ، حيث يقيم الساميون المحليون ، وما إن تعزز العرق السامى القديم بوصول هذا الرافد حتى أصبح على درجة من القوة سمحت له بمعاداة السومريين ، وحوالى عام ٢٧٢٥ ق٠م قام سرجون الأول (شاروكين) بخلع أمير كيش وأعلن نفسه ملكا لأكاد وهى مدينة جديدة أسسها بجوار مدينة كيش ، ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد تعرف باسمها بلاد أكاد ، وأصبح الساميون المحليون يعرفون باسم الآكاديين ، وتمركز هؤلاء فى بلاد ما بين النهرين الوسطى ، بينما تمركز السومريون فى منطقة ما بين النهرين السفلى ، تم زحف سرجون لمواجهة الملك السومرى (لوغالزا جيزى) وخلعه وأسره عام ٢٧٢٥ ق٠م واستتب ملكه على أكاد وسومر ، وخضعت

له كل بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى ، ثم ارتد نحو الغرب واحتل العاصمة الكبرى " مارى " على الفرات ، وتقدم نحو سورية العليا أو بلاد " أمورو " حتى بلغ البحر المتوسط ، ولقد خضعت له لاحقا بلاد ما بين النهرين العليا " آشور" كما أرسل حملة وراء جبال طوروس بعد أن استنجد به التجار الساميون هناك، وتدل النصوص على نجاح هذه الحملة العسكرية فى مهمتها فى آسيا الصغرى ، ثم اجتاز سرجون الخليج العربى واحتل جزر البحرين ، ونزل شرق الجزيرة العربية حيث فرض حمايته على " ماجان " و " ملوخه " ولم يقلق سرجون من الهيمنة المصرية على بيبلوس ، واتصل تجاريا عبر جبيل عن طريق البحر مع دلتا النيل . وظل التوسع الما بينهرى توسعا اقتصاديا محضا، وتعرضت إمبراطوريته فى نهايات عمره لانشقاقات وفوضى بفعل الثورات والمجاعات، ولم يستطع ولداه اللذان توليا من بعده العرش تباعا إلا إعادة الأمن إلى بلاد سومر وعيلام ، حتى استطاع نارام سين حفيده من استعادة وحدة الامبراطورية،بل واتخذت الإمبراطورية مفهوما جديدا ، فلم يعد نارام سين مجرد لوجال لأكاد (ملك)، فلقبه الجديد " ملك المناطق الأربع " "وملك الكون"، وهى ألقاب توسعية ذات دلالة على تطور سياسة ملوك أكاد، وسعيهم لتوطيد أركان إمبراطورية كبرى تهيمن على الاتجاهات الأصلية الأربع، سومر فى الجنوب وسوبارو فى الشمال وعيلام فى الشرق وأمورو فى الغرب .

ويستدل من حفريات قرب ديار بكر على اتساع رقعة الإمبراطورية وامتدادها نحو جبال أرمينيا ، وترد للمرة الأولى إشارة إلى بلاد الآراميين وملك آرام ، هذا التوسع السياسى والاقتصادى الموجه نحو المناطق السورية فجر النزاع بين إمبراطورية بلاد ما بين النهرين ومصر، إلا أن إمبراطورية نارام سين بدأت تتزعزع قبل وفاة الإمبراطور، وقام تحالف بين كل الشعوب المجاورة ومن بينهم ساميو أمورو أو سوريا العليا، وبدأ انهيار الصرح الإمبراطورى فى عهد خليفته، وتقلصت أملاك

الإمبراطورية، لتقف عند حدود بلاد ما بين النهرين نفسها، وتنازل الملك عن ألقابه الرنانة وعمت الفوضى تماما بعد وفاته، واستمرت تلك الفوضى زهاء الأربعين عاما . ولم تلبث جحافل الجوتى البرابرة ان انحدرت من جبال زاغروس ،مشكلة أول موجة تاريخية تفد من تلك الجبال ، لتجتاح السهول الزراعية لأراضى النهرين وتفرض سيطرتها على البلاد لفترة تجاوز ١٣٢ سنة (٢٥٠٢ - ٢٣٧٠) .

إن إرسال جيوش مصرية فى حكم بيبى الأول إلى شاطىء فلسطين الشمالى لم يستهدف قتال السامى البدوى ، بل حاربت هذه القوات كنعانيين حضرا مزودين بالأقواس والهراوات محصنين فى قلاع ومقيمين فى بلد مزروع ذى حضارة ومدنية. وهذه العمليات العسكرية المناقضة للتقاليد السلمية لمصر لايمكن فهمها إلا بافتراض أحداث تهدد أمن وادى النيل ، ومما لاشك فيه أن كنعان كبلد صغير أقل من أن تشكل خطرا يهدد الأمن المصرى ، فالخطر الذى استشعره فراعنة مصر له جذور أعمق وأبعد يتمثل فى مطامع التوسع الإمبراطورى لإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين المتعاقبة واندفاعها نحو سورية وفينيقيا وفلسطين . ولا أدل على ذلك من تزامن العمليات العسكرية المصرية مع نشوب وميلاد الإمبريالية السياسية والعسكرية لبلاد ما بين النهرين . فبمجرد قيام امبراطورية شرقية كبيرة تسيطر على الممر السورى - الفلسطينى ، من شأنه أن يشكل خطرا داهما لأمن مصر مما رأت مصر معه المبادرة بالتصدى لأى حلم توسعى بإرسال قوات عديدة منظمة وحسنة، القيادة إلى فلسطين بشكل دورى (٢٧) .

يؤكد موريه هذا التصور مسهبا فى التفاصيل " ما هو سبب هذه الاضطرابات المقلقة فى سورية إلى حد أنه يتم إرسال مثل هذه القوات الكبيرة فى حملة تأديبية من غير نية الاحتلال ؟ فالأمر ليس مجرد اعتداءات قبائل بدوية ، فبلاد كنعان كان يسكنها فى ذلك العصر مزارعون

مستقرون تحميهم مدن حصينة غير أنها مجزأة وتفتقر إلى وحدة إقليمية أو سياسية ، فكيف يمكن لهذا البلد الزراعى الصغير أن يشكل خطرا ؟ لايمكننا الاعتقاد بوجود قوة عسكرية لدى المشايخ الكنعانيين الصغار، غير أننا نعلم أنه وحوالى منتصف الألف الثالث كانت سوريا وفلسطين محط طمع وهجوم من جانب ملوك بلاد ما بين النهرين . فسرجون ملك أكاد احتل الشاطىء السورى (بلاد أمورو) حوالى العام ٢٨٥٠ وأحد خلفائه نارام سين أعاد الكرة العام ٢٧٠٠ كما أنه وحوالى العام ٢٦٠٠ فإن جوديا ملك لاجاش (فى سومر) ورغبة ببناء معبد لالهة نينجير سو ، أرسل حملة حتى جبال امانوس وجبال لبنان للحصول على أخشاب الصنوبر والأرز ، وكان فرعون مصر ساحوا (ساحو رع) قد نقل إلى بلاده شحنة كبيرة من تلك الأخشاب فى ذلك التاريخ نفسه على وجه التقريب ، أما ملوك بلاد ما بين النهرين هؤلاء فكانوا يسمون أنفسهم ملوك أربعة أقطار الدنيا ، وكانوا يجعلون سورية وكنعان فى إطار إمبراطوريتهم ، وقد تعلم الأموريون والكنعانيون فن الحرب فى مدرستهم، إن الأفواج النظامية التى واجهها القائد المصرى عونى " أونى " كان قد دربها ولاريب جنود بلاد ما بين النهرين " وبعدئذ اجتاح جبليو جوتيوم الإمبراطورية السومرية ، وقد قدموا من المنحدرات الإيرانية شرق دجلة (حوالى العام ٢٥٠٠) .. إن قدوم هؤلاء البرابرة .. يعنى أن هجرة عامة فى صفوف شعوب الأناضول وإيران قد تحركت فى شمال شرق بلاد ما بين النهرين ، دافعة أمامها البدو حتى المتوسط ... ومن تلك الصدمات والصدمات المضادة نتجت حالة عدم استقرار فى صفوف سكان سوريا وكنعان ، إلى حد إثارة المخاوف فى مصر من أن تتعرض هى نفسها للغزو ، فأوقف ببيى الأول العاصفة بتدخل جيوشه فى الوقت المناسب" (٢٨)

ويتفق ج . بيرين - كما يذكر جواد بولس فى موسوعته التاريخية - مع آراء موريه ، فهو يرى أن " أغاده (أكاد) عاصمة سرجون وقد

أصبحت مدينة تجارية ومركزا لسياسة توسع اقتصادى كبير ورثته مباشرة من مدن سومر ، لكنها نفذته على نطاق أوسع بكثير بفضل القوة التى تتمتع بها ملكيتها الجديدة ، ولذا فهى رمت فورا إلى الاستيلاء على خطوط الحركة التجارية والأسواق التى كانت تعيش فيها مدن سومر ... فاحتلت الطرق التجارية الكبرى نحو سوبارتو وأمورو (شمال ما بين النهرين) وقد ترسخ النفوذ السومرى فى سوز ، وهى مركز القوافل على طريق الهند ، وامتد إلى سوريا وحتى جزيرة قبرص . ولقد حدا هذا النهج فى التوسع السياسى الذى اتبعته بلاد ما بين النهرين نحو شاطىء المتوسط ، بالفرعون بيبى (الأول) إلى إرسال الحملة العسكرية إلى فلسطين" ، ويشارك أ . دريتون و ج - فانديه فى هذا الرأى أيضا "بعد انتصارات عونى " اونى " كان من الطبيعى أن يرغب فراعنة مصر بمتابعة نجاحاتهم ولكن يبدو أنه قبل قيام الإمبراطورية الجديدة كان الفراعنة يتوخون من حملاتهم العسكرية فى آسيا وسيلة دفاع ليس إلا وأنهم لم يفكروا يوما بممارسة سياسة الغزو ، وما أن تصبح حدودهم الشرقية فى مأمن من الهجمات إثر نصر هام حتى يكفوا عن التطلع نحو الشرق ".

بنهاية الأسرة السادسة انتهى عهد الدولة القديمة ، ويطلق على المائة وخمسين سنة التى أعقبتها " عصر الانتقال الأول " ، وسواء أكانت نهاية الدولة القديمة بسبب الانحطاط البطىء للسلطة الملكية (المركزية) الذى بدأ زحفه فى عهد " بيبى الثانى " المديد الذى كاد أن يناهز المائة عام ، أم بسبب فترة الفوضى الهائلة التى صاحبت انهيار الأسرة السادسة واضطراب نظام وراثة العرش فى عهد الملكة " نيت اقرت " آخر ملكات الأسرة السادسة حسب مانيتون . أم بسبب احتدام الأزمة السياسة والاجتماعية التى عمت ربوع البلاد والتى يرى البعض فيها ثورة اجتماعية، قامت بها أكثر شرائح المجتمع حرمانا بسبب ما تعانيه من ظلم اجتماعى ، فمهما كانت الأسباب بدأت فترة مظلمة من فترات التاريخ المصرى وأن أجيال الجياع ذات المسلك العنيف ظلت سمة مميزة للمجتمع

المصرى فترة طويلة ، ويرجح البعض أن ما حدث جاء نتيجة مؤثرات خارجية وجدت تربة صالحة فى بلد أصابه الوهن ، حيث شهدت نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد مناخا ساحليا أصاب فيما أصاب افريقيا الشرقية على وجه الخصوص ، ونتيجة للقصور والانهيار الذى أصاب السلطة المركزية تضاعفت آثار القحط المدمر ، وعجزت الإدارة المركزية عن الهيمنة على حكام الأقاليم الذين استطاعوا إحراز درجات متفاوتة من الاستقلال ، فأهملوا تطهير القنوات وصيانتها مما أثر على خطط توزيع مياه الفيضان ، مع احتمال انخفاض منسوب الفيضان لعدة سنوات، فتفشت المجاعة وتفاقمت نتائجها ، ومما زاد الأمر سوءا تردى الوضع الخارجى ، مما يعنى توقف النشاط التجارى سواء مع سورية أو فلسطين أو غيرها ، وانهيار العلاقات التجارية مع بيبلوس وشرق البحر المتوسط ، وتوقف نشاط التعدين حيث هجرت المناجم . والأدهى أن البدو الذين حاربهم " أونى" أخذوا يجتاحون الدلتا (٢٩) ، فلقد جذبت رائحة الجثة المتعفنة الغربان الأسيوية ، فاجتاحت الدلتا مجموعات من الآمو الساميين كنعانيين وأموريين ويرجح البعض استيلاءهم على السلطة ، فلقد وجد بترى فى الدلتا مجموعة كبيرة من النصب والشواهد الأثرية الصغيرة منها اسطوانات لم تكن تستخدم فى مصر إلا فى عصور نمو العلاقات مع المستطيل السورى خلال العصر العتيق أو عهد الأسرة السادسة ، وصور رجال ذوى شكل غير مصرى مألوف فى فن الحفر بسورية والكبادوك ، مثل هذه الأشياء التى وجدت فى مقابر الأسرة السادسة تزايدت فى عصر الانتقال الأول فى الدلتا ومصر الوسطى ، ومن هذه النماذج رجل جالس يمسك بقصبة يستخدمها فى الشرب ، تتدلى على عنقه ضفيرة شعر مربوط كذنب الخيل مثــل السوريين - الحيثيين ، كما عثر على حجر اسطوانى من اليشب الأخضر يظهر ملكا بملابس مصرية ويعتمر بقبعة فرعونية يقدم علامة الحياة إلى منخرى شخص إلهى يرتدى ثوبا صوفيا كالزى الوطنى للسوريين وأهالى بلاد مابين النهرين والكبادوك، أما

خرطوش الملك فيحمل اسم " خندى " سادس ملوك الأسرة الثامنة بحسب قائمة ابيدوس ، ويستخلص " موريه " من النتائج التى توصل إليها " بترى " أن غزوا من السوريين الأموريين احتل الدلتا وأن السلالة الثامنة .. قد تكون سلالة من الملوك الأموريين استقروا فى شمال مصر ، وأن المظهر السامى لبعض أسماء الملوك هو شىء أكيد ... فالغزو الأسيوى للدلتا تؤكده بوضوح نصوص أدبية تعود إلى ذلك العصر وتصف حركة ثورية حرضت العامة على الملكية المنهارة (٣٠)، أما بالنسبة إلى أصل هذه الغزوات أو الهجرات ، فوثائق بابل وآشور وخطى كشفت حديثا عن تحركات كبرى للشعوب فى سورية وكنعان خلال القرون الأخيرة من الألف الثالث ، وقد انهمر الغزاة الساميون - الأموريون على البلدان المزروعة فى دلتا النيل ، فى عصر الانتقال الأول ، وكذلك تدفقت على بلاد ما بين النهرين واندمجت مع العناصر السامية المحلية - الأكاديين ، الذين تعززوا ونشطوا بفعل هذا الدمج مما مكنهم من التفوق على السومريين ، وخلال فترة الاستقرار التى أعقبت هذه الاضطرابات الكبرى ، نهضت إمبراطوريتان جديدتان فى وادى النيل والفرات ، إمبراطورية طيبة المصرية أو الدولة الوسطى والإمبراطورية البابلية الأولى (٣١) (وسنعود إلى هذا الموضوع بتفصيل أكثر فيما بعد).

يذهب بعض المؤرخين الجدد إلى أن تحركات الأموريين لم تكن إلا نتيجة من نواتج التبدلات المناخية الشاملة - فالأموريون ليسوا جماعات غريبة وفدت إلى بلاد الشام من هجرات الجزيرة العربية ، بل هم أهل المناطق التى نكبها الجفاف فهجروا أراضيهم الزراعية وتحولوا إلى حياة الرعى والتنقل وخصوصا فى فلسطين وسورية الجنوبية التى تلقت أقوى ضربات الكارثة المناخية ، ومن هؤلاء شرائح معدمة ارتحلت باتجاه الدلتا المصرية أو باتجاه الفرات ، ويؤكد توماس ل. تومسون أنه حتى أواسط السبعينات من القرن العشرين كان البحث الأركيولوجى والتاريخى يعالج

أحداث الفترة الانتقالية من خلال نظرية الهجرات البدوية من شبه الجزيرة العربية ، كما ربط العديد من الباحثين هذه النظرية بالنصوص المسمارية التى تتحدث عن جماعات الأمورو ، وبالنصوص الهيروغليفية التى تتحدث عن جماعات العامو، وبذلك تم اختراع تاريخ لهجرة الأموريين ، فتحت الاسم عامو جعلوا أحد العناصر الرئيسية وراء الأحداث التى مثلت نهاية المملكة القديمة فى مصر ، وتحت اسم الأموريين جعلوا مسئولين عن تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر فى كل من بلاد الرافدين وبلاد الشام ، قبل سيطرتهم المنظمة على الهلال الخصيب وتشكيل ممالكهم الأمورية ... إن هذه الانتقالات تبدو مفهومة أكثر اذا تخلينا عن تفسيرها بغزوات القبائل السامية الدخيلة ، ... لقد تحولت شرائح واسعة من سكان فلسطين مجبرة إلى حياة الرعى فى محاولة للتلاؤم مع حالة الجفاف المتزايدة ومماأدت إليه من مجاعات عبر السنوات العجاف المتوالية إلى مالا نهاية ، وهجرت حياة الزراعة المستقرة وأخذوا ينتشرون فى جماعات رعوية صغيرة عبر سهول أوسع فأوسع ، خلال الهزيع الأخير من الألف الثالث ، كما أجبرت شرائح واسعة منهم على مغادرة فلسطين والنزوح على شكل جماعات متجهة أبعد فأبعد عن موطنها . ومع مطلع الألف الثانى قبل الميلاد تراجعت موجة الجفاف وعاد المناخ الرطب والمطير فى شرقى المتوسط ، مما شجع السكان على العودة إلى حياة الزراعة والاستقرار ، فعادت القرى إلى الظهور فى كل مكان من السهول السورية الخصبة ، وانتعشت الحياة فى المراكز الحضرية الكبيرة على يد العناصر الأمورية وأعيد بناء المدن المهدمة أو المهجورة فى فلسطين ، وسواء أكان هؤلاء الآموريون من أصل محلى أم من أصل خارجى ، فإنهم استقروا فى الأرض وبسطوا سلطانهم على معظم المدن السورية. كما أفلحت العناصر الآمورية التى اجتازت الفرات خلال الفترة الانتقالية فى تأسيس مملكة قوية ببابل ، واستطاع ملوك الأسرة البابلية الآمورية الأولى فى عهد حمورابى توحيد كامل مناطق وادى الرافدين تحت سلطة مركزية قوية ،

أما مصر فقد ارتفع منسوب الفيضان وانتعشت الحياة الزراعية تحت إدارة الفراعنة وابتدأ بعد حقبة الاضطرابات والظلام عصر المملكة المتوسطة (٣٢) .

العميل السرى رقم ١

حتى عهد أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، لاتوجد شواهد تاريخية تدل على عودة العلاقات المصرية إلى سابق عهدها مع فلسطين وسورية ، أى منذ انقطاعها مع بداية الفترة الانتقالية الأولى والفوضى التى قوضت دعائم الاستقرار السياسى والاجتماعى بعد انهيار الدولة القديمة ، وأول وثيقة ذات دلالة على تدفق دماء الاهتمام بالمستطيل السورى فى شرايين السياسة المصرية الخارجية ، هى قصة " سنوهيت وفراره إلى بلاد فلسطين وإقامته بها ردحا طويلا من الزمن ، وقصة سنوهيت تبدأ من ذروة الأحداث التى أعقبت مباشرة وفاة أمنمحات الأول أو اغتياله وتولى ابنه " سنوسرت الأول " مقاليد الحكم ، يستهل سنوهيت رواية الأحداث بذكر ألقابه **"الأمير الوراثى ، والحاكم ، ومدير ضياع الملك فى بلاد الأسويين، والسمير الوحيد للملك ، والمحبب إليه " سنوهيت " الخادم سنوهيت يقول : كنت خادما يتبع سيده وخادم نساء الملك يخدم الأميرة صاحبة الثناء العظيم ، زوجة سنوسرت الملكية فى بلد الهرم المسماة " خنم ٠ أسوت " والابنة الملكية لأمنمحات فى بلد الأهرام ، كانفرو المسماة "نفرو" المحترمة " واتفق انه فى السنة الثلاثين فى اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان دخل الإله أفقه (منتصف فبراير ١٩٩٢ ق٠م) فطار الملك أمنمحات إلى السماء واتحد مع قرص الشمس وامتزج جسم الإله بجسم خالقه ، وعندئذ صمت القصر ، وامتلأت القلوب حزنا ، وأغلق البابان العظيمان وجلس رجال القصر رؤوسهم منكسة على ركبهم ٠ وحزن القوم ٠ وكان جلالته قد أرسل**

جيشا إلى أرض " التمحو " (اللوبيين) وكان بكر أولاده سنوسرت الطيب ضابطا فيه . وقد كان فى هذه الأثناء عائدا بعد أن استولى على أسرى من " التحنو " (اللوبيين) وكل أنواع الماشية التى يخطئها العد، وأرسل أمناء القصر إلى حدود غرب الدلتا ليخبروا ابن الملك بالحادث الذى وقع فى البلاط ، وقد قابله الرسل فى الطريق ولحقوا به عند الغروب ، فلم يتأخر طرفة عين إذ طار الصقر مع خادمه ولم يعلم بذلك الجيش ورغم ذلك فقد أرسلت رسالة إلى أولاد الملك الذين كانوا فى الجيش ولقد وقفت وسمعت صوته حينما كان يتكلم إذ كنت عن كثب ... وعندئذ كان قلبى يتحرق وخارت ذراعاى واستولت الرعدة على جميع أعضائى ، فقفزت باحثا عن مكان اختبىء فيه فوضعت نفسى بين أيكتين لأفسح الطريق للمسافر فيها (لأكون بعيدا عن الأنظار) ثم سرت نحو الجنوب ، ولم يكن غرضى الوصول إلى مقر الملك ، لأنى فكرت أن الشجار يقوم هناك . ولم يكن يهمنى أن أعيش بعده " ، فى حدود هذا المقطع من رواية سنوهى يمكن تحديد الحقائق التى تضمنها فى عدة نقاط ، الأولى وفاة الملك ، والثانية إرسال رسل بالخبر إلى سنوسرت ولى عهده وغيره من الأمراء أولاد الملك للعودة إلى العاصمة على جناح السرعة، والحقيقة الثالثة هى فرار سنوهيت المفاجىء والرعب الذى استولى عليه ، أما بالنسبة لوفاة أمنمحات الأول فلا يوجد بنص سنوهيت ما يوحى باغتيال الفرعون فى مؤامرة دبرها له حريم القصر ، فهذا التصور يرد بوثيقة أخرى كتبها "خيتى بن دواوف " فى صورة نصائح وتعاليم لأمنمحات الذى ظهر لابنه سنوسرت فى رؤية بعد وفاته ليسدى إليه تلك النصائح ، ليتخذها نبراسا يهتدى به فى حكم البلاد ، أما بالنسبة لقيام أمناء القصر بنقل خبر الوفاة على وجه السرعة لولى العهد وللأمراء الآخرين أولاد الملك فهو ما يتفق والمنطق وطبيعة الموقف ، فغير ذلك يعد مطعنا للتصرف مثيرا للريب والظنون، ولقد قام أمناء القصر بما تمليه عليهم دواعى الشعور بالمسئولية وما تفرضه مهمام وظائفهم من واجبات، وغير ذلك يعد تقصيرا فى أداء

الواجب الوظيفى مما يوقعهم تحت طائل المحاسبة ، ويدمغهم بالخيانة ويوقعهم فى دائرة الاتهام بالتواطؤ والمشاركة فى الجريمة . والأمر الوحيد غير المنطقى وغير الطبيعى إلى الآن هو فرار سنوهيت المفاجىء، فليس له من مبرر أو تفسير ، وقبل أن نبحث عن الأسباب التى دفعت سنوهى على هذا الفرار ، من المناسب أن نتوقف أولا عند واقعة الاغتيال كما صورتها وثيقة " خيتى بن دواوف " .

ظل علماء الآثار واللغة يعتقدون أن هذه التعاليم كتبت فى حياة أمنمحات بعد مؤامرة أفلت منها ، ولقد شكك جاردنر فى أن خيتى هو مؤلف هذه الوثيقة مؤكدا أن هذه التعاليم كتبت فى عهد أمنمحات الأول ، الذى كلف كاتبا ملكيا بتدوين نصائحه لابنه (سنوسرت) الذى شاركه فى حكم البلاد ، غير أن البحوث الحديثة انتهت بأن هذه الوثيقة كتبت بعد وفاة أمنمحات لتكون بمثابة دعاية سياسية لابنه سنوسرت الأول الذى تولى الحكم بعده مباشرة ، ولقد دلل الأثرى الكبير " دى بك " على ذلك بأدلة قوية تستند على ما ورد بصلب المتن ، مؤكدا بواقع نص الوثيقة أن الملك أمنمحات قتل فى مؤامرة (٣٣) .

والواقع أن قراءة الوثيقة قد تنتهى بالتأكيد على النتائج التى توصل إليها " دى بك " فمحتوى النص الذى ورد على لسان أمنمحات لايتعدى حدود التحذير من مغبة الثقة بالآخرين والتنويه عما يعتمل فى صدر المقربين له من غدر وخيانة توطئة لذكر ما حاق بالملك من تواطؤ خسيس ، وتفاصيل المؤامرة التى دبرت ضده :

" أنت يامن ظهرت إلها (أصبحت ملكا) اصغ لما سألقيه عليك حتى تصير ملكا على البلاد وحاكما على شواطىء النهر ، وحتى يمكنك أن تفعل الخير .. خذ الحذر من مرءوسيك لأن الناس يصغون لمن يرهبهم .. ولا تقتربن منهم على انفراد ، ولا تثقن بأخ ، ولا تعرفن لنفسك صديقا ، ولا تصطفين لك خلانا لأن ذلك لا فائدة منه .. وعندما تكون نائما كن الحارس لشخصك حرصا على قلبك ، لأن الرجل لا صديق له فى

يوم الشدة ، فإنى قد أعطيت الفقير ، وعلمت اليتيم ، وجعلت من لا ثروة له مثل صاحب الثراء ، وقد كان آكل خبزى هو الذى جند الجنود ضدى ، والرجل الذى مددت له يد المساعدة هو الذى أحدث لى بها المتاعب ، والذين يرتدون فاخر كتانى عاملونى كالذين فى حاجة إليه ، والناس الذين يتضمخون بعطورى قد لوثوا أنفسهم وهم يستعلمونه " بخيانتى " ... لقد كان ذلك بعد العشاء حينما دخل الليل ، وكنت قد أخذت ساعة من الراحة واضطجعت على سريرى ، وكنت متعبا ، وأخذ قلبى يجد وراء النوم ، ثم شعرت كأن أسلحة تلوح ، وكأن إنسانا يسأل عنى ، فانقلبت كأنى ثعبان الصحراء (أى قمت منتصبا) ٠قد استيقظت وكنت وحيدا ، ووجدت أنها حرب جنود ، ولو كنت أسعفت بالسلاح فى يدى لكنت قد شتت شمل المخنثين .... ولكن لاشجاع فى الليل ، ولا يمكن أن يحارب الإنسان وحيدا فلا نصر بدون معين .. تأمل لقد أريق الدم وأنت بعيد عنى ، وقد سلمت لك (الحكم) قبل أن يسمع بذلك رجال البلاط . وعلى ذلك دعنى أفعل ما تريد ، وذلك لأنى لم احتط لنفسى ضد هذه المؤامرة فإنى لم أفطن لها من قبل . هذا فضلا عن أن قلبى لم ينتبه إلى تراخى الخدم . هل حدث أن النساء اصطففن فى ميدان المعركة ؟ وهل من لايرعى حرمة القانون قد شب فى القصر ؟ أو هل الماء الذى كسر السد قد انطلق ، وعلى ذلك خاب الفلاحون فى عملهم .. وسوء الحظ لم ينتبنى منذ ولدت . هذا فضلا عن أنه لم يتأت لإنسان قط أن يقوم بمثل ما قمت به من الأعمال العظيمة بوصفى رجلا شجاعا " (٣٠)

مقارنة التعاليم التى ألفها الملك " سحتب اب رع " أمنمحات الأول والنصائح التى وجهها لبكره سنوسرت بالتعاليم التى تنسب لأحد ملوك الأسرة العاشرة والتى وضعها فى آخر لحظة من حياته لابنه الملك " مرى كارع " تؤكد تأكيدا تاما على أن وثيقة أمنمحات الأول لم تهدف إلا لتصوير المؤامرة المدبرة ضده ولا شىء آخر غير ذلك ، فهى لاتتضمن تلك الوصايا القيمة الضرورية لملك فى بداية توليه الحكم والجلوس على العرش

كالتى تطالعنا فى وثيقة الأســـرة العاشرة ، ولا أدل على صحة ذلك إلا بالقاء نظرة سريعة على ما ورد بهذه الوثيقة الثانية من توجيهات ونصائح:

" إن الصدق " ماعت " يأتى إليك مختمرا حسبما كان عليه الأجداد ، فعليك إذن أن تقلد أجدادك ‧‧ وتأمل أن كلماتهم مدونة فى المحفوظات فافتحها لتقرأها وقلد معرفتهم ، وبتلك الطريقة يصير صاحب الصناعة على علم ‧

" كن صانعا للكلام لتكون قوى البأس ‧ لأن قوة الانسان هى اللسان، والكلام أعظم خطرا من كل حرب، إن الرجل الفطن لايجد من يفحمه والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لايعارضونه وبذلك لاتحدث له مصيبة فى زمانه ‧‧ اعل من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة ‧‧‧ إن مدينتك مفعمة بالشباب المدرب الذين هم فى سن العشرين ‧‧ ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك على أن يكونوا مزودين بالأملاك ، وعلى ألا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع ، بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفايته ، ومع ذلك فإنه ليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة ‧‧‧ عظم من شأن اشرافك لينفذوا قوانينك ، لأنهم إذا لم يكونوا أهل يسار فإنهم لايقومون بالعدل فى إدارتهم للأمور ‧‧‧ أقم العدل لتوطد مكانتك فوق الأرض وواس الحزين ولا تعذبن الأرملة ولاتحرمن رجلا ميراث والده ولا تضرن الأشراف فى مراكزهم ولاتتول العقاب (أى بنفسك) فإن ذلك لايرفعك ولكن توله بالجلادين من غير إسراف ‧‧ ولا تقتلن رجلا تعرف قدره ‧‧ ولا تكونن فظا لأن الشفقة محبوبة ‧‧ وأسس آثارك على حب الناس ‧‧ ‧‧ زين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مكانك فى الجبانة بصفتك رجلا مستقيما مقيما للعدالة ‧‧‧ أقم آثارا باقية للاله لأنها تجعل اسم صانعها يبقى" ‧‧‧ الخ ‧‧‧ الخ ‧

وثيقة خيتى دواوف بتعاليم أمنمحات الأول على هذا لم تهدف إلا للإعلان عن مؤامرة دبرت ضد الملك من حريم القصر ، وقد اختلفت آراء العلماء فى تفسير نصها ، كما سبق القول ، فبينما رفض جاردنر واقعة

اغتيال الملك أكد " دى بك " أن الملك أغتيل فعلا ، ويرجع البعض بزمن كتابة الوثيقة إلى الفترة التى شعر فيها أمنمحات بأنه أصبح طاعنا فى السن وليس فى مقدوره أن يتولى حكم بلاده منفردا ، بعد أن لاحظ أن الوهن الذى نخر جسمه قد حرمه من القدرة على التنبؤ بما يحاك ضده من مؤامرات ، فاستن سنته الحميدة التى أصبحت قاعدة متبعة وطدها من خلفه من ملوك الأسرة الثانية عشرة وما تبعها من أسر أخرى على امتداد التاريخ الفرعونى ، هى إشراك ولى العهد معه فى الحكم قبل عشر سنوات من وفاته ، ومما لاشك فيه أن لكل رأى من الآراء وجاهته ، كما أن نص وثيقة خيتى بن دواوف يحتمل اتجاهات التأويل المختلفة ، سواء رفض جاردنر لواقعة اغتيال الملك أو تأكيد " دى بك " على حدوث الواقعة وهو الرأى الغالب بين صفوف العلماء ، استنادا لما ذكره سنوهيت فى قصته عن فراره وارتعاده فرقا بعد وفاة الملك ، وهو فرار وخوف لايجد تبريرا آخر غير تأكيد اشتراكه فى المؤامرة التى انتهت باغتيال الملك ، فظواهر الأمور كما يرى د. سليم حسن تدل " على أن سنوهيت كان له ضلع مع الفريق المتآمر ضد " سنوسرت " وأنه كان يعلم بها ، وإلا فليس هناك أى تفسير آخر للفرار المفاجىء ، والفزع الذى استولى عليه حينما استرق السمع ".

ولابد أن سنوهيت قد أقحم نفسه فى هذه المؤامرة التى كان مآلها الفشل التام ، فهو لم يلمح من قريب ولا من بعيد عن سبب هربه وترك وطنه العزيز مما جعل علماء الآثار يتحيرون فى سبب فراره مع أنه من كبار موظفى الدولة وأعلامها المشهورين كما تدل على ذلك ألقابه " (٣٤).

ومن الملفت للنظر - إذا نحينا نص قصة سنوهيت ووثيقة أمنمحات جانبا ، عدم وجود شواهد تاريخية أخرى تدل على المؤامرة لأننا باعتراف د. سليم حسن " لم نسمع عنها بعد ذلك " فقد " دلت ظواهر الأحوال على أن المؤامرة التى قامت ضد سنوسرت الأول لاغتصاب الملك منه على إثر اغتيال والده بعد أن اشترك معه فى الحكم نحو عشرة أعوام لم تكن

واسعة النطاق وأنه بعودته فى الحال قضى على هذه الفتنة قضاء عاجلا حاسما (٣٥) .

والمثير للدهشة أن سنوسرت الأول الذى قضى على هذه المؤامرة قضاء عاجلا حاسما لم يترك ما يدل على إجراء أى تحقيق مع المتآمرين أو معاقبتهم سواء على جريمة اغتيال سلفه العظيم أو على التآمر ضده ، ولا توجد بين الشواهد التاريخية ما يعيد للأذهان موقف بيبى الأول الذى أمر بمحاكمة زوجته " أمتس " أمام المحكمة التى شكلها لهذا الغرض برئاسة " أونى " لتآمرها عليه ربما غيرة منها لزواجه من اثنتين غيرها ، هذه المحاكمة التى يزهو "أونى " بتكليفه بها فى نقوشه قبل إسناد قيادة الحملة على فلسطين إليه ، لقد صمتت الشواهد وأسدل ستارا كثيفا على واقعتى الاغتيال والتآمر، تاركة سنوهيت مجردا من أى أسباب مقنعة تبرر ذعره وهروبه بعد وفاة أمنمحات الأول ، ومما لاشك فيه أن ذعر سنوهيت وفراره إلى فلسطين يظل مفتقدا للأسباب المقنعة سواء أكانت واقعة الاغتيال والتآمر صحيحة أم غير صحيحة ، فإذا سلمنا بنتائج " دى بك " فى تأكيده على واقعة اغتيال الملك والتآمر على ولى عهده سنوسرت الأول لإقصائه عن الحكم ، واشتراك سنوهيت فى هذه المؤامرة ، فإن ذلك لايتسق مع منطق الأحداث ، فمن المؤكد هنا أن يضطلع سنوهيت بالدور المنوط به فى الخطة الموضوعة لتنفيذ المؤامرة ، والتى يفهم من مجرى الأحداث تفاصيل تنفيذها وهى القضاء على الملك أثناء تواجد قواته بقيادة ولى عهده خارج الوادى فى الحملة الحربية على اللوبيين ، فمن المتصور أن يتولى سنوهيت المشترك فى هذه الحملة تعويق عودة ولى العهد للعاصمة أو الإجهاز عليه ، فإذا افترضنا إحجام سنوهيت عن القيام بالدور المرسوم له فى مخطط المؤامرة فالأقرب للاحتمال أن ينضوى تحت لواء سنوسرت ضد المتآمرين ، ويشد أذره فى مقاومتهم ، ويساعده عليهم بالكشف عن أبعاد مخططهم وشخصياتهم ، ولكن سنوهيت لم يفعل أيا من الأمرين ، مما يترك فراره إلى فلسطين أمرا غامضا لايمكن تفسيره

باشتراكه فى المؤامرة ضد مليكه ، وبالتالى يظل هذ الفرار أو ذهابه إلى فلسطين من المسائل التى تحتاج إلى تفسير آخر غير هذه التفاسير التى طرحتها آراء العلماء والدارسين ، ولا أدل على براءة سنوهيت مما هو منسوب إليه من الحفاوة التى قوبل بها بعد عودته من فلسطين والتكريم الذى أسبغ عليه، وهى حفاوة وتكريم لايحظى بها غير المخلصين المتفانين فى آداء واجباتهم من رجالات الدولة ، وعظمائها ، فحينما طلب سنوهيت العودة إلى مصر بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، ليدفن فى ثراها ، استجاب الملك لمطلبه ، وشمله بعفوه ، وكان من البديهى ان يكتفى سنوسرت الأول بهذا العفو سامحا للمخطىء بالعودة إلى الديار ، معربا عن اتساع صدره بالغفران وتقبل توبة المارق ، إلا أن سنوسرت تجاوز الأعراف المتبعة فى مثل هذه الأحوال فى التعامل مع سنوهيت فأرسل هدايا من الفيض الملكى لينشرح صدر.تابعه سنوهيت فى بلاد الغربة ، وهو مستوى من التعامل لايتم مع الأشخاص العاديين بل مع الأمراء وصفوة التابعين ولم يقتصر التكريم على ما أبداه الملك من تقدير بل شارك فى الاحتفاء بسنوهيت أيضا الأمراء أولاد الملك وبطانته وحاشيته ، نحن إذن لسنا بصدد صدور عفو ملكى عن مذنب بقدر ما نحن بصدد تكريم رجل عظيم تفانى فى خدمة الدولة بعد انتهاء الدور المنوط به ، لقد حافظت المراسلات التى تمت بين سنوهيت والملك على الإطار المرسوم للمهمة الغامضة التى كلف سنوهيت بالقيام بها فى فلسطين ، والتى أنجزها بنجاح حتى هده الكبر ، ورغم المحافظة على هذا الإطار فإننا نصادف جملا تسترعى النظر وتستوجب التمعن ، فبين ثنايا نصوص هذه المراسلات المتبادلة تطالعنا عدة اشارات تكاد تفصح بجلاء عن هذه المهمة الرسمية ، " **وأنت أيها الإله (الملك) الذى أمرت بهذا الهرب ، كن رحيما وأعدنى ثانية إلى مقر الملك** " ، فلم يغادر سنوهيت بلده من تلقاء نفسه بل تنفيذا لأمر ملكى ، وهو فى الوقت الذى يلتمس فيه العودة للوطن لتدفن جثته فى الأرض التى ولد بها ، لا يطلب مجرد العودة للوطن كأى مذنب ، وإنما يطلب إعفاءه من

أعباء وظيفة لم يعد قادرا على القيام بها بسبب الشيخوخة لوظيفة أخرى تتناسب مع تقدمه فى السن " **ربما تسمح لى أن أرى المكان الذى يسكن فيه قلبى ، والأمر الأهم من ذلك أن تدفن جثتى فى الأرض التى ولدت بها ، ... ، آه ليت جسمى يعود إلى الشباب ثانية لأن كبر السن قد نزل بى، واستولى على الضعف ، وعيناى ثقيلتان وذراعاى ضعيفتان وساقاى قد توقفتا عن السير ، وقلبى متعب ، والموت يقترب منى، سأحمل إلى مدن الأبدية ، فدعنى أخدم سيدتى الملكة ، وليتها تتحدث الى عن جمال أطفالها وليتها تخلع على قبر الأبدية " .**

ولم ينس سنوهيت بعد ذلك أن يطمئن الملك على ترتيب الأمور بحيث تنتقل المسئولية إلى خلفه دون أن تختل الأوضاع ، "**سيسلم خادمك مركز الوزارة الذى كنت أشغله فى هذا المكان ولكن دع جلالتك تفعل ماتشاء** " وبعد أن يطمئن الملك على سير الأمور كما يحب ويشتهى يؤكد سنوهيت على استقرار الأوضاع السياسية وبأن فلسطين موالية بشهادة بعض الأمراء الذين يذكر أسماءهم " **والآن فلتأمر جلالتك أن يحضر (مكى) من (كـــــدمى) و" خنتــــــواش " من بلاد خنتكش " و "منوس " من أراضى"الفنخو" وهم أمراء مشهورون قد نموا على حبك غير أنهم منسيون، وفلسطين ملكك كأنها كلابك"**، استنادا لكل هذه المقدمات صدر القرار الملكى بعودة التابع إلى مصر بصفة رسمية : **(حور) حياة المواليد الممثل للآلهتين حياة المواليد ، ملك الوجه القبلى والوجه البحرى " خبر كارع " بن (رع) سنوسرت الحى إلى أبد الآبدين ، قرار ملكى إلى التابع " سنوهيت " انظر إلى قرار الملك هذا قد أحضر إليك ليعلمك بما هو آت : ... تعال ثانية إلى مصر لترى مقر الملك الذى تموت فيه ، وتقبل الأرض عند البابين العظيمين ، وتنال نصيبك بين رجال القصر وذلك لأنك أخذت فعلا تتقدم اليوم فى السن ، وقد ضيعت شبابك، فكر فى يوم الدفن ، والمرور إلى دار النعيم ، وكيف سيخصص الليل لك بالعطور ، والأكفان من يد" تايت " (إله الغزل) وسيقام لك محفل جنازى يوم الدفن، وسيكون**

غطاء المومية من الذهب ، والرأس من اللازورد ، وسيقام فوقك سماء (كان غطاء التابوت يعتبر رمزا لإلهة السماء نوت) وستوضع على زحافة ، وتجرك الثيران ويمشى أمامك المغنون ، ويقام أمامك رقص (مور) عند باب قبرك . وقائمة مائدة القربان ستتلى من أجلك ، وتذبح الضحايا بالقرب من لوحتك ، وعمدك تصنع من الحجر الأبيض فى وسط مقابر أولاد الملك، وعلى ذلك لن تموت فى الخارج ، ولن يدفنك الأسيويون، ولن توضع فى جلد غنم عندما يصنع لك قبرك " .

لم يكتف الملك بما ضمنه قراره من آيات التكريم والتعظيم ، بل استقبل " سنوهيت " عند الحدود استقبالا رسميا باهرا يليق بالعظماء المظفرين ، فبعد أن سار " سنوهيت " نحو الجنوب ووقف عند **ممرات حور على حدود مصر ، على الفرع البلوزى للنيل أرسل القائد الذى كان مكلفا بحراسة الحدود هناك رسالة إلى مقر الملك تحمل الأخبار بوصولى ، فأرسل جلالته أحد رؤساء الصيد فى القصر ممن يثق بهم ، ومعه سفن محملة بالهدايا من الفيض الملكى للبدو الذين أتوا معى ليقودونى إلى ممرات حور ، قد ناديت كل منهم باسمه (لكى يقدمهم إلى بعثة الشرف) وكان صناع الجعة يعجنونها ويصبونها فى حضرتى ، وكان كل خادم منهمكا فى عمله ثم أخذت فى سياحتى إلى أن وصلت بلدة " فاتحة الأرضين " (العاصمة وقتئذ ، وهى تقع فى موقع اللشت الحالية جنوبى منف) وعند انفلاق الصبح ، اتوا ليطلبونى مبكرين جدا ، وقد كان عشرة رجال يأتون وعشرة رجال آخرين يذهبون ليقودونى إلى القصر واستلمت الأرض بين تماثيل أبى الهول بجبهتى ، ووقف أولاد الملك عند الباب واستقبلونى ، أما أمناء القصر الذين يقودون إلى القاعة فإنهم ذهبوا بى إلى الطريق المؤدية إلى الحجرة الخاصة ، فوجدت جلالته على عرشه العظيم فى مدخل من الذهب فانبطحت على بطنى وذهب عنى عقلى فى حضرته مع أن هذا الإله حيانى بفرح " .. ثم أمر بدخول أولاد الملك " وقال جلالته للملكة : انظرى هذا هو سنوهيت الذى عاد كأسيوى من نسل**

أهل البدو ، فصاحت صيحة عالية جدا وكذلك صاح أولاد الملك معا . . . وعندئذ قال جلالته . . . سيصير أمينا فى القصر بين الحكام وسيوضع بين رجال الحاشية . . وبعد أن تركت الحجرة الخاصة ، وقد صافحنى أولاد الملك ، ذهبنا إلى البابين العظيمين (خارج القصر) وقد اسكنت فى بيت ابن من أولاد الملك . . وقد أهدى لى بيت حاكم مقاطعة كما يليق بسمير ملكى . . وكان يؤتى إلى بالطعام من القصر ثلاث مرات وأربع مرات فى اليوم . هذا فضلا عما أعطانيه أولاد الملك بدون انقطاع فى أى وقت . . وقد أقيم لى قبر من الحجر فى وسط المقابر والبناءون الذين ينحتون المقابر قد وضعوا تصميمه ، وكبير مهندسى العمارة بدأ فى بنايته " كما يصنع للسمير الأول للقصر "، ومع كل آيات التقدير التى قوبل بها سنوهيت بعد عودته من فلسطين ، من الصعب اعتباره طريدا مذنبا فارا بجريمته إلى أرض غريبة ، فكل الظواهر تدل على قيامه بمهمة رسمية بأمر مليكه ، أنجزها بنجاح خلال السنوات المديدة التى قضاها بفلسطين حتى أعياه الكد وفت فى عضده الكبر فأعفاه من أعبائها مقدرا تقديرا بالغا جهوده العظيمة منعما عليه بوظيفة أخرى أعلى مرتبة تتلاءم مع ما بلغه من كبر وما أداه من مهام ، أما عن هذه المهمة ، فالسمة الواضحة التى تميزها هى السرية المطلقة ، التى أجمع الملك والتابع على إحكام خيوطها ، والحرص على رسم أبعادها بالاهتمام بالتفاصيل المتناهية فى الصغر لإخفاء معالمها وأبعادها ، فما هى الأسباب التى دفعت الدبلوماسية المصرية لتفضيل العمل السرى بفلسطين على التدخل الرسمى المباشر ؟ والأمر على هذا النحو يتعلق بالظروف الداخلية فى مصر والظروف الخارجية بفلسطين المتعلقة بتوقيت هذه المهمة وضرورتها، وما ينتظر أن تحققه من نتائج ، وما حققته بالفعل من أهداف .

أما بالنسبة للأحوال الداخلية ، فحتى ولاية أمنمحات الأول لم تستقر الأوضاع فى البلاد ، ولم يستسلم أمراء المقاطعات وحكامها لسلطة الدولة

المركزية ، وناوأ هؤلاء سلطات الملك معارضين توحيد السلطة ، رافضين هيمنة الدولة ، ولم يكن فى مقدور الملك تعيين حكام المقاطعات الوراثية أو عزلهم ، وتشير النقوش أحيانا إلى الصراعات التى تأججت بين الملك وأمراء الأقاليم ، وفرضت هذه القوى المناوئة على الملك تسخير طاقته كلها للحد من هذه الفوضى والتعامل بنفسه مع كل مقاطعة لكبح جماح الأطماع والطموحات ، ومما لا شك فيه إن هذه المنازعات قد مثلت تهديدا خطيرا للعرش ، فقبل سنوات قليلة من تولى أمنمحات الأول للحكم مباشرة نشبت الحروب الداخلية عقب نهاية حكم " سمنخ كارع " منتوحتب الثالث من ملوك الأسرة الحادية عشرة ولم يتمكن بكر أولاده سنوسرت من تولى الحكم واختفى تماما من مسرح التاريخ قبل أن يلبس تاج البلاد، ولسبع سنوات بعد ذلك عمت الفوضى والاضطراب حتى ظهر الملك " نب تاوى رع " منتوحتب الرابع وتولى مقاليد الأمور فى البلاد لمدة قصيرة ، ولقد حذف اسمه من قائمة تورين ، للشكوك فى شرعية توليه الحكم من بين لفيف من مدعين الحق فى الحكم فلقد كانت والدته من عامة الشعب ولم تذكر النقوش شيئا قط عن أبيه ، والأحداث التى أدت إلى نهاية حكم منتوحتب الرابع وتولى أمنمحات العرش مجهولة ، فلم يكن الوريث الشرعى ، وإن انتحل لنفسه اسم تتويج قريب الشبه باسم تتويج الملك "سمنخ كارع " منتوحتب الثالث آخر الملوك الشرعيين ، مسميا نفسه "سحتب اب رع " مدخل السرور على قلب رع .

وربما عد أمنمحات دخيلا على البيت الملكى الأصلى ، متطفلا على شرعية الحكم، فقوبل شخصه بالنفور وعدم الترحاب ، مما ضاعف من حالة القلق والاضطراب ، واستمرار النزاع ، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن العناصر المناوئة للحكم اعتادت ترك الوادى والتمركز فى الواحات التى لم تكن حتى ذلك الحين قد خضعت لهيمنة مصر ، أمكننا تفهم الأهمية البالغة لسياسة ملوك الأسرة الثانية عشرة فى محاربة اللوبيين وإرسال الجيوش إلى الحدود الغربية ، لتأديبهم ، ولقد رأس سنوسرت هذه

الحملات قبل وفاة الملك ، واستمرت هذه الحروب فى عهده ، حيث أرخت الحملة التى قادها " أكوديدى" إلى الواحة الخارجية بالسنة الرابعة والثلاثين من حكم سنوسرت أما (كاى) رئيس صيادى الصحراء ومدير الصحراء الغربية فيقول " لقد وصلت إلى الواحة الغربية وفحصت كل طرقها وأحضرت الهاربين" .

إلى جانب هذه الظروف ، حتمت أوضاع الحدود المصرية الجنوبية على ملوك الأسرة الثانية عشرة تركيز جهودهم للدفاع عن البلاد على هذه الجبهة ، فالكشوف الأثرية فى بلاد النوبة أماطت اللثام عن زحف قبائل من السودان فى عصر الانتقال الأول بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى ، وانتشرت هذه القبائل من الجنوب على طول النيل شمالا، وتخطى المغيرون الشلال الثانى مكتسحين سكان بلاد النوبة السفلية القدامى وتابعوا سيرهم حتى الشلال متوغلين فى الأراضى المصرية حتى مدينة " الكاب" الحالية ، وباتصال هذه القبائل بمملكة دنقلة التى تقع على مسافة قصيرة من جنوبى الشلال الثالث (مملكة كوش)، دعمت هذه المملكة قواهم. ومثلت الخطر الذى لايمكن التغافل عنه لتهديده الحدود المصرية، مما فرض على سنوسرت الأول التوجه منذ بداية الأمر إلى الإقليم الشرقى من بلاد النوبة، تحسبا لأى هجوم على مصر من قبل هؤلاء الأعداء، فأخضع الأقاليم المجاورة ومد الحدود المصرية حتى الشلال الثانى، وتؤرخ هذه الحملة بالسنة الثامنة عشرة من حكمه بقيادة ضابط من الأشراف يدعى " منتوحتب " واستمرت حملات سنوسرت الأول لتأمين حدود مصر الجنوبية حتى السنة الثالثة والأربعين من حكمه بالحملة التى قادها أمير مقاطعة الغزال (أمنمحات) المعروف باسم "أمينى" ويقص أمينى فى نقوش مقبرته : .. " **تبعت سيدى عندما أقلع نحو الجنوب ليهزم أعداءه الأربعة أمم الهمج وقد أقلعت جنوبا .. فمررت ببلاد كوش وسحت فى النهر جنوبا وتقدمت نحو تخوم البلاد وأحضرت**

كل الهدايا ... وبعد ذلك عاد جلالته فى سلام بعد أن هزم أعداءه فى كوش الخاسئة وعدت فى ركابه مرفوع الرأس ولم تحدث أية خسارة بين جنودى " ، واستمرت حملات ملوك الأسرة الثانية عشرة حتى قام سنوسرت الثالث بأربع حملات متتالية اعتبارا من العام الثامن لحكمه ضد مملكة كوش ، وحفر قناة صالحة للملاحة فى صخور الشلال الأول لسرعة نقل الجنود ، وتمكن سنوسرت الثالث من مد الحدود المصرية حتى منحدرات " سمنة " و " قمة " فيما وراء الشلال الثانى ، مع الاهتمام بتحصين هذه الحدود فأقام ثمان قلاع آخرها قلعة "أورنارتى" أى التى تقضى على السودانيين " اينتيو "، وأصبحت بلاد النوبة منذ ذلك التاريخ جزءا حقيقيا من الإمبراطورية المصرية ، لم تغفل الدولة عن حمايتها هى أيضا بسلسلة من التحصينات العسكرية تمثلت فى إقامة أربع قلاع.

استغرقت أوضاع الحدود الجنوبية اهتمامات التوجه السياسى للأسرة الثانية عشرة ، واحتلت الأولوية الأولى فى جداول اهتماماتها ، ولم يعد بإمكان ملوكها المنشغلين بالحروب جنوبا ، وتعقب المتمردين غربا، إلا تبنى سياسة دفاعية بالنسبة للحدود الشرقية،فمع الاهتمام المتزايد باستغلال مناجم سيناء وتنشيط العمل بها لمداركة احتياجات الإنشاءات العظيمة التى تمت فى عهد هذه الدولة ، اقتصر الجهد العسكرى على تلك الجبهة فى حدود صد غارات البدو ، واكتفى أمنمحات ومن بعده سنوسرت الأول بإقامة الدفاعات على تلك الجبهة ، فقلعة " سارو" لحماية طريق حور ، وجدار الأمير لحماية الحدود من طريق الصحراء "وادى طليمات" ، حتى المتوسط، ومما لاشك فيه أنه لم يكن خافيا على فكر ملوك الأسرة الثانية عشرة بواقع تجارب التاريخ ، نذر الخطر المحتملة من جهة الشرق ومن غير المتوقع أيضا أن السياسة المصرية كفت عن التطلع بعيدا وراء الحدود باتجاه مصالحها التقليدية فى المستطيل السورى ، فى هذه الظروف أرسل سنوهيت إلى فلسطين للقيام بمهمته الرسمية التى لا يمكن تفهم كامل أبعادها إلا فى إطار الأحوال السائدة فى فلسطين وسورية فى ذلك الحين .

أدى انهيار الدولة القديمة ، والفوضى الداخلية ، والغزو الخارجي ، وعوامل التفكك الاجتماعي والسياسي بمصر إلى تراجع النفوذ المصرى فى فلسطين ولبنان بصفة عامة خلال فترة الانتقال الأول ، فالأدلة الأثرية المصرية فى بيبلوس ، التى شهدنا وفرتها حتى نهاية الأسرة السادسة ، زالت تماما فى ذلك العصر، وسادت روح العداء فى تلك المناطق وحلت محل مشاعر الولاء التقليدى الذى هيمن فى الماضى على سياسات الملوك الصغار فى هذين البلدين ، بمن فيهم ملوك بيبلوس الأصدقاء القدماء ، وتكشف نصوص اللعنات التى ترمز إلى تدمير أعداء مصر خلال عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة أسماء الأعداء الذين يهددون أمن الوادى ، ومن بينهم نميز اسم " المنزيو " بدو سيناء و" الآمو" من الأسيويين قبائل خمس عشرة منطقة مختلفة منهم أسيويو صحراء سورية وسكان عسقلان ، وأقوام بيبلوس الخ ، ومن أسباب تفشى روح العداء بتلك المناطق الحيوية ، ما ترتب خلال فترة الجفاف الطويلة من تغيرات اقتصادية واجتماعية ، حيث بلغ الجفاف أوجه خلال القرنين الأخيرين من الألف الثالث ، فتدهورت البيئات السورية المزدهرة وخصوصا فى فلسطين، وتشير الشواهد الأثرية إلى انخفاض عدد سكان فلسطين لينحط إلى أقصى مدى له حوالى عام ٢٠٠٠ ق٠م بعد أن هجرت المناطق التى تأثرت أكثر من غيرها بكارثة المناخ أولا ومن بعدها الهضاب المركزية والجليل ومرتفعات يهوذا ثم وادى يزرعيل والسهول الساحلية ، وبتحول نشاط السكان للرعى المتنقل دمرت المدن الرئيسية (٣٧) ، وفى الوقت الذى زحف فيه الأموريون أمام كارثة الجفاف إلى بلاد الرافدين وجنوبا إلى دلتا النيل ، حملت موجة التحركات الأمورية طبقة حاكمة جديدة الى المدن الفينيقية ، منتمية بميولها وبصلات الانتساب العرقى للحكام الأموريين فى الفرات الذين عززوا بتواجدهم موقف الساميين هناك مما مكنهم من التوغل باتجاه الشرق والجنوب الشرقى عبر الفرات والاستيلاء على المدن السومرية ، وتوطدت سلطة الأموريين بالتدريج ، إلى أن تمت

لهم الغلبة فى النهاية مؤسسين إمبراطورية بابل ، وخلال فترة احتدام الصراعات بين المدن والطوائف المختلفة فى بلاد ما بين النهرين - السومريين ، العيلاميين ، الأكاديين ، والأموريين - تبنى الجميع سياسة تأليب مشاعر السكان الأصليين فى المستطيل السورى وتنمية روح الكراهية والعداء للمصريين فى منطقة نفوذهم التقليدية بكنعان (٣٨) ، وهكذا من بيبلوس إلى عسقلان على طول الشاطىء الكنعانى ، دأب الأمراء الملقبون " حقاو " أى مشايخ مع محاربيهم " النيختو " وحلفائهم على تهديد المصالح الاقتصادية الحيوية لمصر ، وتعريض أمن الدلتا للخطر ، كما لم تكف قبائل كنعان وسورية الشمالية عن الانجذاب نحو مناجم سيناء ، ولم ينفك " حقاو " مشايخ " ريزينو " فلسطين عن التطلع لتلك المناطق ، واضطر الفراعنة مرات متكررة للتصدى لهم ، بإرسال حملات تأديبية محدودة اقتصر الغرض منها على طرد عصابات " الآمو " و" الهريوشا " و" المنتيو" من سيناء .

ومع بداية الأسرة الثانية عشرة أصبح واضحا لملوكها أهمية عدم التغاضى عن موقف المدن الفينيقية العدائى ، واحتمال نتائج القطيعة التجارية أو انهيار العلاقات الحيوية بين مصر وبيبلوس على وجه أخص، واسترعت أنظارهم ضرورة استعادة مكانتهم فى فلسطين وسورية وفينيقيا لتوفير مستلزماتهم من الأخشاب والمواد الخام وهم بصدد العمل على استرداد الوحدة السياسية للدولة وما فرض عليهم فى سبيل ذلك من صراعات داخلية وحروب ، ومما لاشك فيه أن السفن العشرين التى تؤلف أسطول أمنمحات الأول كما ظهرت فى نقوشه قد استورد أخشابها من لبنان ، والأهم من ذلك لم يكن بمقدور فراعنة الأسرة الثانية عشرة العمل على الجبهة الجنوبية إلا بعد تأمين الحدود الشرقية من هجمات الأسيويين أو تسللهم لدلتا النيل شمالا ، فبواقع تراكم خبرات التاريخ أصبح هذا الاتجاه بمثابة قناعة رئيسية مهيمنة على الفكر السياسى المصرى آنذاك ، وفى الوقت نفسه تعذر على الدولة اتخاذ سياسة التدخل المباشر والحاسم

فى مواجهة نذر الخطر المحتملة من الشرق مع وقوع الجنوب تحت نير الاحتلال .

على هذا النحو حتم الموقف على الدبلوماسية المصرية دعم أساليب العمل غير المباشر أو السرى ، ووقع على عاتق سنوسرت الأول وهو يتأهب لاستلام مقاليد الحكم والاستواء على عرش البلاد ، اختيار أمير على درجة عالية من الكفاءة من بين أمرائه للقيام بمهمة رسمية على جانب كبير من الأهمية والخطورة بفلسطين ، وحددت كل هذه الظروف طبيعة هذه المهمة التى كلف بها " سنوهيت " ، ويصرح سنوهيت بأبعاد المهمة التى كلف بها فى قصته بوضوح ، فعليه أولا توطيد دعائم العلاقات مع العناصر التى مازالت ممالئة بدافع الولاء للدولة المصرية والعمل على توسيع دائرة النفوذ المصرى باستمالة عناصر المعارضة للهيمنة المصرية وإذابة جليد العداء وتهيئة مناخ القبول العام لعودة علاقات التعاون إلى سابق عهدها وقد اتبع " سنوهيت " فى هذا الصدد سياسة الترغيب والترهيب لمشايخ المدن ، ويعد هذا الهدف بمثابة المرحلة الأولى من مهمته، ويبدأ هذا الجزء من القصة بالترويج لشخص سنوسرت الأول وعهده، ويعدد سنوهيت مناقب الملك لأمير " رتنو العليا " فلسطين" **هو الإله المنقطع القرين الذى لايفوقه أحد ، وأنه رب الحزم المتفوق فى النصيحة ، والحازم فى إعطاء الأوامر ، والرواح والغدو تحت إرادته ، وهو الذى أخضع الأراضى الأجنبية ، فى حين كان والده جالسا فى القصر يتلقى أن ما قد أمر به قد نفذ . وأنه القوى الذى يحرز النصر بساعده القوى ، البطل الذى لانظير له عندما يشاهد منقضا على العدو ، أو مقتربا من حومة الوغى ، وهو الذى يثنى القرون ، ويضعف الأيدى ، وأعداؤه لايمكنهم تنظيم صفوفهم . وإنه لمنتقم محطم للجباه . ولا أحد يجسر على الوقوف بجواره . وهو الواسع الخطى المهلك للهارب ، ولا نهاية لمن يولى ظهره له . شجاع القلب عندما يرى الجموع ، ولا يسمح لقلبه بأية راحة . الجسور عندما ينقض على الشرقيين ، وسروره أن يأسر "الربدتو"**

(الأعداء) وهو يقبض على درعه ، ويدوس تحت القدم (العدو) ، ولا يعيد ضربته ليقتل ، وليس هناك من حول سهمه عن هدفه) وليس هناك من حنى قوسه (لصلابته) و " شعب الأقواس " يهرب أمامه كما يهرب أمام قوة " الآلهة العظيمة " وهو يحارب بدون نهاية وهو لايبقى ولايذر ، وهو رب الرشاقة ، غنى فى عذوبة، وبالمحبة قد تغلب ، ومدينته تحبه أكثر من نفسها ، وهى تبتهج به أكثر من إلهها ، والرجال والنساء يمرون أمام قصره فرحين به . وهو ملك قد فتح وهو لايزال فى البيضة . وقد كانت وجهته أن يكون ملكا منذ ولادته . وهو الذى يكثر عدد من ولدوا معه وهو نسيج وحده ومنحة من الله " .

وبعد أن ينتهى " سنوهيت " من الترويج والدعاية للسلطة المصرية ، يكشف بالتدريج عن مخططاتها فبعد القضاء على أعدائها فى الجنوب سيأتى إلى فلسطين شمالا ليفتح أراضيها **"إن تلك الأرض التى يحكمها تبتهج به . فهو الذى يمد الحدود ، وسيفتح الأراضى الجنوبية، ولكنه للآن لم يتلفت إلى الأراضى الشمالية ، ومع ذلك فقد خلق ليضرب ... البدو ، ويحطم سكان الرمال"** ، فإذا وصل سنوهيت فى قصته إلى هذا الحد ، يوجه النصيحة بأن يبادر الأمير الذى يستمع إليه بإعلان الولاء والرضوخ لهيمنة الملك ، فمن الخير للأمير وشعبه الانضواء تحت جناحه والإذعان لمشيئته **" أرسل إليه ، دعه يعرف اسمك ، ولا تنطقن بلعنة ضد جلالته ، وهو لايفوته أن يعمل خيرا إلى أرض ستكون مسالمة له " .**

وبعد توضيح سنوهيت للمرحلة الأولى من مهمته ، ينتقل لإبراز معالم المرحلة الثانية ، فعليه الاعتماد تماما على مواهبه وملكاته الشخصية وخبراته للوصول إلى مراكز الصدارة فى مجتمعه الجديد بحيث يتمكن من إدارة دفة الأمور ، بالهيمنة على مواقع السيطرة والحكم ، باكتساب ثقة القوى المحلية ، وأفلح سنوهيت كما يذكر فى تحقيق الغرض الذى يهدف إليه **"وقد جعلنى (الشيخ) على رأس أولاده ، وزوجنى من كبرى بناته ، وقد جعلنى اختار لنفسى من بلاده أحسن ما فى حيازته على حدوده إلى**

بلاد أخرى ، وقد كانت أرضا جميلة تسمى " ياء " وكان فيها التين والكروم ونبيذها أكثر من مائها ، شهدها غزير وزيتونها كثير ، وكل الفاكهة محملة على أشجارها ، وكان فيها الشعير والقمح وماشية يخطئها العد من كل نوع وكذلك كان نصيبى عظيما بسبب ما نلت من الحب ، وقد نصبنى حاكم قبيلة من أحسن قبائل بلاده " ، وبعد أن ينتهى سنوهيت من مرحلة استقطاب القوى المحلية الموالية وينظمها ويصل إلى مراكز السيطرة ، يبدأ بالتدريج في بسط نفوذه ، والعمل على اتساع دائرة تأثيره بصبر وجلد وهمة لاتلين ، وإيمان لايتزعزع، وعلى مدى سنوات طويلة عمل بدأب لتحقيق ما يصبوا إليه مليكه ، **" وقد قضيت سنين عدة وقد نما أولادى وأصبحوا رجالا أشداء كل يحكم قبيلته . والرسول الذى كان يأتى من قبل قصر الملك شمالا أو جنوبا كان ينزل عندى "**، فسبل الاتصال لم تنقطع بين الملك والتابع ، تأتى من الجنوب للشمال حاملة تعليمات الملك ، وتعود من الجنوب للشمال محملة بأخبار التابع ، ولقد كان من واجب سنوهيت في المرحلة الأخيرة من مهمته بعد استقطاب العناصر المائلة للهيمنة المصرية وتحقيق السيطرة على مراكز التوجيه ، حشد القوى المحلية ذات الانتماء للحكم المصرى للقضاء على القوى المعارضة التى احتفظت بمواقفها المعادية لمصر وشرع سنوهيت بالقضاء على جيوب المقاومة المحدودة أولا ، **"ولما أخذ البدو يخرجون عن الطاعة ويقاومون رؤساء الصحارى كبحت جماحهم . وذلك لأن أمير فلسطين قد جعلنى عدة أعوام رئيس جيشه ، "وكل بلاد سرت إليها قد طردتها من مراعيها وآبارها ، ونهبت ماشيتها وأسرت أهلها وحملت طعامهم وذبحت القوم فيها بساعدى القوى وبقوسى وهجماتى وتدابيرى الحسنة "**، وبعد القضاء على بؤر المعارضة استكمل سنوهيت استعداداته وهيأ المناخ الملائم للقضاء على صفوف المعارضة قضاء كاملا ، وحان وقف إعلان الحرب ودنت المعركة الفاصلة **" جاء رجل من فلسطين ليبارزنى في معسكرى. وقد كان بطلا منقطع النظير أخضع كل فلسطين وقد أقسم أن يحاربنى**

... وعند الفجر كانت فلسطين قد جاءت ، إذ إنها أثارت قبائلها وحشدت نصف ممالكها وهيأت هذا النزال " ويحرز سنوهيت انتصاره المنقطع النظير ، ويقدم القرابين " لمنتو " إله الحرب المصرى ، استغرقت مهمة سنوهيت سنوات عديدة قبل أن يتمكن من تحقيق مهمته الخطيرة فى إعادة الهيمنة المصرية على ربوع فلسطين من أقصاها إلى أدناها ، وصحت فراسة سنوسرت الأول فى اختيار تابعه الذى أناط به تحقيق مالم يكن فى إمكان مصر إحرازه بالتدخل المباشر ، ومن خلال سياق قصة سنوهيت نتفهم ضرورة السرية التى التزم بها الملك والتابع والتعتيم على صفة الرسمية للمهمة بحجة اشتراك سنوهيت فى مؤامرة ضد مليكه وفراره بذنبه إلى فلسطين ، لقد حرصت الدبلوماسية المصرية على إخفاء نواياها، التى لاتسمح الظروف بالاعلان عنها ، لما سيترتب على هذا الاعلان من نتائج سياسية لاقبل للدولة على مواجهتها نظرا للظروف التى تمر بها ، بما يعنى تكتل القوى المناوئة بفلسطين ضد مصر والرجوع عليها ، بالمسئولية، فى حالة ما إذا فشلت المهمة فى توقيت يتعذر على مصر التصدى ومواجهة هذه القوى لانهماك الفراعنة فى قتال أعداء الجنوب وانشغالهم باستعادة الوحدة السياسية للبلاد ، وعلى سنوهيت فى إطار المخطط السياسى الموضوع أن ينفذ المهام المنوطة به بصفة شخصية لن يكتسبها فى الواقع إلا بالتأكيد على صفته كمتمرد هارب من بلاده متآمر على مليكه خارج على الشرعية ، مما يهيىء له القيام بالدور المرسوم لخطواته بحيث يتحمل بمفرده الفشل المحتمل ، ولقد أثبت سنوهيت جدارته ، أمينا فى صمته ، عظيما فى تحمله وأدائه ، مخلصا فى ولائه لبلاده ، جديرا بما أسبغ عليه من آيات الإجلال والتقدير.

اعتبرت قصة سنوهيت دائما من قصص المغامرات وقيمت كنص أدبى، وأصبغت عليها الأهمية أحيانا لما تتضمنه من إشارات عن الأوضاع السياسية والاجتماعية فى سورية وفينيقيا خلال تلك الفترة أو لما تصوره من أخلاقيات الموظف المصرى وتفانيه ، إلا أنه فى جميع

الحالات لم تعتبر وثيقة سياسية من أهم الوثائق السياسية عن العلاقات المصرية الأسيوية التى خلفتها الدولة الوسطى ، تعادل فى أهميتها وثيقة القائد " أونى " أشهر قواد الدولة القديمة والأسرة السادسة ، وأثرت النظرة إلى وثيقة سنوهيت كقصة أدبية على معالجتها بمعزل عن سياق الأحداث التاريخية ، فالتجاء الدبلوماسية المصرية للاعتماد على المبعوثين فى المستطيل السورى لم يتوقف بانتهاء سنوهيت من مهمته فى تمهيد الأرض لعودة العلاقات المصرية الأسيوية لسابق عهدها ، وتنقية مناخ المستطيل السورى من شوائب العداء لمصر، فمن الطبيعى أن يستمر العمل الدبلوماسى محتفظا بأهدافه لتوطيد النفوذ والمحافظة على الهيمنة محتفظا بنفس الأسلوب السلمى ، ومع المتغيرات التى لحقت بمشاعر الكنعانيين لم تعد هناك حاجة للتمسك بالسرية ، وتوالى وصول رموز الحكم والسيطرة إلى فلسطين وجبيل ، واختير ممثلو الدولة بأعلى مستويات التمثيل لأهمية المهام المنوطة بهم، وحيويتها .

ومن أهم الآثار التى تؤيد هذه النظرة . الجزء الأسفل من تمثال تم العثور عليه فى بلدة " مجدو " (تل المتسلم الحالية) وهو لشخصية مصرية رفيعة المقام ، يدعى " تحوتى حتب "، ولقد أثار الاكتشاف جدلا واسع النطاق عن دلالة وجود مثل هذه الشخصية فى فلسطين . فالألقاب التى نعتته النقوش بها تنفى نفيا قاطعا صفة التجار عنه وتؤكد على هويته السياسية ، فعلى الجانب الأيسر من قاعدة التمثال تتضح معالم هذه الصفة السياسية الهامة ، **قربان يقدمه الملك إلى " خنوم " رب الأرض الأجنبية ... الى روح المحترم الشريف (حاكم) ومراقب التاجين والمشرف على الكهنة ورئيس الخمسة والصديق الملكى والمطلع على أسرار (بيت الملك) والحاكم العظيم (لمقاطعة الأرنب) والمحبوب الملكى ... تحوتى حتب الذى وضعته " ست خبر كا " (اسم والدته)** " وتكرر النقوش على الجانب الأيمن نفس الألقاب على وجه التقريب ،**"قربان يقدمه الملك إلى تحوتى حتب . رب الكلمات المقدسة .. حاكم "بوتو" و " فم**

نخن" (هيراكنبوليس " (الكاب الحالية) ، ويستدل د. سليم حسن من هذه الأسماء والألقاب أن " تحوتى حتب " ابن ست خبر كا " (أمه) و (كاى) أبوه هو حاكم مقاطعة الأرنب – المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلى ، وعاصمتها هرموبوليس (الأشمونيين) ونجد فى نقوش قبر هذا الأمير أنه دعى " الطفل الملكى " فى عهد أمنمحات الثانى وسنوسرت الثالث ، ومما لاشك فيه أن حوتى حتب هو أحد المبعوثين، العديدين الذين اعتمدت عليهم الدبلوماسية المصرية فى الفترة الزمنية التى أعقبت سنوهيت ، رائد هؤلاء المبعوثين، فقد عثر على تمثال آخر لشخصية جليلة أخرى ، يدعى " سنوسرت عنخ " فى بلدة أوجاريت (راس شمر الحالية) ، هذا التمثال الصغير للوزير " سنوسرت عنخ " يعتبر من الوثائق الهامة ويعلق " برستيد " على عبارة " الذى أعطى ذهب الشرف " التى وردت فى نقوش هذا الوزير بأن هذا الذهب الذى منح للوزير مكافأة على عمل عظيم قام به فى الخارج حيث كان يقيم فى بلد أجنبى هام ويشغل مركزا ساميا فيه ، ويرجح قيامه بمنصب سفير فوق العادة أو حاكم ، وبصفة عامة فإن سنوسرت عنخ كان مبعوثا مصريا عاليا أرسل من قبل الحكومة المصرية – والرأى لبرستيد – ليراقب بعين يقظ اقليما سوريا، ربما كان مستقلا اسما ولكنه فى حقيقة الأمر كان تحت الحماية المصرية"(٣٩).

أما بالنسبة لحوتى حتب فمن بين ألقابه اللقب المستحدث " **باب كل بلد أجنبى** " ، بما يشير أيضا إلى نوع ما من المسئولية القنصلية ، كل هذه الشواهد ترجح إن إقامة هؤلاء المبعوثين تجاوزت حدود الهيمنة التجارية أو الثقافية إلى نوع ما من النفوذ الإدارى والحربى يوحى بسيطرة سياسية تؤيد حكم الأمراء المحليين وفى ذات الوقت تضعهم تحت مراقبة مندوبين مقيمين على مستوى سام ورفيع .

والواقع أن الشواهد التاريخية حتى الآن لم تثبت قيام مصر بأعمال

عسكرية ببلاد آسيا فى عهد الدولة الوسطى . ولكن ذلك لاينفى قيامها إذا تطلب الأمر بحملات عسكرية محدودة النطاق خاطفة كالحملة العسكرية التى تشير إليها اللوحة المحفوظة حاليا فى متحف منشستر ، عن قيام سنوسرت الثالث بفتح مدينة سكم الأسيوية وهى حملة لاتتوفر عنها تفاصيل كافية ، وربما تبرر هذه الحملة العسكرية صورة " سنوسرت الثالث " التى تمثله على صدرية من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة عثر عليها فى مقبرة ابنته بدهشور تظهره فى صورة أسد برأس صغير تحميه إلهة العقاب وهو يطرح أرضا الأسيويين والزنوج ، كما نشاهد " أمنمحات الثالث " أيضا على حلى من نفس النوع وهو يقبض على ناصية بدوى من الأسيويين رافعا سيفه المقوس ليقطع رأسه ، إلا أن هذه الحملات التى ربما حدثت أحيانا فهى قليلة ونادرة كما يستنتج من المصادر الأثرية بما لايخل بالقاعدة الأساسية التى اتبعتها الدولة بعدم التدخل العسكرى فى الشئون السورية خلال عصر الأسرة الثانية عشرة على الأخص والدولة الوسطى بصفة عامة . والاحتمال الغالب أن أوضاع الود والصفاء التى ميزت مناخ العلاقات الطيبة بين مصر وبلاد سورية وفينيقية ترجع إلى كفاءة المبعوثين المصريين الذين تم اختيارهم بروية وإلى حكمة وحنكة هؤلاء الممثلين فى تصريف الأمور والمحافظة على المصالح الحيوية لمصر من غير إثارة للنعرات المحلية ، كما يرجع إلى اهتمام ملوك الأسرة الثانية عشرة فى توطيد علاقات المحبة بينهم وبين الأمراء والحكام المحليين بتلك المناطق ، كما هو ملحوظ من الآثار العديدة التى عثر عليها ، فبعض هؤلاء الأمراء المحليين فى بيبلوس حمل اللقب المصرى " حاتى عا " شريف أو حاكم مقاطعة ، وهذا اللقب لم تمنحه الفراعنة إلا للأفراد المقربين لديها ، مما يدل على مدى مساندة ملوك مصر للأمراء الأسيويين فى بيبلوس ، ولا مجال هنا لحصر الآثار التى عثر عليها فى قبور حكام بيبلوس وتحمل اسم " أمنمحات الثالث " أو " أمنمحات الرابع " ، والتى تعد هدايا ملكية لأمراء موالين ودليلا على المودة ، ومنها على سبيل المثال تمثالا أبى الهول

لأمنمحات الثالث عثر عليه فى " رأس شمر " ولأمنمحات الرابع فى بيروت، وتمثال للأميرة " أتا " ابنة امنمحات الثانى وجد فى المشرفة (قطنا) ، وقاعدة تمثال " خنمت نفر حزت " زوج الملك سنوسرت الثالث .

وفى مقابل ذلك ما عثر عليه فى مصر من هدايا وتحف أسيوية محضة كالتى كشف عنها التنقيب فى بلدة طود فى أساس معبد أمنمحات الثانى، حيث عثر على كنز يشتمل على أربعة صناديق من البرونز مملوءة بأوان من الذهب والفضة تربو على المائتى قطعة ، وسبائك ذهبية وفضية وكميات كبيرة من الخرز والاسطوانات البابلية والتعاويذ ، وهذه المواد كلها من الصناعة الأيجية والبابلية وهى إما مواد تجارية محضة أو هدايا ملكية من أمراء بيبلوس لا يمكن أن تعتبر جزية فرضت على تلك المناطق(٤٠)، ولقد هيأ هذا المناخ من العلاقات الطيبة المجال كاملا لازدهار النشاط التجارى ، والشواهد الأثرية عديدة ومتعددة لتبادل المنافع السلعية من المواد المختلفة والأخشاب والماشية بالإضافة إلى العبيد والمحظيات والإماء ، مما لايتسع المجال لذكره ، مكتفين بالإشارة إلى ظاهرة اجتماعية ملحوظة فى ذلك الحين تعد من نتائج العلاقات الوطيدة بين مصر وتلك المناطق ، وهى استخدام مصر للعمالة الأسيوية وزيادتها بشكل ملحوظ فى عهد أمنمحات الثالث وما ترتب على هذا الاتجاه من بداية حركة هجرة متصلة وسلمية وفى نفس الوقت ثابتة ومطردة أدت إلى استقرار بعض الشعوب فى شمال البلاد (٤١) ، وفى مقابل ذلك تدل الشواهد على تضخم الجاليات المصرية فى المناطق الحيوية بالمستطيل السورى ، ومن أبرز النقوش ما تصوره الآثار المصرية على جدران مقبرة " خنوم حتب الثانى " أحد حكام المقاطعات ، ويرجع تاريخ هذه النقوش إلى السنة السادسة من حكم سنوسرت الثانى وتبرز الأمير " خنوم حتب " وهو يستقبل جماعة من " العامو " يبلغ عددهم سبعة وثلاثين شخصا محملين بالجزية من الكحل ، وتدل هيئتهم المهيبة وأزياؤهم الملونة على انتمائهم للمناطق الواقعة بين مصر و " مسوبو تاميا " (ما بين النهرين)،

ويأتى بعدهم رئيس الصيادين " خيتى " وخلفه هؤلاء الأجانب يتقدمهم رئيسهم ومعه غزال أليف ، واسم هذا الرئيس " أباشا " ويحمل لقب "حقا خاست " وهو الاسم الذى حرف إلى " هكسوس " فيما بعد ، والظاهر من ملابسهم الثمينة الزاهية أنهم بخلاف البدو الذين تظهرهم النقوش مرتدين الجلود ، مما يدل على أنهم وفدوا من بلاد أكثر خصوبة من الصحراء ، ولقد مثل هذا الوفد الكنعانى أمام حاكم اقليم الصحراء حاملا هداياه راجيا الحصول على تصريح للإقامة فى إقليمه ٠ أما فى مناطق أسيا فلقد عثر على قطع أثرية تحتوى على تراجم لشخصيات مصرية من عامة الناس نقشت على الحجر ، منها نقوش الساقى (حقا اب) والمواطن (ددى أمون) ولقد تم العثور عليهما فى "جيزر"، وفى سوريا وجد نقش على جدران لربة البيت " وست وسر " والكاتب "سنيف " والحارس " وسرخبش" وكل هؤلاء لهم وظائف مؤقتة بتلك المناطق ٠

إن سجل الآثار المصرية حافل بأسماء الشهود على عمق الرابطة بين تاريخ مصر وتاريخ فلسطين ، فمن عصور ما قبل التاريخ ، منذ بدء الخليقة من ثنايا الأساطير لدينا من الآلهة أوزيريس وإيزيس وحاتحور ، ومن العصر التاريخى يشهد الملوك من الأسرة الأولى نعرمر وخاستى ، ومن الأسرة الثانية خع سخموى ، ومن الأسرة الرابعة سنفرو ، وخوفو ومنكاورع ، ومن الأسرة الخامسة : ساحو رع ، أوسركاف ، أسيسى ، أوناس ، نوسر رع ، منكاوحر، ومن الأسرة السادسة بيبى الأول ومن الدولة الوسطى الملوك : منتوحتب الثالث ، منتوحتب الرابع ، أمنمحات الأول والثالث والرابع ، وسنوسرت الأول والثانى والثالث ، ومن الملكات والأميرات ، مريت أتسى ، أتا ، خنمت نفر حزت ومن عظماء الدولة وأمرائها وقادتها أونى ، سنوهيت ، خيتى بن دواوف ، تحوتى حتب ، سنوسرت عنخ ، خنوم حتب ، ومن عامة الناس حقا اب ، ددى أمون ، وربة البيت وست سر ؟ كل هؤلاء الشهود وغيرهم مما لا يتسع لذكرهم

المقام ، قدم شهادته عن العلاقات المصرية الأسيوية الوطيدة والدائمة عبر التاريخ ، وبصفة خاصة علاقة مصر بالمستطيل السورى وعلى وجه أخص العلاقة بينها وبين بيبلوس وكنعان وفلسطين ، ولقد تجاهل فليكوفسكى قائمة هؤلاء الشهود تجاهلا تاما ، وأنكر وجودهم لأن أيا منهم لم يأت على ذكر بنى جلدته من العبرانيين الإسرائيليين ولسنا بحاجة للبرهنة عن مدى صدق كل هؤلاء الشهود ، فشهادتهم تطابق الشهادات التى كشفت عنها نتائج البحث التاريخى فى بلدان آسيا الغربية ، إلا أن كل ذلك لم يفت فى عضد إيمانويل فليكوفسكى ، ولم يمنعه من الضغط على شاهده الوحيد ، ايبوور ، حتى يخون ضميره ، ويدلى بما يريد هو الإدلاء به ، إلا أن هذا الشاهد الوحيد الذى زجه زجا وكما يعترف فليكوفسكى ، لم يصرح برؤيته للإسرائيليين ، لا أثناء تواجدهم بمصر تحت نير العبودية ، ولا أثناء خروجهم منها للتيه فى الصحراء الجرداء.

هوامش

١ - برستيد - جيمس هنرى - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الإهناسى - ت : حسن كمال - الهيئة المصرية للكتاب - الألف كتاب الثانى ٢٦٨ الطبعة الثانية القاهرة - ١٩٩٧

٢- سليم حسن - موسوعة مصر القديمة- الجزء الأول فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الإهناسى - مهرجان القراءة للجميع القاهرة - ٢٠٠١

٣ - سليم حسن - المرجع السابق

٤ - جواد بولس - الموسوعة التاريخية - شعوب الشرق الأدنى وحضاراته الجزء الأول - تعريب دار عواد للطباعة والنشر بيروت - ١٩٩٣

٥ - كلارك - راندل - الرمز والأسطورة فى مصر القديمة - ت : أحمد صليحة - الألف كتاب الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - ١٩٩٩

٦ - جريمال - نيقولا - تاريخ مصر القديمة - ت : ماهر جويجاتى - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة - ١٩٩٣

٧ - جواد بولس - المرجع السابق

٨ - ج. كونتنو - الحضارة الفينيقية - ت : د. محمد عبدالهادى شعيرة - مراجعة د. طه حسين - الألف كتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب الثانى - القاهرة - ١٩٩٧

٩ - جواد بولس - المرجع السابق

١٠ - جواد بولس - المرجع السابق

١١ - ديورانت - ول - قصة الحضارة - الشرق الأدنى - الجزء الثانى من المجلد الأول - ت : محمد بدران - الادارة الثقافية جامعة الدول العربية القاهرة - ١٩٧١

١٢ - جواد بولس - المرجع السابق

١٣ - جواد بولس - المرجع السابق

١٤ - جريمال - نيقولا - المرجع السابق

١٥ - جواد بولس - المرجع السابق

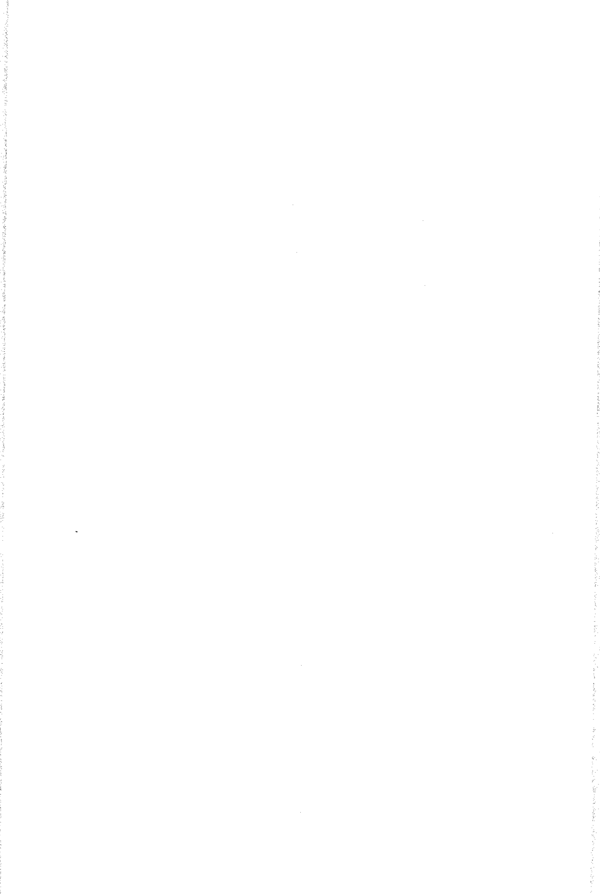
١٦ - جريمال - نيقولا - المرجع السابق

١٧ - سليم حسن - المرجع السابق

١٨ - جريمال - نيقولا - المرجع السابق
١٩، ٢٠ - سليم حسن - المرجع السابق
٢١ - سليم حسن - المرجع السابق
٢٢ - جريمال - نيقولا - المرجع السابق
٢٣، ٢٤ - سليم حسن - المرجع السابق
٢٥ - جواد بولس - المرجع السابق
٢٦ - جواد بولس - المرجع السابق
٢٧ - جواد بولس - المرجع السابق
٢٨ - جواد بولس - المرجع السابق
٢٩ - جريمال - نيقولا - المرجع السابق
٣٠ - جواد بولس - المرجع السابق
٣١ - جواد بولس - المرجع السابق
٣٢ - فراس السواح - تاريخ أورشليم - دار علاء الدين للنشروالتوزيع - الطبعة الأولى دمشق - ٢٠٠١
٣٣ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء السابع عشر - الأدب المصرى القديم - مكتبة الأسرة القاهرة - ٢٠٠٠
٣٤ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء السابع عشر - مرجع سابق
٣٥ - سليم حسن - مصر القديمة الجزء الثالث - مرجع سابق
٣٦ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الثالث - مرجع سابق
٣٧ - فراس السواح - تاريخ أورشليم - مرجع سابق
٣٨ - جواد بولس - المرجع السابق
٣٩ سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الثالث - مرجع سابق
٤٠ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الثالث - مرجع سابق
٤١ - جريمال - نيقولا - مرجع سابق

٢

إيبوور شاهد العيان الوحيد



إيبو العجوز

شاهد العيان الوحيد الذى اصطفاه فليكوفسكى - دون غيره - من جمع لايستهان بعدده من شهود العيان هو الحكيم إيبوور (إيبوالعجوز) ، وتمثل الوثيقة التى تحمل اسم هذا الحكيم حجر الأساس فى البناء التاريخى الذى يقول به فليكوفسكى، وإيبو العجوز لا يختلف عن هؤلاء الشهود فى نفيهم لوجود أى علاقة تربط بين التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى، فلم يشر إيبوور من قريب أو من بعيد إلى أنه رأى الأسباط اليهودية أثناء استعبادهم فى مصر ، أو أثناء خروجهم منها فرارا من هذا الاستعباد . ومع هذا تجرأ فليكوفسكى آخذا على نفسه مهمة إقناعنا بما لم يدر ببال الحكيم العجوز ، بتأكيده على تطابق أحداث البردية بما أوردته الرواية التوراتية من محن وبلايا صاحبت خروج بنى إسرائيل من مصر ، باعتبارهما - البردية والسفر المقدس - روايتين مختلفتين عن كارثة طبيعية ذات أبعاد كونية تزامنت مع حدث الخروج ، ثم آل على نفسه بعد ذلك وضع الوثيقة على مسار التاريخ خلال الفترة التى يطلق عليها " المرحلة الانتقالية الثانية " ، أى الفترة التى تبدأ مع نهاية الدولة الوسطى وتمتد إلى بداية الدولة الحديثة وقيام الأسرة الثامنة عشرة، وبهذا تمكن وفق تصوراته من التوصل إلى تاريخ متعين لحدث الخروج التوراتى ،حدده بثقة كاملة ،وبدقة متناهية، تثيران الدهشة - مقررا أن هذا الحدث تم خلال بضعة أيام أو أسابيع قليلة قبل غزو الهكسوس لمصر ثم معتمدا هذا التاريخ لإشاعة أكبر قدر من الفوضى فى أنساق التاريخ القديم.

وفى حين استحوذت الرغبة فى اختلاق جوانب التطابق الكامل بين نص البردية والنص الدينى على اهتمام فليكوفسكى، فأسهب وأطنب، وأول وبرر، وتخيل وافترض معالم هذا التطابق بين النصين، نراه من ناحية أخرى لم يعر المشكل الأساسى بأدنى درجة من العناية، غير مبال بتحديد زمن كتابة البردية، التحديد الدقيق الذى يتناسب مع الأهمية البالغة لهذا التحديد للتوصل بيقين تاريخى حاسم إلى زمن الخروج، وبالتالى إلى النقطة التى يتقاطع عندها التاريخ التوراتى بالتاريخ الوضعى، الركيزة الأساسية لصحة منهجه فى إعادة ترتيب أحداث التاريخ، ولن نتعرض هنا لتفنيد افتراضاته حول التطابق بين نص البردية والنص الدينى وهى المسألة التى احتلت الأولوية الأولى من سلم اهتماماته، واستغرقت جماع جهده ، فلها موضع آخر من هذه الدراسة، فعلينا أولا لكى نقترب من عوالم فليكوفسكى، أن نقدم على عمل ما تجنب هو القيام به، أى أن نحاول التوصل إلى الزمن الحقيقى الملائم لكتابة البردية ، وإلى أى مرحلة من مراحل التاريخ ينتمى إيبو العجوز، شاهد العيان الوحيد الذى اصطفاه لنفسه لإثبات صحة افتراضاته .

لم يبد أحد أدنى معرفة بشخصية إيبو العجوز ، فبعيدا عن البردية لا يأتى له ذكر بين شواهد التاريخ وشهوده ، وكل المعلومات التى توفرت عن شخصه لا تعدو حدود التكهن والاستدلال على وجوده ، لاقتران اسمه بالبردية التى يحتفظ بها متحف ليدن الآن (ورقة ليدن رقم ٣٤٤)، الأمر الذى جعل البعض يحتاط للأمر، فمع إقرار جريمال بأهمية الوثيقة كشهادة وحيدة وصلتنا عن فترة الفوضى التى أعقبت انهيار الدولة القديمة ، نجده يتحفظ على معرفته بالمؤلف الحقيقى لهذا العمل ، فربما كان شخصا آخر غير إيبو العجوز الذى ورد النص على لسانه ، فليس بمستبعد أن البردية كتبت بعد وقوع الأحداث ، والحقيقة أن ذلك التحفظ اقتصر على جريمال وحده دونا عن سائر العلماء ، فلم يفرقوا بين شخصية راوية النص وشخص مؤلفه ، وهى تفرقة لا تقلل من أهمية

الوثيقة ، فيعدها برستيد من أهم الوثائق التى تلقى الضوء على فترة الاضطراب التى أعقبت نهاية الدولة القديمة ، وقد رجح برستيد أن الملك العجوز الذى عاش الحكيم فى عصره موجها إليه تحذيراته ، هو بيبى الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة ، الذى أهمل شئون البلاد ، واعتزل فى قصره ، تاركا لرجال بلاطه وحكام المقاطعات تسيير الأمور(٢) ولقد أنعم بعض الكتاب على هذا الحكيم بوظيفة مستشار الملك " بيبى" الثانى وادعى بعض آخر أنه من موظفى الخزانة الذين يعملون فى الدلتا، وجاء إلى العاصمة ليقدم تقريرا للبلاط عن الحالة المالية، فصور تصويرا بليغا ما وصلت إليه مصر فى ذلك العهد من فوضى، وأشادوا بشجاعته فى توجيه النذر للملك ، مرجحين أيضا إنه "بيبى الثانى" الذى طال عمره إلى ما يزيد عن التسعين عاما .

لم يختلف العلماء حول الفترة التى تتحدث عنها الوثيقة ، وإن اختلفوا حول توقيت تدوينها ، غير مقتنعين بأن ايبو العجوز قد عاصر السنوات الأخيرة للدولة القديمة ، فتاريخ هذه التحذيرات يمكن تحديده بما ورد بالنص من إشارات ، تضعه خلال الأسرة التاسعة أو العاشرة ، وبصفة عامة تتراوح تلك الفترة بين نهاية الدولة القديمة وحكم أمنمحات مؤسسة الأسرة الثانية عشرة (٣)، وهذا هو الاتجاه الغالب، بينما استندت قلة نادرة من الباحثين على ما ورد بالنص من إيماءات إلى توطن أسيويين بمصر أو غزو أسيوى للدلتا ، إلى أنه من الجائز قبول فكرة وصف الوثيقة لفترة الاضطراب الثانية التى أعقبت نهاية الدولة الوسطى ، غير أنهم لم يقطعوا بهذا الرأى ، وعبر عدد آخر من العلماء فى السنوات الأخيرة عن تحفظات أخرى حول ما إذا كان النص تاريخيا أم أدبيا ، مدعين أن قدرات إيبوور الخيالية قد خدعت الدارسين فاعتبروا الوثيقة تقريرا سياسيا يصور فترة من الانهيار السياسى والاجتماعى فى نهاية الدولة القديمة أو الوسطى (٤) ولقد تجاهل هؤلاء البعد السياسى والاجتماعى للعمل الأدبى، مما لا يقلل من أهمية الدلالات التى يتضمنها النص حتى

ولو عد نصا أدبيا، ومن إمكانية الاستدلال بواقع هذه الدلالات على مجريات الأمور العامة التى تمثل خلفية العمل الأدبى .

من المناسب مع تعدد كل هذه الاتجاهات وتبيانها ، أن ننحى جميع هذه الآراء جانبا ، بادئين باستقراء نص وثيقة إيبو العجوز ، وتحديد الظواهر السياسية والاجتماعية التى ترصدها بصفة عامة ، ثم التعرض لهذه الظواهر بالبحث عما يتطابق معها من أحداث تاريخية خلال فترتى الانتقال الأولى أو الثانية.

ومن المؤسف أن هذا النص شديد التشويه، فبدايته ونهايته مفقودتان حاليا، وتعانى بعض المقاطع فى الوسط من فجوات خطيرة، ويشتمل النص على ستة أجزاء أو مقاطع شعرية، فالنص رسالة شعرية مرهفة الحس، لا يحول التكرار أو الإطناب دون أن يأسرنا جمال صوره الأخاذة(٥)، فى تصوير ما أصاب البلاد من خراب ودمار ، لا يقلل من هذا الجمال النصى انتقال الحكيم من وصف موضوع إلى آخر دون أى رابطة بين ما وصفه أولا ، وما انتقل إليه ثانيا(٦) ، فخطورة الموضوع الذى يتعرض له لايدع مجالا لتسلل الملل إلى القلب ، وتحتل مرثية إيبوور الطويلة مجال الوجدان بشراسة ، وتثير الاهتمام بوضوحها الصارخ ، الذى يعكس عمق الألم الذى شعر به المتنبى العجوز ، وهو يرى البلاد تهوى أمام ناظريه إلى الحضيض .

أهم الظواهر التى يرصدها ايبوور فى وثيقته هى تدهور سلطة الملك وانهيار أجهزة الحكومة المركزية، وهى بلاشك من أخطر الظواهر التى أشارت إليها الوثيقة، فالملك الإله هو المحور المركزى لنظام الدولة السياسى والاجتماعى، والاقتصادى، وكل شىء فى نظرية الدولة ملك له، فإذا تخلخل المحور فى مكانه انهار البناء الشامخ للنظام وعمت الفوضى، **"انظر الآن لقد وصل بنا الأمر إلى الحد الذى جعل عددا قليلا من غير المسئولين يحرمون البلاد من الملكية .. انظر الآن لقد وصل بنا الأمر إلى الحد الذى جعل الناس يثورون ضد حية التاج ... الصل (حامى) رع**

الذى يجعل الأرضين فى سلام ٠٠٠ إن سر البلاد التى لا يعرف أحد حدودها قد أفشى ، إن القصر الملكى يمكن أن يهدم فى ساعة واحدة وأصبحت أسرار ملك الوجهين القبلى والبحرى معروفة (فالحية كرخت قد أخذت من جحرها) إن مقر الملك قد روع من جراء المجاعة وليست هناك مقاومة ويمكن للمرء أن يذكى نار الصراعات دون أن يصده أحد ، ٠٠ دمر أعداء المقر الملكى العظيم ٠٠ انظر إن مصر قد انحدرت من الآن إلى أسفل سافلين حتى إنها تصب الماء (تقوم بأعمال الخدمة المنزلية)" ، وبانهيار سلطة الملك انهارت أجهزة الدولة، " **ذبح الموظفون وسلبت قوائمهم ، ٠٠ ودمرت دفاتر كتاب الحقيقة٠٠ (حقا لماذا يقرأ الناس كتابات الديوان المقدس ٠٠ إن مكان الأسرار أصبح مكشوفا للجميع ٠٠) ٠٠ اقتحمت الادارات العامة ونهبت قوائمها ٠٠٠ إن الوظائف ليست فى موضعها الصحيح ٠٠ ورؤساء البلاد يهرولون (لايستطيعون القيام بواجباتهم وأعمالهم) ٠٠ فلماذا تفتح المكاتب ، وما الذى يدعو إلى قراءة التقارير ٠٠ لماذا القوا بقوانين الديـــوان فى الطريق ، أن الناس يمشون فوقها فى الشوارع ويمزقها العامة فى الطرقات)** " ، هكذا فقد القانون هيبته واحترامه ، وتدهورت العلاقات بين المواطنين و"**سلبت كتابات قائمة المحكمة الفاخرة ، وأصبح المكان السرى مكشوفا ، ٠٠ واكتظت قاعة العدل العظمى (إن الانسان البائس يقترب من مقام آلهة الناسوع ، وأميط اللثام عن الاجراءات القانونية الشهرية لمجلس الثلاثين ٠٠ والمجلس الخاص العظيم تم اجتياحه٠٠ والمعوزون يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة** "، تلك البيوت التى تمثل وزارات المملكة ، وكما انهار الجهاز الإدارى للدولة ، انهارت سلطة العدل والقضاء فـ٠٠" **قضاة مصر يطاردون فى جميع أنحاء البلاد وطردوا من بيوت الملك)٠**

ترتب على تدهور النظام الملكى وانهيار أجهزة الدولة ومؤسساتها انهيار دعائم النظام الاقتصادى للبلاد ، وانعكست آثار تفكك الدولة وانحلالها على أحوال المالية العامة ويلاحظ إيبو العجوز ما أصاب الوضع

الاقتصادى من تدهور فى شتى المجالات ، فلقد نضبت الموارد المالية للموازنة العامة للدولة التى تعتمد على جباية الضرائب والرسوم وجزية البلاد الأجنبية ، " **حقا فإن الفنتين وطينة وهما من ممتلكات الوجه القبلى لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية .. وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة وكل ما ينتجه الصناع .. (فما فائدة خزانة بدون عوائد و .. كان قلب جلالته سعيدا (فيما مضى) عندما كان (حملة) القرابين يتقدمون نحوه ، وعندما تأتى البلدان الأجنبية .. هذه كانت (مأؤنا) (مواردنا) .. هذا كان رخاءنا .. ماذا سنفعل فى هذا الصدد ؟ كل شىء تهدم) وضاع " لقد اختفت البسمة فلا أحد يبتسم . إن الشكوى هى التى تعم البلاد مختلطة بالنحيب " ، " لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء (فالفواكه والنباتات بل والطيور ذاتها لم تعد موجودة) ولا أعشاب نأكل منها . وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير دون أن يقال هذا أحسن لك مما هو لى لأن القوم صاروا جياعا .. انعدمت الغلال فى كل مكان وجرد القوم من الملابس . والعطر والزيت وصار كل إنسان يقول لم يبق شىء وصار المخزن خاليا وحارسه قد أصبح ملقيا على الأرض " ، لقد هجرت المحاجر وتعطلت الصناعات ، وبارت المزارع " إن النيل فى وقت فيضان .. ومع ذلك لايحرث أحد .. انظر لا صانع يعمل .. والعدو يحرم البلاد حرفها .. إن من حصد المحصول لا يعرف عنه شىء . ومن لايحرث لنفسه يملأ مخزنه . وإن الحصاد يحرث ولكن لم يذكر عنه شىء والكاتب يجلس فى مكتبه ولكن يديه لاتعملان شيئا ... (و) مخزن الملك أصبح مشاعا لكل فرد** " ، أما المشروعات المعمارية العظيمة وبناء المقابر وتأثيثها وإقامة النصب وهى النشاط الاقتصادى الأساسى الذى يقوم به القصر الملكى فقد توقف ، وفقدت البلاد أكبر صناعة لها على الإطلاق ، لقد كان هذا النشاط يتم تنظيمه من خلال مزيج من الطموح والاعتراف بدور الملك فى المجتمع، ويعد بناء الأهرامات شيئا ضروريا لنمو المدنية ، فالابتكارات فى

التكنولوجيا وأشكال المعرفة العملية الأخرى والتحسينات فى مستوى المهارات بتنمية القدرات الإدارية والتدريب على الأعمال الفنية والحرفية ، نشأت كلها فى ركاب تحقيق تلك المشروعات ، فمن الضرورى جلب الأحجار بكميات كبيرة ، وتوفير الخامات المناسبة ، وتصنيعها بالاعتماد على وسائل فنية متقدمة ، والاهتمام بتخصيص وسائل نقل مناسبة تفى بالغرض، إلى مواقع المشاريع ، وبانهيار الجهاز الادارى وهو أهم عوامل نجاح مشروعات الإنتاج الكبير ، توقف هذا النشاط العظيم الذى يعد بحق الحافز الاقتصادى التأثير الفعال ، وانفرط عقد القائمين عليه ،" حقا لقد أصبح بناءو الأهرام عمالا فى الحقول ·· والذين كانوا فى سفينة الإله (الملك) أصبحوا تحت نير واحد "، وينتقل إيبو العجوز من رصد ما أصاب الحياة الاقتصادية من تدهور، إلى رصد العلاقات التجارية الخارجية وما لحق بها من جمود، خاصة العلاقات مع بيبلوس التى تمثل المجال الحيوى للاقتصاد المصرى فى ذلك الحين، **" لا أحد يبحر ألى بيبلوس هذه الأيام ·· كيف سنتصرف للحصول على خشب الأرز من أجل مومياتنا ، إن الكهنة يدفنون بمنتجاتهم فحسب والأثرياء يحنطون بزيت ورد من أماكن قصية مثل جزيرة كريت (كفتيو) وهى لم تعد ترد بعد قط ·· اننا نفتقر إلى الذهب ·· وأيضا إلى المواد (اللازمة) لمختلف الأعمال وما كان يمتلكه القصر الملكى ·· قد تم نهبه ومن ثم فإنه لأمر هام عندما يحضر أهل الواحات محملين بقرابينهم وحصرهم وجلودهم ونباتاتهم الطازجة وشرابهم وطيورهم "** · فالتجارة مع العالم الخارجى فى العصور القديمة استهدفت الحصول على الواردات فى الأساس أكثر من كونها تبحث عن أسواق للتصدير، وبانقطاع التجارة الخارجية تلاشى الاستهلاك المحلى المتواصل المرتبط بعمليات البناء وتجهيز المقابر وبتوقف العلاقات التجارية الخارجية لمصر · ازداد تدهور الوضع الاقتصادى، وتفشت البطالة وعمت الفوضى ·

تعكس وثيقة إيبوور التفاعل الكامل بين الظواهر التى يرصدها،

وتبادلها التأثير والتأثر ، وربما ترتب على التزام الوثيقة الصدق فى الرصد والتعبير ما يلاحظ فى النص من تكرار وإطناب، فمجال النشاط الإنتاجى الأعظم فى بناء الأهرامات والعمائر الكبرى على ماله من تأثير فى تدهور الاقتصاد، يرتبط من ناحية أخرى بالفكر الدينى وعقيدة الخلود بطقوسها وشعائرها، وبوظيفة الملك كإله، ويرصد إيبو العجوز مرتاعا نضوب الحس الدينى، وبزوغ روح الالحاد " **إن الرجل الأحمق يقول إذا عرفت أين يوجد الإله فإنى أقدم له قربانا** " ، وانصرف الناس عن تقديم القرابين العظيمة " **إن القصابين يذبحون الأوز الذى يقدم للآلهة بدلا من الثيران** " و " **الذين كانوا فى المكان الطاهر قد ألقوا على قارعة الطريق وأصبح سر المحنطين جهرا** " ولقد وصل الشعور بالإلحاد إلى أقصى مدى له ، " **انظروا فى الحقيقة لقد حدث شىء لم يكن قد حدث قط من قبل . لقد انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى أن بعض الأشقياء اختطفوا الملك .. انظروا ذلك الذى كان قد دفن بصفته صقرا إلهيا (الملك) هو الآن فوق نعش ، وبعدما كان الهرم يضمه أصبح من الآن خاليا** " ، لقد انحط الناس انحطاطا هائلا ، واتوا أشنع الجرائم متعدين على قدسية المقابر ، بلا وازع يردهم ، فسلبوا ونهبوا آلهتهم وملوكهم وجدودهم ، غير مبالين بالتقاليد العريقة وبقداسة الطقوس والشعائر الدينية " **انظروا إذن فكثير من الموتى يلقى بهم فى النهر . المياه هى القبر والمكان الطاهر موجود الآن فى النهر .. حقا أصبحت التماسيح فى تخمة بما سلبت . إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر وحالة البلاد أصبحت سيئة .. حقا لقد أصبح الناس قليلين . على أن من يدفن أخاه فى الأرض يرى فى كل مكان .. وبعد أن يتكلم المرتل يهرب على الفور** "

"**إن كل قلوب الماشية تبكى والقطعان تندب حالة البلاد**"، بهذه المرارة يرصد إيبو العجوز الفوضى السياسية والاجتماعية ، وانتهاج العنف سبيلا لقلب الأوضاع ، " **حقا لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار وصار اللص صاحب ثروة** " ، **إن البلاد ملأى بالعصابات**

والمجرمون فى كل مكان"، والحرب الداخلية والصراع الاجتماعى يدور بين من كانوا يملكون بالأمس، وبين من كانوا لايملكون "**لقد أصبح المعوزون الآن يمتلكون أشياء جميلة ومن كان يخصف نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة**"، لنحاول أن نحدد أطراف الصراع الاجتماعى الدائر أمام إيبو العجوز، ذلك الحكيم الارستقراطى ، الفطن ، فى محاولة للتعرف على نطاق الفوضى – الثورة ، بتحديد الشرائح الساخطة ، المتذمرة ، والتى انتفضت حاملة السلاح لقلب الأوضاع .

"انظروا إذن الذهب واللازورد والفضة والكرنيليان والبرونز والمرمر .. تحلى جيد الجوارى (الخادمات) والسيدات النبيلات تهيم فى طول البلاد . وربات الخدور تقلن ليتنا نحصل على بعض ما يسد الرمق" "حقا فإن.. أعضاء السيدات النبيلات فى حالة يرثى لها إذ يرتدين الأسمال".

" حقا لقد أصبح بناءو الأهرام عمالا فى الحقول "

" حقا فقد أصبح أولاد الأمراء يضرب الناس بهم عرض الحائط "

" حقا فإن المواطنين (بالأمس) ينحنون الآن فوق حجر الرحى، والذين كانوا يرتدون أرق أنواع الكتان يضربون الآن .. واللائى لم يشاهدن نور النهار خرجن (سيدات الطبقة الراقية أجبرن على العمل)

" إن الخادمات صرن سيدات بقدرة السنتهن .. "

" إن العظماء جوعى ويتألمون ولكن الخدم أصبح لهم من يخدمهم "

" إن قضاة البلاد قد طردوا .... "

" إن العقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن والأمراء ينامون فى المخزن ومن لم يكن ميسورا له أن ينام بين الجدران أصبح صاحب سرير ."

" من لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناء مسورا "

" الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا فى خرق باليه .. ومن كان لاينسج لنفسه أصبح الآن يملك الكتان الجميل "

" من لم يبن قط لنفسه قاربا أصبح الآن يملك سفنا .. وأصبح

صاحبها ينظر إليها ولكنها لم تعد ملكه "

" إن من كان يجهل ضرب العود أصبح يملك عودا ومن كان لايغنى له أحد أصبح الآن يثنى على الهة الغناء "

" من كانوا يمتلكون موائد نحاسية للمشروبات . لم تعد هناك الآن جرة واحدة بين جرارهم تحاط بجدائل الزهور "

" إن من قد نام أعزب بسبب الحاجة أصبح الآن يجد السيدات .. "

"من كان لا يملك شيئا أصبح ذا ثروة وأصبح الرجل العظيم يمدحه.."

"فقراء الأرض أصبحوا أغنياء.. ومن كان يملك متاعا أصبح لاشىء عنده "

" من كان رسولا .. أصبح يرسل غيره "

" من كان لايملك خبزا يمتلك مستودع حصاد ولكن مخزنه ملىء بممتلكات الغير "

" إن الأصلع الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أوانى العطور الزكية "

" إن من كانت تملك صندوقا أصبحت تملك صوانا . وتلك التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة ".

" إن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أى عمل " .

" إن من كان يملك زوج ثيران أصبح يملك ازواجا .. ومن لم يكن فى مقدوره أن يحصل على ثيران للحرث أصبح يملك قطعان ".

" إن الذى لم يكن يملك حبة أصبح الآن يملك أجرانا .. ومن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح أصبح الآن يخرج من مخازنه ويجعلها توزع ".

" من كان لايملك اتباعا أصبح رب عبيد .. ومن كان من علية القوم أصبح الآن ينفذ أوامر غيره ".

يرثى إيبو العجوز فى برديته أبناء الطبقة الأرستقراطية التى ربما

ينتمى إليها، ونستطيع بسهولة أن نتبين الفئات العديدة لهذه الطبقة من ذوى الإزارات الكتانية البيضاء التى أضيرت مصالحها ، من أمراء ونبلاء وحكام مقاطعات وكهنة وكبار موظفين وأرباب أعمال وملاك ثروات زراعية وأطيان ، الخ ، هبت الثورة واندلعت بالعاصمة ، ودمرت شرارتها السلطة الملكية واختطفت الملك ، وانقضت على الجهاز الإدارى ، بددت الأرشيف وأحرقت وثائق الملكية ، واقتحمت قصور القضاء وشردت القضاة واستباحت دم الموظفين والكتبة وأمناء المخازن، وأزاحت الطبقة العليا من أماكنها واحتلت مراكزها واغتصبت ممتلكاتها ٠

ومن الطبيعى أن يتعاطف إيبوور مع أبناء طبقته متأسيا لما ألم بهم من مصائب ونوائب ، مطلقا على الثوار القاب الخارجين على الشرعية وسلطة القانون المجرمين اللصوص السفلة ، فهم من وجهة نظره مغتصبى الحقوق من الدهماء والرعاع ، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين الإدراك السليم فى تفهم الموقف وأسباب الثورة فهو يتوجه بالخطاب إلى الملك ، ويحمله بشجاعة مسئولية ما حدث من فوضى ، وما نشب من صراع " **إن القيادة والفطنة والصدق (العدالة) معك " لكنك لم تستخدم سلطتك بما يفيد البلاد ، (إن ما تبثه فى طول البلاد هو الفوضى ٠٠ فالغوغاء يتخاصمون ٠٠ إن العدد الأكبر يذبح العدد الأصغر ٠٠ أيوجد راع يحب الموت) " الأكاذيب تتلى عليك ٠ البلاد قش ملتهب ٠٠ وكل هذه الأعوام ارتباك ٠٠ ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك " ، " تذكر كيف كانت تنصب الأعلام ٠٠ وتنقش ألواح القربان وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد ويبيض بيت الإله كاللبن وكيف كان يعطر الأفق (المعبد) ٠٠٠ تذكر كيف كانت ترعى الأنظمة ٠ وتوزع أيام الشهر ويعزل الكهنة الأشرار** " ، هكذا تنصب إدانة ايبو الحكيم بقوة على الملك الذى ترك الأمور تفلت من بين يديه منعزلا فى قصره عن نبض الشارع ، وتمتد هذه الإدانة بطبيعة الحال لنظام الحكم بالكامل ، ومراكز القوة التى زيفت التقارير وصادرت الأخبار ، وهيأ لها الملك بسلبيته فرصة التمادى فى شرورها " **وكان فى مقدوره أن يقضى**

على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم ٠٠ فأين هو اليوم ؟ " ويتساءل ايبوور **هل الحقيقة غائبة حقا عن نظر وسمع الملك، هل هو بطريق الصدفة ينام؟**" ذلك لايعفيه من تحمل مسئولية ما يحدث، وكما أدان إيبو العجوز السلطة الملكية على سلبيتها ، توجه بالإدانة للمثقفين والمفكرين، على تقاعسهم عن استثارة الوعى ، والتحذير من مغبة ما ستئول إليه أوضاع البلاد، فمن أخص واجباتهم القيام بذلك، وتدارك الموقف قبل أن تنهار البلاد وتزداد الأوضاع ترديا ، " **ما أشق ذلك على نفسى ، بل وعلى كلى، وليتنى رفعت صوتى فى ذلك الحين ، وإذن لأنقذنى ذلك من عذاب لازلت أعانيه " كان من الممكن أن يرتاح قلب الملك لو بلغته الحقيقة** "

تكتمل الظواهر التى ترصدها وثيقة ايبوور بظاهرتين ، هما فى الحقيقة من النتائج التى ترتبت على تخاذل الملك وانهيار الجهاز الإدارى للدولة وتدهور الاقتصاد وتفشى المجاعة والمروق الدينى ، فمن الطبيعى فى مثل هذه الأحوال أن تختل أوضاع الأمن الداخليـــــة ، كما أنه من الطبيعى أن يستثير الضعف شهية الطامعين فى البلاد من شعوب الشرق فيتوافدون إليها متسللين مسالمين أو يقتحمون حدودها غزاة محاربين .

ويرصد ايبو العجوز ظاهرة اختلال الأمن ، فلم يعد أحد يأمن على نفسه أو على ماله ، " **أصبحت الطرق والشوارع تحرس والناس يختبئون فى الأعشاب حتى يأتى المسافر فى ظلام الليل (فينقضون عليه) ليسلبوا منه حمله وما عليه ٠٠ يسرق ويضرب بالعصا حتى ينقطع نفسه ثم يذبح ظلما** " وما من مجير له ، فأجهزة الأمن عاجزة عن توفير الأمان المفقود للمواطنين ، لما أصابها من ضعف ووهن كجهاز من أجهزة الدولة المنهارة، وللسلبية التى وصمت رجال الشرطة وهو ما يستدل من عبارته عن وجود حراسة غير فعالة بالشوارع والطرقات ، أو لغياب القوانين قبل اختفاء رجال الأمن كما يشير فى فقرة أخرى ٠٠ المشرف على العاصمة يخرج بدون شرطة ، مهما كانت الأسباب ، فلقد أصبحت " **البلاد ملأى**

بالعصابات .. والمجرمون فى كل مكان .. الرجل القوى يغتصب التعساء متاعه .. ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنفض المشاحنات " وتستقر الأمور ويستتب الأمن ، ومما يزيد من خطورة الموقف ظواهر تفكك عرى الروابط الاجتماعية وسيادة روح الفردية وانهيار أسس الاخلاق " **عمت الوقاحة عند كل الناس .. والرجل يقتل أخاه من أمه** " ، لقد تحول النزاع الاجتماعى فى طور من أطواره إلى نزاع بين الأخوة الأشقاء ، كل يبحث عن مصيره الشخصى غير مبال بالآخرين حوله " **إن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه لتنجى نفسه** " . لقد فقدت البلاد مقومات الوحدة ، وأسس الاجتماع ، وروح الانتماء والحرص على المصلحة العامة ، " **أصبح منظر الناس كمنظر طير** " **جم** " **(كريه الرائحة) والقاذورات منتشرة فى كل البلاد** " **وانتشرت الأمراض والأوبئة** " **أصبح الناس قليلين .. ، . من يدفن أخاه فى الأرض يرى فى كل مكان .. حقا لقد قضى على الفرح ... الحزن هو الذى يعم البلاد ممزوجا بالأسى** " . فى هذا المناخ أصبح الموت أمنية عزيزة المنال ، وفكرة متسلطة على الكبار والصغار ، ضاع الأمل فى المستقبل ، والاقتناع بالحاضر ، **أصبح كل من العظيم والحقير يقول ليتنى كنت ميتا** ، وحتى الأطفال يستفسرون عن جدوى الحياة ويقولون ليتنا ما ولدنا " **الأطفال يقولون كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة** " مع هذه الأوضاع المتردية ماديا ونفسيا يفضل البعض الانتحار ، ويقدم على الموت بمحض إرادته ، فيلقى بنفسه فى النهر ، وتصاب التماسيح بالتخمة " **قد أصبح مجرى الماء قبرا .. وأصبح بيت التحنيط هو مجرى الماء** " **لإن التمسايح تبقى تحت الماء لكثرة ما حصلت عليه لأن الناس يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم** ". لم يعد أحد يتطلع إلى حياة الخلود بعد الموت ، وتنازل الناس عن المزايا التى يتشوقون إليها من دفنهم فى قبر وإقامة الشعائر الجنائزية والتمسك بالطقوس الدينية . وزهد الجميع فى بذل الوقت والمجهود لبعث القيم فى جسد الحياة الهامد .

مكنت هذه الأحوال الأعداء من قبائل الصحراء أو شعوب الشرق من تحقيق مطامعهم ، فاستولوا على البلاد ، وفرضوا هيمنتهم وسلطتهم، وظهر الأسيويون فى مصر ، وتسيدوا على مقدرات الأمور بدون مقاومة" **"خربت المنازل ونزل أغراب من الخارج إلى مصر ولا رجال فى أى مكان، الدلتا بأجمعها أصبحت غير محمية (قلب الوجه البحرى يعج الآن بالدروب المطروقة ٠٠ أنظر إنه الآن بين يدى الذى لايعرفه (الأغراب) مثله مثل ذلك الذى كان يعرفه (المصريون)**، دانت كافة الأمور فى الدلتا للأجانب، " **هم منذ الآن الحرفيون الذين يقومون بأعمال الوجه البحرى٠٠ من كانوا مصريين أصبحوا أجانب (فلقد انتشر أهل الصحراء فى كل مكان) أصبحت الأرض الحمراء منتشرة فى كل البلاد " ٠**

لم يصرح إيبوور فى وثيقته عما إذا كانت أقوام الأسيويين قد غزت البلاد بحرب مسلحة ، أم عن طريق التسلل ، وللعلماء فى هذه المسألة تأويلات متباينة ، والأرجح أن هؤلاء الأسيويين الدخلاء وفدوا تدريجيا منصهرين فى نسيج المجتمع المصرى شيئا فشيئا ، واستوعبتهم أرض مصر وطمرتهم فى ثراها، فاندمجوا على مر الزمن فى مدنيتها ، وصبغتهم حضارتها فأتقنوا صنائعها وفنونها وحرفها كما يستشف من النص، وبتضاعف أعدادهم فى الدلتا ساعدتهم الأحوال التى تمر بها البلاد من الهيمنة السياسية جزئيا، وربما كان ذلك الانصهار سببا من أسباب نمو التعاون بينهم وبين المصريين على الرغم من النعرة المصرية القومية التى تجلت فى اعتبار الأجانب بصفة دائمة أقل وأدنى درجة منهم، ومع هذا فلقد لاحظ إيبو العجوز مستنكرا أن الجنود الذين نجندهم لنا أصبحوا من شعب القوس الذين أرادوا أن يدمروا المكان الذى نبعوا منه وهم يظهرون للبدو حالة البلاد " ، وهذه العبارة تحتمل بغموضها العديد من التأويلات ، فبعض الوثائق المصرية تحاول تبرير الضعف الوطنى بإلقاء اللوم على الأسيويين ٠ ولكن مثل هذا الاتجاه ليس إلا تهربا

من المسئولية كما يذكر جون ولسون ، فلم يأت الأسيويون غازين أو فى جموع كبيرة ، بل انتهزوا فرصة اختلال الأمن فسيطروا على الأرض الخصبة بعد إقامتهم فيها(٧) ٠

كبسى - رئيس رجال مائدة الأمير

من بين الظواهر العديدة التى ترصدها وثيقة إيبوور ، يكتفى فليكوفسكى بما تضمنه نص البردية من إشارة إلى غزو الأسيويين لدلتا النيل ، مؤكدا استنادا إلى ذلك على أن زمن كتابة البردية وما وصفته من أحداث قد سبق غزو الهكسوس بعدة أيام أو أسابيع قليلة مما يعنى أن وثيقة إيبو العجوز تتناول فترة حكم الأسرة الثالثة عشرة التى شهدت عصورها المتأخرة هيمنة الأسيويين على مقاليد الحكم فى شمال البلاد . بهذا القطع الزمنى يسقط فليكوفسكى من اعتباره تعرض مصر أو مناطق منها للحكم الأجنبى خلال فترتين من تاريخها حتى ذلك الحين ، الأولى أعقبت انهيار الدولة القديمة نهاية الأسرة السادسة ، إبان فترة الانتقال الأولى ، والثانية عقب نهاية الدولة الوسطى وسقوط الأسرة الثانية عشرة وهى الفترة التى يطلق عليها فترة الانتقال الثانية ، الأمر الذى لايصح معه الاعتداد بظاهرة الحكم الأجنبى للبلاد ، كأساس لتحديد زمن كتابة البردية ، أو زمن ما تصفه من أحداث ونوائب ، ومن المنطقى إذن استبعاد هذا المعيار والتمسك بما ورد بالوثيقة من ظواهر أخرى ، ثم البحث عما يتطابق معها من أحداث خلال هاتين الفترتين للتوصل إلى تاريخ دقيق وواضح لزمن كتابتها أو أحداثها . ومن الإنصاف ومن دواعى الموضوعية أن نبدأ بالفترة التى يرجحها فليكوفسكى أى فترة حكم الأسرة الثالثة عشرة ، تلك التى سبقت استيلاء الهكسوس على مقاليد الحكم ، محاولين التوصل إلى أجوبة واضحة لعدة أسئلة تجنب فليكوفسكى طرحها ، على الرغم من أهميتها البالغة ، هل: حقا شهدت

فترة حكم الأسرة الثالثة عشرة انهيارا للنظام الملكى ؟ ، وهل حقا تقوض صرح الجهاز الإدارى للدولة ؟ ، وهل تدهور الوضع الاقتصادى وحلت المجاعة وتوقفت التجارة الخارجية ؟ ، هل حقا عمت الفوضى وأهملت القوانين وطورد القضاة واقتحمت دور العدالة وضاعت الحقوق؟ ، هل استولى الثائرون على الدواوين والمصالح وأجهزة الحكومة وذبح الموظفون وأحرقت السجلات ؟ ، هل عمت روح الإلحاد وتفشت سرقة المقابر وأفشى سر التحنيط وأهملت العمائر والمعابد وطقوس الدفن والشعائر واختل نظام الأمن الداخلى ؟ ، وانهارت القيم الاجتماعية والخلقية ؟ .. إلى غير ذلك من أسئلة عديدة ذات أهمية قصوى ، تحدد الإجابة عليها الزمن عاشه الحكيم العجوز وبكى على أطلاله نادبا ما أصاب البلاد من نوائب ومحن .

ولنا فى فليكوفسكى أسوة غير حسنة ، فى تفضيله أسلوب استدعاء شهود العيان إلى منصة الشهادة ليدلوا بأقوالهم ، فيحق لنا اتباع ذات الأسلوب على الرغم من اعتراضنا منهجيا عليه ، وأول من نستدعيهم هو الأمير كبسى حاكم الكاب ، أحد كبار رجالات الدولة خلال فترة ولاية الملك سواز إن رع (نب ارى راو) ، أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى عهودها المتأخرة ، وقد عثر على وثيقة فى قاعة العمد بمعبد الكرنك ، وهى موجودة الآن بالمتحف المصرى (وثيقة رقم ٥٢٤٥٣) ، (٨) وهذه الوثيقة هى صورة تعاقد بين الأمير كبسى حاكم الكاب وبين الابن الملكى وحامل خاتم ملك الوجه البحرى ورئيس المعبد المسمى سبك نخت ، تنازل بمقتضاه كبسى عن وظيفته مقابل ما يساوى ستين دبنا ذهبا تشمل نضارا وشيها وحبوبا وملابس (الدبن وزن مصرى مقداره ٩١ جراما) وتدل الوقائع على ان " سبك نخت وقد وكل الكاهن حور" إله نخن " فى تقديم شكوى نيابة عنه إلى مكتب مراقب القسم الشمالى،جاء فيها **"لقد اتيت بوصفى ممثلا للابن الملكى رئيس المعبد المسمى " سبك نخت " لأقول إنى قد أودعت أمانة قيمتها ستون دبنا من الذهب تشمل نضارا وشبها**

وملابس وحبوبا من متاعى لدى رئيس رجال مائدة الأمير المسمى كبسى وإنه لم يردها لى ، ولذلك أقمت دعوى عليه ، وهاك ما تم خاصا بذلك فى مكتب حاجب قسم الشمال " ، فقد تم استدعاء الأمير كبسى ومواجهته بما هو منسوب إليه أمام حاجب قسم الشمال ." **أو ليتسنى وضع هذه الشكوى تحت نظر رئيس رجال مائدة الأمير (كبسى) وقد اعترف بالحقيقة ، لقد حدث أنى قد أضعته بيدى (أى المال الذى أودع لديه) ٠٠ إنى سأعوضه عن ذلك بوظيفتى " حاكم الكاب " التى أتت لى إرثا عن والدى حاتى عا المدينة (العمدة) والوزير " أمرو " وقد أتت إليه (والده) بمثابة ملك من أخيه من أمه المسمى " آى الصغير " وهو الذى مات دون أن يعقب أطفالا ، وهذه الوظيفة كان قد قلدها إياه والده الوزير آى بمقتضى نزول مكتوب فى السنة الأولى من عهد الملك " مر حتب رع " المرحوم (سلف الملك سواز) وقد وضع ذلك (العرض) أمام الكاهن سبك نخت النائب عن حاكم الكاب فأعلن ارتياحه لذلك أيضا ، ثم أمر بحلف اليمين على ذلك (الاتفاق) وذلك بالقسم بالسيد (الملك) له الحياة والصحة والعافية ، وبالامتناع بالرجوع عن ذلك أبدا ، وقد عقد هذا اليمين أمام الحاجب المسمى " كمسو " التابع لقسم الشمال " ٠**

فى مقابل الدين المستحق للابن الملكى " سبك نخت " أبدى كبسى حاكم الكاب استعداده للتنازل عن وظيفته التى آلت إليه عن أبيه الوزير "امرو" والتى أتت إليه عن أخيه " آى الصغير " الذى مات دون أن يعقب وريثا، وهى الوظيفة التى تقلدها بدوره عن والده الوزير آى ، بمقتضى عقد تنازل وثق فى السنة الأولى من عهد الملك " مرحتب رع " ، وقد أرضت هذه النية الطيبة الكاهن سبك نخت النائب عن حاكم الكاب ، وأدى كبسى اليمين بعدم الرجوع عما أبداه ، وتمت اجراءات حلف اليمين طبقا للقانون ، وقبل أن يتم تسجيل المستندات ، كان على نائب قسم الشمال التأكد من صحة الوثائق بالاطلاع على عقد التنازل الأصلى بين آى الصغير ووالده الوزير آى ، وهو المستند الأصلى للملكية التى آلت الوظيفة

بمقتضاه للأمير " كبسى " ، والمحفوظ بأرشيف مكتب الوزير ، وبالفعل جيء بالوثيقة ، وتم الاطلاع عليها ، والتثبت من صحتها وسجل محضر الاطلاع **"وهاك الكيفية التى أجرى بمقتضاها الوزير (آى) نزولا مكتوبا لابنه رئيس مائدة قربان " آمون " المسمى آى الصغير وذلك فى السنة الأولى من عهد الملك " مر حتب رع " المرحوم : عمل الأصل بمكتب الوزير نفسه وقد جيء بالتقرير الذى أتى به من مكتب الوزير ، وقد أحضره السيد " ساب " الذى يشغل وظيفة كاتب الوزير (وقد أودع) التقرير ومناقشته مكتب الوزير ، وتحقق أن عمدة المدينة والوزير المسمى آى قد حرر نزولا مكتوبا خاصا بحكومة الكاب هذه لابنه رئيس مائدة قربان آمون المسمى آى الصغير ، وذلك فى السنة الأولى الشهر الرابع من فصل الحصاد فى اليوم التاسع عشر من عهد الملك " مر حتب رع " المرحوم وقد قال بصدد هذا النزول المكتوب الذى عمله : لما كان هذا التعاقد أصبح ملغيا بالنسبة لابنى رئيس مائدة قربان آمون لأنه لانسل له ، من أجل ذلك ينبغى أن تعطى وظيفة حكومة الكاب ملكى لإخوته من الأم "**، وبعد التثبت من صحة المستندات وسند الملكية ، يسجل محضر الاطلاع أنه" ، **قد أرسل لإحضار كاهن الاله حور إله بلدة نخن المسمى سبك نخت (نيابة عن سبك نخت الأبن الملكى حامل ختم الوجه البحرى ورئيس المعبد) وقد أحضر فى الوقت نفسه رئيس رجال مائدة الأمير " كبسى " بمساعدة هؤلاء الموظفين إلى مكتب الوزير ، وقد كان لزاما على مكتب الوزير أن يقوم (بالاجراءات) على حسب القانون - وقد حلفا اليمين على الاتفاق فى السنة الأولى الشهر الأول من فصل الحصاد بموافقة رئيس المحكمة (هات) المسمى " رن سن " .**

استغرقت إجراءات تسجيل وشهر التعاقد بين كبسى وسبك نخت مدة تتراوح بين أربعة أو خمسة أشهر ، فلقد تم تحرير العقد الابتدائى، **فى السنة الأولى ، الشهر الرابع من فصل الفيضان اليوم الأخير من الشهر ، من عهد جلالة هذا الاله " الملك نب ارى راو " (سيدهم جميعا)** ثم تأتى

ديباجته. " نزول كتابى عن ملكية حررها رئيس رجال مائدة الأمير كبسى لرجل من عترته وهو الابن الملكى وحامل خاتم ملك الوجه البحرى ورئيس المعبد سبك نخت : وحيث إنه معترف بوجود وظيفه والدى حاكم الكاب المسمى امرو ، وقد ورثها والدى هذا بوصفها ملكا لأخيه من أمه وهو حاكم الكاب المسمى آى الصغير وهو الذى مات دون أن يعقب أولادا ، وقد أصبحت هذه الوظيفة ملك هذا الرجل الذى من عترتى وهو الابن الملكى ورئيس المعبد المسمى " سبك نخت من ابن لابن ومن وارث لوارث ، على أن يعطى الخبز والجعة واللحم والمؤن وكهنة الروح والخدم والبيت التابعه لتلك الوظيفة ، فيجب ألا يقيم أى شخص عقبة فى سبيل هذا النزول الكتابى وذلك لأنه دفع لى الثمن وقدره ستون دبنا من الذهب فى صورة أشياء متنوعة ، وإذا قدم شخص شكاية أمام الحاكم أو أمام من يستمع للأوامر قائلا " إن هذه الوظيفة تئول إلى " فيجب ألا يلتفت إليه بل يجب أن تعطى سبك نخت وأن تكون له من ابن لابن ومن وارث لوارث، ومحظور الاصغاء لأى فرد يشكو فى هذا الصدد ، وذلك لأنها وظيفة ورثتها عن والدى ، وقد مكنت هذا الرجل منها لأنه من عترتى ، وهو الابن الملكى ورئيس المعبد المسمى سبك نخت وإذا جاء أحد من أولادى أو من بناتى أو إخوتى أو أخواتى أو أى فرد من عترتى ليقول " إن هذه الوظيفة تئول إلى فيجب ألا يصغى إليه ، بل يجب أن يعطاها أخى وهو الابن الملكى حاكم الكاب المسمى سبك نخت ، وهذا النزول الكتابى قد عمله السيد (ساب) المسمى رن سنب فى حضرة عمدة المدينة والوزير ورئيس المحاكم الكبرى الست المسمى " سبك نخت (يلاحظ شيوع اسم سبك نخت فى تلك الفترة) والسيد نب سومنو وكاهن حور إله نخن المسمى سبك نخت وإذا حدث أن عوق تنفيذ هذا النزول الكتابى فيجب ألا يلغيه أى شخص أبدا " وقد حرر بواسطة مكتب مراقب القسم الشمالى ، وقد كان كاتب السجن المسمى أمنحوتب معينا ليمثل كاتب مراقب القسم الشمالى (عن البلدة) وقد عمل له الاجراء حسب القانون بعد موته ووضع أمامه

لتجديده كل سنة حسب القانون " ، كما الحق بهذا العقد تزييلا أو عقدا آخر بسداد القيمة واستلام الثمن وصيغته : " **فى السنة الأولى ، الشهر الرابع من فصل الفيضان ، اليوم الأخير من الشهر من حكم جلالة هذا الاله (الملك) ، من الابن الملكى حامل ختم الوجه البحرى ورئيس المعبد سبك نخت ورئيس رجال مائدة الأمير كبسى ابن الوزير امرو لأجل حكومة الكاب ما أعطاه الابن الملكى وحامل ختم الوجه البحرى ورئيس المعبد سبك نخت لرئيس مائدة الأمير كبسى يساوى ستين دبنا ذهبا ويشمل ذلك نضارا وشيها وحبوبا وملابس وقد تحقق أن الوثيقة الأصلية قد أرسلت من مكتب مراقب القسم الشمالى (وعرت) إلى ديوان الوزير فى السنة الأولى من عهد حامى مصر (الملك) له الحياة والصحة والعافية.**

لقد حرصنا على عرض وثيقة كبسى بالكامل ، على الرغم مما يسببه طول إجراءات التعاقد والتسجيل والشهر من إملال ، وهو إملال مازال سائدا حتى وقتنا الراهن من طول الإجراءات وتعقدها، ومع ذلك لايخفى مالهذا الطول والتأنى من أهمية فى صيانة الملكية الفردية من الضياع ، وما لتعقد الإجراءات من ضرورة لحفظ الحقوق بين المواطنين ، وما يترتب على ذلك من استقرار للعلاقات الاجتماعية ، وتعكس وثيقة كبسى الدقة المتناهية فى الالتزام بتنفيذ القوانين ، شكلا وموضوعا ، فلقد حرصت صياغة التعاقد على تحصين حقوق المستفيد فى العقد فى مواجهة الغير بالتفصيل ، سواء أكان هذا الغير من الغرباء أو الأقرباء ذوى الحق فى العين المتنازل عنها من أبناء أو إخوة وهو ما يوضح أبعادا أخرى تشير إلى تغطيه مظلة القوانين لكافة الأحوال الشخصية ، والأوضاع الأخرى ، فمن السهولة الاستدلال الضمنى على وجود قواعد للمواريث ، قامت ديباجة العقد بتحصين المستفيد فى مواجهتها ، إلى جانب تأمينه ضد أى دفوع بالرجوع عليه بالحق فى ملكية الأصل المتنازل عنه ، كما استهدفت ديباجة التعاقد توضيح الحقوق المتنازل عنها بالتفصيل ، منها رواتب

الوظيفة ، وقد كانت تؤدى طبقا للنظام المتبع وهو نظام غير نقدى بمخصصات عينية من الخبز والجعة واللحم والمؤن ، بالإضافة إلى الامتيازات الخاصة المتعلقة بشغل الوظيفة من خدم وسكن وهو الأمر الذى يترجم فى النظام النقدى ببدل الخدم وبدل الإقامة إلى غير ذلك من مسميات حديثة للامتيازات التى تترتب لشاغل الوظيفة ، وتتفاوت فى قيمتها وتنوعها تبعا للمستوى الوظيفى الذى يشغله . ومن ناحية أخرى تعكس الوثيقة قوة التنظيم الإدارى للدولة ،كما يتضح من تعدد ، وتتابع الأقسام الإدارية من أدنى مستويات الهيكل التنظيمى إلى أعلى مستويات الوظائف ، ووضوح اختصاصات كل مستوى وكل وظيفة ، وتحديد مسئوليات كل منها ، وتخويلها بالسلطات التى تتناسب مع أداء هذه المسئوليات ، وتتدرج هذه السلطات بتدرج المسئولية ، إلى قمة الهرم الإدارى للدولة الممثل فى سلطة الوزير ، الرئيس الأعلى للبلاد بعد الملك ، وعلى الرغم من عدم توصل الفكر السياسى للدولة فى ذلك الحين لمبدأ الفصل بين السلطات ، إلا أنه من الملاحظ أن إجراءات إبرام وتوثيق وشهر التعاقد لم تتم إلا بعد تصديق رئيس المحكمة جنبا إلى جنب مع توقيع المسئول الإدارى التنفيذى بمكتب الوزير طبقا للقوانين ، إلى جانب هذه الشبكة المحكمة من الوحدات التنظيمية الإدارية المتتالية لإحكام نظام الرقابة الإدارية الداخلية وتفعيل دورها لضبط السلوك الوظيفى ، لا تخفى كفاءة الأداء الوظيفى ومهارة الكتبة فى أدنى مستويات الجهاز الحكومى مما ينم عن درجة عالية من التمرس والتدريب على الأعمال التى يكلفون بها ، مع اتباع روتين صارم شديد الدقة فى تسجيل البيانات ، وتنوع ووفرة المعلومات المسجلة لتغطية كافة الاحتمالات التى قد تتعرض لها المعاملات فى المستقبل ، مع اتباع نظام متكامل لحفظ السجلات والوثائق الرسمية ، وأرشفتها وتنظيم عملية تداولها ، ولقد استطاعت بيروقراطية الجهاز الإدارى للدولة وقاية الحقوق والممتلكات والحفاظ على سلامة العلاقات الاجتماعية ، والحقيقة أن نظام الجهاز الحكومى خلال الأسرة

الثالثة عشرة هو امتداد لنظم الأسرة الثانية عشرة الإدارية ، لم يطرأ عليها أى تعديل أو تطوير أو اختلاف ، مما هيأ مناخا طيبا للاستقرار الإدارى وأشاع روح الثقة فى المعاملات فى إطار استراتيجية عليا للدولة تستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين وتترجم تلك الاستراتيجية العليا توجيهات الملك الشفوية التى يلقيها عند إسناد مسئولية الحكم على الوزير الجديد ، ولقد حفظت الآثار نسخا من هذا التكليف الملكى ، غير أن النسخ التى وصلت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة فقط ، ومن أهمها خطاب التولية الذى ألقاه تحوتمس الثالث على وزيره " رخ مى رع " ، وقد قام الوزير بتدوينه على جدران مقبرته بالبر الغربى لطيبة ، ويذكر " رخ مى رع " أن الملك استدعاه إلى قاعة المقابلات الرسمية فى حضور أعضاء المجلس الاستشارى لجلالته ، ووجه إليه خطابه : **" تبصر فى وظيفة الوزير ، وكن يقظا للقيام بكل مهامها ، انظر! إنها الركن الركين لكل البلاد ، وأعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق بل إنها مرة ... (انظر إن الوزير هو النحاس الذى يحمى ذهب بيت سيده) واعلم أن الوزارة لا تعنى إظهار احترام الناس للأمراء والمستشارين ، وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عبيدا من الشعب ، واعلم عندما يأتى اليك سائل متظلم من الوجه القبلى ، أو من الوجه البحرى ، أو من أى بقعة من الدولة ، فعليك أن تطمئنه إلى أن المعاملة التى عومل بها كانت وفق القانون ، وإن كل شىء قد تم حسب العرف ، فتعطى كل ذى حق حقه . واعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة ، وإن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله واعلم أن كل ما يأتيه لايبقى مجهولا .. (١١) (إذا وقع خطأ فيما يفعله قاض آخر ولا يتم اعلانه من فم قاضى التحقيق فسوف يعرفه الناس من فم – الشخص – الذى يحاكم ، وبالفعل فلسوف يقول هذا الأخير الذى يقف بجوار هذا القاضى : ليس فى ذلك تعضيد لصوتى = إنصاف لى) ، لاحظ أنه عندما يستجيب القاضى لطلب الشاكى فيتصرف بمقتضى القاعدة فهذا هو الملاذ الأمين ، ومن ثم لن يستطيع من**

يقدم للمحاكمة أن يقول " لم ينصفنى أحد " (١٢) ، انظر ما ألقيته عليك مدون فى تعيين الوزير فى منف عندما كان ينطق به الملك ليحث الوزير على الاعتدال .. احذر ما قيل عن الوزير خيتى - (وزير ذائع الصيت من عهد الدولة القديمة) - فإنه حكى عنه أنه جار فى حكمه على بعض عشيرته الأقربين ممالئا أجنبيا خوفا من أن يتهم بمحاباة أقاربه خيانة منه وأنه عندما استأنف أحدهم هذا الحكم الذى أصدره أصر على حكمه المجحف ، واعلم إن ذلك يعد تخطيا للعدالة فلا تنسى أن تحكم بالعدل ، لأن التحيز يعد طغيانا على الإله . وهذا هو التعليم الذى أعلمك إياه ، فأعمل وفقا له .عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه ، والمقرب من الملك كالمبعد عنه ، واعلم أن الأمير - القاضى - الذى يعمل بذلك (سيستمر فى منصبه) ولا تغضبن على رجل أخطأ ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه ، اجعل نفسك مهيب الجانب ، ودع الناس يهابونك (فإنه قاض حق هذا القاضى المرهوب الجانب) واعلم أن الخوف منه يأتى من إقامته للعدل .. واعلم أن الرجل إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما يجب دل ذلك على نقص فيه فى نظر القوم ، ولذلك لن يقال عنه إنه رجل بمعنى الكلمة ، واعلم أن رهبة (القاضى) تبعث الخوف فى نفس الكاذب ، عندما يعامله حسب خوفه منه ، واعلم أنك ستصل إلى ذلك إذا جعلت العدل رائدك فى عملك . تأمل دع الرجل الذى يؤدى وظيفته يعمل حسب ما يؤمر به ، واعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسب ما يقال له ، ولاتتوان قط فى إقامة العدل والقانون الذى تعرفه . واعلم أنه جدير بالملك أن لا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف (تصرف إذن بمقتضى التوجيهات التى قدمت لك . انظر، إن ذلك موضوع أمامك لكى تنفذه).

على الرغم من أن نص تنصيب الوزير يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة فمن المرجح أن النص الأصلى الذى بنى عليه نص " رخ مى رع " قد كتب فى أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة أو أوائل عهد الأسرة الثالثة عشرة

التى نحن بصددها (١٣) ، وهى الفترة التى توطدت فيها وظيفة الوزير ، والنص لقدمه ربما يكون قد كتب فى عصر استخدام وتعيين وزير واحد منفرد بالسلطة ، ويعتبر النص مدونة تمثل الرأى الرسمى الشمولى فى وظيفة الوزير ومهامها ، فهو فى مجمله تنويرى إرشادى موضوعى ليس فيه أى نبره شخصية ، وتتضح الموضوعية الكاملة للنص من أنه لم يصاحبه فى أى مرة نقش فيها أى ذكر لاسم الوزير صاحب المقبرة ، مما يعنى أن صيغة النص صيغة قياسية كلاسيكية تنسخ آليا على جدران مقابر الوزراء ، تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل ، وتستند توجيهات الملك فى خطاب تنصيب الوزير إلى المبادىء العامة الشائعة فى فلسفة القانون، والأصول الفكرية المستقرة ، التى تنادى بضرورة تقدير الواجب ، وتوفير العدل بين الناس ، ومبدأ المساواة فى نظر الحقوق ، ومبدأ العلنية للأحكام والالتزام غير المنقوص للقانون ، والحيدة فى إصدار الأحكام ، وضرورة الاستئناس بالأحكام المماثلة السابقة والرجوع إليها ، وهى المسجلة فى الأرشيف ، وعدم تعدى حدود الاختصاص وتجاوز نطاق السلطة (١٤)

وبجوار خطاب تنصيب الوزير ، توضح النقوش بالتفصيل المسئوليات الوزارية على الجدار الشرقى للمقبرة ، ولقد استعرض د٠ سليم حسن بنود هذه المسئوليات ويوضحها بالتفصيل الدقيق فى موسوعة مصر القديمة - الجزء الرابع ،مما يغنينا عن تناول نصها الكامل وهو نص بالغ الطول ، ونشير بإيجاز إلى أن دور الوزير - كما يستدل من هذه النصوص ٠ يتلخص فى مباشرة كل شئون الدولة الإدارية المالية فى أدق صورها : النظام المدنى ، النظام الضريبى (الربط والجباية) ، النظام المعلوماتى : حفظ السجلات وتداول المعلومات ونشر المعلومات ، الشئون الإدارية ،: التعيينات ، الجزاءات - الرقابة الإدارية ، الزراعة والرى : الملكية - الانتاج - الجسور - نظم الرى ٠٠ ، الحكم المحلى : التوجيه والتفتيش - الاقتصاد المدنى والأحوال المعيشية - مراقبة وضبط الظواهر الطبيعية وحالة الفيضان - حالة المحاصيل والتموين والمخازن ، مراقبة

المصروفات والايرادات وتنظيم مسك الدفاتر والسجلات المحاسبية والحسابات الجارية والمخصصات والرواتب ، القضاء المدنى وهو أهم جزء ركزت عليه النصوص ، والنظر فى منازعات الأراضى والملكية والوصايا والميراث والشئون العائلية والمنزلية وما يعرف باسم المظالم ، القضايا الجنائية وإن أوردها النص بصورة موجزة ، أما بالنسبة لمسئولية الوزير عن السياسة الخارجية فهى مسئولية محدودة ، تقتصر على استقبال الوفود الأجنبية والسفراء ، وتسلم عائدات الحملات من غنائم وغرامات وجزية وهدايا نيابة عن الملك ، كما كان الوزير يشرف على بعض الشئون العسكرية وتجهيز الحملات الحربية وإعداد بعثات المناجم والتعدين ، بالإضافة إلى كل هذه المسئوليات لايجب إغفال دور الوزير الرئيسى الذى يستغرق وقتا طويلا كمستشار ملكى (١٥) ورئيس للديوان ، الوضع الذى يعتبر فيه بعض العلماء أن وظيفة الوزير تكاد تتطابق فى مسئولياتها مع المسئوليات المنوطة بوظيفة رئيس الوزراء فى النظام الحالى .

ليس بمستغرب مع كل هذه الأعباء والمسئوليات الوظيفية أن يلقى الوزير التقدير اللائق به فيهدى الملك " سمنخ تاوى سخم كارع " من ملوك الأسرة الثالثة عشرة وزيره " خنمس " تمثالا من الجرانيت الأسود ، إعرابا عن رضائه عليه . تقديرا لتفانيه فى أداء المهام وقد عثر أيضا على اسم هذا الوزير منقوشا على نصب صخرى بأسوان مما يدل على أنه لم يغفل عن هذا الجزء الجنوبى من البلاد (١٦) .

طال النقد تصرف الأمير كبسى حاكم الكاب ، وعيب عليه تفريطه فى وظيفته الرسمية ، وتنازله عنها للغير ، وعد ذلك دلالة محسوسة على ضعف النظام الحكومى ، وعلامة من علامات انهيار الجهاز الإدارى للدولة ومظهرا من مظاهر الاضطراب العام والفوضى ، وتخلخل العلاقات بين القوى الاجتماعية المختلفة ، بسبب تشبث العهد الإقطاعى بأزيال البقاء ، واحتلاله مراكز الثروة والقوة ، وتنافس امراؤه على عرش البلاد متناحرين

على الحكم وتمكنهم من الاستيلاء على قمة السلطة ، وكل هذه التصورات مردود عليها ، فمن الحقائق المتيقن منها أن ملوك الأسرة الثانية عشرة قد استطاعوا القضاء على استقلال أمراء المقاطعات قضاء حاسما ، واستعاد هؤلاء الملوك سلطتهم كاملة فى تعيين وعزل حكام الإقطاعيات الوراثية ، وإحلال حشد من الموظفين والكتبة فى إدارة الأقاليم وتسيير الأمور العامة والهيمنة من خلال الجهاز الإدارى للحكومة وسيادة القانون على مقدرات المجتمع . ومن المرجح أن نظام الحكم فى تلك الفترة قد استثنى أمراء مقاطعة الكاب تقديرا لولائهم للتاج وقد استمر هذا الوضع قائما بالنسبة لهذه المقاطعة حتى الدولة الحديثة ، وهو وضع اقتصر عليهم دون غيرهم ، ومن ناحية أخرى لايمكن اعتبار عقد تنازل كبسى عن وظيفته فى هذا الإطار من الأمور الخارجة على القانون ، وإرادة النظام ، فكما رأينا انعقد العقد صحيحا ، شكلا ومضمونا ، من خلال القنوات الإدارية والأجهزة الحكومية المعنية بتلك المسائل ، ويستشف من صياغة العقد التى توضح أن التنازل تم بين ذوى أهلية ينتميان إلى أسرة واحدة مما يعنى أن القاعدة القانونية المعمول بها فى ذلك الحين وتلك الحالة تبيح مثل هذا التصرف بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومن الملاحظ أن علاقة القرابة بين طرفى العقد هى من القوة بحيث اطلق الأمير كبسى على الطرف الآخر لفظ (أخى) ، ومن السهل التكهن بأن واقعة بيع الوظيفة الحكومية الموروثة لم يكن من الأمور المعتادة أو الشائعة ، وربما عدت من الطرائف الملفتة للنظر ، وإلا لما أصدر الملك " سواز إن رع " عطفه الملكى بالموافقة على حفظ لوح العقد فى معبد آمون بالكرنك ، كشىء نادر الحدوث ، يستحق منحه شرف الحفظ بأرشيف المعبد ، ولقد تصدرت موافقة الملك صدر النقوش : **"إنه حور (الملك) العائش ، وهو الذى يجعل الأرضين نضرتين ، وسيد الإلهتين ، وهو المقدس فى وجوده "حور الذهبى" الجميل فى إشراقه ، ملك الوجه القبلى والوجه البحـــرى ، الذى يجعله رع نضرا ، معطى الحياة ، والمحبوب من آمون سيد عروش الأرضين ،**

الإله العظيم ابن رع " نب ارى راو = (سيدهم جميعا) " ليته يعيش مخلدا ، ومن قلبه ينشرح على عرش حور الاحياء ، ومن نظر إليه ... جميل مثل إشراق قرص الشمس ، ومن صار ثابتا فى مظاهره مثل كمفيس (ثور أمه) وابن آمون من جسمه ، وهو الذى أنجبه من بذرته الفخمة ومن تحبه جميع الالهة دائما " عطف ملكى بالموافقة على وضع هذه اللوحة فى معبد آمون " (١٨)، لايمكن إذن الادعاء بانهيار قوة القانون استنادا لعقد بيع الوظيفة الحكومية ، أو القول بتدهور الجهاز الإدارى للدولة ، فمظلة القوانين التى أحيت الأسرة الثانية عشرة هيمنتها ، ظللت كافة أنواع المعاملات خلال الأسرة الثالثة عشرة ، وطالت قوة القوانين بشمولها جوانب الحياة إذ لم يقتصر اهتمام المشرع على مجالات القانون المدنى ، فلقد عثر على بردية تعود إلى الأسرة الثالثة عشرة تشتمل على مقتطفات من سجلات السجون تعدد المصريين الذين عجزوا عن الوفاء بالتزاماتهم فى صورة أعمال يؤدونها لحساب الحكومة ، فأرسلوا إلى مزارع الدولة ومعسكرات العمل عقابا لهم (١٩) ولم تقتصر العقوبات الموقعة عليهم على الجزاءات المعتادة ، بل امتدت آثارها لذويهم فيتم التحفظ عليهم كرهائن إلى حين تسليم المذنب نفسه لسلطة العدالة ، ولقد صدرت فى الدولة الوسطى عدة قوانين للمتنصلين من الخدمة منهاعلى سبيل المثال : قانون ترك الخدمة لمدة ستة شهور متواصلة وقانون ترك الخدمة نهائيا ، قانون الفرار من الخدمة قبل أدائها ، قانون الآبقين ، قانون الفرار المتعمد لمدة ستة شهور ، قانون الفرار من الخدمة بصفة مطلقة ، قانون فرار الأفراد قبل أداء الأعمال الموكولة إليهم... الخ(٢٠) ، هذا التفصيل الدقيق لظروف المخالفة القانونية وملابساتها يستتبع تباين العقوبة بالنسبة لكل وضع مراعاة لشرط العدالة فى الأحكام، وتطبيقها ،مما يؤكد على استقرار الأوضاع الاجتماعية فى ظل سيادة قانونية شاملة تتوخى العدالة بكل حرص ، وتنفذها بكل دقة .

أما بالنسبة للجهاز الإدارى للحكومة فلامطعن فيه بواقع قراءة العقد ،

وتتبع سير الاجراءات كما سلف القول ، وكما يستدل من الوثائق الأخرى التى كشف عنها وترجع إلى عصر هذه الأسرة ، ومنها كتاب إحصاء قيم يبحث فى تدبير شئون البلاط والإدارة ، وضعه إثنان من الموظفين ، يحمل كل منهما لقب " مدير هيئة الموظفين " ، وهو الكتاب المعروف بورقة بولاق رقم ١٨ ، ويتناول إدارة الموارد الاقتصادية ، والحقائق العامة عن المواد الغذائية ، ومخصصات الأسرة المالكة ورجال البلاط ، وبروتوكول مائدة الفرعون فى المواسم والأعياد الهامة ، وأنواع المصروفات وقوائم الدخل ، إلى غير ذلك من موضوعات إدارية ومحاسبية ، وترجع هذه الوثيقة إلى عهد الملك " سبك حتب " ووزيره " عنخو " ، ويبلغ طول الكتاب سبعة أمتار ونصف ، ويعد من الوثائق ذات الأهمية القصوى التى تؤكد على قيام الجهاز الإدارى بمهامه على أكمل وجه ، وتفوق النظام المحاسبى ومسك السجلات ، وبراعة الموظف المصرى خلال فترة حكم الأسرة الثالثة عشرة..

الكاهن أمينى سنبو

تترك قراءة الوثائق التى قدمها لنا الأمير كبسى حاكم الكاب انطباعا عاما ، هو أقرب لليقين التاريخى منه إلى الافتراض المنطقى ، ففى ظروف تعاقب ملوك الأسرة الثالثة عشرة بإيقاع متسارع استطاع الجهاز الإدارى للدولة الاحتفاظ بالسلطة فى واقع الأمر، من خلال منصب الوزير، بالقدر الكافى لبقاء هيبة الدولة فى الداخل، وقوتها فى الخارج. الوضع الذى ظن معه أن منصب الوزير أصبح مستقلا عن البلاط الملكى، وهذه النتيجة الأخيرة لايمكن التسليم بصحتها، إذ أن سلطة الملك بكل مضمونها السياسى ظلت قائمة ، رغم هذا التعاقب المتسارع للملوك. فأسوة بأسلافهم العظماء من ملوك الأسرة الثانية عشرة، اتقدت قلوبهم بالرغبة فى خدمة آلهتهم ، وعبرت أوامرهم الملكية عما تكنه قلوبهم من احترام للعقائد وورع دينى ، والشواهد الأثرية على ذلك عديدة، حيث أن كثيرا من هؤلاء الملوك قاموا بإصلاحات عدة فى المعابد المنتشرة فى أمهات المدن مثل قفط والعرابة المدفونة وخاصة معابد الإله (مين) والاله (أوزير) والاله (وبوات) وهم الذين شاعت عبادتهم فى هذه الفترة(٢٢).

افلتت من جبروت الزمن الغادر لوحتان، يحتفظ متحف اللوفر بهما حاليا، وهما خاصتان بإصلاحات قام بها الكاهن أمينى سنبو فى معبد العرابة المدفونة، تحدثنا الوثيقة الأولى منهما عن إن الملك (نى خع نى ماعت رع - خنزر) الأول أصدر توجيهاته لوزيره " عنخو " بإصلاح وترميم معبد سنوسرت الأول ، فكلف الوزير الكاهن أمينى سنبو بالقيام

بهذه المهمة ، يقول الكاهن :

وحضر ابن رئيس الوزراء ليدعونى بأمر من رئيس الوزراء ، فذهبت معه ، ووجدت رئيس الوزراء " عنخو " فى ديوانه ، وقد أبلغنى ... أمرا فحواه : لقد صدر الأمر بأن ينظف معبد " العرابة " هذا ، وستقدم لك العمال لهذا الغرض ، هذا بالإضافة إلى كهنة الساعة " التابعين للجهة ، وهم عمال مخزن القربان فقمت بتنظيف الطابقين السفلى والعلوى للمعبد، وجانبى جدرانه كليهما ، وقد ملأ المصورون (النقوش والكتابة) بالألوان، ثم أتى بعد ذلك حارس الشجرة المقدسة ليباشر أعمال وظيفة المعبد، وكان وكيل الخزانة يتبعه ، وقد أثنى على كثيرا قائلا : ما أعظم حظوة من عمل هذا لإلهه، وقد أمدنى بمؤن قيمتها عشرة دبنات من الذهب هذا إلى تمر ونصف ثور ، وبعد ذلك انحدر رئيس الـ .... فى النهر من " طيبة " وفحص العمل ، وكان سروره به عظيما جدا " .

ولقد تابع الوزير عنخو أعمال الترميم ، وأبدى سروره بما أنجزه الكاهن ، إلا إن القصة لم تنته عند هذا الحد ، بزيارة الوزير للمعبد ، وإطرائه لما تم من إنجاز ، إذ تعطف الملك نفسه بحضور مراسم الافتتاح، وسر قلبه بتنفيذ مشيئة الملكية على نحو ماتمنى ، وأمر بإبلاغ رضائه السامى للكاهن المبدع ، وأغدق عليه آيات تقديره لما بذله من جهد ، كما يستدل من اللوحة الثانية :

" لقد صدر الأمر الملكى بتبليغ الرسالة الملكية الثانية إلى أمينى سنبو وهى : إن هذه الأعمال التى قمت بها قد فحصت ، وإن الفرعون يشكر لك، ويرجو أن تعيش عمرا سعيدا فى هذا المعبد الخاص بإلهك، وقد صدر الأمر بأن يقدم لى الربعين الخلفيين من ثور ، وكذلك صدر الأمر بأن يبلغ لى أمر جاء فيه : يجب عليك أن تشرف على كل تفتيش يجرى فى هذا المعبد ، وقد قمت بعملى على حسب ما صدرت به الأوامر ، وقد أمرت بإصلاح كل محراب لكل إله فى المعبد ، فأصلحت موائد قربانها بخشب الأرز، وكذلك أصلحت المذبح العظيم الذى كان منصوبا أمام الإله ، وبذلك

انفذت رغبتى مما سر إلهى ، وشكرنى الملك عليه " .

ومـا أبداه خنزر الأول من حس دينى ، وتمسك بإقـامـة الطقـوس والشعائر ، والاهتمام بالحفاظ على آثار الاسلاف ومقابرهم ، ليس بغريب عليـه أو على غيـره من ملوك هذه الأسـرة . فكل المؤشـرات توضح أن الأنماط الإدارية والحضارية قد استمرت بدرجة من التواصل تبرر امتداد تعبير الدولة الوسطى ليغطى الأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة والأدلة على ذلك كثيـرة ، والأمثلة لاحصـر لهـا ، ففـى مـدينة اللاهون أقـامت المجموعة التى تشرف على الأوقاف الجنائزية الخاصة بهرم سنوسرت الثانى المجاور ، واستمرت تقوم بمهامها حتى المرحلة المتأخرة من الأسرة الثالثة عشرة ، كما تكشف جبانة الأموات فى (الحرجة) عن تماثل الحضارة المادية حتى مرحلة محسـوسة من عهد هذه الأسـرة (٢٣) وتعطينا الوثائق التى حفظها الزمن انطباعا قويا بوجود هذا التواصل والاستمرار بين الأسرتين ، فقد شيد " سخم رع خوتاوى " المنشآت فى الدير البحرى والمداموذ ، وذكرت عمائر الصعيد والوجه البحرى اسم خليفته أمنمحات الخامس (٢٤) ، ويؤكد تتبع ملوك هذه الأسـرة من آثارهم فكرة هذا التواصل الحضارى ، كما تدل على مدى اهتمام هؤلاء الملوك بالتشييد والبناء وإقامة المعابد والعمائر والجبانات وترميم مقابر الأجداد والأسلاف والحفاظ عليها .(٢٥)

فالملك (سمنخ - تاوى - سخم كا رع) عثر له فى اتريب (بنها) على لوحة تصور إله النيل يقدم القربان إلى الصقر المتوج (الملك) ، وفى صا الحجر عثر على عقبى باب من الشبه المطعم بالذهب ، وذكر اسم الملك " "سخم كا رع" على بعض الآثار فى طود ، وتـرك الملك (خو تاوى - وجاف) لوحة من الحجر الجيرى فى الفنتين وقطعة من تمثال جالس فى الكرنك، وتمثال فى (سمنة) ببلاد النوبة ، وترك الملك (سنفر اب رع = سنوسرت) تمثالا ضخما ولوحة فى معبد الكرنك ، ومائدة قربان ، ووجدت موائد قرابين للملك (سمنخ اب رع - امينى انتف امنمحات) فى

الكرنك، أما الملك حور اب شدت - امنمحات) فلقد وجد له عمود فى مدينة الفيوم، وفى سمنود عثر للملك (ستحب اب رع امنمحات) على ثلاثة موائد قرابين، ووجد تمثالان عظيمان للملك (سمنخ كا رع - حر شع) فى تانيس، أما الملك (سحم رع سواز تاوى - سبك حتب الثالث) فله آثار عدة فى طول البلاد وعرضها، أهمها تمثال من الجرانيت الأحمر فى تل بسطة ، كما أنشأ عدة مبان فى معبدى الأقصر والكرنك، وأقام معبدا فى مدينة الكاب (المحاميد)، وامتد نفوذ الملك (خع نفر رع - سبك حتب الرابع) من الدلتا حتى الشلال الثالث ، وعثر له على تمثال ضخم فى تانيس ، وعلى تمثالين فى تل بسطة، وتمثال أبو الهول من الجرانيت الأسود فى أطفيح ، وفى العرابة المدفونة أضاف بوابة عظيمة من الجرانيت الأسود فى المعبد ، وشيد معبدا فى الأقصر عثر على بعض آثاره ، وله لوحة يتعبد فيها للاله (مين)، وفى معبد الكرنك ترك آثارا عدة منها عارضة باب من الجرانيت، وقاعدة تمثال من حجر الكوارتسيت، وبقايا تمثال فى صورة (أوزير)، وفى بلاد النوبة وجد له تمثال فى جزيرة أرجو مما يدل على محافظته على الحدود الجنوبية لمصر التى تمتد حتى الشلال الثالث، وأما الملك (خع عنخ رع - سبك حتب الخامس) فترك مائدة قربان من الجرانيت مهداه إلى الإله (مين) وقاعدة تمثال من الجرانيت الأسود، ومقصورة فى العرابة المدفونة، ولوحة من الحجر الرملى فى قفط، وفى الكرنك عثر على تمثال من الجرانيت الأسود للملك (مر سخم رع - نفر حتب) وكذلك على تمثال من البروفير للملك (مر كاو رع - سبك حتب)، ومن أهم آثار ملوك هذه الأسرة التى احتفظ بآثارها الزمن هرم الملك (وسر كا رع - خنزر الثانى) فى سقارة وقد بنى من اللبن وكسى بالحجر الجيرى الأبيض، ووصل ارتفاعه ٣٧ مترا، ولقد استمر العمل فى بناء هذا الهرم أربعة أعوام (٢٦) .

ومن الواضح أن كل هؤلاء الملوك الذين احتفظت الأرض ببقايا آثارهم قد حكموا مصر كلها، كما يستدل من انتشار هذه الآثار فى شمال البلاد

وجنوبها ، ولم يتقوض صرح الوحدة السياسية للبلاد خلال النصف الأول من هذه المرحلة الانتقالية التى تناهز القرنين ، والتى تبدأ بوفاة (سوبك نفرو رع) عام ١٧٨٥ ق٠م وتنتهى باستيلاء أحمس على الحكم حوالى عام ١٥٦٠ ق٠م إذ تمكنت الأسرة الثالثة عشر وحدها من حكم مصر قبل دخولها فى تنافس مع حكام (أخسويس) و(أواريس) فى الدلتا الذين شكلوا أسرتين من الهكسوس هما الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة المنافستان للأسرة السابعة عشرة الطيبية ، إلى أن قام أحمس بطردهم (٢٧) ٠

الملك نفر حتب

ذكرنا فى هذ التتبع شديد الاختصار عددا قليلا من ملوك الأسرة الثالثة عشر الذى يربو على نحو الستين ملكا فى بعض المصادر، واستثنينا من الذكر الملك " خع سخم رع - نفر حتب" مؤثرين استدعاءه إلى منصة الشهود ، وهو واحد من الملوك العظماء الذين بلغوا قدرا ما من الأهمية، وقد جاء هذا الملك أعقاب الفرعون "سبك حتب" الثالث طبقا لما ورد فى ورقة "تورين" ولا ترجع أهميته بالنسبة لنا لما تركه لنا من آثار هامة فى طول البلاد وعرضها، وإنما لاعتباره النموذج الفذ للملوك الأسرة الثالثة عشر، وما يعتمل فى صدورهم من رغبات عارمة فى الاقتداء بأسلافهم فى إحياء ذكرى الآلهة والحرص على الأعمال الدينية، بوازع من الحس الدينى، ومحاكاتهم لتقاليدهم السياسية، فعلى غرار هؤلاء الملوك أشرك نفر حتب ولى عهده "ساحتحور" فى حكم البلاد، وهو التقليد السياسى الذى استنه أمنمحات الأول، كما حافظ على الاستراتيجيات السياسية العليا التى وضعتها الأسرة الثانية عشرة فى السياسة الخارجية، فظلت مصر حريصة على علاقاتها بجاراتها الأسيويات تمد نفوذها إلى فلسطين وبيبلوس وتوطد دعائم الصداقة مع البلدان الأجنبية، وتحمى حدودها الجنوبية فى النوبة. وتعمل بكل همة لاستتباب الأمن الداخلى واستقرار النظام، والجدير بالذكر هنا هو إصرار نفر حتب على هذه الخطوط السياسية العامة، ومواصلة العمل بها فعندما مات بكره "سيحتحور" شريكه فى الحكم، نجده يصر على إشراك خلفه " خع نفر سبك حتب" معه فى الحكم، وقد عثر على جعران يثبت أن "سبك حتب" ابن

للملك " سيحتحور " بكره الذى وافاه الأجل ، ومن الآثار الهامة لنفر حتب تمثاله الصغير من حجر البرفير والمحفوظ حاليا بمتحف " بولونيا " والمنقوش عليه أنه محبوب الإله " سبك " صاحب شدت (الفيوم) ومحبوب حور فى " عين شمس " وقد اتبع المثال فى نحته التقاليد الفنية القديمة ، وتعدو قسمات الوجه هادئة مستريحة تدل على النعومة وليونة الشباب ، ورخاء الحياة واستقرار الأوضاع ، وفى معبد الكرنك له محراب نقشت عليه صورتان يحتمل أنهما تمثلان الملك وقرينه (كا) ، ولقد امتدت سلطة الملك جنوبى الشلال الثانى ، ففى " بوهن " (وادى حلفا) وجدت لوحة عليها اسمه ، كما توجد له نقوش على صخور " كونوسو" ، نقش يتعبد للإله (مين) وفى نقش آخر يتوسط الإله " منتو " والإلهة " ساتت " فى صورة الإله " مين " بعضو التذكير، منتشرا، وبخلاف ذلك وبإيجاز شديد، انتشرت آثاره فى "سهل" و "شط الرجال" شمالى بلدة سلسلة، وفى العرابة المدفونة، وتل اليهودية. وتحتفظ متاحف تورين واللوفر وستوتجارات والمتحف البريطانى بعدة آثار تحمل اسمه (٢٨) .

يقص علينا " نفر حتب " فى لوحته بالعرابة المدفونة : **" فى السنة الثانية من حكم جلال الملك نفر حتب الذى أنجبته الأم الملكية " كمى " لها الحياة والثبات والسعادة مثل رع مخلدا (عندما) اعتلى جلالته عرش الصقر (الملك) فى القصر المسمى " المسيطر على الجمال" ... خاطب الأشراف والنبلاء من أتباعه، ومهرة الكتاب وحفاظ كل الكتب السرية قائلا: لقد تاق قلبى إلى رؤية الكتابات القديمة الخاصة بالإله (آتوم) ولذلك يجب عليكم أن تقوموا لى ببحوث عظيمة حتى يمكن للإله (أى الملك) أن يعلم كيف خلق، وكيف فطرت الالهة ، ويعلم ما يجب أن تتألف منه القرابين الخاصة بهم . وحتى يمكننى أن أعرف الإله "أوزير" فى صورته الحقيقية ، وبذلك يكون فى مقدورى أن أنحت له تمثالا كما كان فى غابر الزمان فى الوقت الذى كان فيه الآلهة ينحتون تماثيل لأنفسهم فى مجلسهم السماوى لأجل أن يثبتوا آثارهم على الأرض . فقد منحونى**

إرث إله الشمس إلى آخر ما تحيط به دائرة الشمس ٠ وإنى سأزيد ما هو موكل بى (من القرابين) وهم من جانبهم سيزيد حبهم لى مادمت أعمل ما يأمرون به ، فأجاب الأشراف عند ذلك بقولهم : يا أيها الملك والسيد إن كل ما أمر به جلالتكم سينفذ ، وعلى ذلك فلتذهب جلالتكم إلى المكتبات ، ولتنظر جلالتكم إلى كل كلمة مدونة ٠ وعندئذ ذهب جلالته إلى المكتبة ، وفتح الكتب فى حضرة الأشراف فوجد سجلات معبد "أوزير" أول أهل الغرب وسيد العرابة المدفونة " ٠

أول ما يلفت الإنتباه فى أقوال " نفر حتب " هو تشكيل بلاط الملك التى تضم حاشيته الأشراف والنبلاء من الساسة والإداريين ولفيف من الكتبة المثقفين، المتفانين فى خدمته وهم بلاشك يختلفون عن حاشية البلاط الذى أحاط بملك إيبوور ذلك الذى توجه إليه بخطابه وحمله مسئولية إهمال أمور الدولة ، متلهيا بمتعة الخاصة عن مصالح شعبه ، محاطا برجالات الدولة المنصرفين للانتفاع بوظائفهم ، غافلين عن المخاطر التى تهدد التاج، مستغلين مراكزهم فى منع الأخبار عن مليكهم ، وإقامة الأسوار حوله حتى لا يرى ولا يسمع ، ونفر حتب تعتمل داخله الرغبة فى التواصل مع تاريخ أسلافه ، ويعبر عن هذه الرغبة تعبيرا عاطفيا بحتا " تاق قلبى " إلى رؤية الكتابات القديمة ، هذا الرقى الوجدانى الناضج ، أصدق ما يقال عنه أنه نتاج حضارى يتصف بالثبات والأصالة ، أسهم فى خلق شخصية إنسانية على درجة عالية من التقدم والاستواء والتكامل ، ولقد استفاد " نفر حتب " من خبرات الماضى فقوض الجدران المصمتة القائمة بين المثقف والسلطة ، موصولا من خلال المعرفة بتجارب التاريخ ، ولعلنا مازلنا نذكر توجيهات الملك تحتمس الثالث فى خطبة تنصيب الوزير (خى مى رع) وهو يحذره من مغبة السقوط فى نفس الخطأ الذى ارتكبه وزير الدولة القديمة فى منف حين مالأ الأغراب فى حكمه على حساب أقاربه خشية أن يتهم بالمحاباه ، وبين الوزيرين حقبة طويلة من الزمن تتجاوز

عدة قــرون لم تمنع التـواصل بين الحـاضـر والماضى ، ونفر حتب حين فتح الأبواب للتواصل مع أحداث التـاريخ الموغل فى القـديم ينتمى تماما إلى طراز هؤلاء الملوك الذين اسـتندوا فى أحكامـهم وفى سلوكـهم إلى قاعدة صحيحة ترتكز على المعرفة التاريخية الشاملة التى ما كان لهم التمكن منها إلا بالاهتمـام بالفكر والثقافة وإعلاء شأنه المثقفين ورفع الحواجز أمام أصواتهم لتصل إلى أسماعهم وأفهامهم ، فأباحوا للثقافة أن تندمج فى نسيج الحكم ، متخذين من المثقفين مستشارين يبدون النصح ، ويرشدون للصواب ويتصدرون مراكز اتخاذ القرار ، وتحتل المكتبات مكانتها الخاصة والهامة للدراسة والبحث وتأصيل الافكار ، وهو ما يشير ضمنيا إلى المدى الذى بلغه الاهتمام بالأرشيف وحفظ السجلات والوثائق الرسمية ، التى لايمكن الاستفادة منها إلا بدقة تنظيم الحفظ والفهرسة ووضع نظم تداول المعلومات إلى غير ذلك من الفنون الإدارية ، ولا يخفى أن ذلك كله لايمكن أن يتحقق إلا من خلال كفاءة تنظيمية رفيعة المستوى للجهاز الإدارى للدولة وهى الأمور التى أوضحها الأمير كبسى من قبل بالتفصيل ، ويتابع الملك أقواله : **ثم قال جلالته للأشراف : إن جلالتى يحيى " أوزير " أول أهل الغرب ورب العرابة المدفونة ، وإنى سأنحت تمثالا له ، تكون أعضاؤه ويداه على حسب الذى رأيته فى هذه الكتب ، وهى التى تمثله بوصفه ملك الوجهين القبلى والبحرى عندما خرج من فرج إلهة السماء " نوت " ومن أجل ذلك أمر بإحضار ضابط كان فى معيته للمثول بين يديه ، وقال له : عليك أن تصعد فى النيل وبصحبتك جنود وبحارة ، ولا تنم ليلا ولا نهارا حتى نصل إلى " العرابة " (من المحتمل أن القصر الملكى كان بالقرب من (اتت تاوى) أو " منف " وعليك أن تأتى بتمثال أول أهل الجبانة الغربية حتى أقيم آثاره كما كانت عليه فى بداية الزمن ، وحينئذ قال الأشراف إن كل ما أمرت به سيكون يا أيها الملك والسيد " وأنك ستفعل لجدك أول أهل الجبانة الغربية فى العرابة على حسب قولك ، ثم انطلق هذا الضابط جنوبا لينفذ ما أمر به جلالته ٠ وقد**

وصل إلى العرابة (حيث أمر بإخراج تمثال أول أهل الجبانة الغربية من قبره وبعد بضعة أيام) وصل جلالة هذا الإله (الملك) ونزل فى القارب المقدس لأوزير(أوزيريس) رب الأبدية حيث كان شاطئا النهر مفعمين بالعطور وروائح بلاد " بنت " .

لم ينطق " نفر حتب " عن هوى ، ولم يجرفه الحماس العاطفى والانفعال الدينى للاندفاع فى تصرف تلقائى غير مدروس ، بل التزم بوضع رغباته موضع الدراسة والبحث بعد الاستماع إلى صفوة مستشاريه ورجال دولته ، وأنهى مرحلة البحث والدراسة بمرحلة اتخاذ القرار ، ثم شرع الملك بوضع القرار موضع التنفيذ ، فاختار من بين معاونيه أنسبهم للمهمة ، وكلفه بها ، ورتب له ما يحتاجه من امكانيات من رجال وعتاد ، ولم تنته عند هذا الحد وظيفته الإدارية ، فتابع خطوات التنفيذ متابعة دقيقة ، لم يكتف فيها بالمتابعة من خلال التقارير ، بل فضل أسلوب المتابعة الميدانية بنفسه ، ومن ناحية أخرى جاء اختيار الملك للإله أوزير ترجمة واضحة للتواصل الحضارى والمادى بين الأسرتين الثانية عشر والثالثة عشر كما سبقت الإشارة ، فلقد أخذ الإله أوزير يحتل مكانة عظيمة فى الديانة فى عهد الدولة الوسطى ، حتى أصبح أعظم الآلهة شأنا ، وأكثرهم انتشارا فى إقامة الشعائر الدينية ، ومن ناحية ثالثة يؤكد النص حين يشير إلى عطور وبخور بلاد بونت إلى استمرار العلاقات التجارية الخارجية بهذه البلاد ، واستمرار إرسال الحملات التجارية إليها لاستيراد احتياجات المعابد والاحتفالات الدينية وغير ذلك من منتجات لايوفرها الانتاج المحلى .

" وأخيرا وصل الملك إلى (العرابة) سائحا فى القناة الخارجة من النيل إلى (العرابة) ووصل فى وسط المدينة حيث حضر رسول منه قائلا: إن هذا الإله (أوزير) قد خرج من قبره فى أمان ، وعندئذ ذهب جلالته إلى القارب المقدس عند رأس القناة (حيث كان تمثال أوزير ينتظره ومن

ثم ذهب إلى المعبد) ومعه هذا الإله ، وهناك أمر بتقديم قربان لجده أول أهل الجبانة الغربية ، فأحرق البخور والمواد المقدسة (لأوزير) أول أهل الجبانة الغربية فى كل مظاهره (وأنهى الاحتفال التقليدى الخاص بهزيمة أولئك الذين كانوا أعداء القارب المقدس . وبعد ذلك ظهر جلالته هذا الإله فى احتفال تاسوعه المتحدين معه فى حين إن (وبوات) كان يسير أمامه بوصفه مرشدا للطريق . وبعد ذلك أمر جلالته أن يذهب هذا الإله إلى معبده ، وأن يوضع فى المقعد الموجود فى المحراب الذهبى ولمدة بضعة أسابيع فى أثناء اشتغال الصناع فى العمل ، ليمثلوا جمال جلالة "أوزير" وتاسوعه ، وليضعوا موائد قربان من كل الأحجار الفاخرة المجلوبة من أرض الإله ، وقد كان الملك يشرف على صناعة ما يصاغ من الذهب بنفسه ، ولكن جلالته قبل أن يفعل ذلك تطهر بالطهور اللائق بالإله . . . "

لاضرورة للإشارة إلى رسوخ العقيدة الدينية فى هذه الفترة، فهى أوضح ما تكون تعبيرا فى النص ، فى تصويره تمسك الملك وإصراره على القيام بنفسه بكل الشعائر والطقوس والإشراف على تمثيل المسرحية الدرامية التى تدور حول موت أوزير وبعثه ، ونكتفى بلفت الانتباه إلى العلاقة بين الاهتمام بالمسائل الدينية وبين ازدهار الوضع الاقتصادى ، من استغلال المناجم وقيام الصناعات ورواج التجارة ، والاهتمام بوسائل وطرق النقل الداخلى وشق القنوات ، وانتشار الفنون ، وغيرها مما يمكن استنتاجه ضمنيا من هذا المقطع المتقدم من النص . ويتابع الملك :

" كونوا يقظين فى المعبد ، وحافظوا على هذه الآثار التى أقمتها ، ولقد وضعت أمامكم تصميما لكل الأزمان ، وعندما وضعت هذا المثل فى قلوبكم كنت أبحث وراء عمل ما يجب أن يكون صحيحا للمستقبل ، وما يجب أن يحدث بانتظام فى هذا المكان الذى صنعه الإله ، وذلك لرغبتى فى توطيد ذكرياتى فى معبده ، ولأجل أن تبقى أوامرى دائما فى هذا البيت ، وإن جلالة (أوزير) يحب ما قمت به له ، وإنه لفرح بما قد أمرت

بعمله لأنه قد تأكد من انتصاره ، على أنى له بمثابة ابن وحام ، وأنه هو الذى يعطينى وراثة الأرض ، وأنا بذلك ملك عظيم القـــوة ممتـــاز فى مراسيمى . ولن يعيش من يعادينى ، ولن يتنسم النفس من يثور على ، ولن يبقى اسمه بين الأحياء . وسيقبض على روحه أمام من فى يدهم السلطان ، وسيلقى به بعيدا عن حضرة الآلهة (هذا هو العقاب الذى سيحل بمن سيهمل أوامر جلالتى ، وبكل من لا يعمل على حسب هذا الأمر الذى أصدرته جلالتى ، وبكل من لايدعولى هذا الإله الجليل وبكل من لا يحترم ما فعلته خاصا بقربانه ، وبكل من لايقدم لى الشكر فى كل عيد فى هذا المعبد سواء أكان ضمن طائفة من كهنة محراب هذا المعبد ، أم يشغل وظيفة أخرى فى مدينة (العرابة) ، وذلك لأنى قد أقمت هذه الآثار لجدى أوزير أول أهل الجبانة الغربية ، ورب العرابة ، لأنى أحببته أكثر من كل الآلهة ولأجل أن يمنحنى جزاء ما قمت به له (ملايين السنين)".

يفيض وجه الملك (نفر حتب) بالرحمة ، ويضىء بالطيبة ، ولكنه أيضا ينطق بالقوة والعظمة والحسم ، كما يبدو من قسمات وجهه الوضيئة من خلال التمعن فى تمثاله ، وتوحى سماته بالميل للتأمل ورجاحة الفكر وسعة الاطلاع وعمق الثقافة ، واستواء الشخصية ، ويترجم النص الذى تركه لنا كل هذه الصفات مجتمعة ومكتملة ، ففى السنة الثانية من حكمه ، وما إن اعتلى العرش حتى هداه التفكير إلى مشروعه كما رأينا ، ولم يكن مبعث هذا التفكير مجرد الغيرة الدينية ، واحترام الآلهة ، وتقديس السلف ، والارتباط بالماضى ، فلقد أظهر نفر حتب وعيا عميقا بارتباط الدين بقوة السلطة واستقرار النظام وتفوق السياسة ، وهو يعلن ذلك بدون مواربة **" كنت أبحث وراء عمل ما يجب أن يكون صحيحا للمستقبل ، لأجل أن تبقى أوامرى دائما .. وأن جلالة أوزير ... يعطينى وراثة الأرض وأنا بذلك ملك عظيم القوة"**، ومن منطلق هذه القوة يؤسس دولته ، ويحافظ عليها فى مواجهة كل من تسول له نفسه التمرد أو

الثورة ، **"ولن يبقى اسمه بين الأحياء من لايعمل حسب أوامر (جلالتى) وكل من لايحترم ما فعلته"**، لم يكن نفر حتب إذن من طراز هؤلاء الملوك الذين عاب عليهم إيبو العجوز استكانتهم وضعفهم وعدم استخدامهم السلطة فيما يفيد البلاد ، **لم تستخدم سلطتك بما يفيد البلاد** ، ولم يكن نفر حتب محتاجا لحكيم آخر مثل ايبوور ليذكره " **كيف كانت تنصب الأعلام .. وتنقش ألواح القربان وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد . وكيف كان يعطر الأفق (المعبد) .. وترعى الأنظمة .. وتوزع أيام الشهر .. ويعزل الكهنة الأشرار** " فلقد قام نفر حتب منذ توليه العرش بكل هذه الأعمال ، ولم يغفل عن تحذير الكهنة " سواء أكان (الكاهن) ضمن طائفة كهنة محراب هذا المعبد .. أم يشغل أية وظيفة أخرى فى جبانة العرابة المدفونة ، وتدل الشواهد على استمرار متابعة الملك للأوضاع ، راعيا النظام الذى دعم أسسه ، فبعد انقضاء عامين على قيامه بهذا العمل ، وفى السنة الرابعة من حكمه ، يعود لتنظيم الأمور بوضع لوحتين أخرتين عند طرفى مساحة معينة من الجبانة العظيمة ، ليمنع العامة من اقتحامها وتخصيصها لعبادة الإله (وبوات) ، نقش على اللوحة التى وصلتنا منها بعد التاريخ وألقاب الفرعون ما يلى : " **قرر جلالتى أن هذه الجبانة الواقعة جنوب العرابة يجب أن تخصص وتصان لوالدى (وبوات) رب الجبانة " تاجسر " (اسم جبانة العرابة) كما فعل الإله (حور) لوالده (أوزير) ، فلا يسمح لأى شخص أن تطأ قدمه هذه الجبانة . ولهذا فإن هاتين اللوحتين قد أقيمتا فى نهاية الجنوب والشمال، ونقش عليها اسم جلالته . وأى شخص يوجد داخل المساحة المعينة بهاتين اللوحتين تجب معاقبته ، ولو كان صانعا أو كاهنا يزاول صناعته وأى موظف يقيم لنفسه قبرا داخل هذه الجبانة فلا بد من التبليغ عنه ، ويجب أن ينفذ فيه القانون وتنفذ هذه الأوامر حتى على حارس الجبانة من هذا اليوم . أما أى امتداد وراء هذا الجزء المعين فيصرح لهم بالدفن فيه** " (٢٩) بهذا الوضوح والتفصيل النافى لكل جهالة صيغت الأوامر الملكية ،

حددت الحقوق والواجبات ، منعت وأباحت ، وأخضعت بصراحة الجميع لسلطان القانون ، لا مجال للفوضى أو للعبث بحرمة المكان الطاهر ، أو للتعدى على قدسية المقابر ، ولم يصبح سر المحنطين جهرا ، ولم ينحدر الناس إلى أسفل سافلين ، ولم يختطف الأشقياء الملك ، أو يطاردوا القضاة أو يذبحوا الموظفين . ولم يكف الكهنة عن إطلاق البخور ، وإقامة الشعائر وأداء الطقوس ، ولم تتوقف البلاد عن الحصول على خشب الأرز من أجل المومياءات ، ولم تفتقر البلاد إلى الذهب ، وإلى المواد اللازمة لمختلف الأعمال ، فالرحلات إلى بيبلوس مستمرة ، والعلاقات مع فلسطين وفينيقيا وطيدة لم تنقطع ، والحملات التجارية مع بلاد بونت رائحة غادية .

ومن الشواهد الأثرية التى تؤكد استمرار العلاقات الخارجية لمصر ، ما كشف فى جبيل (بيبلوس) من آثار منها قطعة حجر منقوشة نقشا غائرا تصور رجلا جالسا يرتدى ثوبا فضفاضا ، وبعد الديباجة الخاصة بهذا الشخص الجالس، يصور النقش سطرا أفقيا يحتوى على ديباجة ملكية مصرية محضة ، وعلى الرغم مما أصابها من العطب والمحو فلقد أمكن تمييز طغراء الفرعون (خع سخم رع – نفر حتب) وقد جاء فى نهاية الديباجة والصلاة للإله (رع حوراختى) ما يأتى :

أمير بيبلوس (بنتن) له الحياة مجددة ابن الأمير (رن) ... "(٣٠)

وصور الأمير بنتن يمد يده اليمنى نحو الديباجة الملكية المصرية باحترام التابع الحر الذى يقدم خضوعه للقوة العظيمة الملكية ذات السيطرة على العاصمة الفينيقية منذ الأزمان السحيقة فى القدم ، ولقد استطاع نفر حتب وغيره من ملوك الأسرة الثالثة عشرة الحفاظ على السيطرة المصرية على ساحل البحر المتوسط موطدين دعائم السياسة الخارجية المصرية على المستطيل السورى . خاصة بيبلوس (جبيل) وفلسطين .

فى البحث عن مدى التطابق بين ما ورد بوثيقة إيبو العجوز من ظواهر

وبين الظروف والأحوال ومجريات الأمور والأحداث فى الأسرة الثالثة عشرة ، تلك التى يؤكد فليكوفسكى أن إيبوور يرثيها ويبكى على أطلالها ، طرحنا عدة أسئلة عن مدى استقرار النظام الملكى ، وانهيار الجهاز الإدارى للدولة ، وتدهور الوضع الاقتصادى وتفشى المجاعة ، وأحوال التجارة الخارجية ، والعلاقات السياسية الخارجية بين مصر والبلدان المختلفة ، واستقرار النظام الداخلى ، استتباب الأمن ، سيادة القانون ، حفظ الحقوق وصيانة الملكية ، السلام الاجتماعى بين القوى الاجتماعية ، الأخلاقيات العامة ، الحس الدينى ، إقامة الشعائر والطقوس ، تقديم القرابين ، صيانة المقابر ، إقامة المعابد والأهرامات والمدافن ، ولقد طرحنا كل ما عن لنا من علامات الاستفهام على حشد هائل من الملوك والوزراء والأمراء والكهنة والقضاة وكبار الموظفين والمستشارين وكبار الكتبة والحجاب والمراقبين وحكام المقاطعات ورجال البلاط ، ممن قدرت لهم الحياة فى عهد الأسرة الثالثة عشرة ، ووصلنا فى النهاية إلى نتيجة واحدة ، وتلقينا إجابة واحدة من الجميع ، فلقد نفى كل هذا الحشد أى معرفة بالمتنبى إيبوور ، أو أنهم رأوه أو استمعوا له أو سمعوا عنه ، وأكد الجميع أنه لايمكن أن يكون رجلا منهم ، منتميا إلى صفوفهم ، أو واصفا أحداث أزمنتهم ، أو متحدثا بلسانهم عن أحوال معيشتهم وحياتهم ونظمهم ، وأن كل ما قاله هذا الحكيم يختلف اختلافا تاما عن شجونهم وأحزانهم ومباهجهم وأفراحهم .

تعليق على هوامش الفوضى

إذا كانت مجريات الأمور خلال عصر الأسرة الثالثة عشرة كما وصفها الشهود ، وذكرتها الوثائق ، فلماذا عدت فترة حكم الأسرة الثالثة عشرة فترة من فترات المرحلة التى اصطلح على تسميتها بمرحلة الانتقال الثانية .

والإجابة عند جريمال : إن عصر الانتقال الثانى لم يبدأ " فجأة مع نهاية الأسرة الثانية عشر كما لا يعتبر مرحلة تاريخية فى حد ذاتها ، شأنه فى ذلك شأن عصر الانتقال الأول ، وكل ما فى الأمر أنه (أى هذا التقسيم) يساعد على رسم حدود ترتيب زمنى يسهل استخدامه فى حدود المعلومات اليقينية التى وصلتنا"(٣٠) .

ويضيف ب . ج تريجر ، ب . ج كمب ، د. اوكر ، أ.ب لويد ، أن كل المؤشرات توضح " أن الأنماط الإدارية والحضارية استمرت صالحة حتى الأسرة الثالثة عشرة بدرجـــــة من التواصل قد تبرر امتداد تعبير الدولة الوسطى ليغطى الأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة " (٣١) ويؤكد د. سليم حسن " أن نظام الحكومة فى عهد الأسرة الثالثة عشرة بقى على حاله كما كان فى زمن الأسرة الثانية عشرة " (٣٢) .

إلا أن د. سليم حسن يذكر فى مقطع آخر أن تولى الملكة " سبك نفرو رع " عرش مصر كان نذيرا بسقوط الأسرة الثانية عشرة ، فبانتهاء حكمها انقطع نسل هذه الأسرة ، ودخلت مصر فى عصر مضطرب ، تغشيه ظلمة حالكة ، تتضاءل أمامها تلك الظلمة التى غشت البلاد إثر سقوط الدولة القديمة ، ومصدر هذه الفوضى كما يستطرد د. سليم

حسن أن " المصادر التى لدينا عن ذلك العصر نادرة ، والآثار التى كشف عنها حتى الآن ضئيلة ، لاتساعدنا على تفهم أحوال البلاد ، ولا ترشدنا إلى ترتيب ملوكها ترتيبا تاريخيا مسلسلا " فهل مبعث الفوضى والظلمة والاضطراب كما نفهم من هذا هو فقط ندرة المصادر ، وقلة المعلومات ؟ ، يبدو أن الأمر لم يتعد هذه الحدود فى نظره ، إذ نجده يعود بعد ذلك ليذكر " إن كثيرا من فراعنة هذه الأسرة قاموا باصلاحات عدة فى المعابد ... أظهروا ما فى قلوبهم من الرغبة والاحترام لخدمة آلهتهم متى اتيحت لهم الفرص كما كان يفعل ملوك الأسرة الثانية عشر .. كانوا يقطعون الأحجار من وادى الحمامات لنحت تماثيل ضخمة لأنفسهم ، وبنوا بها كذلك مقابرهم ، ... كان الموظفون متواضعين يحنون رءوسهم أمام الأوامر التى تهبط عليهم ، ويتقبلون الهبات الملكية التى كانت تجزل لهم "، فإذا كانت الأوضاع على هذا النحو من الاستقرار والهدوء والنظام ، فإن الاضطراب والفوضى يقتصر كما يرى فى " اضطراب البيت المالك ، فما يكاد الفرعون يستقر فى عرشه حتى يغتصب منه الملك ويطرد ثم يتلوه غيره ، وتتجدد معه المأساة ، مما يدل على أن البلاد كانت منحدرة نحو الخراب والتدهور المشين " أما عن ظاهرة تعاقب ملوك الأسرة الثالثة عشرة بإيقاع متسارع ، فتلك حقيقة غير خافية ، وأما الاغتصاب والطرد، فهذا مالا يمكن التسليم بصحته فهو لايعدو حدود الاستنتاج السريع المتعجل فللمؤرخين الآخرين افتراضات أخرى ، من أهمها ما ظنه البعض من أن تولى العرش فى هذه الفترة " جاء طبقا لنظام انتخابى ظل معمولا به فى المرحلة الأولى من حكم ملوك النسب الطيبى (٣٣) وهو ظن يغرى بالتأمل على الرغم من عدم تجاوزه حدود الاحتمال المستحيل الحدوث فى هذا الوقت المبكر من التاريخ ، ومن الملفت للنظر أن مبدأ وراثة الحكم وهو المبدأ الجوهرى فى النظم الملكية قد توقف العمل نهائيا به فى معظم فترة حكم الأسرة الثالثة عشر ، ولم يخف ملوك هذه الأسرة ، عدم انحدارهم من أصل ملكى ، فعلى أختامهم وعلى آثارهم كان الملك يضيف إلى اسمه،

اسم والده الذى كان يلقب والده الإله ، واحيانا اسم والدته التى كانت كذلك تلقب والدة الإله(٣٤) ٠

لنسلم إذن بظاهرة التعاقب السريع للملوك ، تسليما بحقيقة تاريخية متيقن منها ، إذ إن ثلاثة من ملوك الأسرة الثالثة عشرة لم يعرف لواحد منهم اسم تتويج ، مما يدل على أنهم تنحوا عن الحكم أو خلعوا عن العرش أو عزلوا أو قتلوا أو ماتوا أو أى احتمال آخر قبل أن يتاح لهم التتويج رسميا ، ولكن من واقع استقراء الأمور يجب أن نقرر بأن الثورات المحتملة أو الصراعات على الحكم إن حدثت ، لم تخرج عن نطاق انقلابات القصر ، وظلت الحكومات ونظم الحكم مستقرة والأمن مستتبا ، والسلطة قائمة فى يد الوزير ، يدير دفة الحكم بقوة واقتدار ٠

فمن أين جاء هؤلاء المتصارعون على العرش ، وهؤلاء الملوك المتعاقبون، الذين لاتجرى فى شرايينهم الدماء الملكية الزرقاء التى تدل على انحدارهم من صلب آلهة السماء (نوت) ، يذكر د٠ سليم حسن " إن كبار الموظفين الخاضعين للتاج وبخاصة الضباط منهم.. كانوا وقتئذ يغتصبون العرش.. يتشاحنون فيما بينهم... كل منهم يطمح إلى أن يكون الفائز.. دون أن يفوز مغتصب ٠٠ يضمن لنفسه مركزا ثابتا أو يفلح فى تأسيس أسرة قوية الأركان مدعمة البنيان " ٠ ونقتصر هنا على هذا الاستشهاد وللحديث بقية ٠

هوامش

١ - برستيد - جيمس هنرى - تاريخ مصر من أقدم العصور الى العصر الفارسى - ت : حسن كمال - الألف كتاب الثانى - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ١٩٩٧

٢ - جريمال - نيقولا - تاريخ مصر القديمة - ت : ماهر جويجاتى دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع طبعة ثانية - القاهرة ١٩٩٣

٣ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء ١٧

٤ - ب . ج . تريجر وآخرون - مصر القديمة - التاريخ الاجتماعى - ت . لويس بقطر - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٠

٥ - لالويت - كلير - نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة - المجلد الأول - ت . ماهر جويجاتى . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٩٥

٦ - سليم حسن - المرجع السابق

٧ - مصادر كل هذا الجزء الخاص بوثيقة ايبوور وقراءته هى :

- سليم حسن - مصر القديمة - الجزء ١٧

- كلير لالويت : نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة المجلد الأول

- بارى ج . كيمب - تشريح حضارة - ت : أحمد محمود - المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومى للترجمة القاهرة - ٢٠٠٠

- ب . ج تريجر وآخرون - مصر القديمة - التاريخ الاجتماعى

- برستيد - جيمس هنرى - فجر الضمير - ترجمة د. سليم حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠٠

- ولسون - جون - الحضارة المصرية - ت : أحمد فخرى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٩٥

- د . سيد كريم - لغز الحضارة المصرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦

- د . عبدالعزيز صالح - الشرق الادنى القديم - الجزء الأول - مصر والعراق - القاهرة ١٩٦٧

٨ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء ٤ - مرجع سابق

٩ - سليم حسن - مصر القديمة الجزء الثالث - مرجع سابق

١٠ - لالويت - كلير - مرجع سابق

١١ - سليم حسن   مصر القديمة الجزء الثالث - مرجع سابق

١٢ - لالويت - كلير : نصوص مقدسة - مرجع سابق

١٣ - جيمز - ت . ج الحياة أيام الفراعنة - ت : فؤاد أحمد زهير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مهرجان القراءة للجميع القاهرة - ١٩٩٨

١٤ - جيمز - ت . ج المرجع السابق

١٥ - جيمز - ت . ج المرجع السابق

١٦ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

١٧ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

١٨ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

١٩ - تريجر - ب . ج وآخرون - مصر القديمة - التاريخ الاجتماعى - مرجع سابق

٢٠ - جيمز - ت . ج المرجع السابق

٢١ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الثالث - مرجع سابق

٢٢ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

٢٣ - تريجر وآخرون مصر القديمة - التاريخ الاجتماعى - مرجع سابق

٢٤ - جريمال - نيقولا مرجع سابق

٢٥ - جريمال - نيقولا المرجع السابق

٢٦ - سليم حسن - الجزء الرابع - مرجع سابق

٢٧ - جريمال - نيقولا   مرجع سابق

٢٨ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

٢٩ - سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الرابع - مرجع سابق

٣٠ - جريمال - نيقولا   مرجع سابق

٣١ - تريجر - وآخرون مرجع سابق

٣٢ - سليم حسن - الجزء الرابع - مرجع سابق

٣٣ - جريمال - نيقولا - مرجع سابق

٣٤ - سليم حسن - الجزء الرابع - مرجع سابق



٣

الثورة
تحذيرات السياسى العجوز



إيبو العجوز ... مرة أخرى

إلى أى عصر ينتمى إيبو العجوز ؟ ، هو بالقطع لاينتمى الى عصر الأسرة الثالثة عشرة ، وعلى نحو أدق إلى الفترة المتأخرة من حكم هذه الأسرة ، وهو بالقطع لم يشاهد غزاة الشرق من الهكسوس ، أو بداية استيلائهم على شمال البلاد ، فليس لإيبوور من شبيه بين رجالات هذه الفترة ، وما يصفه من أحداث لا يطابق أحداثها ، وليس أمامنا إلا أن نطرح الأسئلة من جديد معرضين الظواهر التى يتحدث عنها للدراسة باحثين عما يتطابق معها فى مجاهل تاريخ فترة الانتقال الأولى .

ولقد كان من السهل أن نستند إلى ما أكده المؤرخون - من أن وثيقة إيبوور لايمكن أن تكون قد كتبت إلا فى فترة الانتقال الأولى بعد انهيار الأسرة السادسة ، استنادا إلى أن لغة واجرومية الوثيقة وبعض خصائصها الفنية هى اللغة والأجرومية التى تميز كتابات ذلك العصر (١) أى الفترة التى تشغل نحو مائة وخمسين سنة ، وتنتهى بالنجاح الذى حققه منتوحتب الثانى ، ذلك الأمير الطيبى الذى استطاع توحيد الوجهين واسترد لمصر استقلالها ، كما كان الوضع فى أقدم العصور . فهذا المنحى السهل لن يساعدنا فيما نحن بصدده ، مما يجعلنا نميل الى تعامل تفصيلى أكثر مع وثيقة إيبوور ، مؤملين أن نصل إلى يقين تاريخى حاسم يحدد التوقيت الذى كتبت فيه الوثيقة وبالتالى الفترة التاريخية التى يصف أحداثها وظواهرها ، وهو ما يعنى أننا نحاول التوصل إلى يقين تاريخى فى إطار رؤية أكثر منهجية لما جرى من أحداث خلال تلك الفترة ، دون أن يغيب عن الذهن أهمية تحديد تاريخ كتابة الوثيقة بكل دقة ممكنة

بالنسبة لمشروع إيمانويل فليكوفسكى ، فى اعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، وقبول أو رفض هذا المشروع .

خلال أى عقد من عقود هذه الفترة التى تجاوز القرن والنصف فى رأى البعض، عاش إيبو العجوز، شاهدا على ما حدث من اضطراب وفوضى؟. فمن الطبيعى انه لم يشهد غير بضع عشرات من السنين، هى كل ما قدر له أن يعيشه . فإما أن تأتى فى بدايتها ، وإما أن تأتى فى نهايتها .

وأول المشاكل التى تصادفنا ما يشير إليه جريمال من أن المصريين القدماء قد التزموا صمتا شبه مطبق حول أحداث هذه الفترة المظلمة من تاريخهم ، مؤكدا أنه لم تصلنا من الوثائق والشواهد غير هذه الشهادة الوحيدة التى دونها إيبوور فى شكل عمل أدبى كتب بأسلوب الإيماءات الغامضة، والصور المجازية، التى توضح مختلف التجاوزات، وأعمال الابتزاز التى يقول انه عاصرها(٢) إذ يعنى ذلك أننا نغامر بالبحث، مبحرين فى المجهول، بغير أدلة ، نسترشد بها فى بحر الظلمات . فهل حقا التزم المصريون الصمت ولم تفلت من تكتمهم الشديد غير هذه الوثيقة، والأمر الأكثر صعوبة من ذلك ، إن إيبوور يصف أحداث ثورة اجتماعية اجتاحت مصر ، إذ قامت الغوغاء (بتعبير المؤرخين) بخلع الملك وتقويض النظام الملكى، وحرمان البلاد من مليكها المتربع على عرشها ، وهو الضامن الأوحد لاستتباب النظام ، كما أقدمت على انتهاك المقدسات ونبش القبور ، وتدمير جسد الملك المتوفى ، مقوضين بفعلتهم الشنعاء بنية (الهرم الكونى) فتصدع وتداعى ، وقلبت الأوضاع رأسا على عقب ، وعمت الفوضى ، ومبعث الصعوبة فى تناول هذه الأحداث ، أن البعض يستبعد اعتبار هذه الأزمة التى اجتاحت مصر ثورة اجتماعية، فهى كما يرون لم تفض الى شكل جديد من النظم والحكومات ، بل استمر النظام القديم قائما ، وأن ما يرويه إيبوور من أحداث إنما يشبه هبة أكثر

شرائح المجتمع حرمانا ، أى لاتعدو " انتفاضة حرامية " بالتعبير الذى شاع حاليا، فلم تتحرك حشود هذه الشرائح بسبب ما تعانيه من ظلم اجتماعى، فذلك فى رأيهم بعيد كل البعد عن روح النظام السياسى السائد آنذاك ، وإنما حدث الاضطراب نتيجة تأثيرات خارجية ، تتمثل فى جحافل أسيوية وفدت إلى مصر لتجد تربة صالحة لاحتلالها ،فى بلد أصابه الوهن والإنهاك (٣) فأى التصورين أقرب للحقيقة التاريخية ؟ الثورة الاجتماعية؟ أم انتفاضة اللصوص ؟ وإذا كانت هى الثورة الاجتماعية فما هى أسبابها؟ وما هى مقدماتها ؟ وما هى تطوراتها ؟ وما هى نتائجها ؟ .

مما لاشك فيه أن التوصل إلى إجابة عن كل هذه الأسئلة سوف يساهم فى (تقييم) وثيقة إيبوور (تقييما) صحيحا ، يساعد فى تحديد التوقيت الأدق والأصح لما ترويه من أحداث ، وما تصوره من نتائج ، وعما إذا كانت الوثيقة عملا أدبيا أم تقريرا سياسيا ؟، توجه خطابها إلى ملك ضعيف متخاذل ، أم تستغيث بالإله من كوارث الطبيعة ؟ ، هل هى مرثية لما حدث فى الماضى ، أم نبوءة بما سوف يحدث فى المستقبل ؟

لنضم كل هذه الأسئلة المستجدة إلى ما سبق طرحه من أسئلة قديمة ، ولنستمر فى البحث عن العصر الذى عاش فيه الحكيم العجوز ، ووصف أحداثه الدامية .

عندما يواجه إيبوور الملك، محذرا إياه من مغبة التخاذل، والضعف، فى مواجهة تفشى الظلم ، وسيادة الفوضى ، وفساد الحاشية ، وينذره بما حدث من قبل عله يتعظ ، حين ثارت العامة ، وخلعت الملك عن عرشه ، وحرمت البلاد من الملكية ، فمعنى ذلك أننا بصدد ملكين ، وليس ملكا واحدا ، بل فى الحقيقة نحن بصدد ثلاثة ملوك ، تضمنت ذكرهم الوثيقة ، ملك انتهكت مقبرته واقتحم هرمه ، ومثل بمومياءه ، وملك اختطف حيا وهوجم قصره ونهبت خزائنه ومخازنه واقتلع عن عرشه ، وملك ثالث يوجه

إليه الخطاب ، سادر فى غيه على غرار ذلك الملك الذى اختطفه المتمردون ، ويعلن الحس التاريخى للحكيم العجوز عن نفسه بجلاء بوعيه بسنن التطور وعامل الزمن ،" كل هذه الأعوام ارتباك" ، ونص الوثيقة بواقع هذا الوعى التاريخى يشير إلى مرحلة شهدت انهيار أسرة ملكية حاكمة ، أعقبتها فترة ممتدة من الفوضى والارتباك، استعادت خلالها الملكية مركزها ، دون أن تتمكن من تحقيق الأمن والاستقرار ، مما فرض على إيبوور أن يوجه خطابه الصارم إلى ملك ذلك الزمان محذرا من نتائج التخاذل ، فأسباب الثورة مازالت قائمة ، وجذوة الغضب المتقدة كامنة تحت الرماد .

إيبو العجوز على هذا شاهد على فترتين ، أوهى فترة طويلة نسبيا ، تحتدم بالأحداث المتلاحقة والتناقضات الداهمة ، والتطورات السياسية الهامة، استغرقت من الزمان ما يكفى لبزوغ فكر سياسى جديد ، نزع عن الملك نهائيا صفة الألوهية التى أسبغتها عليه الدولة القديمة ، وتعامل معه كانسان يخطىء ويصيب ، وكحاكم مسئول عن مواطنيه ، عليه من الواجبات نحوهم أكثر مما له من حقوق عليهم ، الوضع الذى أتاح للحكيم العجوز انتقاده ، واتهامه بأنه السبب فيما يحدث من فوضى، وارتباك، وعدم استقرار، وأباح له الحق فى تبصيره بالمسئوليات المفروضة عليه، بأن يكون راعيا لشعبه ، ساهرا على حياتهم وأمنهم ، ساعيا لرفاهيتهم ، **" ولكنك لاتنشر فى البلاد غير الفوضى ، وضوضاء المنازعات ... فهل أصبح الراعى يحب الموت ؟ "** ولقد هيمن هذا الفكر السياسى على الحاكم والمحكوم واضطر الملك للاقتناع به ، متقبلا النقد والتوجيه الغليظ ، ويرد على اتهامات الحكيم العجوز متذرعا بالحجج ، مبررا سكوته على التناقضات الداخلية بانشغاله بمقاومة الأجانب الذين احتلوا البلاد ، حماية لشعبه ، ودفاعا عن حريتهم ، ويعقب إيبوور على حجج الملك بأنه قد أحسن القصد ، ولكنه لم يحقق الغرض ، بسبب جهله وعدم كفاءته **" إذا كنت تجهل ذلك فإنه أمر محبب إلى القلب ... لقد فعلت ما هو حبيب إلى قلوبهم ، لأنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته ولكنك تغطى وجوههم**

خوفا من الغد". لقد سمحت روح الديمقراطية السائدة لرجل من عامة الشعب أن يوجه مثل هذه الانتقادات العنيفة والنصائح القاسية إلى مليكه، بكل ثقة واطمئنان ، وبشجاعة من لايخشى التعرض لمكروه . (٤)

بهذه الروح الديمقراطية ينفرد عصر الانتقال الأول فهو العصر الوحيد فى تاريخ مصر الذى صور الملك الالهى بصورة الإنسان غير المعصوم ، مما سمح للمفكرين بحرية التعبير، والجرأة على النقد والتشهير بالملك ، وهو العصر الوحيد أيضا الذى لم يجد فيه الملك غضاضة فى الاعتراف بأنه قد أخطأ(٥) ولقد وصلت إلينا وثيقة أخرى ، تحمل اعتراف ملك آخر من ملوك هذه الفترة بأنه جانب الصواب ووقع فى الخطأ ، إلا انه على عكس ملك إيبوور لم يحاول تبرير أخطائه ملتمسا العذر لنفسه ، فالملك خيتى الثالث أحد ملوك أهناسيا المتأخرين (الأسرة العاشرة) يعترف ببساطة شديدة فى نصائحه لابنه وخليفته (مرى كا رع) بأنه قد أخطأ واستحق العقاب من الآلهة " **انظر ... لقد وقع عمل خسيس فى زمنى .. لقد سلبت نواحى مدينة " ثنى " حدث ذلك من جراء خطأ منى ، ولم أحط به علما إلا بعد أن حدث ما حدث انظر .. فالخطأ الرئيسى الذى ارتكبته مؤلم دون ريب ، ولكن لن يفيد فى شىء أن نعيد الحياة الى ما سبق أن دمر ، أن نهدم ما سبق تشييده أو ترميم وزخرفة ما لحق به الضرر ، فلتراع ذلك "(٦)** . ومدينة " ثنى " التى سلبت هى من مدن الوجه القبلى ، على مقربة من أبيدوس (العرابة المدفونة حاليا)، حيث توجد على مقربة منها تلك الجبانة الهامة ، التى يعترف خيتى الثالث بسلبها فى عصره " **ان مصر تقاتل فى الجبانة ذاتها ، منتهكة حرمة المقابر ، ومنتهكة حرمة الرفات، لقد ارتكبت مثل هذه الأمور (فى الماضى) ونفس الشىء يحدث الآن، حسبما يحدث لذلك الذى يرتكب على نحو مشابه جريمة فى حق الإله "**. شاهد ملك أهناسيا العجوز من موقع المسئولية - ذات الظاهرة التى رصدها إيبوور الحكيم من موقع المعارضة، كما يشكو - خيتى الثالث - فى أخريات أيامه أيضا، من ضعف السلطة التى بين

يديه، سلطة الملك الذى لم يتمكن من السيطرة الكاملة على أجهزة الحكم، فأفلتت من بين يديه الأمور، ولم يهيمن على قواته الهيمنة التى تردعهم، فانتهكت على غير إرادة منه أو علم حرمات المقابر، واعملت السلب والنهب، لم تراع قدسية، ولم تحترم عقيدة، وهو يعترف بهوانه وضعفه بواقعية شديدة، لا يتنصل من مسئولية، ولا يبرر خطأ، خذلته حاشيته واخفى رجال بلاطه والمقربون إليه من مستشارين حقيقة ما يجرى من جرائم، والأكاذيب تليت عليه تماما مثلما كانت تتلى عن ملك المتنبى الكهل.

لو قدر لملك إيبوور أن ينتصح بما ووجه به، مستجيبا للتحذيرات، آخذا زمام المبادرة لمعالجة أسباب الوضع المتردى، لتصرف تماما مثلما تصرف ملك أهناسيا العجوز، فالنصائح التى يسديها لابنه ما هى إلا معالم لاستراتيجية تستهدف مواجهة الأزمة السياسية الاجتماعية المحتدمة، وسبل القضاء على المشاكل، والإجراءات الواجب اتباعها لإنقاذ البلاد من التدهور، وإعادة الاستقرار والهدوء إلى ربوع الوادى. وكيفية مواجهة الثوار والمتمردين، وكسر شوكتهم، والتغلب على أعمال السلب والنهب، وإعادة الهيبة المفقودة للقوانين والجهاز الحكومى، وكيفية إدارة الحرب ومقاومة الأجانب والأسيويين، واسترداد الهيمنة على الجنوب، حتى تسدد الجزية، وتتدفق الأموال إلى خزائن الدولة، ناصحا باحترام الشعائر والطقوس الدينية، والمحافظة على آثار الآخرين وحرمات الموتى، ومقابر الأجداد، وضرورة الاهتمام بالاقتصاد وأعمال التشييد والبناء، فى إطار عام يلزم الملك الصالح بأن يشمل برعايته جميع المواطنين، وأن يحب شعب البلاد أجمعين .

إذا كان إيبو العجوز قد رصد فى وثيقته ظواهر الاضطراب السياسى والاجتماعى التى صاحبت الثورة، ونتجت عنها، واكتفت وثيقته بهذا الرصد، مؤكدة على نظرية الملك الصالح، كما رأينا راعى القطيع، المطلوب منه العمل على تحقيق العدالة، واستقرار النظام، فإن خيتى الثالث قد

تجاوز كما رأينا حدود الاكتفاء بالرصد، إلى مرحلة مواجهة تلك الظواهر، بوضع السياسات اللازمة للقضاء على أسباب الثورة، ومعالجة نتائجها وتحقيق الاستقرار والتوازن العادل بين القوى الاجتماعية المختلفة، والاختلاف بين المتنبى والملك فى حقيقته يرجع الى الفترة التى عاشها كل منهما، لقد التزم إيبو العجوز بأقصى درجات الصدق فى تعبيره عن الواقع الذى عاشه، ولا يعيبه اكتفاؤه برصد الظواهر دون أن يجتهد لوضع الحلول المناسبة للأزمة، فآفاق الرؤى السياسية لم تكن قد توصلت إلى هذا الحد الذى تتضح عنده معالم الحلول، ومعطيات الواقع لم تكن تسمح بوضع النظريات أو استكمال التنظير، أما بالنسبة للملك خيتى الثالث فمن الواضح انه عايش ظروفا مرحلية تالية، ساهمت فى وضوح الرؤى، وأنارت سبل التعامل مع جوانب الأزمة المختلفة، ومما لاشك فيه أن وثيقة خيتى الثالث بنصائحه إلى الملك " مرى كا رع " تعد من أهم الوثائق السياسية التى وصلتنا عن فترة الانتقال الأولى، لاتقل فى أهميتها عن بردية إيبوور، فكلا الوثيقتين تغطيان مرحلتين متعاقبتين من مراحل الثورة .

ومع التسليم بصحة هذه النتيجة فى ضوء ما ذكرناه من أسانيد موجزة، حتى الآن، يمكننا القول بانتماء إيبوور إلى الجيل الأسبق على الجيل الذى ينتسب إليه خيتى الثالث، فمن المؤكد أن عصر الحكيم العجوز الذى عاشه، لم يتعد زمن ولاية هذا الملك. استنادا إلى ما ذكر عن تباين الرؤى واختلاف الأفكار التى تضمنتها الوثيقتان .

وإذا اعتمدنا هذه النتيجة نبراسا يهتدى به، لوضع تاريخ مرجح لأخريات عصر إيبوور، فمن المنطقى أن نبحث عن البدايات الأولى لهذا العصر، علنا نصل إلى إجابة مقبولة للتوقيت الذى نشبت فيه الثورة، وظواهر الاضطراب والفوضى التى يحدثنا عنها. وكما استندنا إلى اختلاف الموقع الفكرى للرجلين لتحديد أيهما أسبق عن الآخر، فقد يمكننا التوصل

إلى الاجابة المنشودة بتناول القناعة الفكرية التى اتفقا عليها، المتنبى والملك، هذه القناعة المتمثلة فى مبدأ تجريد الملك من صفة الألوهة، واعتباره إنسانا غير معصوم يخطىء ويصيب، والظروف الموضوعية والواقعية التى أطاحت بنشوء هذا الاتجاه فى الفكر السياسى، نظريا وعمليا ٠

من الإله العظيم إلى الإله الطيب

لم يأت تجريد الملك - الإله العظيم - من سلطاته المطلقة أو التحول من نظام المركزية إلى اللامركزية كحدث عنيف أو مفاجئ ، فالتطورات السياسية التى لحقت بوضع الملك ، عكست فى حقيقتها تطور القوى الاجتماعية المختلفة ، هذه القوى التى استكملت نموها بالتدريج ، وببطء شديد ، وانسلت بهدوء من ثنايا النظام القديم ، الذى ساد حتى عصر الأسرة الرابعة ، معيدة شيئا فشيئا توزيع الثروة والسلطة بما يتواءم تدريجيا مع مراحل نموها الطبقى ، إلى أن ظفرت الطبقة الأقوى بالاستيلاء على السلطة فى عصر الإقطاع ، بعد أن استحوذت على النصيب الأكبر من الثروة ، ويؤكد جون ولسون (٧) أن هذه القوى الاجتماعية الناهضة لم تلجأ إلى العنف أو الثورة وسيلة لإعادة توزيع الثروة أو الهيمنة على مقدرات السلطة، ولم يعرف التاريخ المصرى هذا النوع من العنف ، إلا خلال فترة الانتقال الأولى التى شهدت اندلاع ثورة الطبقات الدنيا من المجتمع ، ومع هذا فمن غير المتصور أن يعنى ذلك انتفاء الصراع الاجتماعى ، أو أن هذه القوى لم تمتلك أدوات إدارة هذا الصراع لتحقيق مآربها .

وصل الحكم المطلق ذروته ممثلا فى شخص الملك فى عصر الدولة القديمة ، منذ أحقابها الأولى ، حيث ألوهية الملك هى المحور الذى تدور حوله كافة الأمور ، والدعامة الأساسية للنظام تؤكد على أن الدولة تعد ملكا للحاكم - الإله (٨) ، وعلينا أن نتناول الآراء التى تنفى وجود لوائح إدارية مكتوبة بحذر شديد ، فمهما قيل عن تمركز السلطة فى يد الملك -

الإله ، الذى يصدر الأوامر بما يجب أن تكون عليه أغراض الدولة ، بمنطوق إلهى لايقبل دحضا ، فمن المستحيل تصور أن الملك مهما بلغت قداسته الإلهية ، يمكنه أن يباشر المسئولية التى تقع عليه فى حماية وإطعام كل من يقع فى دائرة ملكه بنفسه ، وأن يقوم بإدارة جميع الوظائف الادارية والقضائية فى جميع أنحاء البلاد ، وإذا كانت الضرورة قد الزمته بأن ينيب عنه بشرا عاديين ، يعملون بدلا منه ، ويؤدون هذه المسئوليات باسمه ، فمن المنطقى أن تنشأ مع هذه الإنابة وفى نفس الوقت ضرورة تحديد اختصاصات هؤلاء النواب والمساعدين ، وبمعنى آخر ضرورة إرساء قواعد للنظام ، وليس بغريب والأمر كذلك أن يتسمى الملك " وسر كاف " أول ملوك الأسرة الخامسة " ار ماعت " أى واضع النظام أو محق الحق (٩) ، ومن غير المتخيل أن تتمكن أى جماعة من الناس من إنجاز أى عمل يتطلب تضافر جهودهم ، بغير تنظيم مسبق ينسق بين هذه الجهود ، وبدون تخطيط لإدارة هذه الأعمال ، فما بالنا إذا كانت هذه الجماعة دولة مزدهرة راسخة البنيان ، وإذا كان العمل المطلوب إنجازه على مستوى الهرم الأكبر للملك خوفو (الأسرة الرابعة) . كمثل من أبرز أمثلة الانجازات .

وصلت الأهرامات إلى ذروة عظمتها فى هرم خوفو ، سابع تلك الأهرامات ، فلقد شيد ملوك الأسرة الثالثة " جسر " و " سخم خت " و"خع با" أهراماتهم المدرجة فى سقارة البحرية وزاوية العربان القبلية ، وشيد " سنفرو " أول ملوك الأسرة الرابعة والسلف العظيم للملك خوفو أهراماته الثلاثة فى ميدوم ودهشور القبلية ثم البحرية (١٠) .

هذه الصروح الحضارية التى تعد دلالة على ما بلغه القدماء من تقدم فى فنون البناء والمعمار ، وفى علوم الهندسة والرياضيات ، وعلى ما تدل عليه من رسوخ فكر دينى، هى وقبل أى من هذه الأمور صروح إدارية ، تعد شاهدا لايمكن التقليل من شأنه على اكتمال أسس النظام وقوة الجهاز الادارى للدولة، التى استكملت هياكلها التنظيمية ، وقواعدها

الإدارية ، ولوائحها ، التى تحكم العلاقات بين مختلف المستويات الوظيفية، ولا يقتصر هذا التصور على أساليب الإدارة وفنونها بالنسبة لتنظيم العمل ، وتنسيق الجهود بين الحشود الحاشدة من طوائف العمال والصناع والفنيين ، والآلاف المؤلفة منهم المجندة للعمل بهذه المشاريع القومية الضخمة، ومتابعة ما يقومون به من أعمال ، إلى غير ذلك من وظائف إدارية لاغنى عنها لإنجاز هذه المشاريع ، بل يتسع مجال التصور ليشمل كافة أنشطة الدولة ومؤسساتها السياسية والاقتصادية ، فما كان بإمكان الدولة الإقدام على تنفيذ هذه المشاريع العملاقة إلا بالاهتمام بتدبير الموارد اللازمة للانفاق الكبير الذى تتطلبه ، وهو ما يعنى الاهتمام أولا بالنهوض بالأنشطة الاقتصادية الرئيسية وتنظيمها ، كالزراعة والتجارة ، الأمر الذى ترجم عمليا بالاهتمام بنظم الرى وشق القنوات واستصلاح الأراضى والتوسع فى مساحة الرقعة الزراعية ، إلى جانب الاهتمام بتحسين سبل الملاحة والنقل ،وتنظيم التبادل التجارى، وبسط النفوذ الخارجى لتأمين العلاقات التجارية، والاهتمام بالتعدين والمحاجر، إلى غير ذلك من أنشطة ضرورية وسياسات عامة ، نشأ معها ومن أجلها التقسيم الإدارى النوعى للدولة ، بالاضافة الى تنظيم هياكل الحكومة المحلية إلى أقاليم ومديريات ومدن ، لإدارة هذه الأنشطة، ويرى بارى ج - كيمب (١١) أن منجزات الدولة القديمة المادية من أهرامات وثروات ضخمة وقصور ومعابد وحملات ، اعتمدت على مهارة بعينها هى إدارة الموارد ، بغرض التحكم فى البيئة الاقتصادية وعلى الرغم من أن ذلك قد تم لمصلحة النخبة، فقد امتد أثره أيضا إلى قطاع كبير من السكان ، تحقق ذلك فى المقام الأول من خلال فرض الضرائب ، لتمويل الخزانة العامة ، ثم من خلال إعادة توزيع الدخل فى هيئة رواتب وهبات لعنصرمن عناصر السكان ، بالاعتماد على وضع أنظمة ثابتة للقياس والتفتيش والمراجعة ، ومؤسسات للجباية والتحصيل ويضيف كيمب أنه قد وصلتنا أعداد كبيرة من المصادر الإدارية عن مصر القديمة تحمل تاريخا

من البيروقراطية يمتد إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وخلاصة القول أن الدولة استكملت بنيانها التنظيمى منذ الأحقاب الأولى للعصر الثينى ، ويؤكد على صحة هذا الرأى أيضا فرانسوا دوما (١٢) فى تقصيه لوظيفة الوزير رئيس الجهاز الإدارى للدولة ، وينفى دوما الاعتقاد الذى ساد فيما مضى من أن وظيفة الوزير يرجع تاريخها إلى الأسرة الرابعة ، استنادا إلى أن هذا الاسم لم يظهر فى أى من الألقاب السابقة على هذا العهد ، فى حين أمدتنا أوانى هرم " جسر " من ملوك الأسرة الثالثة بلقب قاضى القضاة ووزير يدعى " منكاى " ، وهناك احتمالات كبيرة أن يرجع تاريخ هذا اللقب إلى العصر الثينى ، فلا بد أن الملوك مؤسسى الوحدة كان يعاونهم موظف يقوم مقام الوسيط بينهم وبين جهازهم الإدارى ، ويتساءل دوما : أكان يلقب دائما باسم الوزير الذى يرى أنه قد استخدم منذ مطلع الأسرة الثالثة على أقل تقدير ؟ حيث يلاحظ دوما أن الشخص الذى يتقدم الملك على وجه صلاية " نعرمر " يتميز عن بقية الأشخاص بقامته وزيه وشعره المستعار ، ويرجح انه ربما توفر فيه بوضوح ما يجعله يقوم بأعباء مثل هذه الوظيفة ، سواء اعتبرناه سليل الملك أو مؤاكله ، فمن الواضح انه كان يضطلع بالفعل بدور الوزير الأول (رئيس الوزراء) ، واللقب وجد على ما يبدو فى مدونات الملك " عحا " والملك " دن " من ملوك الأسرة الأولى .

ويتابع دوما أن الوثائق تؤكد وجود موظفين إداريين يعاونون ملوك العصر الثينى ، وأن " حامل أختام الملك للوجه البحرى " كان يشرف على الجزء الشمالى من البلاد ، الأكثر ثراء ، ومن المؤكد أن هذا المنصب الرفيع قد عرف أيضا فى الجنوب ، ففى حكم " يرايب سن " من ملوك الأسرة الثانية عرفت البلاد فضلا عن وظيفة "حامل أختام جزية الشمال" ، وظيفة " خاتم كافة وثائق الجنوب ،" أيضا ومن جهة أخرى فإن الدوائر الحكومية كانت قائمة داخل الحكومة ، فقد أنشئ جهاز متخصص لجباية ضرائب حصص الجنوب ، يحمل اللون الرمزى للجنوب، فأطلق عليه البيت

الأبيض ، ونظيره هو الجهاز الذى سيعرف فى وقت لاحق بكل بساطة باسم " الخزانة " ويشرف عليه مدير البيت الأبيض وفى العصر القديم كما يؤكد دوما وجد للبيت الأبيض مقابل فى الشمال ، أشارت إليه الوثائق باسم البيت الأحمر ، وهو المقابل لما يشبه وزارة المالية ، وبدونه لما أمكن تصور وجود الثروات المنقطعة النظير التى تكشف عنها المقابر الملكية ، ولقد اعتمد هذا التنظيم على الآف مؤلفة من صغار الموظفين، وينبئنا حجر بالرمو عن إجراء تعداد كل سنتين اعتبارا من الملك "عج ايب" "الأسرة الأولى" وعلى أساس هذا التعداد يتحدد وعاء الضرائب ، كما اغتنم المصريون فرصة التعداد لإعادة رسم حدود الأراضى التى يدمرها الفيضان بمعرفة موظفين متخصصين " ناظر سدود الأراضى".

ويتابع دوما تصوره عن اكتمال الجهاز الإدارى للدولة ، فالقصر يعد مركز الحكومة ، ويشرف على " بيت ملك الوجه القبلى " ناظر القصر ، ويضم أيضا القسم الخاص والحريم ، ويدير أموره أحد الموظفين ، إلى جانب إدارة الشئون العامة للدولة ، ويقوم " مدير القاعة المركزية " بوظيفة مدير المراسم الملكية ، وتكشف الوثائق عن وجود بلاط يحيط بالملك ، وربما كانت موارد القصر منفصلة عن الخزانة العامة ، وربما وجد أيضا " بيت للنسيج " ، كما يفترض وجود مؤسسة ملكية تختص بالمنتجات غير المخصصة للاستهلاك العام مثل النبيذ ، ويقوم المندوبون بإدارة مزرعة كروم " بيت الملك " ، كما كانوا يديرون " مزرعة البيت الأحمر ، وظهرت وظيفة " ناظر مؤن البيت الأحمر والبساتين ومزارع كروم ملك الوجهين القبلى والبحرى " .

وتلتف حول المقر الملكى طوائف عمال صهر المعادن وحرفيى أعمال النجارة الدقيقة والنحاتين ، وصناع الأثاث والصور ، الذين يضطلعون بدور خارق للعادة فى الحياة الروحية للبلاد ، كما لا يغيب عن الذهن مؤسسات الأمن ، والدفاع ، حيث تم تنظيم الجيش بإمرة " رئيس الجند المقابل لرتبة قائد الجيش ، كما تظهره النقوش فى أقدم مدونة عثر عليها

فى سيناء ، وتعود إلى الأسرة الثالثة، وتظهر أيضا وظيفة بواب القلعة أى قائد الحامية منذ الملك "جت"، وعلى الصعيد الإقليمى بالاضافة إلى ذلك وإلى غير ذلك ، تمتع مديرو الأقاليم بمركز مرموق وسلطات خاصة.

هكذا قدم التاريخ فى مطلع الألف الثالث أعظم وأقدم إبداع سياسى ، ولقد احتوى الجهاز الإدارى الثينى الرائع على البذرة التى لن تكف عن الازدهار ، لتفرز الحضارة الشامخة التى لن تكف بدورها عن التطور ، ومما لاريب فيه أن مؤسسات الدولة وجهازها الإدارى وصل إلى حد الاكتمال وإلا ما وصلت الأهرام إلى ذروة عظمتها فى هرم خوفو ، واعتمد تنظيم الدولة على النظام الهرمى فى الإدارة ، فالملك على قمة الدولة يحكم فوق نوابه ، وهؤلاء بدورهم فوق حكام الأقاليم ، الذين هم بدورهم فوق عمد البلاد والقرى ، كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة على درجة واحدة فى هذا النظام الهرمى يلون الملك، ويتسيدون فوق خدام الأراضى، ومن ناحية أخرى يمثل الملك حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة ، وهو لهذا فوق الكهنة وهم بدورهم فوق الشعب (١٣) ، وعلينا أن نضع فى الاعتبار أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت كانوا هم فى الوقت نفسه كبار الموظفين فى البلاد (١٤) ، وفى الدرجات الدنيا من هذا التنظيم الهرمى يقبع الفلاحون ، لايمتلكون حتى الفرص المتاحة لخادم المنزل أو العبد الخاص بالنبيل ، أو الفرص الأكثر وفرة المكفولة للصانع الماهر .

التطور الحضارى الباهر الذى تحقق خلال الأسرة الرابعة، عبد الطريق لظهور أعظم الكفايات، فالدولة تخطو للأمام سياسيا واقتصاديا وماديا وفنيا وثقافيا، وتتقدم تقدما حثيثا ذا طابع جماعى، تمثل فى شخص الملك، لإعلاء قوته ومجده، ولكن هذا التقدم فى الوقت ذاته انتجته جهود فردية، من كل شخص ذى موهبة أو قدرة أو ذكاء أو طموح، وبتطور نظام الدولة تضخم الجهاز الإدارى، واستكمل، وزاد عدد

الوظائف الحكومية ، وعدد الموظفين المقتدرين ، واتسع مجال النشاط ، وأصبحت تلك القوى المتجمعة التى تعمل لتأكيد حكم الملك المطلق ، تنشئ فى الآن نفسه قوة منحرفة مضادة مناهضة للسلطة الملكية المطلقة ، تؤكد على شخصية الفرد وتنم عن قوى شخصية ذات طموح ، وتحل بالتدريج الإرادة الشخصية محل التبعية المطلقة المفروضة عليهم للملك (١٥) ، إلا إن هذه القوى المتجمعة المضادة آثرت أن تعمل ببطء وتطور ، حقا لقد اكتشف النبلاء وكبار الموظفين قوتهم ، عندما أسهموا فى تشييد وتوسيع الدولة ، مشاركين فى إنتاج المظاهر المختلفة للحضارة ، إلا أنهم حرصوا على الاحتفاظ بولائهم للملك ، وإعلان هذا الولاء فى النقوش التى تسجل سيرهم الذاتية على جدران مقابرهم ، إلى جانب حرصهم على إظهار شعورهم بالفخر، ورضائهم على سمو مكانتهم، بفضل مآثرهم ومواهبهم الشخصية ، لقد أتاح النظام لأى شخص ذكى ويقظ ومجتهد أن يجعل من نفسه شخصا لاغنى عنه ، يمكنه أن يستحوذ على سلطة مستقلة فى ظل ولائه الكامل للملك . وأن ينال النجاح الذى يصبو إلى تحقيقه ، وأن يبلغ الثراء الذى يطمع فيه ، وأصر كبار الموظفين والنبلاء ترجمة لهذا الشعور بالولاء على تشييد مقابرهم داخل حرم الأهرامات ، رغبة فى بقائهم على مقربة من الملك ، فى الموت كما فى الحياة . وعبر هذا الوضع فى مجمله عن مركزية السلطة ، فالهرم يرمز لسمو مركز الملك وتفرده بالقداسة ، وتمثل مقابر النبلاء وكبار الموظفين حوله مركزية الدولة ، واعتماد أصحابها على الملك بتجمعهم حوله ، وتمسكهم بألوهيته فى الموت تماما كتمسكهم بألوهيته فى الحياة .

ما الذى استجد على خريطة الواقع، حتى تتأثر درجة انضواء القوى الاجتماعية تحت مظلة السلطة المطلقة للملك - الإله العظيم ؟ ودرجة ولائها له، لقد هيأ النظام السائد للطبقات العليا الفرصة الكافية لتحقيق كل ما تطمع إليه من مكاسب مادية وثروات، وأغدق عليها ما تصبو إليه

من نفوذ ومن وضع اجتماعى متميز ، ولم يضع النظام الاجتماعى أى عقبات تعترض مسار تطورها ونموها، وتحقيق مصالحها ، بل أتاح النظام لكل فرد أن يبذل ما بوسعه ليتقدم فى الحياة، وليحصل على ما يبغيه باتباع القواعد ، ويستطيع كل رجل طموح أن ينال الثروة والمركز والاحترام بالعمل المميز ، وفق الأنظمة الإدارية والاجتماعية المتعارف عليها ، وأن يؤدى ما تتطلبه الأنظمة من الاجتهاد والأمانة فنظام هذا الكون أعد مكانا لمواهب الرجل الحكيم " ، وهى المبادىء الأساسية للنظام كما يمكن أن نستشفها من تعاليم الوزير " بتاح - حتب " (الأسرة الخامسة).

فى ذروة مجد الأسرة الرابعة ، اهتز شموخ الدولة ، وتخلخلت تضاريس الخريطة السياسية المتمركزة حول السلطة المطلقة للملك الإله العظيم ، فعقب وفاة الملك خوفو ، نشب النزاع بين فروع الأسرة الحاكمة على وراثة العرش ، فقد خلقت الزيجات العديدة للملك خوفو مشكلة استمرت أحقابا طويلة، فيمن أحق بتولى السلطة، وتنازع أمراء الأسرة، مدعيا كل منهم أحقيته فى حكم البلاد ، ولم يكن حق "ددف رع" الذى خلف خوفو فى الحكم قويا كأخيه "كاو عب"، فهو ابن ملكة لوبية الأصل، ليست من الدم الملكى، ومن الطبيعى أن ينعكس هذا النزاع على الاستقرار السياسى، وأن يؤثر على أوضاع القوى السياسية، وأن يتشتت ولاء النبلاء التام للملك ويتمزق إلى عدة ولاءات، وأن تتحزب الأرستقراطية لهذا أو لذاك من الورثة، خاصة وقد استمرت هذه الخلافات قائمة فترة طويلة من الزمن بدون حسم، وفرضت الظروف على الملك والنبلاء أن يسعى كل منهم باتجاه الآخر، فالملك المهدد فى سلطاته يحتاج إلى من يؤازره، ويعاضده، ويقوى مركزه فى مواجهة خصومه والمتآمرين عليه، والنبلاء المرتعدون فرقا على مصالحهم ومكتسباتهم يتوقون إلى استقرار السلطة الملكية حماية لهذه المصالح، ووقاية لهذه المكتسبات من الضياع، خاصة وقد استمرت النزاعات المحتدمة على ماهى عليه بعد وفاة "ددف

رع" وتولى خفرع بعده ، فلقد ناهض "باكارا" ابن ددف رع حكم خفرع عدة أعوام، ولم تهدأ الأمور باستمرار النزاع قائما دون جدوى ، خلال فترة حكم خفرع التى استغرقت أكثر من ربع قرن، امتدت المشاحنات مع أسرة "ددف رع" إلى ولاية منكاورع"(١٦) التى استمرت زهاء الربع قرن بدورها، وخلال هذه الحقبة المتأججة بالصراع، كان لابد للنظام السياسى أن يبحث عن نظرية ما توفق بين القوى المتعارضة، وتحافظ على مكتسبات الأرستقراطية المتوترة ، وعبر عن بوادر هذا الاتجاه المستجد فى الفكر السياسى، إعلان منكاورع أنه ابن للإله رع، إذ اتجه لتأسيس الشرعية على إرادة ربانية قديمة وأصل مقدس، مدينا لكهنة رع الذين آزروه، إلا أن الأوضاع لم تستتب وفقا لهذه النظرية إلا ببداية حكم الأسرة الخامسة، فبعد أن تولى شبسسكاف الحكم بعد أبيه منكاورع أظهر اعتراضه على السلطان المتزايد لكهنة الشمس الذى آل إليهم وفقا للاتجاه السياسى الجديد، آملا فى استرداد السلطة المطلقة للملك - الإله ازاء القوى المناوئة التى استحدثها الواقع، فتنحى عن الانتساب للعقيدة الشمسية، ولم يبن هرما كأسلافه، مفضلا أن يشيد مصطبة ضخمة عليها مصطبة أخرى أقل حجما على هيئة تابوت، مؤثرا أن يخلد فى القبر بدلا من أن يخلد فى السماء، واستمرت هذه الحركة قائمة تناوئ السلطات المستجدة لكهنة رع خلال عهد خلفائه حتى تولى " وسركاف " الحكم ، واستطاع أن يخلص البلاد من الفوضى السياسية ، مؤسسا الأسرة الخامسة ، موطدا انتشار العقيدة الشمسية ، وأصبح رع إله العالم ، وإله الدولة ، وحل محل الإله " حور " وفرض سلطانه على آلهة المقاطعات، ونحى سلطانه السلطة المطلقة للملك ، باعتبار الملك ابنا له ، أخضعه لعقيدة دينية أكثر سموا، لاتساوى بين الأب والابن، بين الملك كابن للإله، وبين الأب الإله رع، وأعلن الملك طاعته وخضوعه لإرادة والده، منفذا مايأمره به، وهذا هو السر فى انه لم يعد يطلق عليه اسم الإله العظيم "بل الإله الطيب" (١٧)

تحددت مسئولية الإله الطيب إزاء الإله رع، بواقع هذه المفاهيم الجديدة، فالملك نفسه أصبح عرضة للمساءلة القانونية والمحاكمة فى الآخرة أمام الإله، كما تدل النقوش على قبر بيبى الأول، **"لاتوجد سيئة اقترفها الملك (بيبى) وهذه الكلمة ذات وزن فى نظرك يا رع، إن الملك مرى رع (بيبى الأول) عادل أمام السماء والأرض، إن هذا الملك برىء، إن هذا الملك ممدوح ... أنت يا نجم الصباح اجعل بيبى هذا يجلس لأنه برئ ، واجعله يرتفع لأنه مبجل"** (١٨).

هذه المفاهيم التى تخضع الملك - الإله الطيب للمسئولية أمام الإله رع فى العالم الآخر، تعكس وضعه القانونى الجديد الذى جعله مسئولا أمام رع فى الحياة الدنيا، أو أمام الكهنة، بتعبير آخر، وهو ما يجعله مختلفا عن الإلـــه العظيم، الملك المطلق السلطة، الذى يتجسد فى الإله، والذى يخضع لسطوته الآلهة فى الحياة الأخرى، كما تخضع له فى عالم الواقع، هذا الإله مطلق القوى والهيمنة كما تصوره متون الأهرام .

"إن الملك هو الآلهة سايتس (الشمس والقمر) القابضة على ناصية الأرضين .....

لقد صعد الملك إلى السماء ووجد رع واقفا هناك فاقترب منه وجلس بجانبه .. ولم يرض رع أن يجعله ينزل إلى الأرض لعلمه أنه (الملك) أجل منه مقاما

وإن الملك لأعظم روحانية أكثر من الأرواح

وإنه لفاخر أكثر من الفاخرين

وإنه لثابت أكثر من الثابتين

وإن الملك قد انتصر على سيدة حتيت (إلهة ترافق الإله رع أطلق عليها حتحور فيما بعد)

وإنه نصب نفسه ملكا فى الجزء الشمالى من السماء معه وعلى الأرض واستولى على الأرضين بوصفه ملك الوجه القبلى والبحرى

.... كملك الآلهة

إن الآلهة أصحاب الصورة فى خدمته
والتاسوعان جميعا يخدمونه
ولذلك تبوأ مقعده على عرش رب الجميع
وبذلك أصبحت السماء فى قبضة الملك - فهو يخترق سماءه التى من حديد

......

فاخدموا أنتم أيتها الآلهة الملك بوصفه ابن واحد بينكم (رع)
وهللوا للملك لأنه قد استولى على الأفق (١٩).

***

فرض التوازن السياسى الجديد - منذ مطلع الأسرة الخامسة - ضرورة إعادة توزيع الثروة، لصالح الطبقة العليا من الكهنة والنبلاء وكبار موظفى الدولة، وأصبح على الملك الذى تنازل عن جزء من سلطته المطلقة، أن يتنازل أيضا عن جزء كبير من ممتلكاته، وتمثل ذلك فى إطار السياسة العامة التى اتبعها "وسركاف" وخلفاؤه من بعده، ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، تلك السياسة التى تمثلت فى استمالة عظماء البلاد ونبلائها ، ولما كانت الثروة متمركزة فى يد الملك - الدولة، فقد اتخذت سياسة إعادة توزيع الثروة فى - أحد صورها - صورة الهبات الملكية ، فنرى الملك و"سركاف" يبادر واهبا أراضى شاسعة من أملاكه الخاصة إلى معبد الإله رع وكهنته ، كما يخصص ضياعا أخرى فى الدلتا لعبادة الإلهة حتحور، وأخرى للآلهة بالمقاطعات والأقاليم المختلفة، وعلى هذا النهج نفسه سار الملوك من بعده ، ومما يذكره حجر بالرمو الهبات العظيمة التى أوقفها الملك (خفر ار كا رع - كاكاو) باسم التاسوع المقدس، بالاضافة إلى هبات أخرى أوقفها باسم أرواح عين شمس، تضم مائتى واحد وخمسين ستات من أجود الأراضى فى المقاطعة الرابعة عشر من مقاطعات الوجه البحرى، وضعها تحت إشراف كاهنين عظيمين من كهنة رع، إلى جانب القرابين والمذابح للإله رع، ومذبحا آخر

للإلهة حتحور ومائتى وعشرة قرابين مقدسة ومائتى وثلاثة قرابين من الخبز والنبيذ ، وفلاحين تابعين لها ، وكذلك تمثالا من الذهب المخلوط بالفضة ، وكل ذلك فى السنة الأولى من حكمه فقط ، فمن سوء الحظ إن الجزء المحفوظ من حجر بالرمو ينتهى عند ذلك فلا نعرف ماذا قدمه للكهنة فى السنوات التالية (٢٠) من حكمه .

ولم يقتصر الأمر عند حدود الإغداق على النبلاء والكهنة بالمنح والهبات والمخصصات، فمن أدوات إعادة توزيع الثروة أيضا إعفاء المعابد من الرسوم والتكاليف والسخرة ، وقد عثر على أقدم وثيقة لهذه الإعفاءات، وترجع إلى عهد الملك كاكاو ، ويعفى مرسوم الملك كاكاو رجال الدين وفلاحيهم فى ضياع المعبد من القيام بأى عمل آخر فى المقاطعة مهما كان نوعه (٢١)، ولقد أدى تعدد مثل هذه الإعفاءات، واستقلال الكهنة بالأملاك وأوقاف المعابد ، فى النهاية إلى ضعف الموارد المالية التى توجه للخدمات العامة(٢٢) وإذا وضعنا فى الاعتبار، كما سبقت الإشارة، أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت، هم فى الوقت نفسه كبار الموظفين فى البلاد، لأدركنا بسهولة لماذا أخذت سلطة الملك تضعف مع مرور الزمن، ولماذا بدأت السلطة المركزية للحكومة فى التفكك (٢٣) فى الوقت الذى اتسع فيه سلطان موظفى الأقاليم والبلاط الملكى، وجنوح هؤلاء نحو مزيد من الاستقلال والحكم الذاتى مما خلق تيارا أخذ يتزايد بصفة مستمرة مقوضا تدريجيا السلطة المركزية، مستوليا فى الوقت نفسه على مصادر الثروة فى البلاد .

ومن النتائج الواضحة لانتقال الثروة وتمركزها لصالح الطبقة العليا من الكهنة والنبلاء وكبار موظفى الدولة ، ما نشاهد آثاره فى مقابر عظماء البلاد ، ومن هذه مقبرة (تى) ، وهو من كبار الموظفين ، بدأ حياته الوظيفية فى عهد " نفر ار كارع - كاكاو " ، وشغل عدة وظائف هامة منها منصب كبير مسئولى الشعر المستعار فى القصر الملكى ، ومسئولية شئون الأملاك الجنائزية ، كما كان مراقبا للبحيرات والمزارع

والمحاصيل ، وقد تزوج من الأميرة " نفرحوتب اس " من أميرات الأسرة الملكية ، وحجم المقبرة التى أعدها لنفسه ولعائلته ، ومستوى الزخارف التى تزخرف سطوح جدرانها تدل على ما بلغه من ثراء فاحش ، كما كشفت الحفائر عن مقبرة أخرى لكبير آخر من الكبراء من موظفى الدولة القديمة ، يدعى " رع ور " ، يحمل أكثر من ثلاثين لقبا من ألقاب الدولة ، فهو كاهن الوجه القبلى ، وكاهن الوجه البحرى ، ومدير القصر الملكى ، ورئيس أسرار الملك ، والسمير الوحيد ، ومقبرة " رع ور " تعد أكبر المقابر التى عثر عليها من الدولة القديمة ، وما احتوته هذه المقبرة من الحجرات والتماثيل ، يضارع ما تفعله الملوك لنفسها ، فلقد عثر فى المقبرة على مالا يقل عن مائة وعشرين تمثالا ، وعدد حجراته وممراته وأبهائه لايقل عن خمسين ، وتدل الأحجار التى شيدت بها جدرانه – وعلى الأخص جدران الواجهة – على ما بلغه عظماء الدولة من الثراء ، فلو قورن قبر " رع ور " بقبور أبناء سنفرو أو خوفو أو خفرع ، لفاقها فى عدد الحجرات أو الردهات أو المحتويات أو فخامة المبنى . وليس قبر " رع ور" هو القبر الوحيد الذى يدل على الثراء البالغ لكبار الكهنة والموظفين ، فهناك أمثلة كثيرة بين مقابر أبوصير والجيزة وسقارة تشهد على ما بلغته الطبقة العليا من ثراء ونفوذ (٢٥)

فى مقابل الاطراد المستمر فى ثروات الطبقة العليا ، يمكن النظر إلى الجبانات الملكية كمؤشر لسلطة الملوك، ومستوى ثراء الحكومة ، وهذا بالتأكيد موقف سليم من وجهة نظر قدماء المصريين أنفسهم ، إذ ترمز الدرجات التصاعدية فى حجم المقابر إلى مستوى القيادة القائمة ، وإذا كان بناء هذه المقابر وتأثيثها يمثل النشاط الاقتصادى الأساسى الذى يقوم به القصر الملكى ، فإن الأهرام تصبح هى المؤشر الثابت الذى يعتد به فى مدى ثراء الملوك والسلطة المتمركزة فى أيديهم . لقد بنيت أهرام الأسرة الرابعة كلها من كتل ضخمة من الحجارة ، تغطيها فى الأصل

طبقة ملساء من الحجر الجيرى الناعم ، وأحيانا طبقة من الجرانيت ، ولكن منذ حكم " ساحو رع " فى الأسرة الخامسة ، كان القلب الداخلى خلف الطبقة الخارجية يتكون من قطع دبش صغيرة هش ، وحصى ، إن التخلى عن بناء قلب الهرم من كتل حجرية كبيرة تعبير عن جانب من تدهور المستوى فى البناء ، ولكنه من جانب آخر تعبير لاشك فيه عن تدهور إمكانيات الدولة التى وجدت من الضرورى الالتزام بترشيد النفقات بما يتواءم مع إمكانياتها المحدودة فى السيطرة على الموارد . ومازال الإنسان يواجه بالاختلاف الشديد فى تقدير مصادر الثروة التى أنفقت فى بناء أهرام الأسرة الرابعة، فهرم خوفو الأكبر على سبيل المثال يحوى تقريبا حجم هرم " وسر كاف " ثلاثين مرة ، ومن المحتمل إن فائض الطاقة فى التنظيم واستغلال مصادر الثروة ، قد امتصته المقاطعات المختلفة ، التى ارتفع مستوى الرخاء فيها ، واحساسها المحلى بذاتها واستقلالها ، وكان هذا هو السبب فى تقليل حجم الأهرامات بعد حكم خفرع (٢٦) .

فى اطار العلاقة بين الملك ورعيته من كبار رجالات الدولة ، أصبح الملك هو الجانب الأضعف ، ازاء التطور المطرد لقوة الكهنة والنبلاء وكبار الموظفين ، وازدياد ثرائهم واتساع نفوذهم بصفة دائمة ومستمرة ، ولقد فرض هذا الوضع على الملوك أن يعملوا دائما على استمالتهم، وكسب ودهم ، فتصاهروا معهم ، وزوجوا كثيرا منهم بأميرات الأسرة الحاكمة ، وربوا بعض أبنائهم مع الأمراء فى قصورهم ، وسمحوا للأبناء رويدا رويدا بوراثة مناصب آبائهم ، ولم يجدوا حرجا فى اعلان الود لكبار الموظفين والوزراء ، متعدين بذلك حدود البرتوكول اللائق الذى كان يفرض على أسلافهم نوعا من التحفظ ، ومن أرق الرسائل التى تعبر عن إعلان هذا الود ، رسالة الملك " اسيسى " إلى وزيره " شبسسرع " ونصها : **"اطلع جلالتى على الحديث الممتع الذى أرسلته إلى القصر فى هذا اليوم الجميل .. وسررت به لأنك تعرف كيف تتحدث بما يستحبه جلالتى ... وإن**

كل مـــا تقـوله ليـروق لى إلى أقـصى حـد .. وهـانذا أقـول الآن واردد باستمرار ياحبيب مولاه ، يامن أنعم عليه مولاه .. يا مستشار مولاه .. الحق إن رع أكرمنى بأن وهبنى إياك ، وبحق حياتى الخالدة لئن أبديت لى أية رغبة بكتاب اليوم لقضيتها لك فى التو"(٢٧) ، ومن الروايات التى تعبر عما بلغه الموظفون من تقدير ونفوذ ، القصة المنقوشة على حجر جيرى صلب ، والتى نصبت فى واجهة أحد سراديب مقبرة " رع ور " وتتلخص فى أن الملك " كاكاو " كان يقوم بافتتاح احتفال عيد خاص بجر سفينة الوجه البحرى ، وتصادف أن كان " رع ور " بجوار الملك ، فلطمت عصا الفرعون ساق " رع ور " عفوا ، وعندما لاحظ الملك ذلك ، ذعر واعتذر عما بدر منه نحوه من غير قصد ، وقال له إنك أحب رجل عندى وأخص الناس بعطفى ، ولم يكتف الملك بذلك بل أراد أن يعترف له أمام الناس بمكانته عنده ، فأمر بتدوين الحادث على حجر ، وأن يوضع الحجر فى قبر " رع ور " بجبانة الجيزة(٢٨) ، إلا إن الأستاذ (فيكنتيف) رأى على خلاف المؤرخين أن الملك أراد أن يتخلص من الرجل ، فنخسه بعصاه، ومن المحتمل أن تكون مسمومة ، وعارض الأستاذ " شارف " هذا الرأى، مؤكدا أن الملك وكز رع ور عن غير قصد فعلا ، ولكن إيمان رع ور بأن عصا الملك مقدسة ، شأنها شأن بقية شاراته ، جعله يتخوف العاقبة ، ويتوقع حلول غضب الأرباب عليه ، فطمأنه الملك وأفرخ روعه(٢٩) . فهل حاول الملك قتل " رع ور " حقا؟، مهما كانت الإجابة فإن ذلك يثير سؤالا أكثر أهمية عما إذا كان الملوك قد اكتفوا بهذه السياسات المهادنة ، المتمثلة فى استمالة رجالات الدولة من الطبقة العليا الآخذة فى النهوض على انقاض سلطاتهم الملكية وصلاحياتهم المطلقة .

أصبح من الثابت، أن الملك تيتى مؤسس الأسرة السادسة ، حاول الحد من تمادى سلطة كبار الموظفين والكهنة ، فأعلى من شأن الإله بتاح فى منف ، التى يعزو " مانيتون " أصل هذه الأسرة إليها ، وقد وصلت

إلينا وثيقتان صادرتان عن كبير كهنة الإله بتاح ، تدلان على أن الملك تيتى اتجه بميوله إلى كهنوت بتاح ، وقام باصلاحات وتغييرات هامة فى نظام كلية الكهنة ، ويحتفظ المتحف البريطانى بلوحة تعود إلى ذلك العصر نقشت عليها قصيدة تنسب أصل كل شىء ، ما ظهر وما خفى ، إلى الإله بتاح ، الإله الواحد خالق كل شئ ، كما عثر فى سقارة على مقبرة لكاهن أعظم للإله بتاح يدعى " سابو ابيبى " عاش فى عهد " تيتى " ، يخبرنا فى نقوشه أنه عاش كاهنا أكبر لبتاح، محترما من الملك أكثر من أى خادم آخر . مما يدل على ما بلغه من مكانة هامة فى عهد هذا الملك ، ما كان ليصل إليها إذا كان نفوذ كهنة الشمس مهيمنا على البلاد . وأخيرا عثر على تمثال للملك تيتى نقش عليه " محبوب بتاح " ليصدق على مضى الملك فى هذا الاتجاه . ومن المؤكد فى ضوء ما سبق أن الملك تيتى أدار الصراع ضد سيطرة " رع " بإعلائه شأن عبادة بتاح، ليصل إلى نوع ما من التوازن يسمح له بأن يوطد سلطانه إزاء قوة الكهنة المتزايدة ، ويذكر أن هذا الملك قد قتله الحراس ، وربما كان سبب ذلك نشوب بعض القلاقل أدت الى عدم استتباب الأمن ، كما يحدث عادة عند قيام عصيان (٣٠) أو تمرد ، وليس بمستبعد والحال كذلك ، أن يحتد الصراع بين الملك والطبقة العليا فى مرحلة من المراحل ، وأن يغالب الملوك أحيانا ما هم فيه من ضعف مفروض عليهم ، إلا أن كل هذه النوبات من التمرد ، ما كان لها القدرة على تغيير الواقع ، أو مناهضة القوى السياسية الناهضة ، وإذا كانت المشاحنات التى نشبت بين خلفاء خوفو على وراثة العرش ، قد دفعت هذه القوى للاهتداء إلى فكر سياسى يوازن بين سلطاتها والسلطة الملكية المطلقة ، بالحد من هذه السلطة ، والاحتفاظ فى نفس الوقت بالولاء الكامل للملك ، فمن المرجح أن الصراع الذى أداره الملك تيتى ضد العقيدة الشمسية ، وما أبداه ملوك الأسرة السادسة من ميول باتجاه عبادة الإله بتاح فى منف ، قد دفع هذه القوى النامية للتفكير نحو الاستقلال الكامل، والاتجاه نحو اللامركزية . فخلال عصر الأسرة

الخامسة مع اتساع تنظيمات الإدارة ، وإزاء التطور الطبقى الذى يسير بخطى وئيدة ، اضطر الملوك إلى نقل بعض سلطاتهم الفعلية إلى وزرائهم، وترأس الوزير جهاز الحكومة ، واكتملت اختصاصاته، وأصبحت أمور الدولة الهامة تعرض عليه أولا ، ليتولى عرضها على الملك ، واعتبر الوزير محافظا للعاصمة ورئيسا للديوان أو البلاط الملكى ، وأسند إليه الإشراف على الخزائن ، والمنشآت العامة ، والأشغال المعمارية ، ودور المحفوظات ، ودور السلاح ، كما تولى الإشراف على القضاء ، وسمح الوضع الجديد لرجال من صفوف الطبقة العليا بتولى مسئولية الوزارة ، بعد أن كان هذا المنصب قاصرا على كبار أمراء الأسرة الحاكمة ، ووفرت الأسرة الخامسة لكبار الموظفين والكهنة نصيبا واسعا من القيم الاعتبارية ، والإمكانيات المادية ، فى اطار حفاظ هؤلاء على درجة ولائهم للملك ، وقد استمرت هذه السياسة فى خطوطها الرئيسية سائدة فى الأسرة السادسة، فزادت أهمية كبار الموظفين السياسية ، وتضاعفت ثرواتهم ، واستمروا يشغلون منصب الوزارة، ومناصب حكام الأقاليم الكبيرة ، ورويدا رويدا على مدى ما يناهز قرنين من الزمان هى فترة حكم الأسرة السادسة، وفى العقود المتأخرة من حكم بيبى الثانى ، زاد سلطان حكام الأقاليم ، وتضعضع ولاؤهم للملك ، وبرزت شخصياتهم إلى جانب شخصيته ، ومع ضعف سلطة الرقابة الحكومية على أعمالهم ، استأثرت بعض الأسر بخيرات الأقاليم دون الغالبية العظمى ، ورسخ مبدأ توريث المناصب الكبرى والمقاطعات للأبناء (٢٧) ، وبدا واضحا ميل حكام الأقاليم إلى الاستقلال عن الحكومة المركزية وظهرت بوادر اللامركزية .

ظهرت بوادر اللامركزية فى صورة جغرافية واضحة ، حين أصبح النبلاء يبنون مقابرهم فى أقاليمهم بعد حرصهم التقليدى على بنائها حول هرم الملك ، وصارت القاعدة المتبعة فى عصر الأسرة السادسة هى وجود الجبانات فى الأقاليم ، معلنة عن ثقة حكام الأقاليم وكبار الموظفين بأن لهم

فرصة كبيرة للحياة الأبدية بدافع من أنفسهم ، وليس عن طريق تعلقهم بالملك ، فبنوا منازلهم الأبدية بعيدا عنه ، وفى حين احتفظت المقابر الملكية بسقارة بالصفات الفنية العالية ، وإن فقدت مظاهر الوقار الدينى ، ورونق الرصانة الرفيع ، تحررت جبانات الأقاليم من الالتزام بتقاليد البلاط ، ففقدت العناية بالرسم ، ولكنها اكتسبت حيوية ، فائقة بتنوع المواضيع ، وعبر ذلك عن اتجاه الفن أيضا نحو الاستقلال مواكبا اتجاه الدولة نحو اللامركزية فى السياسة والمجتمع والاقتصاد (٣١)

فى الدولة القديمة ، كان الملك إلها على هذه الأرض أثناء حياته ، وسينضم إلى مجموعة الآلهة فى الحياة الأخرى ، حاكما فى هذه الحياة ، وحاكما فى الحياة الأخرى ، وتؤكد نصوص الأهرام ما سيظفر به من سعادة ونجاح فى العالم الآخر ، يحكمه نظامان لاهوتيان ، النظام الأول جعل الملك متوازيا مع الإله رع ، والثانى جعله حاكما على الموتى فى مكان أوزير ، أما عن النبلاء - فكما تدل النقوش على مقابرهم - فليس لحياتهم المستقبلة هذا المجال غير المحدود ، الذى يتمتع به الملوك ، فلن يصبحوا الإله أوزير عند الموت أو أى آلهة من أى نوع ، وأقصى ما يصلون إليه أن يصبحوا " آخ " أى كائنات ذات قوة فعالة أو عظيمة ، ولا يرتقون إلى درجة أسمى من ذلك ، كما لم يكن للنبلاء الحق فى أن يملكوا (با) أى روح، مثل الملك ، فـ(با) فى أصلها إلهية ، تصلح للملك ، وليس للبشر الفانين ، الذين يعيشون حياة عادية محدودة ، وفى المقابل كان للنبلاء كما الملوك (كا) وهى القوة المرشدة الواقية فى الحياة أو الموت ، غير أن (كا) النبيل كانت مستقلة وبعيدة عن شخصيته ، ومن المحتمل أنها تمثل الملك نفسه أو أحد الآلهة ، بمعنى أن نصيب النبيل من الحياة أو الموت حق يتوقف على رضاء الملك أو رضاء أحد الآلهة عليه ، وليس حقا شخصيا له.

وعندما كانت المركزية قوية ، استأثر الملك وحده بالاستمرار فى الألوهية ، أما خلود النبلاء فلقد كان متوقفا على صلتهم بسادتهم فى

الحياة ، واستمرارهم فى خدمتهم فى الحياة الأخرى .

ولقد مثلت مقابر الأقاليم خطوة إلى الديمقراطية الدينية ، أخذت فى الاتساع شيئا فشيئا إلى أن اغتصب النبلاء حق الملك الجنازى ، فى أن يصبح إلها فى العالم الآخر ، كما تحقق فى عصر الفترة الأولى ، عندما ادعى الحق فى عرش مصر عدد كبير من المتنافسين ، وعندما استقل حكام الأقاليم بمقاطعاتهم استقلالا محليا كاملا عن السلطة المركزية ، عندئذ استخدم النبلاء نصوص الأهرام التى اقتصر استخدامها على الملوك للحصول على الألوهية بعد الموت ، وإن كان من الملاحظ أن مقابر الملكات فى أواخر الأسرة السادسة ، بدأت تحصل على الامتيازات التى اقتصرت على الملوك وحدهم من قبل ، فعلى جدران المقابر كتبت نصوص الأهرام ، مما يدل على أن حق الملك فى أن يكون إلها ، أصبح ينطبق على الملكات أيضا ، أى أن الاحتكار المطلق للملك فى الألوهية قد انتهى ، وأصبح مما يتمتع به الآخرون (٣٢) .

الاحتمال الأول

في البحث عن يقين تاريخي حاسم ، يحدد التوقيت الذى كتب فيه إيبوور وثيقته ، لما لهذا التاريخ من أهمية ، فى قبول أو رفض نظرية فليكوفسكى ، فى إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، توصلت الدراسة إلى أنه من المحتمل أن نعثر على الإجابة المنشودة ، إذا حددنا الفترة التى تحقق فيها مبدأ تجريد الملك من صفة الألوهية ، وأصبح إنسانا غير معصوم ، يخطىء ، ويصيب ، بحيث يصبح بمقدور إيبو العجوز أن يوجه إليه خطابه العنيف . وانتهى البحث بالتأكيد على تآكل السلطة المطلقة للملك اعتبارا من عصر الأسرة الخامسة ، ليصل سلطان الملك إلى أقل مستوى يمكن أن يصل إليه ، فى أخريات عهد الملك بيبى الثانى ، فهل يعنى ذلك أن بيبى الثانى هو الملك الذى توجه إليه إيبوور بنقده ، كما رجح برستيد أنه الملك العجوز الذى عاش الحكيم فى عصره ، موجها إليه تحذيراته ، والذى أهمل شئون البلاد ، معتزلا فى قصره ، تاركا لرجال بلاطه وحكام المقاطعات تسيير دفة الدولة ، وهل كان إيبوور مستشارا للملك " بيبى الثانى " أو موظفا كبيرا من موظفى الخزانة الذين يعملون فى الدلتا، كما ذهب بعض آخر من المؤرخين؟.

علينا إذن أن نعيد طرح الأسئلة من جديد ، معرضين الظواهر التى تحدث عنها إيبو العجوز ، للأحداث التى وقعت فى عهد بيبى الثانى ، والظروف التى ألمت بفترة حكمه ، فهل شهدت فترة حكم بيبى الثانى انهيارا للنظام الملكى ؟ ، وهل تقوض صرح الجهاز الإدارى للدولة؟ ، وهل تدهور الوضع الاقتصادى وحلت المجاعة؟ ، وهل توقفت التجارة الخارجية

مع بيبلوس والعالم الخارجى ؟ ، هل عمت الفوضى وأهملت القوانين وطورد القضاة واقتحمت دور العدالة وضاعت الحقوق ؟ ، هل نشبت الثورة واستولت على الدواوين والمصالح وأجهزة الحكومة وذبح الموظفون واحترقت السجلات ؟ ، هل عمت روح الإلحاد ، وتفشت سرقة المقابر ، وافشى سر التحنيط ، وأهملت العمائر والمعابد وطقوس الدفن والشعائر ، واختل نظام الأمن الداخلى ؟ وانهارت القيم الاجتماعية والخلقية ، هل تعرضت البلاد لغزو أسيوى سيطر على مدن الدلتا ؟ إلى غير ذلك من أسئلة عديدة أخرى اتخذت آراء المؤرخين من عمر بيبى الثانى وفترة حكمه التى ناهزت الأربعة والتسعين عاما مؤشرا على ما رجحته من تصورات ، مؤكدة أن ايبوور عاش فى فترة حكم هذا الملك، ووجه خطابه إليه ، وقد يحمل هذا العمر المديد لبيبى الثانى دلالة على ميل السلطة للضعف ، دون أن يعنى ذلك انهيار السلطة الملكية ، وربما ترتب على طول مدة حكمه ظهور أزمة حادة فى نظام خلافة العرش - كما يرى نيقولا جريمال - إلى جانب تحجر الأجهزة الإدارية للدولة، وليس انهيارها، فتذكر قائمة أبيدوس الملكية ملكا يدعى " مر ن رع الثانى " خلف بيبى الثانى ، ويبدو أنه أنجبه من الملكة " ذ ميت " ، وكان حكم هذا الملك عابرا فلم يدم أكثر من سنة واحدة، وخلفته الملكة " نيت اقرت " التى كان قد تزوج منها ، وتعد فى رأى مانيتون آخر ملوك الأسرة السادسة ، قبل النهاية الغامضة للأسرة واضمحلال الادارة المركزية (٣٣)

خلال العقود الأخيرة من حكم بيبى الثانى ، تجمعت نذر الخطر ، وصلت التناقضات بين القوى السياسية إلى أقصى درجة ، واكتملت العوامل والأسباب التى ستجعل من اللجوء إلى العنف حتمية ، إلا أن الشرارة التى ستشعل الموقف لم تحدث إلى ذلك الحين ، حبلت السنوات الأخيرة بجنين الثورة قطعا ، إلا أن لحظة المخاض والولادة لم تكن قد حانت بعد . ومع ذلك ، فإن الكثير من الشواهد التى ذكرها ايبوور أصبحت من الحقائق الثابتة التى يمكن للبحث التيقن منها ، كتوقف

التجارة تماما مع بيبلوس - فينيقيا ، وتسلل جماعات كبيرة من الأسيويين إلى الشرق من الدلتا ، تسللا أخذ فى الازدياد بشكل ملحوظ فى السنوات الأخيرة من حكم بيبى الثانى . والحقيقة أن تلك الظاهرتين تعودان تاريخيا إلى سبب واحد . كان فى نفس الوقت سببا جوهريا من الأسباب التى أدت إلى زيادة حدة التدهور الاقتصادى والسياسى بمصر .

حتى أواسط السبعينيات من القرن العشرين ، استندت البحوث التاريخية فى دراساتها لتلك الفترة إلى اختراع تاريخ لهجرة الآموريين التى وفدت إلى بلاد الشام من الجزيرة العربية، فغيرت الطابع السكانى - السياسى لتلك المنطقة، وكان من نتائجها توقف التجارة مع مصر ، وغزو العامو الأسيويين لدلتا النيل ، ذلك الغزو الذى يعزو المؤرخون إليه انهيار الدولة القديمة .

إلا أن هذه النظرية التى تحمل الآموريين مسئولية تدمير البنى السياسية والاقتصادية من وادى النيل إلى وادى الفرات، لم تعد تلقى تأييد معظم المؤرخين اليوم ، خصوصا بعد تزايد معلوماتنا حول التبدلات المناخية العالمية ، والتى اتخذت طابعا أكثر دقة بالنسبة لمناخ العصور القديمة ، ففى عام ١٩٥٢ عقد فى مقر الأكاديمية الأميريكية مؤتمر ضم نخبة من علماء المناخ فى الولايات المتحدة، وفى عام ١٩٦١ دعت منظمة اليونسكو والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية إلى ندوة دولية فى مدينة روما لبحث التبدلات المناخية ، وفى عام ١٩٦٦ عقد فى الكلية الإمبراطورية بلندن مؤتمر حول الموضوع نفسه وطبعت وقائعه تحت عنوان : التبدل المناخى فى الألف الثامن ق .م إلى العام الأول الميلادى، ناقشت عدة أبحاث منه علاقة التبدل المناخى بتاريخ وحضارة الشرق الأوسط(٣٤).

استنادا إلى تلك الأبحاث ، بدأ بعض المؤرخين الجدد يعتقد بأن الأموريين ليسوا جماعات غريبة وفدت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، بل هم أهل المناطق المنكوبة الذين أجبرهم الجفاف على هجرة أراضيهم الزراعية ، متحولين إلى الرعى المتنقل خصوصا فى فلسطين وسورية

الجنوبية . التى تلقت أقوى ضربات الكارثة المناخية ، ومن هؤلاء فريق من الشرائح المعدمة تماما ارتحلت باتجاه الدلتا المصرية أو باتجاه نهر الفرات (٣٥).

فى إطار هذا التصور يمكن أن نصل إلى عدة نتائج : أولا إنه منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد دخلت منطقة شرق المتوسط بأكملها حقبة طويلة من الجفاف ، ففى مصر انخفض منسوب مياه النيل بشكل حاد ، مما أدى إلى تدمير الحياة الزراعية، وساهم بالإضافة إلى غيره من العوامل فى حدوث الفوضى الاجتماعية ونشوب الثورات والانقسامات السياسية ، وانهيار المملكة القديمة، واضطراب الأوضاع خلال فترة الانتقال الأول حتى عودة مناخ أكثر رطوبة وأقل حرارة بانتهاء حقبة الجفاف العظيم ، فأعاد فراعنة الأسرة الثانية عشر التأكيد على سيطرة طيبة على الدلتا (٣٦)

وثانيا أصابت الكارثة المناخية بلاد الشام وفلسطين ، وكان من نتائج ذلك انقطاع التجارة الخارجية تماما مع بيبلوس - فينيقيا . وتأثر التجارة الخارجية بمصر بصفة عامة لأهمية سوريا ، فلسطين بالنسبة لمصر، لتحكمها فى الطرق التجارية ، التى تربطها بالعالم القديم ، وظل الوضع إلى أن انتهت فترة الجفاف . وعادت طرق التجارة البرية إلى جنوب فلسطين ، لتربط مصر من جديد بمصادر المنتجات الأولية اللازمة لصناعة زيت الزيتون والنبيذ والصوف ، واتجهت التجارة من وسط فلسطين إلى فينيقيا ومدن سوريا والرافدين ، وانتعشت العلاقات التجارية المصرية مع بيبلوس التى تقوم فى المقام الأول على الأخشاب والسلع المصنعة، وثالث هذه النتائج تسلل جماعات البدو الأسيويين إلى المناطق الشرقية من الدلتا، تسللا أخذ بالازدياد كلما امتد أمد الكارثة المناخية وأثرها على الأوضاع فى فلسطين وسوريا .

لكل هذه الأسباب أصبح الوضع مهيأ تماما للثورة الموشكة على

الوقوع فى السنوات الأخيرة من حكم بيبى الثانى ، اتسعت هوة الفوارق الطبقية إلى أقصى مدى، ليس بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا من المجتمع فحسب، بل بين الشرائح المختلفة التى تتكون منها الأرستقراطية، فلقد انتهت سياسة توزيع الثروة ، بتكدسها لصالح النبلاء ، حكام الأقاليم ، هؤلاء الذين ظفروا بالنصيب الأكبر ، خاصة بعد أن أصبحت هذه الأقاليم أقرب إلى الإقطاعيات الوراثية ، المستقلة أو شبه المستقلة عن الحكومة المركزية ، مما أتاح لهؤلاء الحكام وضع أيديهم على مصادر الثروة والاستفادة من خيراتها ، دون مراعاة لقواعد التوازن الاجتماعى، العامل الجوهرى فى تحقيق الاستقرار السياسى . وانخفض نصيب الملك ورجال البلاط وكبار الموظفين ، وتدل جبانة رجال بلاط الملك بيبى الثانى على مدى التدهور الذى لحق بوضعهم الاقتصادى ، وعدم استحواذهم إلا على النصيب الأقل من الثروة بالقياس إلى حكام الأقاليم ، وهم أشد الناس التصاقا بالملك ، أكثر من أى إنسان آخر ، فلا تعدو مقابرهم مستوى المقابر المحلية المبنية من الطوب اللبن ، فقدرة البلاط على البناء بالمستوى الضخم الرائع قد اختفت إلى الأبد (٣٧) ، بينما نشاهد مظاهر البذخ منتشرة فى جبانات الأقاليم بالقوصية وأخميم وأبيدوس والفنتين ، تظهر بجلاء ما بلغه حكام الأقاليم من وضع متقدم وقد حصلوا على لقب رئيس المحافظة المعظم ، وانتشار هذا اللقب فى أغلب محافظات مصر العليا ، وتزامن مع انتشاره ظهور المقابر الصخرية الرائعة الزخرفة التى دفن فيها هؤلاء الحكام .

وصل إحساس هؤلاء الحكام بقوتهم مداه فى أواخر حكم بيبى الثانى، فمنع بعضهم موارد أقاليمهم عن حكومة العاصمة (٣٨) وامتنع عن سداد الضرائب والرسوم بعد جبايتها، تماما كما ذكر إيبوور بأن الفنتين وطينة وهما من ممتلكات الوجه القبلى لا تؤديان الضرائب .. وما فائدة خزانة بدون عوائد .

ومقاطعة طينة التى يذكرها إيبوور فى وثيقته هى المقاطعة الثامنة من

مقاطعات الوجه القبلي، وهى العرابة، وكانت خاضعة لأسرة الأمير "زاو"، هى ومقاطعة هراكنبوليس المقاطعة الثانية عشر من مقاطعات الوجه القبلي ، أما زاو فهو شقيق زوجتى بيبى الأول ، وخال " بيبى الثانى " ووزيره لفترة طويلة من حكمه الطويل ، ويرجع نسب أسرته إلى الوزير (مرى) الذى تزوج من إحدى بنات الملك " تيتى " ، وتقلب نبلاء الأسرة فى مناصب الدولة الكبرى ، حتى تولى " زاو " رياسة الوزارة فى عهد بيبى الثانى ، وسيطر على كافة أمور البلاد ، لصلته الوثيقة بالفرعون الصغير ، وورث ابنه (ابى) مناصبه الوظيفية ، وكان حاكما لمقاطعة هراكنبوليس أول الأمر، ثم مقاطعة طينة بالوراثة عن أبيه ، ثم عين حاكما للجنوب بعد ذلك، وترك (ابى) وريثا له على مقاطعتيه، ابنه "زاو شما" ولكنه لم يعمر طويلا ، فورثه ابنه " زاو "، وكان كذلك حاكما على، طينة، ومن النظر إلى تاريخ أسرة زاو ، وما توفر لهم من مكانة فى البيت المالك لقرابتهم للملك، ولما لهم من مجد قديم، استمر من حكم الملك بيبى الأول، إلى حكم بيبى الثانى- على الأقل - ، فكان منهم الوزراء وحاكم الجنوب(٣٩) .. ، كل هذه الاعتبارات تجعلنا نستبعد امتناعهم عن سداد موار مقاطعاتهما خلال فترة حكم بيبى الثانى، ومنها مقاطعة طينة التى خصها إيبوور بالذكر فى وثيقته، مما يجعل من المقبول استبعاد أن إيبوور كتب وثيقته خلال هذه الفترة، أو أن الملك الذى خاطبه هو بيبى الثانى، وإن كانت هذه الوثيقة تعود إلى فترة قريبة تالية لهذه الفترة ولكنها ليست هى بكل تأكيد، مما أتاح لأسرة زاو التحرر من اعتبارات القرابة والمصالح التى تربطها بالأسرة الملكية، وأطلق يدها متحررة من كل اعتبار، فامتنعت عن سداد مستحقات طينة لخزانة الدولة .

ومن الشواهد التى تدل على عدم التوازن فى توزيع الثروة بالنسبة لشرائح الطبقة العليا، وخروج رجال البلاط وكبار الموظفين بالنصيب الأقل بكثير من نصيب حكام الأقاليم، خلال فترة حكم الأسرة السادسة، ليس فقط ما تلاحظ من فقر فى بناء مقابرهم اللبنية، بل إقدام بعض هؤلاء على التعدى على مقابر غيرهم، وهى من الملاحظات التى تقترب مما لاحظه

الحكيم العجوز أيضا ، فالسمير الوحيد ، ورئيس الكهنة المرتلين ورئيس أوقاف بيبى الأول المدعو " نى عنخ بيبى " قد شاهد بعينيه " الوزير" نى كاوو حور " من عهد الملك وناس وهو يمحو اسم سلفه الوزير " اخت حتب " من فوق جدران مقبرته ومن فوق جوانب تابوته ، ويغتصبها لنفسه ، ضاربا بذلك أفظع الأمثلة على عدم المبالاة بحقوق الأموات ، وعدم الاكتراث بالقواعد الدينية وبالموروث الأخلاقى ، ولم ينس السمير الوحيد " نى عنخ بيبى " ذلك طيلة حياته ، ويدفعه الخوف قبل وفاته ، من نهب مقبرته ، أو الإضرار بها ، ليحذر كل من تسول له نفسه بالسطو عليها فى نقوشه " **السمير الوحيد .. المرتل شريف الفرعون يقول : أما من جهة أى فرد يريد أن يلحق أى أذى بهذا القبر الذى فى المقبرة ، وهو الذى تابوته مركب فيه الأب فوق أمه " أى الغطاء فوق التابوت " فإنى سأتقاضى معه فى المجلس المبجل الفاخر للإله العظيم رب الغرب ، وسأقبض على رقبته كما يقبض الإنسان على عصفور .. وسيسرى خوفى فيه أمام كل من على الأرض ، وكل الأحياء سيرتعدون من الأرواح الممتازة ، وإنى روح ممتازة** . (٤)

إذا كان هذا هو حال بعض شرائح الطبقة العليا ، فالهوة بين هذه الطبقة فى مجملها وبين الطبقات الدنيا من الهرم الاجتماعى ، أصبحت سحيقة ورهيبة ، وتتمثل هذه الطبقات الدنيا فى الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة ، والطبقة الدنيا من الفلاحين ومافوقهم من خدم المنازل والقصور وعبيد النبلاء والعمال والصناع والحرفيين ، انخفض مستوى الإنفاق الحكومى على المشروعات العامة ، لنضوب موارد الدولة ، فالكثير من المقاطعات امتنع عن سداد ما عليها من ضرائب للخزانة العامة ، إلى جانب كثافة الإعفاءات من الأعباء والامتيازات الممنوحة للعديد من المعابد والكهنة والعظماء ، مما حرم الخزينة من مورد هام من مواردها ، بالاضافة إلى ذوبان الملكيات العامة والملكية الخاصة للملك فيما منح من هبات وما خصص من أوقاف، أشرف عليها كبار الكهنة واستحوذوا على ريعها وما تدره من خيرات لأنفسهم، وتوقف التجارة الخارجية للدولة ،

وقد كانت احتكارا ملكيا ، يصب بنحو أو بآخر ثروات طائلة فى مالية الدولة ، إلى جانب انقطاع ورود تلك الثروات المتدفقة ، أثر على انتعاش مدن الدلتا التجارية وما كانت تسدده من رسوم ومكوث، ولا يخفى تأثير انقطاع التجارة على شرائح واسعة من الطبقة الوسطى اعتمدت التسويق وتوزيع السلع مصدرا للدخل الرئيسى لمعيشتها ، وبعجز الميزانية العامة تدهور الاقتصاد بشكل حاد وهائل ،وزاد من حدته فترة الجفاف العصيب الذى يعصف بالبلاد عصفا ، وانهار مستوى بناء الأهرامات والمقابر العظيمة التى تمثل الحافز الأساسى للنشاط الاقتصادى ، فتوقف العمل بالمحاجر ، والمناجم ، وأوقفت الدولة نشاط التعدين ، وانعكس كل ذلك على أنشطة الدولة المعاونة للأنشطة الرئيسية فأهملت سياسة شق القنوات الملاحية وبناء السفن والاهتمام بوسائل النقل الداخلى والخارجى وتوقفت البعثات وانخفض عدد العاملين من الفنيين والصناع والعمال الذين استوعبتهم هذه المشاريع ، وتفشت البطالة ، وعم العوز ، وتأثرت مشروعات الرى والصرف واستصلاح الأراضى والزراعة إلى غير ذلك من اهتمام بإعادة اقامة الجسور ومسح الأراضى ، بسبب تفكك الادارة المركزية للجهاز الحكومى ، وميل الأقاليم إلى الاستقلال دون مراعاة للصالح العام ، تردى الوضع الاقتصادى سريعا ، وتكدست الأعباء والمظالم على كاهل الفلاحين وغيرهم ممن ينتمون إلى الطبقة السفلى من المجتمع ، وانتشرت الفاقة بين الجميع ، ومثل كل هؤلاء المتضررين جيشا هائلا من الضعفاء على أهبة الاستعداد للتعبير عن السخط والغضب مما حاق به من ظلم وغبن اجتماعى ، يضج بالشكوى فلا يجد من يجيره مما يلم به من جور وعدم إنصاف ، استشرى الفساد ، وتفشى القهر ، وانقلب صغار رجال الدولة ينكلون بمن هم دونهم ، مصدرين ما يتحملونه من قهر وغبن إلى غيرهم الأضعف قدرة ، اشتريت الذمم ، وبارت النفوس ، واختل ميزان العدل ، فانهار وضع الأمن وتخلخل الاستقرار ، ومارت النفوس بجيشان الثورة من قبل أن تبدأ .

تجلت بوادر المقاومة لدى الغالبية العظمى من الشعب ، من الفقراء المستذلين المهانين منذ وقت مبكر ، فنأوا بمشاعرهم عن عقيدة الشمس ، ولم يستطع الإله رع بميوله الأرستقراطية ، ومناصرته لعظماء الدولة ونبلائها وكبار كهنتها أن يغريهم بعبادته ، فاعتبروا سيادته ظفرا سياسيا، مكن كهنته من السيطرة والقوة والنفوذ ، ومالأ كبار الموظفين فازدادوا ثراء ، وكما وهب رع الحياة الهنيئة للطبقة العليا فى الدنيا ، ضمن لهم المستقبل السعيد فى الحياة الأخرى ، وهيأ الخلود المنشود لكل من يمتلك ثروة ونفوذا ، فيستطيع كل من يملك نفقات القبر الرائع وعظمة الدفن وطقوس الصلوات وترتيلات الكهنة وتقديم القرابين، وأوقاف الكهنة أن يشترى الخلود والسعادة فى العالم الآخر ، وانصرف الناس عن عبادة هذا الإله ، نصير الأغنياء ، فهم بحاجة إلى دين يكافىء المحسن الطيب القلب ، الذى لا يرتكب المعاصى دون نظر إلى فقره أو غناه ، وتنسموا عبير هذا الدين فى تلك العقيدة القديمة التى عرفها المصريون منذ أيام الأسرة الأولى ، بل وقبل ذلك ، وإن لم يتحقق لها الانتشار أو بعض الانتشار إلا فى أيام الأسرة الخامسة ، كان أوزير يمثل الحاكم العادل الرحيم ، وهو ملك فى دنيا الأموات لا يأبه إلا بالحق والعدل ، ولا ينعم بجنته إلا من تطهر قلبه ، وصفت سريرته ، وحسنت نواياه ، وابتعد عن أذى الناس ، لايفرق بين غنى وفقير ، وجنته لمن أحسن واتقن وعمل خيرا، وجحيمه لمن سولت له نفسه عمل السوء ، لاتشفع له ثروة أوصلوات كاهن، أو قرابين . ولقد وجد الناس فى تلك العقيدة صدى لما فى نفوسهم ، ومع هذا فإن عقيدة أوزير لم تنل كثيرا من عقيدة الشمس، فظلت هذه العقيدة الرسمية، وظل لقب ابن الشمس لقبا أساسيا من ألقاب الملك، أما كهنة رع الذين رأوا نجم الإله أوزير يعلو ، فلقد تداركوا الموقف بما اشتهر عنهم من حصافة، فأسرعوا بوضع القصص والأساطير التى تربط بين أوزير ورع وحورس وغيرهم من الآلهة . ولم تنفر نفوس المصريين من قبول هذا الدمج الكهنوتى، على الأقل، حتى ذلك الحين(٤١).

الثـــورة

لم تلبث الثورة التى اكتملت أسبابها ومقدماتها، أن اندلعت - تماما- كما شاهدها إيبو (الصغير) وتماما كما وصفها فيما بعد عندما صار عجوزا، حصيفا، محذرا مليكه من مغبة التخاذل، متذكرا تفاصيل الأحداث الدامية لينذره بسوء العاقبة، إذا ترك أمور الدولة تتردى إلى نفس الأوضاع التى استشعلت عندها الثورة، واحتدمت الأحداث، ويعنى ذلك التصور أن وثيقة إيبوور اعتمدت على تداعيات الذاكرة، وتداخل الأزمنة فى صياغتها، وربما كان من نتيجة ذلك ما يلاحظ بها من تكرار واطناب، فكل زمن من تلك الأزمنة يحمل الطابع نفسه للفوضى والاضطراب، والظواهر الدامية نفسها التى لم يتوقف تأثيرها منذ الزمن السابق عليه، مما يعنى - أيضا- استمرار تلك الظواهر والأسباب المنذرة قائمة حتى عهد ذلك الملك الذى يوجه إليه ايبو العجوز خطابه العنيف ، والنتيجة المنطقية لهذا التصور، أن الثورة التى اندلعت لم تستطع تحقيق ما يصبو إليه الثائرون من أهداف، وفى نقده لهذه الثورة، وفشلها فى التمهيد لتحقيق العدالة الاجتماعية، يذكر د. عبدالعزيز صالح (٤٢) : أن الثورة اعوزتها الزعامات التى بإمكانها توجيهها الوجهة الصحيحة ، والمسار الفعال ، وهى وجهة نظر صحيحة ، تحسب مع غيرها من العوامل التى أدت إلى انتكاسة الثورة وعجزها فى مرحلتها الأولى على الأقل عن تقديم حلول حاسمة للمشاكل الاجتماعية ، والبنى السياسية التى تسببت فيها ، ومن الأمثلة الواضحة أكثر من غيرها على استمرار المشاكل والأسباب الكبرى ، ماذكرته الوثيقة عن امتناع الفنتين وطينة وهما من

ممتلكات الوجه القبلى عن سداد الضرائب .. وما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟ ، ثم تعود الوثيقة فى المقطع الرابع لتكرار ذلك على نحو أشد شمولا ، " **إن الدلتا تبكى ومخزن الملك أصبح ملكا مشاعا لكل فرد ، ولا ضرائب تجبى للقصر كله** " ، ولقد عد ذلك من قبيل التكرار والاطناب على غير حقيقته ، ففى مرحلة من المراحل اقتصر الامتناع عن سداد موار الخزينة العامة على البعض دون الآخر ، وبتوالى الأحداث ومضى الزمن شمل هذا الامتناع الكل سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى ، على هذا النحو نفسه ، من السهل تتبع ظاهرة أخرى من أخطر الظواهر التى تعرضت لها البلاد ، وتوقف عندها ايبوور ، ألا وهى تسلل الأسيويين إليها ثم سيطرتهم على نحو ما على مجريات الأمور ، وتتعرض الوثيقة لهذا الموضوع فى عدة مقاطع متفرقة على هذا النحو : " **فى كل مكان يختلط الأجانب بشعب مصر بحيث يصعب التمييز بينهم** ، ثم " **الأقاليم سلبت ونهبت واسيويو الخارج جاءوا إلى مصر** " ، وبعد ذلك " **من يشكلون شعب مصر هم منذ الآن قوم آخرون** " ، وفى مقطع ليس بالأخير "**الأجانب هم منذ الآن الحرفيون الذين يقومون بأعمال الوجه القبلى**" ، مما لا شك فيه أن وثيقة ايبوور فى حقيقتها ترصد الظواهر فى صيرورتها واستمرارها ، عبر مرحلة تاريخية ممتدة ، وأن إيبوور الذى قدر له أن يشاهد انفجار الثورة ، معايشا تطوراتها ، زالت عن عينيه الغشاوة وتيقظ من سبات الطفولة ، فتابع وقائع الدهور بعين المثقف اليقظ ، وضج ضميره من تردى الأوضاع ، وازديادها سوءا ، فلم يرضه إلا أن يحتد ويتذمر ، منذرا مليكه بسوء العاقبة ، آملا أن يتدارك الموقف ، ويقيم العدل.

لماذا فشلت الثورة ، أو إذا تحرينا الدقة : لماذا فشلت المرحلة الأولى من الثورة؟، باعتبار أن الثورة مرت بعدة مراحل ، شاهد إيبوور المراحل الأولى منها ، وما جرى بها من أحداث ، بل يمكن القول أن هذه الأحداث التى شاهدها ما كان بالامكان اطلاق نعت الثورة عليها، لولا تعدد المراحل

التى استغرقتها انتفاضة المعدمين ، خلال احقاب ممتدة وطويلة من السنين ، تمكنت فى نهايتها العامة من التوصل إلى تحقيق ما تحلم به، وتصبو إليه من عدالة اجتماعية .

أخذت أحداث العنف شكل الهبة المفاجئة ، ذات الطابع التلقائى ، لأكثر شرائح الطبقات الدنيا حرمانا بالعاصمة ، لم تتعد حدود هذا النطاق الجغرافى إلا إلى عدد محدود وقليل من الأقاليم والمدن ، ومن المرجح استنادا إلى هذا الشكل غير التنظيمى ، أن ذلك الانتقال لنطاق الثورة ، قد حدث ببطء شديد ، وبصورة عفوية ، بعد أن حققت الانتفاضة بعض النتائج الجلية ، ووصلت أخبارهـا إلى أسماع مواطنى هذه الأقاليم أو تلك المدن ، الواقعين تحت نير ذات الضغوط والعوامل المجحفة ، فحملوا السلاح بدورهم ، وأعلنوا التمرد والعصيان ، و " **كل مدينة تقول دعونا نطرد الأقوياء** " ، ففى حدود المعلومات التى يوفرها استقراء وثيقة ايبوور ، اندلعت انتفاضة العاصمة من غير بنية تنظيمية، واتخذت شكل الجماعات الصغيرة الثائرة ، التى توالى اتساعها السريع وانتشارها بين صفوف العامة ، كما تألفت هذه المجموعات المتزايدة من طوائف البوابين والغسالين وصيادى العصافير ، وبائعى الحلوى ، وصانعى الجعة ، إلى غيرهم من أصحاب الحرف وخدم المنازل ، وعدد من أهالى الدلتا المعدمين الذين تربطهم بالعاصمة روابط تقديم الخدمات ، كما يذكر إيبوور ، شكل هؤلاء قوام الثورة عند بدايتها ، لينضم إليها بعد ذلك ومن غير تحريض تنظيمى عناصر أخرى من المعوزين ، أخذت قاعدتها تتسع شيئا فشيئا ، بامتداد الأحداث رويدا ..رويدا ، لم تتخذ الجموع شكل الحشد الثورى الموجه تنظيميا على وجه الاطلاق ، اتخذت أعمال العنف أولا صورة عمليات السلب والنهب ، لتسد ساغبة الجوع ، وشدة الحاجة والعوز ، فيستهل إيبوور حديثه : " يقول البوابون إننا راحلون للنهب" ، ونحن لا نميل إلى الاعتداد بالصفات التى نعت بها ايبوور الجماهير الثائرة ، فهو بحكم موقعه الطبقى معادى لها ، ومعادى لأساليبها العنيفة ، وتدرجت

الهبة نحو شكل الانتفاضة الثورية ، ومن الأرجح أن الحركة العفوية أفرزت قيادتها خلال المصادمات ، وانعطفت الحركة بقوة للصدام بمؤسسات النظام : " **انظر لقد آل الأمر إلى أن يظهر الناس العداء للصل (رمز الملكية) رع الذى جعل الأرضين فى سلام .. إن سر الأرض الذى لايعرف أحد حدوده (إلا الملك) قد أفشى ....، ودمر المقر الملكى فى ساعة واحدة** " ، " **انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى أن البلاد حرمت من الملكية على أيدى عدد محدود من الناس الذين فقدوا رشدهم(٤٣) اشتعل لهيب الثورة عاليا و** " **اختطف الفقراء الملك** " ، انهار النظام الملكي، وعمت الاضطرابات ، واحتل الثوار القصر الملكى ، وتأجج العنف، ودارت الأحداث بايقاع سريع ، ضد رجال البلاط ، وكبار موظفى الدولة، ذبح الموظفون ، دمرت الدواوين والوزارات والادارات العامة ، ودور العدالة ، طورد كبار رجال الدولة ، وانهار الجهاز الادارى ، القيت القوانين فى الطرقات ، مزقت الوثائق والعقود والمحفوظات ، اقتحمت دور القضاء ، احتل الشعب البيوت العظيمة ، تقوضت مؤسسات الحكم ، وطورد القضاة وطردوا من المحاكم ، قتل الكتبة ، ونهبت المخازن ، تفككت أوصال المؤسسات الادارية " **الآن لايوجد منصب فى مكانه مثل القطيع الذى يضل فى غياب راعيه (الملك)** " ، عمت الفوضى بتلاشى السلطة ، امتد العنف إلى بيوت العظماء ورجال البلاط وأسرهم ، والقى بأبنائهم وأبناء الأعيان فى الطرقات ، واختفى أصحاب الملابس الكتانية البيضاء خلال تأجج نيران العنف ، لم تسلم مقابر الأجداد وجبانات الملوك والأشراف ، غزا الثائرون سقارة ، نبشوا القبور ، واخترقوا أسرار الأهرامات ، والقيت الموميات الملكية على قارعة الطرق .. " ، **انظر! إن الذى دفن كصقر أصبح يرقد على نعش ،وما خبأه الأهرام قد أصبح خلوا**"، نهبت كنوزالأموات، وعبث بالمقدسات. تبدو صورة اقتحام القبور والأهرامات كما لوكانت مجرد سطو على ما تضمه من مقتنيات وكنوز، وربما كان الأمر فى جانب منه على هذا النحو، ولكن إذا صدق ترجيح

د. سليم حسن أن الثوار هم الذين اقتحموا هرم بيبى الأول ، بعد أن تمكنوا من النفاد إلى غرفة الدفن ومكان التابوت ، على ما يمتاز به هرم بيبى الأول من تفنن من اخفاء حجرة الدفن ، والعناية بوضع العقبات فى طريق الوصول إليها، فإن المقتحمين هشموا التابوت المصنوع من حجر البازلت ومثلوا بمومياء الملك ، ولم يكتفوا بوضع يدهم على مقتنايات الهرم، بل أزالوا كل خرطوش ملكى فى الممر المؤدى إلى حجرة الدفن ، لم يكن اقتحام الهرم إذن بغرض السرقة والسطو ، فنهب المحتويات تم فى إطار شعور بعداء شديد للملكية ، ومقت هائل لمن يمثلونها من شخوص الملوك أحياء أو أموات، ويؤكد على ذلك، إذا صدق أيضا نفس الترجيح لسليم حسن بالنسبة لهرم خفرع، ومعبده الجنائزى ، فقد عثر فى المعبد الجنائزى على بقايا أكثر من مائتى تمثال للملك مدمرة تماما ليس بينها تمثال واحد سليم .. أما فى معبد الوادى الملاصق لأبى الهول فقد وجد تمثالان لاغير سليمين . مما يوضح لنا حدة الشعور الجماهيرى بالعداء للملكية ومقت النظام .

انهارت السلطة الملكية ، خلال ساعة واحدة من الثورة ، كما سبقت الاشارة ، وانهارت معها سلطة الدولة ، ودمر البناء الهرمى للمجتمع ، كما تهاوت الطبقة العليا من رجال البلاط وكبار رجال الدولة ، تزلزلت أوضاع الطبقة الوسطى من الكتبة والموظفين ، انقلبت الأوضاع رأسا على عقب ، دارت الأرض كعجلة صانع الفخار بتعبير ايبوور ، وانتهت المقاومة ، ولكن لم ينته الاضطراب ، وعلى أنقاض الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة ، حكم سبعون ملكا مدة سبعين يوما كما يذكر مانيتون ، وعلى الرغم من تشكيك المؤرخين فيما ذهب إليه مانيتون ، واستهوالهم لهذا الرأى ، فعده بعضهم نوعا من المبالغة فى عدد الحكام ، الذين حكموا خلال هذه الفترة المحدودة من الأيام ، وحاول البعض أن يبرر ذلك بالتأكيد على نوع من الحكم الجماعى اتفق عليه أهل الاعتبار من عظماء البلاد ، فليس بمستبعد - مع تردى الأوضاع - أن يتقافز على العرش المغامرون والنهازون من

الزعامات التى أفرزتها الانتفاضة، وهى زعامات غير مؤهلة لتولى الحكم، تعاقبت على ايقاع المنازعات السريع، صاعدة وساقطة دون أن تستقر السلطة فى يد أى منها، أما أن عظماء البلاد وكبار رجالات الدولة قد اتفقوا على نظام للحكم، فالمنطق يقضى باستبعاد هذا الرأى، فلقد قضت الثورة على رجال البلاط وكبار الموظفين وصغارهم، وشتتت صفوفهم، قوضت هياكل التنظيم الادارى، وتعقبت هؤلاء فى قصورهم ودورهم وصادرت ثرواتهم ومراكزهم، وما عاد بامكان فلولهم أن تستعيد أوضاعها، أو تتطلع لتولى زمام الأمور، مستردة السلطة الضائعة، فى مثل الظروف التى تمر بها البلاد، وقد اشتد اوار الحريق الاجتماعى، وانقلبت البلاد على نفسها، القوى يغتصب حق الضعيف، والأخ يذبح أخاه، والجار يستبيح جاره، الكل يقتل الكل، ولا أمان لأحد، والمستقبل اختفى على مشارف الأفق الغامض .

لم تغير الثورة أسس النظام، استولى المعدمون على ممتلكات الأغنياء، وصار الفقراء أغنياء جدا، والمعارك الضارية تقلب الأوضاع يوما بعد يوم، والاضطرابات مستمرة، والفوضى لانهاية لها، ازاحت الانتفاضة بهبتهاالعفوية - كما سبق القول - رجال البلاط وكبار الموظفين والكهنة وعظماء الدولة وقضاتها، بعد أن اسقطت الملك وقضت على الأسرة الحاكمة ، وتعدت على الشرائح العليا من الطبقة الوسطى من الكتبة والمثقفين وصغار موظفى الدولة ، فاختل التوازن الاجتماعى ، ومهدت الثورة الطريق متسعا رحيبا عن غير قصد لنبلاء المقاطعات والأرستقراطية المحلية ، فتمكنوا فى المستقبل القريب من تحويل البلاد إلى نظام الاقطاع، وعندما بدأت الثورة تنتقل من العاصمة إلى المقاطعات، وتهدد وجودهم ، سارعوا بالاعتماد على الأسيويين ، تلك الهجرات التى تسللت إلى البلاد فى أخريات أيام الأسرة السادسة، واتخذوا منهم مدافعين عن مصالحهم إذ فقدوا الثقة فى العناصر المصرية؛ ونجح حكام الأقاليم فى حماية أوضاعهم ، وظفروا بالغنيمة كلها بلا منازع، وتغلغلت

العناصر الأسيوية فى الدلتا ، وتقوى وجودهم ، وربما استطاعت زمرة منهم مع استمرار الفوضى أن تكتسب وضعا سياسيا فى بعض تلك الأقاليم ، أما عن اعتماد حكام الأقاليم على الأسيويين والتعاون معهم ، فيؤكد ذلك نقش مؤرخ بالسنة الخامسة من حكم "نحرى " حاكم مقاطعة الأرنب ، وهى المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلى ، وذلك فى عهد الأسرة الحادية عشرة ، فيحدثنا " كاى بن نحرى " الذى اشترك مع والده فى حكم المقاطعة ، وكانت قد تعرضت لقيام ثورة مسلحة بها ، فيقول : **" قد جندت جنودى من الشبان، وسرت للحرب مع مدينتى، وقد كنت أقوم بنصيبى فى المؤخرة ... مع أنه لم يكن معى غير اتباعى من " المزوى " و ... "واوات " ... والأسيويين .. وكان الوجه القبلى والوجه البحرى متحالفين ضدى .. وقد عدت بعد نجاح باهر .. ومعى كل أهل مدينتى دون خسارة "** (٤٤)

أما عن تغلغل الأجانب فى البلاد ، فتدل الآثار التى عثر عليها ،على صدق إيبوور عندما ذكر أن الأجانب هم منذ الآن الحرفييون ، وهم من يشكلون شعب مصر ، فبالرغم من ندرة الآثار التى وصلتنا من تلك الفترة -وقد سبقت الاشارة الى ذلك-، فقد عثر على اسطوانة من حجر اليشم الأخضر تعزى إلى الفرعون " خندو " من ملوك الأسرة الثامنة وهى من صناعة سورية ، كما عثر على جعران لفرعون اسمه "رع ان كا"، ورغم ما عليه من إشارات مصرية ، فلقد وجد عليه رسم يدل على أنه من أصل سامى محض، وهو يشبه الرسم الذى على اسطوانة الفرعون " خندو " ، وهذه الدلائل وغيرها تعزز فكرة تعاظم الوجود الأسيوى بمصر إلى الدرجة التى ذهب فيه بعض المؤرخين (كما ذكرنا من قبل) إلى أن البلاد تعرضت لغزو أسيوى خلال هذه الفترة ، ويظن بترى أن الوجه البحرى وجزءا من الوجه القبلى قد غزيا خلال ذلك العهد، وأن قوما من الشمال الشرقى من سوريا قد فتحوا وادى النيل، وبصفة عامة فإن الوجود الأسيوى المتعاظم بالبلاد تدل عليه دلائل كثيرة أهمها : ظهور الأزرار التى

اتخذت شارات منذ نهاية الأسرة السادسة ، ثم اختفت فى الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وهذا النوع من الأزراز التى عثر عليها بمصر ، رغم وجود بعض الأشكال المصرية البحتة عليها مثل علامة الحياة ، وعلامة الصقر ، فلقد كان الطابع الأجنبى ظاهرا فى صناعتها . ومن الجدير بالذكر أن بعض أسماء الأعلام التى تنسب إلى هذا العصر مثل "شماى" و " نى " و" تلولو" و"عانوا" يستدل من تركيبتها أنها أسماء سامية الاشتقاق(٤٥).

الاحتمال الثانى

مع نهاية الأسرة الثامنة ، التى لم تستمر فى الحكم إلا أربعين عاما على نحو التقريب ، اكتملت الظواهر الدامية ، والنوائب ، التى رصدها إيبو العجوز ، أو كادت أن تكتمل ، مما يجعل من احتمال أن الملك الذى خاطبه هو أحد ملوك هذه الأسرة المتأخرين ، احتمالا جائزا ومقبولا .

قد يصل عدد هؤلاء الملوك إلى ثمانية عشر ملكا ، منهم خمسة على الأقل ممن وردت أسماؤهم فى القوائم الملكية ، أطلقوا على أنفسهم اسم العرش لبيبى الثانى " نفر كا رع " استنتج العلماء أنهم من أبنائه أو أحفاده ، فالمعلومات عن هذه الفترة نادرة وشحيحة ، وقد أمكن التحقق من ملك وحيد من ملوك هذه الأسرة ، بكل دقة ، هو الملك " قا كا رع " بعد أن تم الكشف عن هرمه فى سقارة القبلية ، ورغم صغر حجم هذا الهرم فقد شيد حسب التقليد المنفى (٤٦)

انحسرت سلطة ملوك الأسرة الثامنة عن معظم أنحاء البلاد، ويعد هذا أحد عوامل ضعفهم ، إلى جانب ماخولوه من سلطات واسعة لوزرائهم ، جعلتهم فى الواقع المسيطرين الحقيقيين على شئون الدولة ، ومن أهم المراسيم الادارية مرسوم بتنصيب الوزير " شماى " حاكما على الوجه القبلى ، تشمل سلطته جميع مقاطعات الوجه القبلى الاثنتى والعشرين ، كما أصبحت وظيفة الوزير وراثية يتولاها الابن عن الاب ، فانتفت تماما سلطات الملك ونفوذه (٤٧) الأمر الذى يجعلنا نقترب أكثر من وضع الملك المغلوب على أمره ، أسير رجال بلاطه ، وحكومته ، ذلك الملك الضعيف المتخاذل الذى تصدى له الحكيم العجوز ٠

تدل كافة الشواهد التى تناولتها الدراسة حتى الآن على أمرين ، أولهما ، أن الظواهر التى رصدها إيبوور فى وثيقته ، هى نفسها الظواهر والأحداث الدامية والفوضى التى أعقبت سقوط الأسرة السادسة واستمرت حتى نهاية الأسرة الثامنة، وبعدها ، وهو تماثل بين لامراء فيه . وثانى النتائج التى تم التوصل إليها : أن وضع الملوك وسلطاتهم ، وما هم فيه من ضعف ، يرجح أن الملك الذى ووجه بهذا التحذير العنيف والتقريع الشديد ، إما أن يكون أحد ملوك هذه الأسرة ، أو أحد أوائل الملوك الذين اعقبوهم مباشرة ، من ملوك الأسرة التاسعة، ومن المؤكد عدم وجود احتمال ثالث .

ومع هذا ، فإن صحة هاتين النتيجتين دموية الأحداث، وضعف الملوك، لاتعنيان أى شئ على وجه الاطلاق ، ولا تفسران الموقف ، إن لم يتمتع الطرف الثالث والأهم وهو إيبوور نفسه ، بالادراك . ويقظة الوعى ، الأساسيين للمقاومة فى كل صورها ، ومواجهة الفساد المستشرى ، والتصدى للحكام ، وما كان لإيبوور فى كل الأحوال أن يتملك حس المسئولية الأخلاقية لو لم تتح الظروف المناخ الضرورى لنمو الشخصية الانسانية، وتبلور الاحساس الفردى ، والحس الذاتى ، الأساس الوطيد للشعور بالمسئولية السياسية، والاهتمام بقضايا المصير ، والانشغال بهموم الحاضر، والبحث عن معالم الغد ، فمتى وكيف تحقق ذلك ؟

أغنية للحياة لا لليأس ، عصر التفاؤل

الاضطرابات الكبرى .والنوائب الهائلة ، التى دمرت الهياكل الاجتماعية والسياسية للمجتمع ، خلال فترة الانتقال الأولى ، لم ترتد بالأوضاع الثقافية والأدبية إلى غياهب الجهالة ، فعلى عكس كل ما يمكن أن تصل إليه التصورات ، واصلت الحركة الثقافية تقدمها ، بحثا عن صياغة جديدة تعيد ترتيب منظومة العلاقات المختلفة، التى تتحكم فى وضع الانسان داخل المجتمع، وموقف الانسان من الكون .

وتعتبر الدولة الوسطى بأوسع معانيها ، أى الفترة التى تبدأ بعصر الانتقال الأول ، وتمتد حتى عصر الأسرة الثالثة عشرة ، هى العصر الذى بلغ فيه الأدب ذروة ازدهاره ، فإلى جانب الأشكال الأدبية المتعارف عليها باسم أدب التعاليم أو النصائح ، بلغت القصة أوج كمالها ، وألفت أشهر الروايات التاريخية ، والأسطورية ، وكبرى المسرحيات ، ووصلتنا أعداد كبيرة من النصوص الدبلوماسية ، والترجمات الذاتية ، والمراسلات ، وتطور فن الشعر تطورا لايضاهيه تطور أى فن آخر ، وتفرع منه فن الأناشيد الملكية فيما بعد قيام الأسرة الثانية عشرة ، مستقلا عنه فى مراميه وأشكاله ، وأنجزت المعرفة العلمية مصنفاتها فى مختلف التخصصات ، دراسات فى الطب ، وطب النساء ، والطب البيطرى ، والرياضيات ، وقوائم الجغرافيا ... إلى غير ذلك من معارف علمية وثقافات وآداب ، جعلت من هذه الحقبة المحتدمة بالأحداث ، العصر الذهبى للأدب والفكر (٤٨)

كان العصر . هو عصر الكلمة بلا منازع ، فالنحاتون والمصورون

وغيرهم من الفنانين ، لم تتهيأ لهم الفرصة لتطوير فنونهم ، ذبلت طاقاتهم المبدعة ، وتعطلت ملكاتهم الابداعية ، فالحرب الطاحنة بين أمراء الاقطاعيات وملوك الاقطاع ، لم تسمح بتشييد العمائر الضخمة ، أو ببناء الأهرامات الشامخة ، أو المعابد الرائعة ، وتقهقرت فنون النحت والتصوير ، بسبب ضعف الموارد ، وانصراف العظماء عن الاهتمام برعايتها والعناية بها ، لم يصلنا من عهد الانتقال الأول من التماثيل الحجرية شيء يذكر ، فلم يكن من الممكن أن تزدهر صناعة هذه التماثيل إلا في ظل حكومة قوية مستقرة قادرة على الانفاق ببذخ على هذا الفن الباهظ التكاليف ، كما أخذت النقوش الجدارية تقل شيئا فشيئا ، لتحل محلها نماذج من تماثيل صغيرة ، ودمى ، بدائية الصنع على الرغم من حيويتها ، وهي بصفة غامة لا تضاهي بمنجزات الدولة القديمة (٤٩)

تدهورت هذه الفنون ذات الطابع الأرستقراطي ، التي ارتبطت دوما بتلبية احتياجات الملوك والنبلاء والكهنة ، بانهيار أرستقراطية البلاط ، من بعد سقوط الملكية ، وانشغال أرستقراطية الاقطاع بالحروب الداخلية المستمرة، والمنازعات الدموية فيما بينها ، أما الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها أغلب الفنانين والأدباء والمثقفين ، فقد خرجت من أتون الثورة مكتوية أكثر من غيرها بويلات الانتفاضة ، وربما قد خسرت كل شيء ، ولكنها في الوقت نفسه غنمت حريتها ، فانسلخت من علاقة التبعية التقليدية التي قيدتها بصفة مستمرة بالملوك، ورجال البلاط، والكهنة ، بعد أن تهاوى النظام ، ووجدت نفسها مجبرة على التفكير في المستقبل ، وفي مصيرها الشخصي ، بلغتها الخاصة ، بعيدا عن اللغة الرسمية التقليدية ، وبعيدا عن الموضوعات القديمة التي فرضها الكهنوت والبلاط .

ازدهر الأدب بهذا التحرر المكتسب ، وتفتحت آفاق التعبير ، وعرف الأدباء لغة الذات الفردية بعد التخلي عن الصوت الجمعي، المحض ، الذي فرض عليهم، ولأول مرة في التاريخ ، اكتشفوا السر الأعظم في نفوسهم: الانسان . من هذه اللحظة التي يسجلها التاريخ بامتنان ، يتحول مجرى

الأدب متدفقا فى نهر التأملات الوجدانية ، وينتقل الشعراء بتجاربهم إلى آفاق الوجدانيات الثرية شديدة التنوع ، متتبعين التجارب الانسانية العميقة ، مترصدين ذبذبات الشعور الخفية . لقد سبق لايبوور فى وثيقته رصد إقدام الناس على الانتحار ، بتقديم أنفسهم طواعية لتماسيح النيل المتخمة ، هذه التجربة نفسها التى ربما أصبحت من الظواهر ، يتناولها شاعر من هذه الفترة فى قصيدة من أشهر قصائد هذه المرحلة ، وهى " حوار بين انسان سئم الحياة وبين روحه " ، وتتوقف التجربة كما تبدو من القراءة الأولى عند لحظة يأس ، فى حياة شخص من الأشخاص العاديين أوصدت فى وجهه أبواب المستقبل ، واشتد كربه من شدة ما يعانيه من الأهوال التى تحدث حوله ، فهانت عليه نفسه ، ورخصت الحياة ، فاستولت عليه فكرة الموت ، وتلتقط التجربة الشعرية لحظة مراودته لنفسه منطلقا لها، أما عن جدة الموضوع ، فلا يحتاج الأمر إلى تعليق ، ولكن الأهم من ذلك ، هو تأكيد الشاعر أن لهذا الشخص العادى (با) أو روح، هذه الـ (با) التى كانت فيما مضى حكرا على الملوك وحدهم كما سبقت الإشارة ، وحقا من حقوقهم يميزهم عمن سواهم من المخلوقات وهو حق اكتسبوه دون غيرهم ، بصفتهم آلهة على الأرض ، وآلهة فى العالم الآخر ، لقد ارتفع الشاعر بشخصه العادى إلى مصاف هؤلاء الملوك ، تحت دواعى الاعتقاد بأن الكل سواسية لا فرق بين الحكام والمحكومين ، لقد ساوت القصيدة بين أقدار ومصائر الكل بواقع يقين وجدانى يؤكد على حقيقة واحدة تشمل الكل، هى الطبيعة الإنسانية للجميع ،" **اليوم قد يصبح الأمر جد خطير بالنسبة لى ، لو أن (با) ئى لم يعد يتحدث إلى ، ولأصبح الأمر خطيرا وبعيدا عن كل مبالغة ، فسيكون الأمر أشبه بالهجران ، ولكن (با) ئى لن يرحل وسوف يقف إلى جانبى فى مثل هذه الظروف ... انظر إذا تركنى (با) ئى وإذا لم أعد أسمعه فقد يجرنى ذلك إلى الموت** " .

هذا الانجاز الشعورى الرائع الذى توصل إليه شاعر "' اليائس " يجيب

عن أسبابه شاعر آخر فى قصيدة " الضارب على العود "

" تذهب الأجيال من الناس وتبقى أخرى
منذ عهد الذين كانوا قبلنا
والآلهة الذين وجدوا فى غابر الزمان
والذين يرقدون فى أهرامهم
وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا ودفنوا فى أهرامهم
وأولئك الذين بنو مزارات لقبورهم
فإن أماكنهم أصبحت كأن لم تكن
تأمل ماذا جرى فيها ؟
لقد سمعت أحاديث " أمحتب " و " حردادف "
وهى كلمات لها شهرة عظيمة مثل أقوالهم
تأمل مساكنهم هنالك
فإن جدرانها قد هدمت
وأماكنهم قد أصبحت لا وجود لها
كأنها لم تكن قد وجدت قط
ولم يأت أحد من هنالك
ليحدثنا كيف حالهم
وليخبرنا عن حظوظهم
لتطمئن قلوبنا
إلى أن نرحل نحن أيضا
إلى المكان الذى رحلوا إليه (٥٠)

لقد شاهد الشاعر هنا بدوره ما سبق لشاعر (اليائس) التوصل إليه، وما رصده إيبوور من قبل ، تهاوت أمام أعينهم جميعا الأهرامات الشامخة ومقابر الأجداد ، وانهارت مع انقاضها العقائد القديمة ، التى استندت إلى عظمتها عظمة الملوك الآلهة ، المختلفين عن كافة البشر ، وعبثا ما حاوله " امحتب " أول مهندس أقام المبانى بالأحجار ، مهندس

العمارة للملك زوسر ، الذى شيد هرم سقارة المدرج ، ليضمن الخلود لمليكه ، فها هو هرمه قد أصبح خرابا ، وطللا من الأطلال ، فأى خلود تقصده امحتب ، أو " حرردادف " الحكيم ابن الملك خوفو الذى ارتفع بهامته عاليا علو الهرم الأكبر الذى بناه الملك سامقا مرتفعا فى السماء (٥١) ، إن كل من امحتب وحرردادف قد أكدا على بطلان العوامل المادية كوسيلة للخلود والبقاء ، فى الوقت الذى حاولا فيه ذلك بمبانيهم الحجرية الصلدة، والتى هزأ منها الزمن ، أنكرها التاريخ ، تضعنا القصيدة فى نطاق معرفة جديدة ترفض العقائد القديمة ، وتنتقدها ، فى تمييزها بين الأقوياء والضعفاء ، بين الحكام والمحكومين ، بين الذين يملكون كل شىء وبين الذين لا يملكون أى شئ ، فالثروة والسلطة لن تعطى حق الحياة لمن يمتلكها وحده دون الآخرين ، ولم يأت أحد من العالم الآخر ليخبرنا عن حظوظهم هنالك ، والشاعر على يقين من أن هؤلاء العظماء لن يجدوا فى الآخرة - أيضا - ما يجعل منهم آلهة مختلفين عن سائر البشر ، فإلى المكان الذى رحلوا إليه ، سنرحل نحن أيضا ، ويضيف شاعر (اليائس) إلى هذه المعرفة ، يقينا متمما ، فالذى سيصبح إلها حيا بحق هو الانسان الذى لم يقترف جرما أو شرا ، هو الانسان الخير ، الصالح ، مؤكدا حقه فى الأبدية كوجود حى مؤله يشارك فى رحلة رع التى كانت حكرا للملوك ، مرتقيا بمستوى الإنسان العادى إلى ذلك المصاف الرفيع :

" نعم فى الحقيقة إن الذى يوجد هنا .. سيصبح إلها حيا
موقعا العقاب على من يقترفه
نعم فى الحقيقة .. إن الذى يوجد هنا سيأخذ مكانه فى قارب الشمس
موزعا الأشياء المختارة فى المعابد
نعم فى الحقيقة إن الذى يوجد هنا سيصبح رجلا عالما
ولن يرد عندما يتضرع بخطبه إلى " رع " (٥٢)

أغنية اليائس إذن هى أغنية للحياة ، ففكرة الموت لاتحمل أى مفهوم عبثى ، يؤكد على الانسحاب من الوجود ، وفكرة الانتحار لا تؤكد إلا على

حق الإنسـان فى المسـاواة، وعلى رفض أى نوع آخـر لحيـاة لاتوفـر هذا الحق ، وكل التـفسـيرات التى أكدت على روح التشـاؤم ، واستندت على قراءة هذه القصيدة اعتمدت على قراءة تصف التجربة الشعرية متغافلة عن نصفها الآخر. إن تناول التجربة الشعرية كوحدة فنية لا تتجزأ ينتهى إلى نتائج مختلفة، ويؤكد على التفاعل الايجابى مع الحياة ورفض اليأس ، هذا الفهم سنلاحظه عند شاعر " اليائس " الذى يتقبل فكرة الموت كشفاء من المرض ، إنه رفض التناقضـات التى تجـعل من الدنيـا مكانا لقـهـر الانسان ، القهر المتمثل فى ظواهر مختلفة ، وفدت إلى الواقع مع الأحداث المستـجدة على المجتمع ، لتحـرم الشـخص الانسـانى من كل احسـاس بالطمأنينة والشعور بالاستقرار والأمن ، أليست هى نفسها الظواهر التى رصدها إيبور العجوز من قبل ؟ مدللا على ما وصل إليه المجتمع من تفسخ وانهيار ، محذرا من الآثار المدمرة لتلك الظواهر ، ومطالبا فى نفس الوقت بمواجهتها :

" لمن عساى أتكلم اليوم ؟

الأشقاء (أنفسهم) أشرار

وأصدقاء اليوم لايحبون البتة

لمن عساى اتكلم اليوم ؟

القلوب جشعة

وكل واحد يستولى على ما يملكه الغير

لمن عساى أتكلم اليوم ؟

الوداعة ماتت

وعادت السطوة للجميع

لمن عساى أتكلم اليوم ؟

الناس يرضيهم الشر

والخير ألقى به على الأرض فى كل مكان

لمن عساى أتكلم اليوم ؟

فالانسان الذى كان يثير الغضب بسبب افعاله السيئة
يضحك الآن الجميع عندما تكون جريمته شنعاء
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
الناس ينهبون
وكل انسان يسلب الغير
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
فالمجرم شخص يحبه الناس
ولكن الأخ الذى كان يعمل بالمشاركة معى ما أصبح عدوا
لمن عساى اتكلم اليوم ؟
لا أحد يذكر البارحة
ولا أحد يساعد ذلك الذى كان يساعد فيما مضى
لمن عساى أتكلم اليوم
الوجوه محجوبة
وكل شخص يخفض نظره إلى الأرض ، ضد أشقائه
لمن عساى اتكلم اليوم ؟
الرغبات جشعة
ولم يعد يوجد قلب انسان يمكن الركون إليه
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
لم يعد للأبرار وجود
والبلاد تحت رحمة مرتكبى المنكر (الأشرار)
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
إننا محرومون من الصديق
ونلجأ إلى الغريب لنطلق العنان لشكوانا بجواره
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
لم يعد للرجل المسالم وجود
وذلك الذى كنا نسير فى صحبته ، لا وجود له

لمن عساى أتكلم اليوم ؟
البؤس يرهقنى
وقد أحتاج إلى صديق
لمن عساى أتكلم اليوم ؟
لقد ضرب الشر البلاد
ولا نهاية له (٥٣)

لم يعزف الشعراء على أوتار الفوضى ، نغمات التشاؤم ، ولم يعرف التخاذل طريقه إلى قلوبهم خلال تلك الفترة ، كما يبدو ظاهريا للوهلة الأولى ، ولقد أثارت فكرة الموت فى قلوبهم بصفة دائمة الرغبة فى الحياة ، لقد عرفت الطبقة الوسطى التى ينتمون إليها كيف تغزل من خيوط دمائها المهدرة نسيج المقاومة والتحدى ، كان اكتشافها لمفهوم الإنسان بداية لرحلة جديدة من التاريخ ، وقد انعكس موقفها على توجهات الأدب ، وأتت فكرة الموت عند الشعراء مقرونة اقترانا شديدا بإعلاء فكرة الحياة ، ولم يسمح الاقتران الشديد بين الفكرتين بأى مسافة شاغرة لنمو الأفكار السلبية ، أو لتطفل وجدانيات العبث ، أو المشاعر العدمية ، ففى قصيدة الضارب على العود ينتقل الشاعر مباشرة من تناول فكرة الموت إلى تناول حقيقة الحياة بسهولة شديدة ، تقتصر على جملة واحدة " شجع فؤادك على أن ينسى ذلك " ، لينتقل بعدها إلى الدعوة للاستمتاع بمباهج الحياة

لتسر باتباع رغبتك
وأنت على قيد الحياة
وضع العطور على رأسك
وارتد ملابس من الكتان الرقيق
وضمخها بالعطور العجيبة
وهى أشياء الإله الأصيلة
وزد كثيرا فى مسراتك
ولا تجعل قلبك ييتئس

واتبع ما تشتهى وما يطيب لك
وهىء شئونك على الأرض
حسبما يمليه عليك قلبك (٥٤)

عندما يصل الأدب إلى مفهوم الإنسان ، يصل فى الآن - نفسه - إلى مفهوم الارادة الانسانية الفاعلة ، القادرة على التغيير ، والإنسان هو المسئول عن تحقيق جمال الوجود ، أن يجعل من الدنيا مكانا طيبا للعيش ، على الانسان أن يهئ شئونه على الأرض ، حسبما يراه مناسبا لتحقيق المساواة والعدالة ، ونقترب هنا من حس المسئولية الذى ميز رجالات هذا العصر ، ويصل شاعر آخر من شعراء ذلك الزمن إلى نفس النتيجة ، إلا أنه يدعو إلى ايجاد نوع من التوازن العادل ، بين الذات والآخرين : **"أشبع رغباتك كلها ... واعط الخبز لمن لا حقل له . وبذلك تنال اسما طيبا للمستقبل .. ويبقى إلى الأبد "** .

الأجيال من الناس تموت
منذ زمن الإله رع
ويحل مكانها أجيال أخرى
إن رع يشرق بنفسه فى الصباح المبكر
ويغرب آتوم ليستريح فى منو (جبل الغرب)
والرجال تلقح، والنساء يحملن
وكل أنف يستنشق الهواء
والإصباح يأتى ويلدن كثيرا
وهم المواليد يأتون فى الأماكن المخصصة لهم
احتفل باليوم المرح يا أيها الوالد المقدس
وضع أحسن العطور كلها عند أنفك
وتيجان البشنين على كتفيك، وحول نحرك
وأختك " حبيبتك " التى تسكن فى قلبك
تجلس إلى جانبك

وضع الغناء والموسيقى حولك
واترك خلف ظهرك كل شيء كريه
ولا تذكر إلا ما يبهج نفسك
إلى أن يأتى يوم الوصول إلى البر
فى الأرض التى تحب الصمت
لقد سمعت كل ما حدث
لأولئك (العظماء)
فبيوتهم قد نهبت
ومكانها لا أثر له
فكأنها لم تكن بالأمس قط
منذ زمن الإله
......
اتريد أن تغرس لنفسك شجرا محبوبا
على شاطئ بركتك
لتجلس روحك تحته
ولتشرب من مائها ؟
اشبع رغباتك كلها
واعط الخبز لمن لا حقل له
وبذلك تنال اسما طيبا
للمستقبل ... ويبقى إلى الأبد " (٥٥)

تبدأ القصيدة بحقيقة الموت المرتبطة بزمن الإله رع ، وتنتهى بفكرة الموت التى تعطى الخبز لمن لا يملك حقلا ، فى العقائد القديمة كان الموت مدخلا للخلود فى العالم الآخر ، أما فى الفكر المستجد فقد أصبح الموت مدخلا للعدالة فى هذه الحياة ، والمسألة على هذا النحو هى رفض للعقيدة الشمسية، أو للعقائد القديمة بصفة عامة كما سبق القول ، والرفض للقديم بحث عن نظرة أخرى للعالم ، عقيدة أخرى للبناء ، تبدأ من حافة

الموت، لا عن نظرة تشاؤمية ، أو مجرد تشكيك فى الدين القديم والأفكار والثقافة الموروثة ، ولكن عن إيمان بالمستقبل ، وما يجب أن يكون عليه ، ليس هناك مجال للشك ، فالإله ر ع (نفسه) يغرب ويشرق ، يموت ويحيا ، والرجال الذين يموتون دائبون على (فعل) تلقيح النساء ، والنساء بدورهن دائبات على (فعل) الولادة ، يلدن كثيرا ، الفعل الإنسانى مسئول عن هذه الحياة وعن استمرارها ، على هذه الأرض يعيش الإنسان ويموت ، على ثراها يخط أثره، ويكتب تاريخه ، والكفاح المشروع الواجب عليه القيام به هو كفاح من أجل الآخرين ، من أجل التوصل إلى توازن عادل بين الذات والآخر ، إن الشاعر فى (حوار اليائس) لم ينكفئ على نفسه، ولم يطلب جنته الخاصة ، إنه يؤكد على ذاته حقا ، إلا أن همومه الشخصية هى هموم الواقع المؤسف الذى يدور حوله، لا يختلف فى ذلك عن الشعراء الآخرين ، وهو عندما يواجه نفسه عندما تراودها فكرة الانتحار كخلاص فردى ، ما أسرعه فى إدانة ذاته، التى فضلت الانعزال **" انظر إن اسمى معقوت أكثر من رائحة الجيفة فى يوم صيف، والسماء محرقة ... أكثر من رائحة أكمة بوص مغطاة بصيد الماء .. أكثر من رائحة التماسيح ..... انظر إن اسمى معقوت أكثر من اسم احدى مدن الملك التى تعلن تمردها عندما يدير ظهره "**، إن مثقف هذه المرحلة - فى إطار رؤية شاعر (حوار اليائس)- يسعى إلى نظام كلى يعيد ترتيب كافة العلاقات بالعالم ، ويرفض فى نفس الوقت فكرة التمرد الفردى ، أو أى حلول فردية أو خلاص ذاتى محدود القيمة ، وبنمو هذا الشعور بالمسئولية الخلقية يبدأ فى التخلق عصر جديد ، ويبدأ البحث عن نظريات أخرى غير تلك العقائد القديمة التى سببت كل هذا الانهيار والدمار .

إن الرجال الذين عاشوا فى العهد الاقطاعى كما يرى برستيد فى " فجر الضمير " كانوا يشعرون شعورا تاما بأنهم يفكرون على نمط جديد ، فقد اقلعوا عن التلطف التقليدى الذى كانت تتميز به حكمة آبائهم ، ويستشهد برستيد بأحد هؤلاء الرجال : الكاهن **" خع خبر رع سنب "** ،

فهو ككل رجالات هذا العصر يدفعه حس المسئولية للبحث عن نظرية جديدة ، للعدالة الاجتماعية ، نظرية جديدة لم يعلمها أحد من قبل ، ولم يتوصل إليها الآباء والأجداد : **" ليتنى كنت أعرف صيغا للكلام لا يعلمها أحد ، وأمثالا غير معروفة ، أو حتى أحاديث جديدة لم تذكر (من قبل) خالية من التكرار ، لا ذلك الكلام الذى جرت به الألسن منذ زمن بعيد مضى ، وهو ما تكلم به الأجداد ... "** فالكاهن " خع خبر رع سنب " ككل المثقفين رفض العقائد القديمة ، مهموما بمشاكله ، ولكن همومه هى كما يرى برستيد تماما ، ليست بالهموم الشخصية ، وشقاؤه وبؤسه الشخصى ، لم يكن هو العبء النفسى الذى يؤلمه ، بل كان كل همه منصرفا إلى هموم المجتمع ، كأى ناقد اجتماعى من عصرنا : **" إن العدالة قد نبذت، وأخذ الظلم مكانه فى وسط قاعة المجلس ، وخطط آلهة قد انتهكت حرمتها، وأهملت نظمها ، والبلاد صارت فى هم ، والحزن عم كل مكان ، وصارت المدن والأقاليم فى عويل ، وكل الناس صاروا على السواء يرزحون تحت عبء الظلم .... عندما أريد أن أتحدث تنوء أعضاء جسمى بحمله ، وإنى فى بؤس من أجل قلبى المحزون ... إن المصائب تقع اليوم ومصائب الغد لم تأت بعد ، وكل الناس لاهون عن ذلك ، مع إن كل البلاد فى اضطراب عظيم ، .... الرجل الفقير ليس له حول ولا قوة لينجو ممن هو أشد منه بأسا ، وإنه لمؤلم أن يستمر الإنسان ساكتا على الأشياء التى سمعها "**. لقد عرف الكاهن نفس الألم الذى استشعره إيبوور أيضا ، إلا أن الكاهن يشكو من عدم قدرته على الكلام ، أما إيبو العجوز فقد لام نفسه من نفس موقع الاحساس بالمسئولية الخلقية والاجتماعية ، على سكوته ، وعلى ايثاره الصمت فى الوقت الذى كان يجب عليه أن يواجه الموقف **" ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت حتى كنت أنقذ نفسى من الألم الذى أنا فيه الآن. "فالويل لى لأن البؤس عم فى هذا الزمان "** .

التوصل إلى مفهوم الانسان والتأكيد على فاعلية الارادة ونمو الاحساس بالمسئولية الخلقية والاجتماعية وبحث المثقفين تحت إلحاح كل

هذه العوامل عن نظريات جديدة تحقق التوازن الاجتماعى العادل ، هى بكل تأكيد أساسيات استمرار الثورة على مدى هذه الاحقاب الطويلة الملتهبة بيقظة الوعى ، إلى أن حققت ما تصبو إليه من أهداف فى نهاية مطاف المسيرة الثورية ، بظهور ابن الانسان ذلك الملك الذى بشر بمجيئه متنبى آخر فى زمن لاحق من أزمنة المستقبل .

ابن الإنسان - بشارة نفر تى

نشط الفكر السياسى مدفوعا بعواصف الاضطرابات الدامية التى زعزعت أسس المجتمع ، حمل المثقفون وأهل الرأى هموم الواقع، باحثين عن خلاص اجتماعى ، يعيد إلى البلاد استقرارها ، وعظمتها ، ومن المنطقى أن تتجه البادرة الأولى للتفكير فى الاصلاح إلى الرغبة فى عودة الأمور إلى ماكانت عليه ، قبل احتدام الأحداث ، أى إلى ما كان عليه نظام الحكم فى عهد سلطان إله الشمس ، إلى ذلك العصر الذهبى الذى بلغ أوج أمجاده ببناء الأهرامات ، واستمد فيه الملك شرعية حكمه من الإلة رع ، ومد فيه سلطانا قويا ضم كافة القوى الاجتماعية فى توازن مجيد ، فى هذه المرحلة ، تطلع ايبوور إلى المستقبل ، متوقعا إعادة إصلاح البلاد ، يرى الحاكم الأمثل فى صورة الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شرا ، الذى يجمع كالراعى الصالح شتات قطيعه المتناقض الظمآن ، " فهو يجلب البرودة إلى اللهيب (الحريق الاجتماعى) ويقال عنه إنه راعى الانسانية ، ولا يحمل فى قلبه شرا " ، وفى قدرة هذا الحاكم ، الإله ، أو ابن الإله أن يعيد الأوضاع إلى العصر - الحلم ، " إنه لأمر طيب بالتأكيد عندما تشيد أيادى الرجال الأهرامات وتحفر البحيرات وتعد بساتين الفواكه للآلهة ... إنه لأمر طيب بالتأكيد عندما تملأ صيحات الفرح جميع الأفواه ، بينما رؤساء الأقاليم يقفون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة ، وقد ارتدوا الكتان الرقيق (وأمسكوا أمامهم عصى القيادة ، بقلب أبى " ... إنه لأمر طيب بالتأكيد (أن تكون الأسرة وثيرة ، ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ) وعندما تكون حاجة كل

إنســان مكفـولة بكل بسـاطة ..إلا أن هـذه الرؤية تغـافلت عن المتـغـيـرات الجذرية التى لحقت بالمجـتـمع ، مما يجـعل من التـفكيـر فى العـودة إلى الماضى الذهبى ، نوعا من الأحلام مستحيلة الحدوث ، لقد حـاولت فلول الأسرة الملكية اسـتعادة هـذا الحلم الجمـيل ، وربما اسـتطاعـت سـلالـة منهـا تولى السلطة بـعد فـشل الثـورة فى إدارة دفـة الأمــور ، وتشـبـثت بالتمسك بأمجـاد الماضى إلى الدرجـة التى احتفظت فيها بأسمـاء الملوك السـابقين ، إلا أن هذه الفلول الجـريحـة لم تكن من القـوة بحـيث يمكنهـا الاحـتـفـاظ بعرش الأسرة الثـامنة قـصيـرة العـمر ، فـانهـارت أمـام قـوى الاقطاع العـفـيـة ، وانزوت سـريعـا فى طيات النسـيـان ، ومع هذا فـالحلم الذهبى ككل الأحـلام العظيمـة له من القوة والجاذبيـة مـا لا يمكن مقـاومة اغرائه بسهولة ، فنجد الأسرة التاسعة والعاشرة ، مع الاقرار باختلاف الرؤى والأفكار ، قد احتفظت بمنف كعاصمة ادارية على الرغم من انتقال الملك إلى إهناسيا، وربما كان هذا الوضع تيمنا بجاذبية الحلم وأمجـاد الدولة القـديمة ، وعـصـفت الثـورة عصـفـهـا الدامى بالقـوى الاجـتـمـاعيـة صعدت قوى ، وانهارت قوى ، تغيرت تضاريس الخريطة الاجتماعية، على انقاض النظام القديم ، ظفرت أرستقراطية الأقاليم بالثروة والسلطة ، علا شـأنهـا وتحكمت فى مسـار الدولة ، فدفعت البلاد إلى نظام الاقطاع ، إلا إنها لم تلبث أن دخلت فى صراعات رهيبة مضنية فيما بينها استمرت أمدا طويلا ، واشـتـعلت الحـروب الأهلية وتـأججت نيرانهـا ، لتتكبد البـلاد ويلات أخرى ، لا تقل ضـراوة عن الويلات التى مـازالت تعانيـهـا ، وتسـتمر هذه الاضطرابات أحقابا دامية أخرى، حتى بعد أن تمكن منتوحتب الثانى من إعلان نفسـه ملكا على الوجهين ، وفى حين صعدت الثورة بألد أعدائها إلى سـدنة الحكم ، اكـتـوت أرسـتـقـراطيـة البـلاط من كـبـار رجـال الدولة، والكهنة ، والموظفين بنيران الحريق الاجتماعى ، نكلت بها الثورة تنكيلا ، قتل من فتل ، نهب من نهب ، شـردت طريدة من وظائفـهـا ، مـحـرومـة من ثرواتهـا ، اغـتـصـبت عظمـتـهـا ، ونزعت من حـاضـرها ومسـتـقبلهـا ، وبعد

نفوذها الواسع باتساع الخريطة الجغرافية لوادى النيل بوجهيه القبلى والبحرى ، ما كانت تقنع بدائرة النفوذ الاقليمى المحدود ، ولا يرضى طموحها العتيد فى الثراء والسلطان ، ما تجود عليها به حدود الاقطاعيات وحكومات الأقاليم المحلية ، وربما شاركت بقواها المشتتة الطبقة الوسطى مصيرها التعس ، فى مبدأ الأمر، وربما وجد بعض افرادها أو المنتمين إليها دورا ما فى الحياة العامة فيما بعد ، أما الطبقة الوسطى فقد تحملت دون جريرة ويلات الانتفاضة الثورية وعنفها ، ودفعت من دمائها ثمن الاخطاء الفادحة للثورة ، التى لم تجد من يوجهها الوجهة الصحيحة ، وهى إذ فقدت مكتسباتها، فقد اندمجت بفعل الواقع المجحف بأقدارها ، بالطبقات الدنيا المطحونة طحنا ، هذا الاندماج الذى سيجعل منها منذ ذلك الحين ، طليعة الطبقات المحرومة المتطلعة للعدالة الاجتماعية ، وسوف تتحمل الطبقة الوسطى تاريخيا رايات المسئولية الاجتماعية ، متولية بحذق ومهارة إدارة الصراع الاجتماعى ، وتغذية شعلة الثورة بالوقود ، حتى لاتطفئها الرياح الباردة عبر السنوات الكثيرة الممتدة والمحتدمة بالنوائب والنكبات .

فى النظام الاقطاعى كان الملك قبل كل شىء كاهنا أعظم ، وعلى الرغم من أن سلطانه فى جوهره سلطان إلهى ، فلم يكن كملوك الدولة القديمة إلها عظيما أو ابنا للإله رع أو أى إله آخر ، أما عظماء الدولة "ورو" فهم أمراء الاقطاع ، وهم رؤساء العشائر ، والقبائل على نحو التقريب ، ويلقبون بلقب " نب " السيد ، مثلهم مثل الملك نفسه ، ويتعاقبون على حكومة مقاطعتهم حسب قواعد الوراثة الملكية ، وتتركز فى يدهم فى حقيقة الحال السلطة الملكية ، وهم إذا كانوا مدينين للملك بالخدمة العسكرية ، إلا أن لهم جيوشهم الخاصة التى يقودونها بأنفسهم . ولقد ساد هذا النظام حيث السلطان لأمراء الإقطاع فى مصر الوسطى، والوجه القبلى ، أما بالنسبة للدلتا فيرجح د. سليم حسن فى موسوعته أنها على خلاف مصر الوسطى المقسمة بين أمراء الاقطاعيات العظماء ،

فتتألف من مراكز " سبت " لكل مركز مدينة تعد حاضرة له ، هى بالنسبة للملك بمثابة الاقطاعية التابعة له مباشرة ،" لا لأى أمير من أمراء الاقطاع ، وتتمتع المدن بحكم ذاتى ، يدير شئونها حكام منتخبون " عشرة الرجال " يمدون سيطرتهم على الأراضى المنبسطة حول المدن ، وتمثل التجارة فى المدينة مصدر الثروة ، حيث تلتقى القوافل البرية والسفن النيلية ، فالتجارة هى النشاط الرئيسى للسكان ، وهم مواطنون أحرار ينتمون إلى الطبقة الوسطى ، لا يعتبرون من الأشراف ، وتعبر عنهم النصوص بكلمة " نزى " ، وهى تعنى بالمصرية القديمة صغيرا أو متواضعا، وقد ترجمها جاردنر أحيانا بكلمة " مواطن " ، ومعنى الكلمة بتحرى الدقة من لاينتمى إلى الأشراف ، أما المزارعون فى هذه الأنحاء ، فيتمتعون بالميزة الأساسية لبلدان الدلتا المستقلة ، فالقمح ينتجه الزراع ، ومحصوله ملك لمن يزرعه.(٥٧) فلم تعرف المدن نظام التملية أو الاتباع .

أهل المدن هذه ، الأحرار ، والذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة هم فى رأى سليم حسن ، مصدر الشغب الدائم ، ينقسمون إلى شيع سياسية نشطة ، تمثل مصدر الثورة ، والتهديد المستمر للنظام الملكى ، للملك عليهم حقا نفوذ تشريعى إلا أنه اقطاعى الصبغة ، ولم يتردد الملوك لحظة فى العمل على اخضاعهم بارسال الحملات التأديبية ، لإخماد ثوراتهم ، أو استخدام النيل لقمع التمرد ، بحجز مياه النيل عن المدينة التى تثور أو تحويله عنها ، فيعطل تجارتها ويوقف رى الأراضى حولها ، ويدمر مصالحها مما يجبرها دائما على الرضوخ لمشيئته والخضوع لسلطانه .

فى عصر المشكلات الكبرى ، امتلكت الطبقة المتوسطة الثروة الحقيقية التى لاغنى عنها، تلك الثروة الى أكدت على أهميتها الظروف التاريخية ، ألا وهى الثقافة والمعرفة الواسعة ويقظة الوعى ، وخلال بضع سنوات قليلة بدأت الطبقة الوسطى فى الصعود ، وبدأ دورها فى التبلور والبروز ، ونلمس أهمية الثقافة بالنسبة للمجتمع فى تعاليم الملك خيتى الثالث إلى ابنه " مرى - كا - رع " وهى الوثيقة ، التى تعد من أهم الوثائق

السياسية التى وصلتنا من هذه الفترة ، كما سبق القول ، فلم يكن خافيا على خيتى الثالث فى وصاياه لولى عهده ، ما تمثله الثقافة من قوة ضرورية للسلطة الحاكمة ،" **كن صانعا ماهرا للكلام ولتكون قويا وقدرة الانسان فى لسانه والكلمات أقوى من أى قتال .. إنه لايمكن مباغتة رجل ذكى الفؤاد ,,, إن الانسان الحكيم مدرسة للعظماء. الذين يعرفون علمه لايهاجمونه** " ، وبقدر ما كان الملك الاقطاعى مدركا لأهمية الثقافة وتأثيرها ، بقدر ما كان واعيا بمصالحه ، والخطر الذى يتهدده ومما يمثله الرأى الآخر ، والفكر المتحرر ، متنبها للتأثير الثقافى وخطورة الوعى ، كعامل من عوامل الثورة التى لم تهدأ ، وهو يوصى ولى عهده بعدم التباطؤ فى مواجهة المعارضة بحسم وسرعة " **إذا التقيت برجل كان أنصاره كثيرين، إذا ما تجمعوا وكان محببا فى أعين رجاله .. رجل هو خطيب مسهب فاطرده واقض عليه وامح اسمه .. ازل ذكراه وذكرى أنصاره أيضا .. إن رجلا عنيف القلب هو أيضا مصدر قلاقل بين المواطنين .. إنه يثير الفرقة بين الشباب .. وإذا لاحظت أن المواطنين يخضعون لتأثيره .. فحقر من شأنه فى حضرة رجال البلاط، واطرده، إنه عدو أيضا، والثرثار هو أيضا مثير للفتن فى المدينة، اخضع الجموع وادرأ عنها الاثارات** "

وكما لم يكن خافيا على الملك الاقطاعى أهمية الدور الذى يلعبه المثقفون ، لم يكن خافيا عليه أهمية الدور الذى من الممكن أن تلعبه الطبقة الوسطى ، إذا اعتمد عليها لتحقيق نوع من توازن القوى بينه – كسلطة ملكية – وبين الارستقراطية الاقطاعية التى ينتمى إليها ، والحقيقة أن الملك خيتى الثالث لم يغب عن ذهنه أن التناقض بينه وبين امراء الاقطاع ليس بالتناقض الرئيسى ، مهما مثل من تهديد وخطورة ، وهو يعترف اعترافا صريحا بقوة الأسر العظيمة ، ويوصى باتباع سياسة المهادنة والتعاون معها " **لاتوقع ضررا بالعظماء وهم يمارسون وظائفهم .... وقر عظماءك ليطبقوا قوانينك . الانسان الثرى فى داره لن يكون منحازا؛ لأنه**

يمتلك الخيرات وليس له احتياجات . عظيم هو العظيم الذى يكون عظماؤه عظماء . قدير هو الملك صاحب الحاشية الملكية . ورفيع الشأن هو الانسان الغنى بعظمائه " . وفى الوقت الذى حافظ الملك فيه على البنية السياسية لنظام الحكم الاقطاعى ، فطن لأهمية العمل على استعادة التوازن المفقود بينه وبين سلطات أمراء الاقطاع المتنامية ، بالاعتماد على الطبقة الوسطى والسماح لها بالبروز على المسرح السياسى . كقوة اجتماعية سياسية على جانب كبير من الأهمية ، يمكن استخدامها ضد رجال الاقطاع القدامى ، بإفساح الطريق أمامها للمناصب الهامة ،" **إن أهل مدنك يضمون العديد من البراعم الشابة فى العشرين من عمرهم، وهؤلاء الشباب سعداء؛ لأنهم يتصرفون حسب رغبتهم ... جنِّد الفرق الشابة التى ستكون تابعة لك حتى يحبك المقر الملكى . وأكثر من أنصارك بين المجندين .. حال تتويجى توليت أنا شخصيا تجنيد فرق من صفوفهم .... أكثر من الشباب المنتمين لحاشيتك، وخصص لهم الخيرات، ووفر لهم الحقول . وكافئهم بهبات من القطعان .. لا تفضل ابن إنسان ثرى على ابن انسان فقير . قرِّب منك الرجل حسب أفعاله "** (٥٨) .(بعض الترجمات استخدمت مصطلح الطبقة الجديدة بدلا من مصطلح الشباب) وهذه السياسة التى يرسمها خيتى الثالث مشروطة بشرطين **الأول** :

أن التوجهات الأساسية للنظام محفوظة لعظماء الدولة أمراء الاقطاع، فلهم الأولوية الأولى على كل من عداهم " **أعط أهمية لعظمائك .. (ضعهم) فى المقدمة "**

والثانى : أن هذه السياسة الخاصة بالطبقة الجديدة تسرى على الجميع فيما عدا المتمردين والثوار " لا تقض على من هو غير ذى فائدة لك .. فيما عدا المتمرد الذى تنكشف مخططاته، لأن الله يعرف الإنسان صاحب القلب الخسيس، والله يعاقب بالدم العمل السيئ " .

حاول خيتى الثالث فى إطار هذه الاستراتيجية المحافظة أولا: على العلاقات السلمية بينه وبين الجنوب ، الوجه القبلى المستقل **" لا تكن**

علاقاتك سيئة مع الجنوب أنت تعرف ما أعلنه المقر الملكى فى هذا الصدد .... فلتسر الأمور على ما يرام مع الجنوب من أجلك حتى يأتى إليك حاملو الجزية محملين بالعطايا "، وثانيا : العناية بالحدود المصرية من جهة آسيا " أنا أنهض سيدا على المدينة، ولكنى جريح القلب بسبب الوجه البحرى ..... لقد أعدت السلام إلى كل ربوع الغرب ... أما الشرق فهو يغص بالقبائل الأجنبية .. والجزر الداخلية (القسم الأوسط من الدلتا) تتجه إلى ... انظر البلد الذى اعملوا فيه السلب والنهب أصبح الآن منظما فى أقاليم، ومختلف أنواع المدن الكبيرة ....

" إلا أن هذه السياسة الحكيمة لملك الأسرة العاشرة العجوز الفطن ، لم تلبث أن انهارت ، تحت أقدام جنود حكام طيبة فى عهد خلفائه الأقربين وسقطت دولته ، فى نهاية المطاف أمام غرمائه أمراء الأسرة الحادية عشرة ، بعد ثمانين سنة تقريبا من الصراع بين الأسرتين ، ويعلن منتوحتب الثانى نفسه ملكا على الوجهين القبلى والبحرى .

وكما فشلت سياسة الملك العجوز مع أمراء الاقطاع ، لم تصل هذه السياسة أيضا إلى تهدئة الأوضاع ، فاستمرت الثورات المسلحة تمزق شمل البلاد ، حينا بعد حين ، فنشبت ثورات مسلحة فى الفنتين، وادفو، والكاب ومقاطعة الأرنب وغيرها ، فالحقيقة أن عوامل الثورة ظلت قائمة ومحتدمة ، والأزمة الاقتصادية تفتك بالجميع ، يزيد من حدتها كارثة الجفاف الطويلة ، وتكشف السيرة الذاتية للأمير عنخ تفى عما وصلت إليه الأوضاع من تردى ، وهو يصف بشاعة المجاعة كما شاهدها فى الوجه القبلى " **الأمير، والحاكم، وخازن الملك للوجه البحرى، والصديق الأوحد، والكاهن المرتل، وقائد الجيش، ورئيس المترجمين، وحاكم المناطق الجبلية، والرئيس الأكبر لأقليمى ادفو وهيراكونبوليس يقول عنخ تفى ... وجدت ضيعة (خوو) ادفو وقد غمرتها المياه، وتحولت إلى ما يشبه مزرعة أسماك** من جراء اهمال المسئول عنها ...، وما أصابها من خراب بسبب تصرفات الملعون، ونشرت الأمن فى ربوع ادفو فتصالح القاتل على

ابن ضحيته أو شقيقه .... وكان الصعيد بأكمله يتضور جوعا .. ووصل الأمر بكل منهم أن اضطر إلى أكل أطفاله " (٥٩)، بصعود الأسرة الحادية عشرة على عرش البلاد فى عهد منتوحتب الثانى، لم تخف درجة التناقضات الثانوية بين السلطة الملكية والأسر الاقطاعية كما هو متوقع، وزادت حدة التناقضات بين الارستقراطية والطبقة الوسطى الفتية ، التى أصبحت تمتلك إلى جانب أرصدتها الثقافية أرصدة اجتماعية أخرى تضاعف من قوتها ، وقدرتها على التأثير، تتمثل فيما وصلت إليه من وظائف هامة ، وماتهيأ لها من فرص مادية مختلفة . فهل كان هذا دافعا لأن تتطلع إلى الاستيلاء على السلطة؟ ، وأن ترى فى نفسها القوة الاجتماعية القادرة على تحقيق الاصلاح ، فى ظل الظروف المتدهورة التى تمر بها البلاد سياسيا واقتصاديا ؟ ، والحق أنه يمكن التأكيد على هذه النتيجة فى ضوء ماسوف يحدث فى المستقبل من اعتلاء امنمحات الأول العرش ، مؤسسا الأسرة الثانية عشرة ، وقد توصل برستيد فى فجر الضمير ، إلى أن تدهور البلاد الادارى الذى أدى إلى وقوع تلك النكبة الاجتماعية ، قد جعل بعض المتفائلين يعتقدون أن قيام حكومة أحسن حالا خليق بأن يعبد النظام المندثر ، ويعلن عن قدوم يوم أكثر اشراقا ، بل إلى انبثاق فجر عصر ذهبى جديد، ذلك العصر الجديد الذى رأى المفكرون الاجتماعيون عن اقتناع امكان الدخول إليه على أساس جيل من الموظفين الأمناء العدول، وقد رأى هؤلاء المفكرون ضرورة التمسك بالمبادئ العملية السليمة للحياة الحقة، التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية للطبقة الوسطى من الموظفين، لتحقيق ما يؤمنون به من مبادئ سيادة الحق الخالد والعدالة (ماعت) القديمة، التى يجب إعادة سيطرتها على الحياة المصرية، وقد عبرت عن هذا الاتجاه فى رأى برستيد " قصة الفلاح الفصيح " .

تأتى قصة الفلاح الفصيح - والرأى لبرستيد أيضا - بعد النتيجة التى توصل إليها الكاهن " خع - خبرو - رع - سنب" واضعا يده على

المشكل الاجتماعى الأساسى " **صار الرجل الفقير لاقوة له تحميه ممن هو أقوى منه** " ، وقد بحث خيتى الثالث عن حل لهذا المشكل ، ورأى ببساطة ضرورة ايجاد القوة اللازمة الكفيلة بتحقيق العدل الاجتماعى ، وقد تمثلت فى رأيه فى موظفى الجهاز الحكومى ، بشروط أوصى بها ولى عهده ، بأن يجعل " **لكل موظف مرتبا وفيرا لأن الموظف الذى يقول ليت لى ليس عادلا ، بل يظهر التحيز إلى جانب الفرد الذى بيده الهدية (الرشوة)** " وقد اكتشف الفلاح الفصيح عدم جدوى هذه الوصايا ، فالوظيفة ذات المرتب الضخم لاتغرس فى نفس صاحبها العدالة (٦٠) ، فى أى نظام لايحقق التوازن المناسب بين القوى الاجتماعية ،" **لقد طفح الكيل وكل ما يسقط منه خسارة على الوطن ، إن كبار الموظفين لصوص ، وقطاع طريق، ذلك رغم أنهم ولوا مناصبهم ليدفعوا السوء ، ولكن ها هم مأوى للعدوان ، رغم أنهم ولوا مناصبهم ليدفعوا البغى ، ولكنى لا استجيرك خوفا منك ، إنك تعرف قلبى ، إنه قلب رجل صريح يتوجه إليك باللوم .. ولا يخاف قلبى من يلوم إن استجار به ، ولن يؤتى لك بنظير له من الطريق العام " انك تملك أرضا فى القرى، ولك أملاك وبيوت ، ولك زاد فى مخازن الزاد ، ويعطيك كبار الموظفين فتأخذ ، أفلا يجوز أن تكون لصا؟"** وينتهى الفلاح الفصيح فى شكواه الثامنة إلى رؤية مغايرة تماما لكل الآراء السابقة عليه " **إذا مالت الموازين فلا سبيل إلى أن تزن شيئا وزنا صحيحا** " (٦١) ، فما بنى على الخطأ هو خطأ ، إن قصة الفلاح الفصيح إذا وصلنا بنتائج برستيد إلى نهايتها، تعد ارهاصا فكريا ذا طبيعة ثورية يؤكد على ضرورة قيام نظام جديد، يحقق التوازن المفقود بين القوى الاجتماعية المختلفة .

لم يمنع تاج الوجهين الذى ارتداه منتوحتب الثانى القلاقل الاجتماعية، استمرت الحروب والنزاعات الداخلية وأحداث التمرد والثورة فى عصر خليفته " سمنخ كا - رع " منتوحتب الثالث ، الذى كان يأمل أن يتولى العرش بعده بكر أولاده " سنوسرت " إلا أنه اختفى من مسرح التاريخ

قبل أن يلبس تاج البلاد فى رأى ، وفى رأى آخر بعد عامين من توليه الحكم ، وعمت الفوضى والاضطرابات البلاد على مدى سبع أو خمس سنوات دموية ، ليعتلى الحكم " نب - تاوى - رع " لفترة لاتتجاوز العامين، ومن الجائز أنه لم يكن صاحب الحق الشرعى فى العرش ، وإن كان قد قبض على صولجان الحكم فعلا ، قبل أن يئول إلى امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (٦٢)

كان امنمحات ، كما يؤكد د. أحمد فخرى فى " مصر الفرعونية " - رجلا عصاميا من الشعب ، دفعه ذكاؤه وجده وحسن إدراكه للأمور إلى المكان الذى يستحقه ، كما أنه فى رأى برستيد فى " فجر الضمير " ، كان حقا من كبار الاداريين فى العالم القديم ، وقد استطاع بما وهبه الله من فطنة عظيمة أن يعيد بلا نزاع ذلك النظام القديم بقدر ما سمحت به الأحوال ، وعند نيقولا جريمال فى " تاريخ مصر القديمة " فإن امنمحات لم يكن من أبناء طيبة وإن كان صعيديا فى الأصل ، وهو ابن كاهن يدعى "سن اوسرت " الذى يعنى رجل الآلهة العظمى ، أنجبه من امرأة تدعى "نفروت " من الفنتين ، ومهما كان رأى المحدثين فيه ، فإن أبلغ وصف نعت به ، هو وصف الكاهن نفرتى (نفررروهو) له ، بأنه ابن إنسان سيجعل اسمه باقيا إلى أبد الآبدين ، امنمحات إذن هو ابن الإنسان ، ليس إلها عظيما كملوك الأسرة الرابعة ، وليس إلها طيبا كالملوك الذين أعقبوهم ، وعلى هذه الصفة وحدها يتكئ لاثبات حقه الشرعى فى تولى زمام الأمور. معتمدا على الأدب وصولا لتحقيق أغراضه ، ومن هنا جاءت أهمية نبوءة نفرتى، من حكماء هوليوبوليس وكهنتها .

تبشر نبوءة نفر تى بمجىء المخلص المنتظر " أمينى " وهو اسم التصغير الشائع لامنمحات ، ليخلص البلاد مما ألم بها من نوائب ومصائب ومشكلات ، فى محاولة لاستمالة أبناء الشعب مثقفين وغير مثقفين (٦٣)، واكتساب رضائهم عنه ، وقبولهم لحكمه ، فلقد جرت التقاليد المصرية القديمة على ألا يتولى العرش إلا من تجرى فى عروقه

الدمـاء الملكيـة الخـالصـة الزرقـة بلون إلهـة السـمـاء (نوت) ، ولم يكن امنمحات بطبيعة الحال ينحدر من هذه السلالات الإلهية المقدسة كما سبق القول ، مما يعرضه لمصاعب جمة لا حصر لها فى الجلوس على العرش، فـاعـتـمـد على نفـر تى الحكيم ، وعلى النبـوءة كشكل أدبى فى التـمـهـيد لاعتلائه العرش، إذ لم يرضه الاعتماد على القوة وحدها لاثبات أحقيته فى الحكم ، وتدور نبوءة نفرتى كبناء قصصى فى زمن سنفرو ، وهو اختيار تم بعناية وفطنة للزمن الذى ستدور فيه الأحداث ، ويحقق أكثر من غيره الغرض المطلوب ، ليسبغ على كلماته قوة تأثير ، ومصداقية مؤكدة ، يستمدها مما للملك سنفرو من مكانة مكتسبة فى نفوس المصريين ، فلقد بات الانتساب إلى ذكر هذا الملك شرف لايدانيه أى شرف ، ومفخرة ليس بعدها مجال آخر لأى افتخار ، ومصدر اعتزاز ما بعده اعتزاز (٦٤) ، يرسم نفرتى فى نبوءته أولا لوحة قاتمة لأوضاع البلاد ، ليتنبأ فى نهايتها بمقدم المخلص : " **سـوف يـأتى من الجنوب ملك يدعى امـينى " صـادق القـول " وهو ابن امـرأة تنحـدر من الإقليم الأول من أقـاليم الجنوب ، وقـد ولدت فى الوجه القبلى ، وسوف يتسلم التاج الأبيض ويلبس التاج الأحمر ، وهكذا يوحـد القـوتين، ويرضى السـيدين " حـورس " و " ست " حـسب رغبتهما . سيكون محيط الحقول فى قبضته ، والمجداف فى (؟) وشعب مصر سيبتـهج فى عصـره ، وابن إنسان سيـحـقق سـمعه حتى الزمن اللانـهـائى وإلى أبد الآبدين ، والذين كـانوا يميلون للشـر والذين كـانوا يخططون للعـصـيـان ، انهـوا كـلامهم بسبب ما يثيـره فى نفـوسـهـم من رعـب، سوف يجهز على الأسيويين ويذبحهم ، والتيمحو " سوف يهزمهم لهيبه " والمتمردون سوف يذوقون غضبه ، والرجال من أصحاب القلوب الفـاسـدة سـيـذوقـون الرعب الذى ينشـره ، لأن الصل الذى على جـبـينه سيهدئ من أجله هؤلاء الأشرار ، وسوف تشيد " أسوار الأمير " له الحياة والصحة والقوة ، التى ستمنع الأسيويين من الوصول إلى مصر، ووفقا لأسلوبهم المعتاد سيطلبون الماء (لاغير) لترتوى ماشيتهم .**

هكذا ستعود الحقيقة - العدالة " إلى مكانها ، ويطرد الشر إلى الخارج ، وسيغتبط أولئك الذين سيشهدون ذلك ، الذين سيبقون فى صفوف حاشية الملك .

والرجل العلامة سيصب من أجلى الماء الطاهر ، عندما يقر بأن ما سبق وقلته قد تحقق " (٦٥) .

تحدد وثيقه نفر تى المهام التى سوف ينجزهاهذا الملك ابن الإنسان ، تحديدا بسيطا ومختصرا ، ففى مجال السياسة الخارجية سوف يعمل على تخليص البلاد من أعدائها ، من الأسيويين شرقا، ومن الليبيين غربا ، وسوف يعمل على تحصين دفاعات البلاد ، بتحديد بناء سور الحاكم لحماية الدلتا الشرقية وحراسة الطريق من آسيا إلى مصر ، ليمنع تهديد الأسيويين الدائم للحدود المصرية . وفى إطار السياسة الداخلية سوف يضمن للبلاد وحدتها ويوحد القوتين ، الوجهين القبلى والبحرى ، ويعيد الاستقرار والأمن إلى ربوع الوادى ، بالقضاء على عوامل إثارة الفتن والاضطراب ، وبتحقيق العدالة الاجتماعية ونبذ الظلم .

ترسم وثيقة نفرتى بحقائقها البسيطة والمباشرة ، معالم السياسة العامة التى سيتبعها هذا الملك ابن الإنسان القادم من الجنوب ، إنها رسالة إعلامية موجهة إلى مصريي الدلتا ، بصفة خاصة ، ولا يخفى نفر تى من البداية النطاق الذى يتوجه إليه بخطابه " **هاهو ينتحب على ما سيحل بالبلاد ، ويثير موضوع الأحوال فى المنطقة الشرقية عندما ينتصر الأسيويون بقوة السلاح ، وعندما ينشرون الرعب فى قلب الحصاد، وعندما يغتصبون دواب الفلاحة فى زمن الحرث** " .ولعل هذا التوجه الذى أثبته نفرتى فى صدر وثيقته ، يجيب على الأسئلة التى طرحها برستيد فى فجر الضمير : هل تعد وثيقة نفرتى مجرد نبوءة عن حادثة بعد وقوعها ؟ أو تعد إعلانا ناجحا عن بطل منتصر نجح نجاحا عظيما فى إصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائى وإصلاحه لكل مصر كان متوقعا حدوثه ؟ أو هل أرسل نفرتى من قبل أمنمحات مبعوثا إلى الدلتا والوجه

البحرى ليمهد لقدومه إليها ؟ أو هل كان نفرتى من أنصار أمنمحات فعظم من إصلاحاته ؟ ، إن الأقرب للحقيقة فى إطار المقدمات التى صعدت بأمنمحات إلى العرش بدون سند من الشرعية التقليدية لحكم البلاد ، إن نفرتى أوفد من قبل امنمحات إلى الدلتا ليدعو لقدومه ممهدا الطريق أمامه،دعما لحكمه ، وليرسخ فكرة قبوله كملك فى نفوس المصريين ، ليست وثيقة نفر تى على هذا إلا اعلانا للبرنامج السياسى لهذا الملك القادم من الجنوب ابن الانسان الذى لا ينتسب إلى أى آلهة كانت ، حيث تتوقف شرعيته فى اعتلاء العرش على اقتناع الناس ببرنامجه السياسى ، نحن إذن بصدد نظرية مختلفة للحق فى الحكم ، تختلف اختلافا جذريا عن النظرية التى استند إليها ملوك الأسرة الخامسة فى اعتلاء الحكم ، على سبيل المثال ، تلك النظرية التى اعتمدت أيضا على الأدب لترويج أسطورة انتساب هؤلاء الملوك إلى الإله رع ، مما يكسبهم الحق الشرعى فى تولى الحكم استنادا إلى أنهم أبناء الإله رع ، من بذرته الفخمة المقدسة، هذه النظرية الجديدة التى استندت إلى الإعلان عن برنامج سياسى واضح محدد ، واعتمدت على قبول المواطنين لهذا البرنامج لتوطيد دعائم الحاكم ، وترسيخ قواعد النظام ، أقرب ما تكون إلى النظرية السياسية المعمول بها فى النظم الانتخابية ، ولكن بدون قاعدة انتخابية ، وبغير أن تتم انتخابات عامة لاختيار الحاكم ، ولعل هذا التصور يفسر السبب فى اتجاه بعض المؤرخين فيما بعد إلى القول بأن اعتلاء ملوك الأسرة الثالثة عشر للعرش ، جرى عن طريق الانتخابات العامة ، حقا لقد كفت قاعدة وراثة العرش عن العمل ، معظم فترة حكم هذه الأسرة ، إلا أن ذلك وحده لايكفى للتسليم بصحة هذه الآراء، ومع ذلك إذا عدنا لنظام الولاية خلال الأسرة الثانية عشر، مؤكدين على استناد أمنمحات الأول على قبول الشعب لبرنامجه السياسى ، تأسيسا لشرعية الحكم ، فسوف نلاحظ أنه قد استكمل جوانب هذه النظرية دعما لشرعية خلافائه من ملوك الأسرة التى أسسها ، فلقد استن قاعدة لم تكن

متبعة من قبل لمن يخلفه فى الحكم ، لاتعتمد على مبدأ وراثة العرش وحده ، ولا تلغيه فى نفس الوقت ، وتعتمد هذه القاعدة المستحدثة على إشراك ولى العهد فى الحكم أثناء ولايته ، مما يعنى أن شرعية الخليفة قد استندت على إرادة الملك ، ومن هنا أصبحت موصولة بمبدأ القبول الشعبى نفسه الذى صعد بالملك إلى العرش . وظهرت الحاجة إلى وسيلة تضمن استمرار القبول الشعبى للحاكم ، توطيدا لدعائم ملكه ، وهو الدور الذى اعتمد فيه الملوك على الأدب مرة أخرى للافصاح عن منجزاتهم السياسية والترويج لها ، والاعلان عن المهام التى تحققت فى عهودهم ، أو التى يعزمون على تحقيقها ، كسبا للرأى العام ، ودعما للقاعدة العامة للنظام ، ولحقهم الشرعى فى حكم البلاد ، ولقد تكفلت الأناشيد الملكية بهذا الدور السياسى الهام . وهى من الفنون المستحدثة بطبيعة الحال خلال فترة حكم هذه الأسرة . كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

اعتبر فن الأناشيد الملكية فنا مستقلا من فنون الأدب ، ولم يصنف داخل الإطار التقليدى لفن الشعر ، وهو التصنيف المنطقى ، ولقد التزمت الأناشيد بقواعد نظم القصيدة المصرية القديمة ، وتكونت مثلها من فقرات، تبدأ بلازمة تتكرر مع كل فقرة ، ولكنها كفن موجه للجماهير ، اعتنت بالإيقاعات القوية المتدفقة بالحيوية ، والصور الجميلة البسيطة السهلة المعانى ، القريبة المنال ، التى تتجنب الغموض ، أما الموضوعات التى تتناولها فهى موضوعات الرسائل الدعائية التى تدعو للاقتناع بحكم الملك، والاعجاب بشخصه ، مما يدعم مركزه كحاكم بين قوى الشعب المختلفة ، وفى الأناشيد الملكية التى وضعت من أجل الملك سنوسرت الثالث يتعرض النشيد الأول للإعلان عن قدرات الملك العسكرية ، وكفاءته الحربية ، وسياساته فى التصدى لأعداء البلاد ، وحماية الحدود ، ويتناول النشيد الثانى صلاحية الملك للاضطلاع بمسئولياته الكهنوتية بالنسبة للآلهة أو الأجداد ، وحرصه الشديد على القيام بهذه المهام ، وهو المجال ذو التأثير القوى على مشاعر الناس ، كما يعلن النشيد قدرة الملك على

تحقيق التوازن العادل بين القوى الاجتماعية المختلفة ، دون انحياز لفريق على حساب فريق ، واهتمامه المتوازن بالطبقات المختلفة سواء الأعيان أو الطبقة الجديدة ، مع التأكيد على سياسته فى الحفاظ على وحدة البلاد ، والقضاء على عوامل التمرد والمتمردين ، ويشيد النشيد الثالث بشخص الملك ، وسمو اخلاقه ، وعطفه الشامل ، ويهلل النشيد الرابع بعهد الملك الصالح الذى اعاد الهدوء إلى الضفتين ، وضمن الأمن والسلام للجميع .

النشيد الأول :

تحية لك يا " خع – كاو – رع " أيا حورس صاحب الأشكال الإلهية
ذلك الذى يحمى البلاد ، ويمد حدودها
الذى يرد البلدان الأجنبية بعيدا جدا بفضل تاجه العظيم
الذى يضم الأرضين فى حضن ساعديه
الذى (يخضع) البلدان الأجنبية بقوة يديه
الذى يبيد البرابرة دون أن يحتاج الأمر إلى ضربهم بالعصا
الذى يرمى السهام دون أن يشد وتر القوس
إن الرهبة التى يثيرها فى النفوس هى التى ضربت النوبيين فى أراضيهم
إن مجرد الخوف منه هو الذى قتل الأسيويين
إن المذبحة التى قام بها تسببت فى سقوط آلاف القتلى فى صفوف البرابرة الذين كانوا قد هاجموا حدوده
إنه يطلق القوس كما تفعل سخمت وقد أجهز على آلاف الرجال من بين أولئك الذين لم يكونوا قد عرفوا قوته بعد، لسان جلالته هو الذى يقمع النوبيين وخطبه تجعل الأسيويين يلوذون بالفرار إنه الرجل الشاب الأوحد والإلهى الذى يحارب دفاعا عن حدوده الذى لا يسمح لشعبه بأن يصيبه الإنهاك والذى يعمل على أن ينام الناس حتى مطلع النهار وفى إمكان مجنديه أن يغطوا فى النوم ، فقلبه يؤمن الحماية لهم لقد حددت مراسيمه حدود بلاده، ولت كلماته شمل الضفتين .

(٢) النشيد الثانى

لكم تبتهج الآلهة
فقد أمددتها بالقرابين
لكم يبتهج شعبك
فقد رسمت حدوده
لكم يبتهج آباؤك الذين عاشوا فيما مضى
فقد زدت من أنصبتهم فى القرابين
لكم يبتهج المصريون لقوتك
فقد حميت ما كان موجودا فيما مضى
لكم يبتهج الناس لأنهم تحت إمرتك
فقد سيطرت قوتك على الدهماء
لكم تبتهج الضفتان لما تثيره من رعب فى النفوس
فقد زدت من ممتلكاتهما
لكم يبتهج المجندون الشبان الذين جندتهم
فقد عملت على أن ينموا فى قوة
لكم يبتهج الأعيان القدامى
فقد سمحت بتجديد شبابهم
لكم تبتهج الأرضان ببأسك
فقد حميت أسوارهما
أيا حورس الذى يمد حدوده ، فلتجدد الأمد اللانهائى

(٣) النشيد الثالث :

ما أعظم السيد لمدينته
هو وحده يعادل الملايين ، فالرجال الآخرون صغار
ما أعظم السيد لمدينته
إنه القناة التى تحجز النهر ، من تدفق الماء

ما أعظم السيد لمدينته

إنه القاعة الرطبة التى تسمح للانسان أن يستريح حتى مطلع النهار

ما أعظم السيد لمدينته

إنه سور ذو جدران نحاسية

ما أعظم السيد لمدينته

إنه الملجأ الذى ينجى الإنسان الخائف من أعدائه

ما أعظم السيد لمدينته

إنه المأوى فى زمن الفيضان والماء البارد فى الفصل الحار

ما أعظم السيد لمدينته

إنه ركن دافىء وجاف شتاء

ما أعظم السيد لمدينته

إنه الجبل الذى يصد الريح أثناء عاصفة السماء

ما أعظم السيد لمدينته

إنه الإلهة (سخمت) فى مواجهة الأعداء الزاحفين على حدوده

(٤) النشيد الرابع

لقد أتى الينا

وقد فتح بلاد الجنوب وجمع القوتين فوق جبينه

لقد أتى الينا

فوحد الأرضين وجمع بين البوصة والنحلة (رمزا الوجه القبلى والوجه البحرى)

لقد أتى الينا

فحكم المصريين ووضع الصحراء فى قرنه

لقد أتى الينا

فحمى الأرضين واعاد الهدوء للضفتين

لقد أتى الينا

فأعاد الحياة إلى المصريين وطرد آلامهم
لقد أتى الينا
فأعاد الحياة إلى الشعب وأعاد الهواء إلى حناجر البشر
لقد أتى الينا
وداس بأقدامه الأقطار الأجنبية الأكثر بعدا
وضرب النوبيين الذين ظلوا حتى الآن يجهلون الخوف
الذى يبعثه فى النفوس
لقد أتى الينا
واتاح لنا تنشئة أطفالنا ، ودفن شيوخنا (٦٦)

كان من الطبيعى أن تغفل وثيقة نفر تى كل الظواهر المتعلقة بالسياسة الداخلية ، وأن تتجنب الخوض فى تفاصيلها ، فهو كمبعوث سياسى يدعو إلى الملك القادم بين شعب الدلتا ، لا بد له أن يكسب تأييد كافة القوى الاجتماعية على اختلافها ، وأن يحشدها أو الغالبية منها لتحقيق المهمة المنوطة به ، وأن يتحاشى إثارة أى نوع من المعارضة للحكم الذى يبشر به ، وهى نفس السمات التى تميزت بها الأناشيد الملكية ، ويكتفى نفرتى عند التعرض للاصلاح الداخلى المنتظر بجملة قصيرة " إن العدالة ستعود إلى مكانها - والظلم سينبذ بعيدا " ، أما كيف ستتحقق هذه العدالة ، وكيف سينبذ الظلم ، فلقد فضل نفرتى السكوت لعدم اثارة المخاوف ، وهو الأمر الذى أثار انتباه بعض المؤرخين وإن تغافلوا عن أسبابه ، ما كان ليفيد نفرتى فى تحقيق مهمته أن يقف موقف الراصد للظواهر الاجتماعية مثلما رصد إيبوور الظواهر التى صاحبت اندلاع الثورة ، لقد عاين إيبوور الثورة ، واكتوى بويلاتها ، وعايش المتغيرات التى فجرتها ، وأحداث العنف التى صاحبتها ، وما آل إليه وضع البلاد من جرائها ، وأسهب وأطنب فى تناول تفاصيل الأحداث ، وحلل الوضع السياسى والعوامل التى فجرت الموقف ، ولقد أشار فيما أشار إليه إلى تسلل الأسيويين ، كظاهرة صاحبت الاضطرابات السياسية والاجتماعية ، ولكن

لم ينسب إلى الأسيويين سبب الكوارث والنوائب التى جرت على البلاد ، أما نفرتى فلقد تنبه إلى ضرورة التركيز على تسلل الأسيويين إلى الدلتا ، وتغلغلهم فى أراضيها فنسب إليهم كل العلل والمشكلات التى لحقت بالمجتمع ، والحقيقة لم يكن أمام نفرتى غير إثارة المشكلة الوطنية ، ليضمن نجاح مهمته ، والتفاف كل القوى الاجتماعية حول مليكه ، والأرجح أنه انساق وراء البناء الفنى التحريضى للدعوة ، كما هو معهود فى أمثال تلك الحالات ، فصور تسلل الأسيويين فى صورة الغزو العسكرى الكاسح للدلتا ، وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ، وأبرز سببا وحيدا للمعاناة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهو الأمر الذى بدا واضحا، ففى مقدمة الوثيقة يشير إلى انتصار الأسيويين " **بقوة السلاح ، ونشرهم الرعب فى قلوب الفلاحين واغتصاب الدواب التى يملكونها فى وقت الحرث ، واستيلائهم على الحكم فلم " يعد العظماء هم الذين يشكلون حكومة البلاد** " ، ويشير نفرتى إلى اهمال هؤلاء الحكام الأجانب لسياسة الرى ، فأصبح " **مجرى النهر كالشاطىء فى حين يعود الشاطىء إلى الماء ثم سيصبح مكان الماء (من جديد) مكان الشاطىء** " ، أى تحولت الدلتا إلى مستنقعات على نحو ما كانت عليه فى العصور الأولى، قبل أن تسمح الجهود المضنية لملوك مصر بتنظيم الرى وشق القنوات ومعالجة آثار الفيضان وإقامة الجسور والتوسع فى الأراضى المنزرعة واستصلاح الأراضى البور ، هذه الصورة تذكرنا بوصف عنخ تفى لإقليم إدفو وأراضيه التى غمرتها المياه وتحولت إلى ما يشبه مزرعة السمك من جراء إهمال المسئول عنها، وما أصابها من خراب بسبب تصرفات الملعون ، والاختلاف بين الرجلين يرجع إلى موقف كل منهما من القوى الاجتماعية، والغرض الذى يستهدفه من كتابة وثيقته ، لقد أراد عنخ تفى بنقوشه التباهى بما حققه من انتصار على غريمه ، والزهو بما أنجزه من إصلاحات فى مدينته ، فلم يجد حرجا فى ذكر الأسباب الحقيقية التى أدت إلى خراب البلاد . أما نفرتى الذى تجنب استثارة أى قوى تعارض

مليكه أو استنفارها ضده ، فلم يكن بمقدوره إلا الصاق هذه الأسباب بالغزاة الأجانب ، ولقد اضطر فى تعرضه للمشكل الاجتماعى أحيانا إلى اللجوء إلى الأساليب البلاغية والفنون الأدبية من تورية وكناية وغيرها من أساليب وفنون لتصوير ما وصلت إليه الأمور من تردى ، وما لحق بالأوضاع من تدهور ، " **لقد ابتلى هذا البلد بلاء خطيرا ... كيف يمكن لهذا البلد أن يبقى على قيد الحياة .. إن قرص الشمس المحتجب لن يسطع بعد ذلك حتى يمكن للشعب أن يبصر** " ، ولم يبتدع نفر تى هذا الأسلوب أو تلك الفنون ، فهى شائعة فى الأدب المصرى القديم خاصة الاستعارات ذات الطبيعة المائية ، والطبيعية ، ولقد ظلت هذه الصورة البلاغية أقل من أن تطمس المعالم الموضوعية للوثيقة ، وظل المحور الفكرى واضحا وضوحا كاملا ، مرتبطا بالسبب المباشر الذى وظفه نفر تى واعتمد على آثاره لتحقيق مهمته "**سيختفى كل شئ طيب ، وستصبح البلاد واطئة الأرض بسبب التعاسة الناجمة عن الأسيويين المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ، وفى الحقيقة سوف يحل الأعداء ناحية الشرق ويهبط الأسيويون مصر ويكون الموقع الحصين فى خطر** " إلى هؤلاء الأجانب ترجع عوامل الفساد واضطراب الأمن وانهيار القيم ، وارتفاع المكوس والضرائب ، وانتشار الفاقة ، وظواهر البؤس والانتحار ، وغير ذلك من عوارض وعلل ذكرها بإيجاز واختصار تمهيدا لإعلان مجئ المخلص (أمينى) ابن الانسان.

تحذيرات السياسى العجوز - خلاصة القول

فى بحثه عن ارتباط بين التاريخ المصرى والتاريخ الإسرائيلى ، افترض فليكوفيسكى أن شواهد التاريخ المصرى القديم صمتت عن الإدلاء بأى معلومات عن العلاقة بين تاريخى أرض مصر وأرض فلسطين على ما بينهما من روابط الجوار ، وعلى الرغم من وفرة الشواهد والوثائق والآثار التى وصلتنا عن علاقة مصر بأرض فلسطين والمستطيل السورى ، والتى ترجع بتلك العلاقات الحميمة بين الأرضين ، إلى عصر ما قبل التاريخ ، وعلى الرغم من أن كل هذه الوثائق والشواهد والآثار حدثتنا حديثا مستفيضا عن السكان وأصولهم وتاريخهم ، ولم تذكر من بين من ذكرتهم الأسباط اليهودية ، مما يعد دلالة لا يمكن دحضها على عدم وجود هذه الأسباط بتلك المناطق خلال تلك العهود ، وإن صمت شواهد التاريخ المصرى عن أى ذكر للعبرانيين ، لا يرجع لإغفال وجودهم أو التغافل عن تاريخهم ، وإلا لأغفلت غيرهم ، وإنما لعدم وجودهم ، أصلا خلال تلك الأحقاب الطويلة من الدهور ، مثل التاريخ المصرى فى ذلك ، مثل شواهد تاريخ الشرق الأدنى القديم بصفة مؤكدة وعامة . على الرغم من كل هذه الحقائق ، أصر إيمانويل فليكوفيسكى على فكرتين ، الأولى أن تاريخ الأسباط اليهودية يستغرق بالكامل جماع تاريخ أرض فلسطين ، وهى الفكرة التى لا تثبت ولو لوهلة قصيرة أمام الواقع التاريخى للمنطقة ، والفكرة الثانية ترتبت على فرضيته الأولى ، حيث يصر أن شواهد التاريخ المصرى صمتت عن ذكر آبائه العبرانيين ، ولما كان هذا الصمت مستحيلا كما يرى ، يحدثنا فليكوفسكى أنه استعرض جماع وثائق التاريخ المصرى

القديم برمتها (؟) إلى أن اهتدى إلى بردية إيبوور (!) ، التى تمثل فى رأيه النقطة التى يتقاطع عندها التاريخ المصرى ، بالتاريخ التوراتى .

أصر فليكوفيسكى على اصطفاء الحكيم المصرى ليدلى بما لم يدر له على بال ، فإيبو العجوز لم يزعم إطلاقا أنه قد رأى الأسباط اليهودية أثناء استعبادهم فى مصر ، أوأثناء خروجهم منها فرارا من هذا الاستعباد , ومع ذلك استمر فليكوفيسكى على تصميمه مؤكدا على تطابق أحداث البردية مع ما أوردته الرواية التوراتية من محن وبلايا صاحبت خروج بنى إسرائيل من مصر ، معتبرا الرواية والبردية ، روايتين عن كارثة طبيعية واحدة تزامنت مع حدث الخروج ثم آل على نفسه ، أن يضع وثيقة إيبوور على مسار التاريخ ، محددا الزمن الذى تتحدث عنه ، بالفترة التاريخية التى يطلق عليها " المرحلة الانتقالية الثانية " ، وهى الفترة التى تبدأ بنهاية الدولة الوسطى والأسرة الثانية عشرة ، وتمتد إلى بداية الدولة الحديثة ، بالأسرة الثامنة عشرة ، مدعيا انه قد توصل إلى تحديد تاريخ متعين لزمن الخروج التوراتى ، مقررا أن خروج بنى إسرائيل من مصر تم خلال بضعة أيام أو أسابيع قليلة قبل غزو الهكسوس لمصر ، ثم استند إلى هذا التحديد المفترض ، لإعادة ترتيب القوائم الزمنية لتاريخ الشرق القديم، وبناء تاريخ وضعى لليهود .

ولقد التزمنا بالإقدام على عمل ما تجنب هو القيام به ، للتوصل إلى الزمن الحقيقى لكتابة البردية ، وإلى أى مرحلة من مراحل التاريخ المصرى ، ينتمى إيبو العجوز؟ ، شاهد العيان الوحيد الذى اصطفاه ، فليكوفيسكى لإعادة بناء التاريخ غير التقليدى الذى يقول به .

ورأينا من الإنصاف لفليكوفيسكى ، ولموضوعية الدراسة ، أن نبحث أولا خلال الفترة التى حددها لكتابة البردية ، فترة الانتقال الثانية ، وطرحنا أسئلة عديدة على حشد هائل من الملوك ، والوزراء ، والأمراء ، والكهنة ، والقضاة وكبار الموظفين ، والمستشارين ، وكبار الكتبة ، والحجاب ، والمراقبين ، وحكام المقاطعات ، ورجال البلاط ، وكل من قدرت

لهم الحياة ، فى عهد الأسرة الثالثة عشرة إلى أن ظهرت الهكسوس على أعتاب التاريخ . وتلقينا إجابة واحدة من الجميع ، فقد نفى كل هذا الحشد أى معرفة لهم بإيبو العجوز ، مؤكدين تأكيدا قاطعا ، أنهم لم يروه، ولم يستمعوا له ، ولم يسمعوا عنه ، ونفى الجميع نفيا باتا أن يكون رجلا منهم ، منتميا إلى صفوفهم ، أو معانيا مشاكلهم ، أو واصفا أحداث أزمنتهم ، أو متحدثا بلسانهم عن أحوال معيشتهم ، وحياتهم ، ونظمهم ، وأن كل ما قاله هذا السياسى العجوز لايتفق مع شجونهم وأحزانهم ونوائبهم وهمومهم ، والمصائب التى وقعت على رؤوسهم .

ولم يكن أمامنا بعد هذا النفى القاطع ، إلا أن نحمل أسئلتنا من جديد ، غائصين فى متاهات فترة الانتقال الأولى ، التى لم يهتم فليكوفسكى بتقصى حقائقها ، مكتفيا باستبعادها من حساباته بدعوى أنها لم تشهد غزوا أسيويا ، يملؤنا الأمل فى أن نصل إلى يقين تاريخى حاسم ، يحدد التوقيت الذى كتب فيه إيبوور الوثيقة، والفترة التاريخية التى ذكر أحداثها ، ووصف ظواهرها ، وصف الراصد المدقق ، وأخذنا على أنفسنا الالتزام برؤية منهجية فى استقراء الأحداث والظواهر ، دون أن يغيب عن الذهن ، أهمية تحديد زمن كتابة البردية بكل دقة ، بالنسبة لمشروع إيمانويل فليكوفسكى فى إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم ، وقبول أو رفض هذا المشروع .

ولقد اصطحبنا إيبو العجوز خلال تطوافنا ، عبر الفترة التاريخية المديدة ، التى تقع بين نهاية الأسرة السادسة ، وانهيار الدولة القديمة ، وبين الأسرة الثانية عشرة ، باستيلاء أمنمحات الأول ، ابن الإنسان على السلطة واعتلائه العرش .

وجد الملك خيتى الثالث فى وثيقة إيبوور بعض المشاكل التى تواجهه ، ويعانى منها ، متعرفا على بعض الظواهر التى رصدها ، وأيده فيما ذكر عن ضعف السلطة الملكية ، وعما وصل إليه رجال البلاط من خسة وفساد، وأدان خيتى الثالث نفسه لأنه أخطأ ، مثلما قرع إيبوور مليكه

المتخاذل على الخطأ ، واعترف خيتى بأن الجبانة المقدسة فى (ثنى) قد سلبت فى عصره ، وامتهنت المقدسات وحرمات المقابر فى عهده أيضا ، وخذله رجال بلاطه ومستشاروه بحجبهم التقارير عنه ، مثله فى ذلك مثل ملك إيبوور ، وأقر خيتى الثالث بالخطر الذى يمثله الأسيويون فى المناطق الشرقية ، والتهديد القائم فى جنوب البلاد ، والنزاعات الداخلية المندلعة ، وفى ضرورة اتباع سياسة حكيمة مع الجنوب حتى لايتوقف عن سداد موار الخزينة العامة، إلا أن خيتى الثالث نبهنا إلى أن إيبو العجوز عاش فى عصر سابق عليه ، لاكتفائه برصد الظواهر ، وانتقاد الوضع المتردى للبلاد ، وهو حين فكر فى الإصلاح ، اكتفى بالدعوة إلى عودة الأمور إلى ما كانت عليه فى العصر الذهبى ، عصر بناة الأهرام ، حيث تظلل السلطة الملكية المطلقة للإله العظيم جميع الفرقاء ، وتحقق التوازن العادل بين كافة القوى ، أما الزمن الذى يعيش هو نفسه فيه فهو يمر بظروف مرحلية تالية ومختلفة ، لا تسمح بمثل هذه الأحلام الذهبية ، وقد أعانته هذه الظروف المرحلية بوضوح الرؤى ، ومن ثم أنارت له سبيل التعامل مع الأزمة السياسية الاجتماعية ، فانتقل إلى مرحلة التصدى الواقعى لها ، ووضع السياسات الكفيلة للحد منها ، وزودنا خيتى الثالث بالسؤال الجوهرى الذى من الضرورى الإجابة عليه ، للتوصل إلى الزمن الذى عاشه الحكيم العجوز : منذ متى أصبح الملك قادرا على الاعتراف بأنه قد أخطأ ؟ ، ومنذ متى أصبح للآخرين القدرة على مواجهة الملك بأخطائه ؟ أى متى تخلى الملك عن صفة الألوهية المطلقة التى تنزه تصرفاته عن الخطأ ، وتتيح فى نفس الوقت للآخرين حرية انتقاده ومعارضته؟.

بدأ البحث بالفترة التى شهدت قمة ازدهار السلطة الملكية فى عصر الأمجاد العظيمة لبناة الأهرام ، وتتبع التطورات التى لحقت بهذه السلطة المجيدة ، إلى أن وصل الجبروت الملكى إلى أدنى مستوى له فى نهاية الدولة القديمة ، وكانت النتائج التى توصلت إليها الدراسة حافزا قويا

لتوسيع دائرة التقصى ، فالعوامل التى أدت إلى ضعف السلطة الملكية ، هى نفسها العوامل التى فجرت الثورة فى نهاية الأمر ، أى التوصل إلى الفترة التى رصدها إيبوور ، والتى أصبح بإمكانه حينئذ تعنيف مليكه . فمع التطور الطبقى للقوى الاجتماعية المختلفة اختل التوازن الاجتماعى ، تم إعادة توزيع الثروة لصالح الأرستقراطية ، ورويدا رويدا عمل هذا الخلل فى التوازن الاجتماعى على نقل السلطة أو الجانب الكبير منها من يد الملك إلى أمراء الإقطاعيات الوراثية ، حكام الأقاليم العظماء ، وفى نفس الوقت ترتب على هذه الأوضاع زيادة الفجوة الاجتماعية بين الذين فى القمة ، والغالبية العظمى التى فى القاع ، وتضاعف الخلل فى التوازن الاجتماعى ،وتضاعف أكثر ، بسبب موجة الجفاف الطويلة المضنية ، التى أثرت تأثيرا مدمرا على اقتصاديات البلاد ، وعمت معها الفاقة والمجاعة ، وزاد تردى الأوضاع سوءا بتسلل جماعات الأسيويين من فلسطين والمستطيل السورى إلى الدلتا ، نازحين من تلك المناطق الأسيوية التى تأثرت أكثر من غيرها بموجة الجفاف العنيفة ، وتسببت كل هذه العوامل فى انهيار الدولة القديمة ، وفى انفجار الثورة العنيفة التى رصد إيبوور ظواهرها وأحداثها . انهار النظام الملكى بأيدى الثوار ، وتقوض صرح الجهاز الإدارى للدولة ، عمت الفوضى ، وأهملت القوانين ، طورد القضاة، واقتحمت دور العدالة ، واختل نظام الأمن الداخلى ، ذبح الموظفون ، احترقت السجلات ، ديست المقدسات وسلبت المقابر ، توقفت التجارة الخارجية ، تعاون الأجانب مع الإقطاعيين حكام بعض الأقاليم ، وتمكنوا من إحراز وجود سياسى لهم فى شمال البلاد .

لكن فى أى فترة عاش الحكيم العجوز على وجه التحديد ؟

الاحتمال الأول الذى رجحه بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم برستيد أن إيبوور عاش خلال السنوات الأخيرة من حكم بيبى الثانى المديد ، ورأى البعض أنه كان مستشارا للملك العجوز ، ورأى بعض آخر أنه كان من كبار موظفى الخزانة فى عهده ، واتفقوا على أن بيبى الثانى هو الملك

الذى وجه إليه السياسى العجوز خطابه العنيف ، إلا أن هذا الرأى على وجاهته ، قد قفز إلى النتائج دون فحص متأن ، فإيبوور فى رصده للظواهر ، تعرض لظاهرة استقلال بعض الأقاليم استقلالا تاما عن سلطة الملك وتوقف هذه الأقاليم عن سداد مستحقات الدولة من ضرائب إلى الخزانة العامة ، ومن هذه الأقاليم الفنتين وطينة، ولما كانت طينة تحت سلطة أسرة الوزير (زاو) ، وزير بيبى الثانى خلال الفترات الأولى من حكمه ، وهو شقيق زوجتى الملك بيبى الأول ، أى خال بيبى الثانى ، والذى اشترك فى الوصاية عليه مع أمه بداية توليه العرش ، ولما كان للوزير (زاو) وأسرته هذه المكانة ، وتلك الهيمنة على سلطة الدولة بأسرها ، فمن المستبعد أن تكون طينة وهى المقاطعة التى يتوارثون حكمها ، قد تمردت على سلطة الملك بيبى الثانى ، خلال فترة حكم هذا الملك ، على أقل تقدير، أى إذا كانت طينة قد توقفت عن سداد مستحقات الخزينة العامة فلابد أن ذلك تم فى فترة تالية على حكم بيبى الثانى ، والنتيجة نفسها تنسحب على وثيقة إيبوور منطقيا بالتالى ، وعلى إيبوور أيضا الذى ذكر تلك الحقيقة ، ويعزز هذا الرأى ما أورده السياسى العجوز وهو بصدد رصد الظواهر المتردية ، عن انتشار الأسيويين فى الدلتا ، ومن إتقانهم الصناعات والفنون المصرية ، وهى الظاهرة التى تحتاج لرسوخ أقدام هؤلاء الوافدين بأرض الدلتا لفترة من الزمن ، تؤهلهم لإتقان الصناعات ، والتفوق فيها ، والبروز فى هذه الأنشطة الفنية ، والأصوب أن ذلك لم يتم إلا خلال عهد الأسرة الثامنة الذى دام فترة قصيرة من الزمن لاتتجاوز الأربعين عاما ، وهى فترة كافية لإتقان الأسيويين للفنون المصرية ، ونبوغهم فيها ، وقد وصلتنا من فترة الأسرة الثامنة بالفعل بعض الآثار التى تحمل طابع التأثير الأجنبى ، مما لا يدع مجالا للشك أن وثيقة إيبوور تالية لفترة حكم الأسرة السادسة .

لقد عاش إيبوور حقا فترة حكم بيبى الثانى ، ولكنه لم يكن من رجال البلاط ، ولم يعمل مستشارا للملك ، كما لم يكن من كبار رجال الخزانة

بالدلتا ، وهو بالقطع لم يكن من كبار موظفى الدولة القديمة ، لقد كان لا يزال فى مقتبل شبابه ، ومن المؤكد أنه كان متعلما ، فإما أنه أحد أبناء كبير من كبراء رجال الأرستقراطية وهو الأرجح أو أنه أحد أفراد الطبقة الوسطى ، وقدر لإيبو - الصغير ، أن يعيش هذه المرحلة الرهيبة من الاضطرابات بعد موت بيبى الثانى ، كما قدر له أن يشاهد بعين المثقف اليقظ الأحداث والنوائب التى عصفت بالبلاد خلال سنوات طويلة استغرقت عهدى الأسرتين السابعة والثامنة ، أضافت إلى عمره نصف قرن من السنين ، وأصبح ما عرفه التاريخ إيبوور ، إيبو العجوز ، ذلك السياسى المحنك الذى فجرت وعيه المحن ، وبواقع نمو الحس الخلقى والاجتماعى ونضج الشعور بالمسئولية العامة ، الذى ميز مثقفى ذلك الزمان ، تهيأت له القدرة على مواجهة الملك الضعيف المتخاذل ، وتعنيفه على ما آلت إليه الأحوال ، ومن المؤكد أنه من ملوك الأسرة الثامنة المتأخرين ، أو أحد ملوك الأسرة التاسعة المتقدمين ، استفزه ما لحق بالأرستقراطية التى ينتمى إليها ، من غبن فاحتد مؤملا أن يعمل الملك لعودة الأمور إلى ما كانت عليه فى سابق عهدها ، إلى الأيام الزاهية للأرستقراطية فى العصر الذهبى للدولة القديمة .

وإذا كان السياسى العجوز قد عاش فى بداية فترة الانتقال الأولى ، فإن نفرتى عاش فى الفترة الأخيرة منها ، قبل نهايتها مباشرة ، لقد رثى إيبوور الطبقة الأرستقراطية ، داعيا للسلطة المطلقة للإله العظيم ، وعودة الأرستقراطية لعهدها المجيد ، أما نفرتى فهو داعية سياسية مختلف ، بشر بمقدم الملك ابن الانسان ، معلنا البرنامج السياسى لهذا الملك فى إصلاح أحوال البلاد ، مروجا لحكمه بين صفوف الرعية للالتفاف حوله وتقبل جلوسه على العرش ، وبين الرجلين أحقاب طويلة اختلف المؤرخون حول كم تبلغ من السنين ، ولكنها لا تقل مهما اختلفوا عن القرن وبضع القرن ، شهدت هذه الأحقاب الدموية تطورات جذرية وتحولات سياسية واجتماعية ، لم تنطفئ جذوه الثورة ، وإن انتقلت من يد إلى يد ، ومن

طور إلى طور آخر ، تنشد التوازن العادل بين القوى الاجتماعية ، ذلك التوازن المفقود الذى أدى إلى انهيار الدولة القديمة ، وإلى الفوضى والاضطراب حتى بداية الدولة الوسطى .

إن تجاهل التطورات السياسية والاجتماعية التى شهدتها فترة الانتقال الأولى ، وإغفال ما ترتب على هذه التطورات ، من مراحل متعددة، حملت شعلة الثورة ، ومضت بها من طور إلى طور ، جعلت الجمع بين هذين السياسيين ، إيبوور ونفرتى ، هو الوضع الشائع والمتبع فى الفكر التاريخى .على الرغم من أن الفاصل الزمنى بين الرجلين يستغرق أحقابا زمنية مديدة ، ألا يفرض ذلك إعادة النظر ، بالالتزام برؤية منهجية لاستقراء الأحداث ، للتوصل إلى صورة صحيحة وأدق للتاريخ القديم؟.

هوامش

١ – أحمد فخرى – مصر الفرعونية – مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٩ – ط – ٦

٢ – جريمال – نيقولا- تاريخ مصر القديمة ت ما هر جويجات- دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – ط ٢ – القاهرة ١٩٩٣

٣ – جريمال – نيقولا – المرجع السابق

٤ – ولسون – جون – الحضارة المصرية ت احمد فخرى- مكتبة النهضة المصرية – مرجع سابق

٥ – ولسون – جون المرجع السابق

٦ – لاويت – كلير – نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر – ت : ماهر جويجاتى , المجلد الأول دار الفكر – للدراسات والنشر والتوزيع – القاهرة١٩٩٦

٧ – ولسون – جون المرجع السابق

٨ – ولسون – جون المرجع السابق

٩ – د.عبدالعزيز صالح – الشرق الأدنى القديم ج ١ مرجع سابق

١٠ – ولسون – جون – مرجع سابق

١١ – كيمب – بارى ج – تشريح حضارة – ت أحمد محمود المجلس الأعلى للثقافة وآخرون – المشروع القومى للترجمة – القاهرة ٢٠٠٠

١٢ – دوما – فرنسوا حضارة مصر الفرعونية – ت . ماهر جويجاتى – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – القاهرة ١٩٩٨

١٣ – ولسون – جون – مرجع سابق

١٤ – احمد فخرى – مصر الفرعونية – مرجع سابق

١٥ – ولسون – جون – مرجع سابق

١٦ – سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء الأول – مرجع سابق

١٧ – سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء الأول – مرجع سابق

١٨ – برستيد – جيمس هنرى فجر الضمير – مرجع سابق

١٩ – سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الثامن عشر – الأدب المصري القديم – مرجع سابق

٢٠ – أحمد فخرى – مصر الفرعونية – مرجع سابق
٢١ – سليم حسن – موسوعة مصر القديمة – الجزء الأول – مرجع سابق
٢٢ – سليم حسن – المرجع السابق
٢٣ – أحمد فخرى – المرجع السابق
٢٤ – جريمال – نيقولا – مرجع سابق
٢٥ – احمد فخرى – المرجع السابق
٢٦ – ب ‚ج تريجر وآخرون – مصر القديمة – التاريخ الاجتماعى
٢٧ – د . عبدالعزيز صالح – مرجع سابق
٢٨ – سليم حسن – الجزء الأول
٢٩ – د. عبدالعزيز صالح – مرجع سابق
٣٠ – سليم حسن – المرجع السابق
٣١ – جون ولسون – مرجع سابق
٣٢ – جون ولسون – مرجع سابق
٣٣ – جريمال – نيقولا– مرجع سابق
٣٤ – فراس السواح – تاريخ اورشليم والبحث عن مملكة اليهود – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – دمشق ٢٠٠١
٣٥ – فراس السواح – المرجع السابق
٣٦ – تومسون . توماس. ل – اسفار العهد القديم فى التاريخ – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – ت . عبدالوهاب علوب – القاهرة ٢٠٠٠
٣٧– ب . ج تريجر وآخرون – مرجع سابق
٣٨ – د . عبدالعزيز صالح مرجع سابق
٣٩ – سليم حسن – الجزء الأول
٤٠ – سليم حسن – الجزء الأول
٤١ – د. أحمد فخرى – مرجع سابق
٤٢– د . عبدالعزيز صالح – مرجع سابق
٤٣– د . سليم حسن – مصر القديمة – الجزء السابع عشر – مرجع سابق
– ولاويت – كلير – مرجع سابق
٤٤ –سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الثالث – مرجع سابق
٤٥ – سليم حسن – مصر القديمة ج الأول – مرجع سابق
٤٦ – جريمال – نيقولا – مرجع سابق
٤٧ – سليم حسن – الجزء الأول – مرجع سابق
٤٨ – جريمال – نيقولا – مرجع سابق
٤٩ – ثروت عكاشة – الفن المصرى القديم – الجزء الثانى – النحت والتصوير – الهيئة المصرية

العامة للكتاب – (موسوعة تاريخ الفن) – القاهرة ١٩٩١

٥٠ – برستيد . جيمس هنرى – مرجع سابق

٥١– برستيد ,جيمس هنرى– مرجع سابق

٥٢/٥٣ – لالويت – كلير – مرجع سابق

٥٤ – برستيد – جيمس هنرى – مرجع سابق

٥٥– برستيد – جيمس هنرى – مرجع سابق

٥٦– (١) سليم حسن – مصر القديمة – الجزء السابع عشر – مرجع سابق

(٢) لالويت – كلير – نصوص مقدسة ونصوص دنيوية – مصر القديمة المجلد الأول – مرجع سابق

٥٧ – سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الثالث – مرجع سابق

٥٨ – لالويت – كلير – مرجع سابق

٥٩ – جريمال – نيقولا – مرجع سابق

٦٠ – برستيد جيمس هنرى – فجر الضمير – مرجع سابق

٦١ – لوفيفر – جوستاف – روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى – ت . د . على حافظ – ادارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم – الألف كتاب – مكتبة مصر

٦٢ –سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الثالث – مرجع سابق

٦٣ – سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الثالث – مرجع سابق

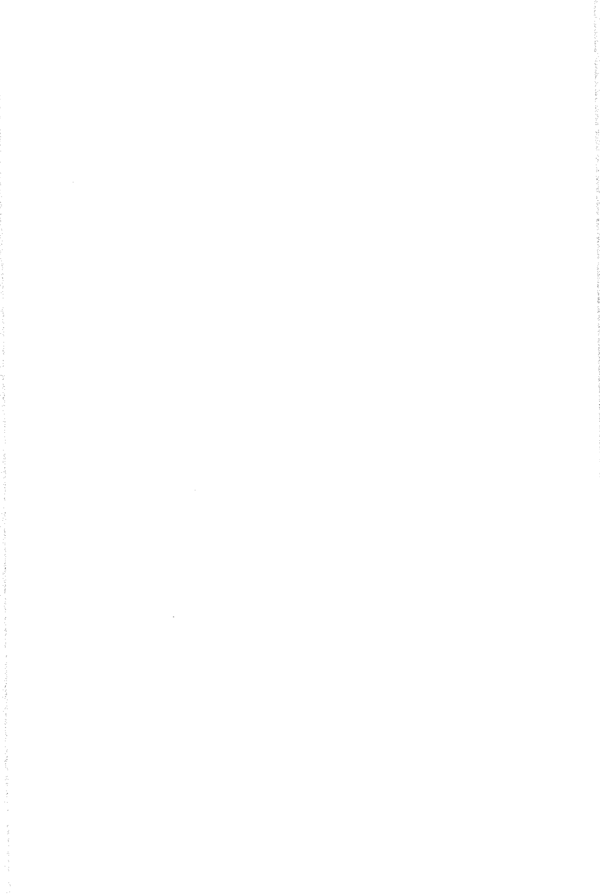
٦٤ –نيقولا – جريمال – مرجع سابق

٦٥ – لالويت – كلير – مرجع سابق

٦٦ – لالويت – كلير– مرجع سابق

القسم الثالث

عوالم ليست فى تصادم



الكارثة التى لاتصدق

يرصد إيبوور ظواهر الاضطرابات السياسية، والفوضى، والحروب الداخلية، التى أعقبت انهيار الدولة القديمة، وسقوط الأسرة السادسة، خلال الربع الأخير من الألف الثالثة قبل الميلاد، ويؤنب السياسى العجوز نفسه على أنه لم يجهر بوجهة نظره فيما يحدث من سلبيات، تسببت فى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية، ويصب جام غضبه فى خطابه العنيف الذى واجه به مليكه المتخاذل؟ محذرا من مغبة إهمال شئون الحكم، منذرا بسوء العاقبة، إذا ظل الملك على ضعفه وخذلانه، مغضيا الطرف عما يدور من أحداث ونوائب تقصف بالاستقرار والسلام الاجتماعى، وكل ما تضمنته الوثيقة ينفى نفيا قاطعا ما يحاول فليكوفسكى تأكيده من تصورات ومزاعم، فلا إيبوور عاش كما رأينا فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، خلال نهايات عصر الأسرة الثالثة عشرة، قبل أيام أو أسابيع قليلة من غزو الهكسوس لمصر، ولا هو وصف كارثة طبيعية كبرى ذات طبيعة كونية أحدثت ما يصوره من خراب ودمار.

مع التسليم بصحة هذه النتائج ، وحتى نصل إلى تأكيدات نهائية وقاطعة بالنسبة للتاريخ الذى يقول به فليكوفسكى ، يظل علينا أن نسأل عما إذا كان من الممكن خلال منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد أن تحدث كارثة كونية كالتى رسم أبعادها ، وهل هذه الكارثة الكونية كما وصفها تتطابق مع الرواية التوراتية عن خروج العبرانيين من مصر؟ وما هى طبيعة هذه الكارثة التى يصفها ؟ ، والتى خصص لها كتابين من كتبه الستة ، "عوالم فى تصادم " و" الأرض فى اضطراب " .

(١)

يبدأ فليكوفسكى " عوالم فى تصادم " بالحكاية التى لايصدقها عقل (بتعبيره)، والتى أوردتها التوراة عن يشوع بن نون ، حين قال يشوع أمام عيون إسرائيل ياشمس دومى على جبعون وياقمر على وادى إيللون ، فدامت الشمس ، ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه ، (سفر يشوع ٠(الإصحاح ١٢ - ١٣) ، فطبقا لمعارف عصرنا كما يقول فليكوفسكى لايمكن أن يحدث ذلك ، إلا إذا توقفت الشمس لفترة من الزمن؛ كى لا تدور فى الاتجاه الذى حدد لها ، كما يمكن التفكير فى أن الأرض نفسها غيرت مسارها المعتاد ، إلا أن ذلك الحدث غير محتمل الوقوع؛ لأنه يقتضى أن يتقابل كوكبنا مع جرم سماوى فى حجم يسمح ، بحدوث اضطرابات فى المسار الأزلى لعالمنا ٠ واصطدام مذنب كبير بعالمنا أمر بعيد الاحتمال ، ولكنه فى نفس الوقت أمر ممكن الوقوع ، فالآلية الكونية تعمل بدقة كبيرة ، لكنها غير مستقرة ، فهل حدث أن الأرض التى نمشى عليها كانت فى وقت من الأوقات على وشك الاصطدام بجرم سماوى كبير ؟

هناك فقرة فى سفر يشوع تسبق الفقرة التى ورد فيها توقف الشمس، لمدة ثمانى ساعات ، دون أن تتحرك إلى الغرب ، تشير هذه الفقرة إلى تساقط حجارة من السماء " بينما كان ملوك كنعان هاربين أمام إسرائيل، وهم فى منحدر بيت حورون ، رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء ، والذين ماتوا بحجارة البرد ، هم أكثر ممن قتلهم بنو إسرائيل بالسيف " ، ولما كان كاتب سفر يشوع يجهل كل الجهل الصلة بين الظاهرتين - توقف الشمس وسقوط الحجارة؛ إذ لم تتوفر فى ذلك الوقت أية معلومات عن نيازك الجو ، أو عن قوانين الجاذبية بين الأجرام السماوية، بالإضافة إلى أن كل هذه الظواهر وقعت فى وقت واحد ، فمن غير المحتمل أن يكون تسجيلها محض اختراع ٠ مما يرجح استنتاج واقعة مرور مذنب كبير بجوار كوكبنا ، أدى الى اضطراب حركته ٠

يربط إصحاح يشوع الأحداث على نحو معين " إذ صعد إليهم يشوع الليل كله من الجلجال ... وفى الصباح الباكر ضربهم ضربة عظيمة وهم فى جبعون ... وطردهم فى طريق عقبة بيت حورون .. وبينما هم هاربون أمطرتهم السماء بحجارة عظيمة .. وفى نفس اليوم حينما كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين .. توقفت الشمس فوق جبعون وتوقف القمر فوق وادى عجلون " ، ويذكر إصحاح يشوع أن كلا من الشمس المنيرة والقمر المضئ كانا فى كبد السماء ، وبعمل حساب اختلاف خطوط الطول ، لابد وأن الحدث قد وقع فى الصباح الباكر لنصف الكرة الشرقى، أى فى مساء الكرة الغربى .

فى حوليات كوا هيتتلان المكسيكية تذكر النصوص أن الكوارث الكونية التى وقعت فى الماضى البعيد ارتبطت بالليل ، وأنها لم تتنه إلا بعد مرور وقت طويل ، وبينما تصف رواية التوراة الشمس وقد ظلت فى السماء لمدة يوم كامل ، نجد أن الميدراشيم وهو الكتاب القديم الذى يحتوى على الآثار المروية عن الكتاب المقدس ، يذكر أن الشمس والقمر قد توقفا ستا وثلاثين نصف أى ثمانى عشرة ساعة ، وعلى ذلك يكون طول اليوم من الشروق إلى الغروب نحو ثلاثين ساعة ، وتذكر حوليات المكسيك أن العالم حرم من الضوء ، وأن الشمس لم تظهر لمدة أربع ليال متتالية بأيامها ، وإن كان من غير الممكن قياس يوم أو ليل طويل بالوسائل العادية ، التى كانت متوفرة للقدماء ، ويؤكد فليكوفسكى أنه سيتناول مرويات نصف الكرة الأرضية الغربى فى البداية ، لأن قصص الكتاب المقدس لم تكن معروفة لدى سكانه الأصليين فى وقت اكتشاف الأمريكتين. تأكيدا لموضوعية البحث ، وسيبحث فى مختلف الآثار المروية عما يتعلق بالليل الذى طال ، والنهار الذى امتد ، بينما تتعرض الأرض فى نفس الوقت لتساقط الصخور على المستوى العالمى .

(٢)

تدل الآثار المكتوبة فى أمريكا الوسطى على حدوث كارثة طبيعية على

المستوى العالمى ، قبل تلك الكارثة التى شهدها عهد يشوع ، وهو ما يتفق مع ما أورده الكتاب المقدس عن الكارثة التى تزامنت مع خروج بنى إسرائيل من مصر ، والتى تسبق تاريخ يشوع وغزو أرض كنعان بنحو اثنين وخمسين عاما ، وقعت هذه الكارثة الأولى خلال منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، وتعد أعظم قارعة اجتاحت الأرض ، فقد اقترب من كوكبنا جرم سماوى هائل قبل أن يصبح واحدا من أفراد المجموعة الشمسية ، كمذنب جديد ، كان فى طريقه إلى الجانب الأقصى من دائرة أو إهليج مساره ، ولمس الأرض (؟) فى أول الأمر بذيله الغازى ، ولقد كتب سرفيوس عن هذا المذنب بأنه"لم يكن شعلة بل كان احمرارا دمويا"، ومن أبرز العلامات التى تدل على هذا الاحتكاك احمرار سطح الأرض بتراب ناعم فى لون صدأ الحديد ، أدى هذا التراب إلى تلوين الماء فى البحيرات ، والبحار بلون الدم ، كما تذكر مخطوطات جماعات كويتش المسجلة بلغة المايا ، أن نصف الكرة الأرضية الغربى قد تعرض أثناء إحدى الكوارث العظمى لهزة فى الأرض ، واضطراب فى حركة الشمس ، وتحول مياه الأنهار إلى لون الدماء ، وفى الأسطورة اليونانية أطلق على قمة جبل ثراس " هايموس " أى الدموية ، ونقل أبولودوروس الرواية عن التراسيين بأن قمة الجبل سميت هكذا بسبب نبع الدم الذى أخذ يتدفق من الجبل ، حينما كانت المعركة السماوية دائرة بين زيوس وتيفون ، أما الأسطورة الفنلندية التى تسمى كاليفالا ، فإنها تصف كيف أن العالم كان مرشوشا بلبن أحمر أثناء الكارثة ، وتروى أساطير التتار حدوث كارثة حولت فيها الدماء العالم كله إلى اللون الأحمر ، وأعقب ذلك اشتعال النيران ، وتشير ملحمة أورفيوس إلى زمن اهتز فيه أوليمبوس من الخوف، وترنخت الأرض من حوله رعبا ، واضطربت مياه البحار فى أمواج قرمزية اللون ٠ ولقد كانت تسمية البحر من الموضوعات التى أثارت كثيرا من الجدل والنقاش ، لقد كان الناس الذين شهدوا ذلك الاضطراب الكبير وفروا بأرواحهم إلى شواطئه ، هم الذين أطلقوا صفة الحمرة على

ذلك البحر .

بعد التراب الأحمر ، تطايرت رجوم من النيازك فوق الأرض ، ودخلت أرضنا فى ذيل المذنب ، وكان التراب مقدمة لسقوط الحجارة ، وكان سقوطها مصحوبا بضوضاء شديدة كالرعد ، أشبه بالانفجارات ، ويوجد وصف لمثل هذه الكارثة فى كتاب " فيسودهى - ماجا " البوذى ، كما تصف حوليات كواهيتتلان المكسيكية كيف أن القارعة الكونية كانت مصحوبة برجوم من الحجارة ، ويذكر الكتاب المقدس أن هذه الأحجار كانت مختلطة بالنار ، وصاحب سقوطها ضوضاء عالية كالرعد .

تتكون ذيول المذنبات أساسا من غازات الكربون والهيدروجين ، وهى لاتشتعل أثناء مسيرها لعدم وجود أوكسوجين ، إلى أن تصطدم بالغلاف الجوى ، فيشتعل بعضها ، ويتحول البعض الآخر غير المحترق إلى سائل، إلى نفط ، فالنفط الخام يتكون من عنصرين الكربون والهيدروجين ، وتحتفظ بعض الآثار المروية والنصوص المكتوبة لكثير من الشعوب بذكر وصول سائل لزج أو دخان ثقيل إلى الأرض ، من السماء ، فيروى كتاب "بوبول - فو " وهو الكتاب المقدس لقبائل المايا ، كان هناك خراب ودمار ... فارتفع البحر .. وكان هناك طوفان وغرق عظيم ... وغرقت الناس فى سيول من مادة سائلة ثقيلة تساقطت من السماء ... وتحول وجه الأرض إلى سواد ... وظل المطر القاتم يتساقط لعدة أيام طوال الليل والنهار .. ثم اشتعلت النيران فوق الرؤوس " .. وهلك جميع سكان الأرض .وتؤكد مخطوطة كويتش صورة هلاك سكان المكسيك فى واقعة تساقط بيتيومين من السماء ، فى هيئة أمطار من مادة لزجة ... وأظلمت الأرض فى سواد .. واستمر هذا التساقط ليل نهار ، وهناك رواية مماثلة فى حوليات كواهيتتلان ، أما فى النصف الآخر من الكرة الأرضية ، فى سيبيريا ، فمازال الشعب هناك يذكر أن الإله أرسل النيران كالأمطار إلى الأرض فأطلقوا عليها (مياه النيران) ، وفى الجزء الجنوبى من نصف الكرة الشرقى يذكر السكان الأصليون فى جزر الهند الشرقية

أنه فى الماضى البعيد سقطت مياه النيران من السماء كالأمطار ، لقد كان الوباء الثامن كما جاء وصفه فى سفر الخروج " برد ونار متواصلة فى وسط البرد شيء عظيم جدا لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة (٩/٢٤) وكان هناك " رعود وبرد وجرت النار على الأرض (٩/٢٣) ، وتذكر الميدراشيم فى العديد من نصوصها أن النفط والحجارة الملتهبة تساقطت على مصر ، وصب الرب النفط على المصريين يحرق بشرتهم ، وكان النفط ينصب عليهم كالسيل ، وتحتوى حكاية التيه فى الصحراء على إشارات عديدة للنيران التى تهب مشتعلة من الأرض ، فأثناء رحيل الإسرائيليين من جبل الرب ، اشتعلت فيهم نار الرب وأحرقتهم (سفر العدد ١١/١) .

دخلت الأرض إلى عمق أكبر فى ذيل المذنب المندفع ، واقتربت من جسم المذنب ، فاضطرب دورانها ، ولفت الأرض عاصفة هوجاء بسبب تغير أو انحراف سرعة الدوران ، وخيم الظلام ، بلغت الظلمة حدا جعل المصريين " لا يبصر أحد أخاه " ، انطفأ النور والوميض المنبعث من النيران ، نتيجة العاصفة ، جاء فى سفر الخروج " فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام ، لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام " (١٠/٢٢) ، وكتب كايوس جوليوس سولينوس أنه فى أعقاب الطوفان الذى وقع فى عهد (أوجيجس) عم ليل طويل دامس لف كل الأرض ، وفى مخطوطات (افيلا) و (مولينا) اللذين جمعا الآثار المروية لدى هنود العالم القديم ، ورد أن الشمس قد غابت مدى خمسة أيام ، سبقها صدام بين الأجرام السماوية ، وفى مرويات أهالى بيرو ، أن الشمس اختفت خمسة أيام فى اضطراب أصاب الأرض ، فغيرت وضعها ، وطغت مياه البحر على بعض الأرض ، وفى بابل إلى الشرق من مصر ، تشير أسطورة جلجاميش إلى نفس الأحداث ، ظهرت سحابة سوداء من الظلام ارتفعت واندفعت نحو الأرض ، التى لم تقاوم الحرارة وألسنة اللهب ، وانتشرالخراب والدمار من الأرض إلى السماء ... وكل

ما كان مضيئا تحول إلى ظلام دامس ٠٠ واستمرت العواصف الهوجاء ، والفيضانات والأعاصير تهب على الأرض ، ويكشف كتاب (انوجيتا) الفارسى عن زمن ظلت فيه الأرض لمدة ثلاثة أيام بلياليها فى ظلام كامل ، أما كتاب (بانداهيس) فيذكر أن الدنيا فى منتصف النهار ، أصبحت كأنها ليل بهيم دامس من الظلام بسبب حرب وقعت بين الكواكب والنجوم.

بعد أن أرغمت الأرض على تغيير طبيعة حركة دورانها ، تحت تأثير اقتراب المذنب ، حدثت صدمة كبرى لغلافها الصخرى ، وتحولت الأرض كلها إلى منطقة زلازل ، وكان هذا هو المظهر التوراتى العاشر للكارثة ، ففى سفر الخروج " فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين ، وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت " (١٢/٣٠) ومما يؤكد أن المظهر العاشر من البلاء الذى نزل بمصر كان الكارثة ، وصف (ارتابانوس) لليلة الأخيرة قبل الخروج، نقلا عن (ايوسيب يوس)، " كان هناك برد أو رجوم وزلزال أثناء الليل ، وكل من فر من الزلزال قتلته الرجوم وسقطت المنازل فى وقت واحد ، وكذلك معظم المعابد " ، وكتب (هيرنيموس - سانت جيروم) فى إحدى رسائله اللاهوتية أنه " فى الليلة التى تم فيها الخروج ، هدمت جميع معابد مصر ، إما بالزلازل أو بالعواصف الرعدية " ، وفى الميدراشيم كانت الكارثة السابعة هى كارثة البرد أو الرجوم ، والزلزال ونيازك النار ٠

(٣)

حدث تحول سريع فى الجو تحت تأثير الجزء الغازى من المذنب ، واندفع تيار من الهواء ، منجذبا إلى المذنب ، نتيجة للقصور الذاتى ، حين توقفت الأرض عن الدوران ، أو تحول اتجاه قطبيها ، وأدى ذلك كله إلى أعاصير هوجاء اندفع هواؤها بسرعة فائقة ، وشمل الأرض كلها ٠ وتورد مخطوطة تروانو ، وغيرها ، من وثائق شعب المايا وصفا لكارثة عمت العالم كله ، طغى أثناءها المحيط على القارة ، وعمت الأرض أعاصير

رهيبة ، ودمرت الأعاصير مدنا بأكملها ، وهددت البراكين الثائرة والمد الذى كالجبال والرياح العاصفة الحياة البشرية كلها بالفناء . وتروى جماعات (الماورى) أنه فى أثناء كارثة جائحة ، هبت رياح قوية فى دوامات شديدة ، وتكاثفت السحب ، وعم الظلام ، وظل الهبوب والاجتياح مستمرا ، وارتفعت الأمواج كالجبال ، وأنت الأرض من الأهوال . وفى أسطورة الكون اليابانية اخفت إلاهة " الشمس نفسها لمدة طويلة فى كهف سماوى ، خوفا من إله العاصفة ، وأصبح العالم كله ظلاما ، ودمر إله العواصف العالم دمارا شديدا ودوت ضجة كبرى ، وتزلزلت الأرض رعبا .

إذا اقترب جسم أكبر من القمر من الأرض ، من المفترض أن يكون له تأثير يفوق تأثير القمر ، ولا بد أن يؤثر مذنب يقترب فى حجمه من حجم الأرض على مياه المحيطات (المد والجزر) ، فيرفع المياه فى مد يصل إلى بضعة أميال ، وقد يؤدى انخفاض سرعة دوران الأرض إلى حدوث مد أو انحسار للمياه باتجاه القطبين ، وقد يؤدى الجرم السماوى المقترب إلى اختلال هذا المد، بجذب المياه نحوه ، وهناك تكرار فى روايات كثير من الشعوب عن تشتت المحيطات ، وارتفاع مياهها عاليا ، ثم سقوطها فوق القارات ، ولقد جاء فى الحوليات الصينية انه حدث فى عهد الامبراطور (ياهو) أن الشمس لم تغرب لمدة عشرة أيام ، وبلغت المياه فى امتدادها ارتفاعات عظيمة ، كادت تهدد السماء بالفيضان ، وغطت مياه المحيط قارة آسيا ، وتدفق مد عظيم من المياه فوق جبال أواسط الصين وحجزت المياه فى الوديان ، وظلت الأرض مغمورة بالمياه لعشرات السنين ، وتخبرنا مرويات سكان بيرو أن الشمس غابت عن السماء مدة خمسة أيام وخمس ليال ، وتحرك المحيط من مكانه وغمر القارة فى اندفاع قوى ، كما يحكى هنود شوكتا من أوكلاهوما ، أن الأرض احيطت بالظلام مدة طويلة . قبل أن يظهر الضوء الساطع من الشمال ، وزحفت أمواج كالجبال ، وفى كل الروايات يتلازم عنصران ، الظلام المستمر ، وحين ينقشع يبدأ

المد ، وتشتمل الرواية العبرية عن عبور البحر نفس العنصرين ، فقد كان هناك " ظلام دامس فى كل أرض مصر (الخروج ١٠/٢١) ، وفى آخر أيام الظلام ، عندما خرجت الأرض من الظلام ، كان قاع البحر خاليا من المياه ، كما جاء فى التوراة ، وتجمعت المياه كالحوائط على الجانبين .

فى الوقت الذى تراكمت فيه مياه البحار فى كتل مد ضخمة ، كانت السماء تموج بما يشبه المعركة الكبرى ، فحينما مرت الأرض خلال الغازات والأتربة والنيازك ، التى انبثقت من ذيل المذنب ، واضطرب دورانها فى مدارها ، ظهر رأس المذنب فى أفق نصف الكرة الشمالى ، وواجه نصف الكرة الشرقى خلال الظلام ، وكان رأس المذنب قد مر قبل ذلك بقليل أمام الشمس ، واضطرب تكوينه ، وفى الليلة التى حدثت فيها الهزة الأرضية العنيفة ، وفقا لكتابات الأحبار ، ظهر ضوء لامع ، وترك المذنب مساره ، وسار فى مسار حول الأرض تقريبا ، ثم تراجعت كرة المذنب مرة ثانية واقتربت من الأرض عبر الظلام ، فيما يشبه العمود الغازى المعتم فى النهار ، وما يشبه لهب النار فى الليل ، ومرت الأرض مرة أخرى عبر الهواء المحيط بالمذنب ، وصحب هذه المرحلة تفريغ كهربائى قوى بين الهواء فى ذيل المذنب ، والهواء الأرضى ، ومرت فترة ستة أيام بين حدوث هذين الاقترابين الكبيرين ، وبدت الأرض من خلال الغازات المندفعة من المذنب ، وكأنها تغير اتجاه مدارها ، وتحرك عمود الدخان إلى الاتجاه العكسى ، وبدا العمود كأنه ثعبان ضخم يتحرك .

حينما بلغ الموج اقصاه ، وانفصلت البحار عن بعضها ظهر وميض ساطع فيما بين كرة الجرم السماوى ، والأرض ، وهبط الموج الذى ارتفع أميالا فى السماء ، وفى نفس الوقت بدأ جسم المذنب وذيله يتبادلان الشحنات الكهربية نتيجة احتكاكهما المباشر مع الأرض ، وبدا الأمر وكأنه معركة بين الكرة اللامعة ، وعمود الدخان المظلم ، وفى تبادل تفريغ التيارات الكهربائية ، أخذ رأس المذنب وذيله يتجاذبان ويتباعدان عن بعضهما ، وفقد عمود الدخان شكله ، متشبها بالحيوان الرهيب ذى

الأرجل والرؤوس المتعددة ، ثم أدى التفريغ الكهربائى إلى تجزئة العمود ، وصحب ذلك سقوط مطر من النيازك على الأرض ٠ وبدت الصورة كما لو أن ذلك الوحش قد تعرض للهزيمة أمام الكرة المضيئة ، وغاص فى مياه البحر ، ثم انتشرت غازاته حول الأرض ٠

حين رأى الناس ما يحدث فى السماء ، تراءى لهم المشهد كمعركة وقعت بين الثعبان الهائل الشرير ، وإله النور ، الذى حارب الشر ، وأنقذ العالم، واحتفظت العقائد الدينية والأساطير والمرويات الشعبية بهذا الحدث ، ومن أهم هذه المرويات مارواه (أبولودوروس) عن تفاصيل المعركة التى دارت بين زيوس والتيفون ٠

ومن بين الأماكن التى وقعت فيها أحداث هذا الصراع كما يحكيها أبولودورس واسطرابون ، الطريق من مصر الى سوريا ، وطبقا لما ذكره هيرودوتس وقعت المعركة الأخيرة بين زيوس وتيفون عند بحيرة سيربون على الطريق الساحلى بين مصر وفلسطين ، وهى المعركة التى شاهدها الإسرائيليون ، وهم فى طريقهم إلى فلسطين ، بعد ليلة من الرعب ، ومواجهة الريح الشرقية القوية ، وقد أدت هذه الظروف التى تزامنت فى وقت واحد إلى نتيجة قد تبدو غريبة للغاية ، تيفون ملقى فى قاع البحر؛ حيث رأى الإسرائيليون الاقتراب الأرضى ، وشهدوا الظلام والعواصف الرعدية وجبال الماء والنار والدخان ، وغير ذلك مما سجلته الملحمة اليونانية أثناء وقوع المعركة بين الوحش تيفون وبين زيوس ، وفى نفس الوقت كانت جثة الفرعون ومضيفيه تطفو على سطح الماء ، ألا يكون تيفون هو الفرعون ؟ ٠ فى كتاب بلينى عن التاريخ الطبيعى فقرة تنص على أن أهالى إثيوبيا ومصر شاهدوا مذنبا مخيفا ، أطلقوا عليه اسم ملك ذلك الزمان ، وكان اسمه تيفون٠ وكتب (هيفليوس) أنه فى السنة العالمية ٣٤٥٣ أى ١٤٩٥ ق ٠ م شوهد فى سوريا وبابليون والهند مذنب على شكل قرص ، وكان ذلك فى الوقت الذى يسير فيه الإسرائيليون خارجين من مصر إلى أرض الميعاد ، هكذا

قال روكنباخ ، ويحدد (كالفيسيوس) زمن الخروج بنفس هذه السنة. ومن بين الكتاب القدامى أيضا (ليدوس سير فيوس) الذى نقل عن (افينوس هيفا يستون) و (جانكتيوس) الذين تحدثوا أيضا عن المذنب ، ووصفوه بأنه لم يكن جرما ناريا ولكنه أحمر كالدم ، تسبب فى الدماء أثناء ظهوره ، واختفائه ، وفى انتشار الطاعون والشرور والمجاعات .

(٤)

حينما اقترب الجرمان السماويان من بعضهما ، أخذ باطن كل من الكرتين ينجذب إلى الخارج ، فالأرض التى اختل مسارها أخذت تولد حرارة ، وأصبح السطح حارا ، ووصفت روايات الشعوب انصهار سطح الأرض ، وحدوث الغليان فى المحيطات ، وتدفقت طفوح اللافا ، وسجل الكتاب المقدس المكسيكى (بوبلوفواه) ، ومخطوطة كوكسيكويل ، ومخطوطة تروانو ، كيف تدفقت جبال نصف الغربى بطفوح اللافا جميعها فى وقت واحد ، وكيف انتهت الساعات الأخيرة بأمطار من النيران ، وكيف تضخمت سلاسل الجبال نتيجة المواد المنصهرة ، وظهرت براكين جديدة . وقد ورد فى الكتاب المقدس أوصاف تشبه ما ورد فى الكتب المكسيكية واليونانية ، وتعلن المصادر اليهودية التى احتفظ بها الأحبار أن الطين الذى كان يغطى قاع البحر فى منطقة العبور كان ساخنا .

ومن بين سلسلة جبال الساحل الشرقى المطل على البحر الأحمر التى يتوسطها عدد من الفوهات البركانية الخامدة ، جبل يسمى جبل الوحى ، ذلك الجبل الذى تلقى عليه موسى الوحى ، بعد خمسة أسابيع أو بعد شهرين فى حسبة أخرى اعتبارا من يوم الخروج إلى يوم الوحى فى جبل سيناء . (كان جبل سيناء كله يدخن لأن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل ، فكان صوت البرق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت) ، ووصف التلمود والمدراشيم جبل الوحى بأنه كان يهتز بشدة حتى بدا وكأنه ارتفع إلى أعلى وأخذ يهتز فوق رؤوس الناس ، وفى المزامير (فارتجفت الأرض

وارتعشت أسس الجبال ، وارتعدت وارتجفت لأنه غضب . وصعد دخان من أنفه ، ونار من فمه أكلت جمرا واشتعلت منه . طأطأت السماء ونزل ضباب تحت رجليه .. أرعد الرب من السماوات العلى ... ثم ظهرت أعماق المياه . وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يارب ..) (المزمور ١٨ (٧ – ١٥) .

وطبقا لما جاء فى الآثار العبرية سمع كل الناس ضجيج الوحى ، هذا الضجيج المصاحب للزلازل والانفجارات أو الثورات البركانية ، سمع موسى الصوت فى صمت الصحراء ، فترجمه " أنا هو الذى أهيه (سفر الخروج ٣/١٤) ومعناها أنا الذى هو أنا أو أنا يهوا أو أنا الرب إلهك، وفى هذا الضجيج الرهيب ، سمع العبرانيون الوصايا العشر ، لا تقتل (لوتيرزاخ) لاتزن (لوتينافى) لاتسرق (لوتيجوف) إلى آخر الوصايا . ولم يقتصر الاستماع إليها على الإسرائيليين فقط بل سمعها كل سكان الأرض .

وربما كان للصوت نفس الوقع فى كل أنحاء العالم؛ لأنه كان يأتى من باطن الأرض ، فملك الصين العظيم ، واضع القوانين الذى حدثت فى عهده القارعة الرهيبة ، التى أخلت بكل قوانين الطبيعة ، كان يحمل اسم (ياهو) ، وفى نصف الكرة الغربى؛ حيث عاش أجداد الهنود الحمر ، سمعوا نفس الصوت عندما اقتربت السماء من الأرض ، فرفعوا أيديهم إلى السماء وهم يصيحون (ياهو) .

(٥)

يدور كوكب الأرض حول نفسه من الغرب إلى الشرق ، فهل كان هكذا دائما ؟ ، فى هذا الدوران تظهر الشمس من المشرق وتختفى فى المغرب ، فهل كان المشرق هو الموضع الأزلى لشرق الشمس ؟ هناك أدلة من جميع أنحاء العالم تدل على أن الجانب الموجه نحو الغرب كان فى وقت من الأوقات يواجه المشرق . كتب (بومبونيوس ميللا) المؤلف اللاتينى فى القرن الأول أن المصريين يتفاخرون بأنهم أقدم شعب فى العالم ، وربما

قرأنا فى حولياتهم الأصلية أنه منذ أن تواجدوا على الأرض ، تغير مسار واتجاهات النجوم أثناءها أربع مرات ، وأن الشمس غربت مرتين فى الجزء الذى تشرق منه من السماء فى الوقت الحالى ، وتتحدث بردية هاريس السحرية من البرديات المصرية ، عن كارثة كونية ، انقلبت الأرض فيها ، وأصبح الشمال جنوبا ، والجنوب شمالا . كما يوجد فى مقبرة سنموت ، مهندس الملكة حتشبسوت شكل يصور الكرة السماوية توضح علامات البروج ، وغيرها من المجموعات النجمية ، وكلها فى موقع عكسى بالسماء الجنوبية . وكتب أفلاطون فى محاوراته : فى وقت من الأوقات كان الكون يسير فى اتجاه دورانه الحالى ، وفى أوقات أخرى يسير عكس هذا الاتجاه ، ويعتبر التغير فى الاتجاه هو أعظم وأكمل انقلاب حدث فى السماوات . وقد حدث فى ذلك الوقت هلاك عظيم فى الحيوانات عامة ، ولم يبق من الجنس البشرى إلا القليلون .

وفى القرن الثالث الميلادى ، عاش الكاتب اللاتينى (كايوس جوليوس سولينوس) فى مصر قرب حدودها الجنوبية ، وكتب أن السكان هناك يحكون أنه حدث فى أيام أسلافهم القدامى أن الشمس كانت تشرق من حيث تغرب الآن ، وتغرب من حيث تشرق الآن .

هذه الشمس التى تتحرك نحو الشرق فى عكس اتجاه الشمس الحالية هى التى سماها الهنود الحمر باسم " تيوتل ليكسكو " وإذا كان استبدال الشرق بالغرب ، والعكس ، قد صحبه تبدل الشمال والجنوب ، فإن معنى ذلك أن المجموعات الجنوبية تصبح شمالية ، والعكس صحيح ، كما رأينا فى مقبرة المهندس سنموت ، فنجوم الشمال أصبحت نجوم الجنوب ، والعكس .وفى المصادر العبرية " تراكتات سانها درين من التلمود نص يقول " حدث قبل الطوفان بسبعة أيام أن غير الرب النظام السماوى الأزلى ، وأشرقت الشمس من الغرب ، وغربت فى الشرق .

الكرة الأرضية مغناطيس كبير ، وقد يؤدى حدوث تجاذب قصير بين الأرض وبين أى جرم سماوى آخر ، إلى تغير قطبى الأرض تغيرا عكسيا ،

وبإمكاننا أن نكتشف فى السجلات الجيولوجية عن اتجاه المجال المغناطيسى للأرض فى الأزمنة القديمة ، ويؤكد (ماك نيش) على حقيقة أن الاتجاه المنعكس للأقطاب المغناطيسية فى اللافا ، يدلنا على أن القطبية المغناطيسية للأرض ، قد تغيرت تغيرا عكسيا خلال العصور الجيولوجية الحديثة؛ حيث إن اللافا اتخذت فى تدفقها وسيلها اتجاهات مختلفة باتجاه دوران الكرة الأرضية .

لم تبق الأرض على نفس مسارها ، ولم يستمر القطبان فى مكانهما ، ولم يكن انحراف المحور الآن كما كان انحرافه من قبل فوضع الكرة الأرضية ومدارها ومسارها لم يكن مستقرا ، حينما التقت لأول مرة مع المذنب المندفع ، ويخبرنا التلمود وغيره من المراجع اللاهوتية عن حدوث اضطرابات فى حركة الشمس ، وقت الخروج ، وعبور البحر ، وتلقى الوحى ، وفى المدراشيم القديم تتكرر رواية تغيير الشمس لمسارها أربع مرات خلال أسبوع واحد فيما بين يوم الخروج ويوم تلقى الوصايا العشر .

وسواء أكان هناك انقلاب عكسى كامل أم جزئى نتيجة للكارثة الكونية التى تزامنت مع أيام الخروج ، أو كان الأمر مجرد تحول مؤقت ، فقد تبدلت الأماكن ، وقيل فى المدراشيم عند تناول فترة التيه فى الصحراء ، إن القفر استغلق على الإسرائيليين ، " ولم يكونوا يدركون فى أى اتجاه يسيرون فيه فقالوا للرب لاتتركنا لأنك تعرف منازلنا فى البرية فتكون لنا كعيون " .

تغير مسار الأرض إلى فلك بعيد عن الشمس فتغير وضع المناطق القطبية ، وتبخرت مياه البحار والمحيطات ، وتكاثفت ثم سقطت كثلوج فى المناطق القطبية الجديدة ، والعروض الأخرى من الكرة الأرضية . وتكون شتاء طويل أدى إلى تكوين الغطاء الجليدى ، واختل محور الأرض الذى تدور حوله ، وغير اتجاهه ، وتغيرت بذلك فصول السنة وترتيبها ، أصبح الربيع عقب الشتاء ، والخريف عقب الصيف ، فحينما خرج الإسرائيليون

من مصر فى نهاية الدولة الوسطى ، انتهى النظام السابق للفصول ، وبدأ عصر جديد بنظام فصول جديد ، ويؤكد الإصحاح الرابع من سفر عزرا أن الرب أرسل موسى إلى قومه فى مصر ، وأخرجهم إلى جبل سيناء ، وقبضهم عنده عدة أيام وأخبره بكثير من العجائب ، وأعلن له انتهاء الفصول ، ويشير المدراشيم إلى أن موسى لم يكن قادرا على فهم التقويم السنوى الجديد أو بشيء من التحديد أسرار التحول من حساب زمنى إلى حساب آخر . وفى المصادر اللاهوتية أن موسى أدهشته التغيرات التى طرأت على مسار الأجرام السماوية . أن الوضع الغريب الذى طرأ على التقويم السنوى اليهودى هو الذى جعل السنة الجديدة تبدأ فى الشهر السابع من السنة ، وبذلك تحرك أول العام إلى نقطة تبعد نصف سنة عن السنة الجديدة فى الخريف .

(٦)

حاول مفسرو التوراة أن يشرحوا ظاهرة المن ، التى أوردها سفر الخروج فى الإصحاح ١٦ (١٤-٣٢)

(حينما تساقط الندى فوق المحلة أثناء الليل سقط المن فوقها) ، وكان أشبه ما يكون (بضجة سقوط البرد على الأرض) (وكان كبذر الكسبرة ومنظره كمنظر المقل وطعمه كطعم قطائف بزيت) ، وكان الشعب (يطوفون ليلتقطه ثم يطحنونه بالرحى .. ويطبخونه فى قدور ويعملونه أرغفه خبز ، وكانوا يسمونه (بر السماء) وكان يسقط مع السحاب ، ويقال فى التلمود أيضا إن السحب أتت بخبز السماء ، وإذا كان المن قد تساقط من السحب فإن ذلك يعنى أنه غطى العالم كله ، ولم يقتصر على صحراء التيه ، ولا بد لوحدث ذلك أن تكون كل الشعوب قد تذوقته ، وتحدثت عنه فى آثارها المروية .

عند الايسلنديين : مر على العالم عام اشتعل فيه حريق أعقبه شتاء قارس لم يبق من البشر سوى اثنين ذكر وأنثى، تغذيا على طل الصباح ، أما الماورى سكان نيوزيلندا فيروون أن رياحا ملتهبة وسحبا عاتية دفعت

المياه فى أمواج مد عالية لمست السماء وصحبها قصف رجوم ، وعندما انتهت القارعة كانت نتيجة العاصفة ضبابا وندى كثيفا وندى خفيفا ، مثلما جاء فى الآية ٩ من الإصحاح الحادى عشر من سفر العدد ، كما تربط الروايات البوذية بين قارعة دمرت العالم وتساقط المن والسلوى من السماء لتكون طعاما للجياع ، وأطلق اليونانيون على خبز السماء اسم " امبروز " أى السلوى ووصفوه فى شعرهم بوصف يشبه وصف المن ، له مذاق كالعسل ، ورائحة ذكية ، فما يكون هذا الطعام السماوى ؟

حينما أصبح الهواء مشبعا بالبخار ، أخذ الندى والمطر والبرد والثلج يتساقط ، وغالبا ما أفرغ الغلاف الهوائى مركباته من الكربون والهيدروجين بطريقة مشابهة ، وهكذا تساقطت الكربوهيدرات خلال سنوات الظلام .

كانت قطع العسل تسقط بكميات كبيرة ، وفى الروايات التلمودية ، أن ما كان يسقط من كل يوم يكفى لغذاء الناس جميعا لمدى الفى عام . وكان بمقدور كل الشعوب من الشرق والغرب أن تراه .

وبعد بضع ساعات من طلوع النهار تؤدى الحرارة إلى ذوبان الحبات وتطايرها ، وتمتص الأرض بعضا من سائله كما تمتص الندى ، وكانت قطع العسل تسقط أيضا على الماء فتصبح الأنهار بيضاء كاللبن .

ويذكر المصريون القدماء أن النيل جرى يوما بالعسل ، واستمر جريانه هكذا لفترة من الزمان ، ولعل المظهر الغريب لأنها ر فلسطين جعل الإسرائيليين الذين لم يشاهدوا أى نهر فى الصحراء ، يعودون فيقصون على أهلهم ، آن الأنهار فى فلسطين تجرى بالعسل واللبن (سفر العدد - ٢٧/١٣) .

(٧)

تلك الأحجار الملتهبة المعلقة فى السماء أثناء عبور موسى ، كما ورد فى أقوال التلمود والميدراش ، ظلت تهدد بالسقوط المصريين ، حتى سقطت على الكنعانيين ، مما يعنى أن ذيل المذنب الذى مر على الأرض

أثناء الخروج ، بقى فى نطاق الأرض لمدة خمسين عاما تقريبا ، حتى سقط فى عهد يشوع فى وادى بيت حرون ، فى نفس عصر اليوم الذى توقفت فيه الشمس والقمر عن السير لمدة يوم كامل ·

مر نفس المذنب قرب الأرض بعد خمسين عاما من مروره الأول · وفى مروره الثانى لم يسبب تغيرا عكسيا فى قطبى الأرض ، ولكن ظل محور الأرض مائلا أكثر لمدة طويلة ، ومرة أخرى كما ذكر الأحبار تعرض العالم لدوامة من الهواء ، وارتجت جميع الممالك ، وارتجفت وزلزلت الأرض ·

(٨)

النصوص المكسيكية القديمة تحتفظ بآثار مروية عن فترة اثنين وخمسين عاما لها دور هام فى تتابع الكوارث الطبيعية ، وأن فترة الاثنين وخمسين عاما قد فصلت بين كارثتين ، وتتضمن الروايات الإسرائيلية أربعين عاما من التيه فى الصحراء - بعد الخروج - واستغرق غزوهم لكنعان أربعة عشر عاما منذ بداية الغزو حتى معركة بيت حرون وتوقف الشمس والقمر ·

وحتى وقتنا الحاضر ، يتوقع المكسيكيون حدوث قارعة فى نهاية كل فترة تبلغ اثنين وخمسين سنة ، وحينما تأتى ليلة هذه الذكرى يمتلئ الجميع بالخوف خشية أن يكون الحدث نهاية للجنس البشرى ، ويرقبون ظهور كوكب الزهرة ، فإن لم تقع الكارثة تبدأ فترة جديدة من الخير ، ويبدأ كوكب الزهرة دورته الجديدة ، وهكذا ترتبط فترة الاثنين وخمسين عاما التى يعتبرها المكسيكيون القدامى فترة بينية تفصل بين كارثتين عالميتين بكوكب الزهرة ·

ماهو المذنب الذى غير مساره ؟ أو ما هو الكوكب الذى كان فى العصور التاريخية مذنبا قبل أن يتخذ مساره حول الشمس ؟ لقد حدث بعد أحداث الخروج المأساوية فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ، أن تحول مذنب إلى كوكب احتك مع كوكب الأرض ، لفت الأرض سحابات كثيفة استمرت عشرات السنين ، وتعذر معها رؤية النجوم ، ثم بعد

الاحتكاك الثانى اتخذ كوكب الزهرة اللامع مكانه فى المجموعة الشمسية. واتخذ له مسارا ثابتا وكان ذلك فى عهد يشوع .

ورد فى كتاب مدينة الإله لأوغسطين نقلا عن كتاب ماركوس فارو عن اجناس الشعب الرومانى ، أنه قد وقعت كارثة سماوية كبرى ، فالجرم اللامع كوكب الزهرة تغير لونه وحجمه وشكله ومساره ، مما لم يسبق حدوثه ، وأن مشاهير علماء الرياضيات قالوا إن ذلك حدث فى عهد أوجيجس . ويعتقد آباء الكنيسة أن أوجيجس هذا كان معاصرا لموسى ، وأضاف أوغسطين أنه ليس من شك فى أن هذه الظاهرة تخل بالقوانين الفلكية ، ولكن الكتاب المقدس ذكر أنه حتى الشمس ذاتها توقفت دون حراك حينما دعا الرجل المقدس يشوع بن نون ربه ، كما ذكرت حوليات السومريين أنه فى أثناء غزو الإسرائيليين لفلسطين بقيادة يشوع ولد كوكب جديد فى الشرق . يعجز كل سحر من وصف جماله .

فى أحد الجداول الفلكية الهندسية اشارة إلى أن كوكب الزهرة فى عام ٣١٠٢ لم يكن ظاهرا بين الكواكب ، ولم يكن البراهمانيون الأوائل يعرفون عن وجود خمسة كواكب إلا فى فترة متأخرة ، وعند البابليين أيضا نظام أربعة كواكب فقط ، زحل ، والمشترى ، والمريخ ، وعطارد ، وفى تاريخ متأخر ، يأتى ذكر كوكب الزهرة على أنه الكوكب الذى انضم إلى النجوم العظمى (عطارد والمريخ والمشترى وزحل) .

على مدى القرون التى كان كوكب الزهرة فيها مذنبا ، كان له ذيل ، وفى الآثار المكسيكية المروية فى عصر ما قبل كولمبس أن فينوس يدخن ، الكوكب الذى يدخن هو " ستيلاى كولوخا " وهو الاسم الإسبانى لكوكب الزهرة ، وفى الفيدا الهندوسية أن كوكب الزهرة يشبه النار ذات الدخان، وورد فى التلمود : النار معلقة إلى أسفل من كوكب الزهرة ، ووصف الكدانيون الزهرة بأن لها ذقن ، وسماه المكسيكيون النجم المدخن واعطوه أيضا اسم " اتزون موك " أو " ذو العرف " . وأطلق العرب عليه اسم " زباج " أو " عشتار " ومعناها ذو الشعر

(٩)

النظرية الحديثة التى تنسب مولد كوكب الأرض إلى جاذبية جرم سماوى أكبر ، يمكن أن تنطبق أيضا على مولد كوكب الزهرة ، وكذلك النظرية الحديثة الثانية التى ترجع أصل المذنبات القصيرة العمر إلى انبثاق من الكواكب الأخرى ، تصح هنا أيضا ، فالزهرة خرجت أو انفتقت كمذنب ثم تغيرت إلى كوكب ، بعد أن احتكت بعدد من أفراد المجموعة الشمسية .

إن كوكب الزهرة خلال فترة طولها اثنان وخمسون عاما أدى إلى وقوع كارثتين عالميتين ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد ورد فى كثير من نصوص الكتاب المقدس والنصوص اللاهوتية أنه حينما ترك الاسرائيليون جبل سيناء إلى الصحراء ، كانت تغطيهم الغيوم الكثيفة والسحب ، وعمود من نار يشع من تلك السحب ضوءا خافتا . وفى سفر اشعياء " الشعب السالك فى الظلمة أبصر نورا عظيما والجالسون فى أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور (نوجا) - (٢١٩) ، ونوجا أو النور هو كوكب الزهرة فى اللغة العبرية .

وكان أهالى - أوجاريت " راس شمرا " فى سوريا ، يخاطبون كوكب الزهرة " قلبت أوضاع الفجر فى السماء ، ويعتقد أهل أفاشا فى سوريا بأن نارا سقطت من السماء ، ومن المؤكد أنها سقطت من كوكب الزهرة وانتشرت عبادة فينوس أو كوكب الزهرة فى هضبة اليهودية وتميز كوكب الزهرة عند البابليين عن الكواكب الكبرى ، بعبادتهم له كفرد من ثلاثى هو الشمس والقمر والزهرة ، وفى الفيدا الهندية يقابل كوكب الزهرة النور ، بما أنك نور فإنك تطلق نارا على الأرض والسماوات ، ومنذ وقت غير بعيد فى بولينزيا كانت الأضاحى البشرية تقدم لنجم الصباح ، كوكب الزهرة . كما تقدم الأضاحى من بنات وبنين عند العرب للعزى .

وصور كوكب الزهرة عند البابليين كنجم سداسى الزوايا مثل نجمة داود ، أو ذات خمس زوايا مثل خاتم سليمان .

فى النص البهلوى الفارسى ، يصف (بونداهيس) الكارثة التى سببها الجرم السماوى ، ففى نهاية عصر من العصور العالمية ، اتجهت الروح الشريرة أهريمان إلى الجرم المضىء ، ووقف على ثلث السماء ، وقفز مثل الحية إلى الأرض ، فى يوم الاعتدال الخريفى ، ثم اندفع إلى القمر ، وتشققت السماء وارتجفت خوفا ، واندفع كالذبابة يحوم حول كل الخلق ، وينزل الأذى بالعالم ، وخيم الظلام وسط النهار ، وانتشرت الهوام على يديه فى أنحاء الأرض ، تلدغ وتعض ، مثل الحيات والضفادع والسحالى ، حتى لم يبق سم إبرة خال من الهوام ٠

ويصف الكتاب المقدس فى سفر الخروج انتشار الهوام والحشرات فى الإصحاحين الثامن والعاشر ، وكذلك فى المزمور ٧٨ ، مد (هارون) يده بعصاه وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم ، كل تراب الأرض صار بعوضا فى جميع أرض مصر ، (فى كل أرض مصر خربت الأرض من الذباب) ، وتسببت الهوام والحشرات فى الطاعون الثانى والثالث والرابع والثامن ٠ ويسمى الأحبار ذباب الكلب بالباعوض ، وقد ورد فى المزمور ١٠٥ عن الظلمة التى أرسلت على البلاد، وعن الجراد والضفادع ، التى أتت بلا عدد ، وأكلت كل الزروع ، (وأفاضت أرضهم ضفادع حتى فى مخادع ملوكهم) ، و(أمر فجاء الذباب البعوض فى كل تخومهم) ٠

ولقد ترك العمالقة الجزيرة العربية بسبب نمل من أصغر الأنواع ، وأخذوا بجوبون أرض كنعان فى نفس الوقت الذى خرج فيه الإسرائيليون من مصر ، وفى الحوليات الصينية التى تصف زمن (ياهو) أنه حينما لم تغرب الشمس لمدة عشرة أيام ، دمرت الحرائق غابات الصين ، وخرجت الهوام والحشرات وغزت كل الأراضى ، وبعد انتهاء الدولة الوسطى بمصر بدأ المصريون يتخذون الذبابة من شعاراتهم ٠ ولقد ربطت كل شعوب العالم بين كوكب الزهرة والذباب ، فيطلق آريس (مارس) شخصية الإلياذة المعروفة على أثينا (الزهرة) اسم ذبابة الكلب (لماذا

ياذبابة الكلب تجعلين الآلهة تقاتل وتقتلين الآلهة) ، ويطلق شعب اليورور فى البرازيل على كوكب الزهرة اسم ذبابة الرمال ، وتروى جماعات البانتو فى وسط أفريقيا أن ذبابة الرمال أتت بالنار من السماء . إن الاصرار على ربط كوكب الزهرة بالذبابة فى نصفى الكرة الأرضية أدى إلى الانطباع بأن الذباب الذى امتلأ به ذيل الزهرة لم يكن من أصل أرضى ، بل كان وافدا من كوكب آخر .

(١٠)

حتى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد ، وخلال النصف الأول منه ، كان كوكب الزهرة مازال مذنبا ، ورغم أن المذنب كان له مسار أو فلك دائرى يدور فيه ، إلا أن الزهرة لم يكن يتحرك آنذاك فى مسار دائرى ، كما هو الحال حاليا ، بل كان مساره يمر قرب الأرض ويعرضها للخطر كل خمسين عاما تقريبا . ومنذ النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد ، كانت دورة الزهرة قريبة الشبه بما هى عليه اليوم مما يعنى أن كوكب الزهرة قد غير قبل ذلك بسنوات من مساره ، وأصبح يتبع مسارا دائريا واقعا بين كوكب المريخ والأرض وأصبح هو نجم الصباح ، ونجم المساء .

ولا بد من أن القدماء قد لاحظوا الاضطرابات فى حركات كوكب الزهرة ، وبالتالى اختلفت سجلاتهم عن بعضها بالنسبة للارقام المتعلقة بحركات الزهرة . ولقد عثر فى مكتبة أشور بانيبال فى نينوا على كتب ترجع إلى عصور سابقة ، واكتشف السير هنرى لايارد فى هذه الكتب الجداول الفلكية لكوكب الزهرة ، وترجع هذه الجداول إلى فترة الأسرة الملكية البابلية الأولى ، ولو أن هذه الجداول كانت ترجع فى البداية إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، فإنها تثبت لنا أن كوكب الزهرة كان مذنبا تائها .

وقد لاحظ مترجم نص الجداول وهو مندهش ، أن اختفاء كوكب الزهرة من أعلى نقطة لتواجده هو خمسة أشهر وستة عشر يوما ، بدلا

من الاختلاف المعتاد ، الذى يبلغ شهرين وستة أيام ، وقال بعض الفلكيين إن هذه الأرصاد التى بالجداول لم تسجل بدقة ، كما أن الفترة الزمنية التى تفصل بين الشروق الفلكى لكوكب الزهرة ، وارتفاعه ٧٢ يوما ، إلا أن النصوص الفلكية البابلية والأشورية تتراوح فيها هذه الفترة ما بين شهر وخمسة أشهر ، وهى أقل أو أطول من المدة الفاصلة . مما يدل على وجود خطأ فى الأرصاد ، هكذا قال كاتب آخر . ويؤكد كاتب ثالث أن هذه المعلومات المسجلة غير موثوق بها ، فمن الواضح أن أيام الشهر قد اختلطت ببعضها ، وتدل الفترات الفاصلة المستحيلة على أن الأشهر أيضا خاطئة .

ومن الصعب أن نتصور وقوع مثل هذه الأخطاء الفادحة ، فالتواريخ بهذه الجداول مكتوبة فى وقتها ، وهى سجلات مجردة ، وكل عنصر من هذه السجلات مذكور بتاريخ وعدد من الأيام تفصل بين تلك التواريخ .

ورد فى سفر أيوب أنه سأل الرب " أتخرج المنازل فى أوقاتها .... هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض ؟ (سفر - أيوب ٣٢/٢٨) ووفقا لما كتبه البعض فان كلمة (مازاروث) تعنى المذنب ، ومن ثم فهناك جدل حول استحالة أن يكون معناها كوكب الزهرة ، ولكن يقال على أى الأحوال إن نجم السماء أو مازاروث أو المنازل هو الزهرة ، فماذا حدث حتى لم يعد كوكب الزهرة يأتى فى فصوله المعهودة ؟

منذ أوائل القرن الثامن قبل الميلاد ، اتخذ كوكب الزهرة مساره فيما بين عطارد والأرض ، وبقى هكذا منذ ذلك الوقت . وأصبح يرى من الأرض دون أن يتحرك أكثر من ٤٨ درجة حينما يكون فى أقصى امتداده نحو الشرق أو الغرب ، أو بمعنى آخر أصبح بعده الأقصى عن الشمس ثلاث ساعات وبضع دقائق إلى شرق أو غرب الشمس ، وأصبح ذلك المذنب الشقى كوكبا مستأنسا ، وأصبح مساره أقرب ما يكون إلى الدائرة ، بل أصبح هذا المسار - فلكيا - الأكثر دائرية بين مسارات الكواكب . وانتهى كل ذلك الرعب الذى سببه لمدة ثمانية قرون بعد عصر

الخروج . وبعد صراع مرير أمكن لكوكب الزهرة أن يحقق لنفسه مسارا دائريا ومكانا ثابتا فى المجموعة الشمسية .هكذا ولد الزهرة كمذنب فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وفى منتصف ذلك الألف احتك مرتين بالأرض ، وغير طبيعته المذنبية النيزكية ، وظل فى الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، يغير مساره الفلكى ، ولكنه ظل بطبيعته المذنبية أو النيزكية ، إلى أن أصبح كوكبا وأصبح مساره دائريا .

أما كيف تم ذلك ، وفى أى ظروف ، فهذا ما تناوله فليكوفسكى فى الباب الثانى المعنون كوكب المريخ ، من كتابع عوالم فى تصادم . ولا نجد ضرورة لاستعراض هذا الجزء من النظرية ، فالكوارث والنكبات والقوارع الكونية التى أسهب فى وصفها والتى ربط فليكوفسكى وقوعها بكوكب المريخ ، لاتتزامن مع الفترة التى اتخذتها هذه الدراسة نطاقا لها ، ونكتفى بالنتيجة الرئيسية التى توصل لها استكمالا لنظريته؛ حيث يذهب فليكوفسكى إلى أن كوكب المريخ قد أنقذ الكرة الأرضية من الكوارث الناتجة عن اصطدامه بالزهرة ، فمنذ عهد يشوع والناس يخشون كوكب الزهرة ، وظل هذا الخوف مستمرا ، واستمرت الشعوب تقدم القرابين لكوكب الزهرة استرضاء لها فى شطرى الكرة الأرضية ، الشرقى والغربى ، وبعد مضى سنوات طويلة من الرعب الدائم ، أصبح المريخ مخيفا عند عودته كل مرة بعد أن يغيب زمنا قد يصل إلى ١٥ سنة ، وكان المريخ قبل ذلك قد امتص ذلك الغضب كله . فكوكب الزهرة الذى دخل مجال الأرض فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، تلاقى مع المريخ فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان كوكب الزهرة آنذاك يسير فى دوائر البروج بسرعة أقل من السرعة المعتادة لمساره ، حينما تصادم مع الأرض ، ولكن المريخ الذى لايزيد عن ثمن حجم الزهرة-لم يكن كفؤا لها حينما اصطدم بها ، وكان انجازا كبيرا للمريخ رغم أنه ألقى بعيدا عن مساره ، إلا أنه عدل من مسار كوكب الزهرة إلى شكل يقترب من الشكل الدائرى ، وتغير موقع الزهرة كما يرى من الأرض من قرب دائرة البروج فى القبة

السماوية إلى مساره الحالى ، الذى لا يبتعد عن الشمس بأكثر من ٤٨ درجة . ومنذ ذلك الوقت أصبح الزهرة كوكبا مستأنسا .

***

ووجهت نظرية فليكوفسكى بالرفض من جانب العلماء مما سيعرض فى جزء تال من هذا الكتاب ، من أشهر هؤلاء العلماء د. كارل ساجان ، الذى قالت عنه صحيفة نيوز داى وهى بصدد التعليق على نشر كتابه الكون إنه فلكى ينظر بعين إلى النجوم ، وبأخرى إلى التاريخ وبثالثة هى عقله إلى الطبيعة الانسانية ، ونحن نعجب به كثيرا بسبب طموحه ومعرفته الواسعة ، وعلقت مجلة " ذى كريستيان سيانس " على هذا الكتاب بأنه يعطى القارئ فرصة اكتشاف العالم فى العمق ، أما صحيفة شيكاغو تربيون فقالت أصبح ساجان " مستر علم " القادر على الربط بين مادة الحياة وتاريخها من ناحية واتساع الكون والخلود من ناحية ثانية .

كتب كارل ساجان فى كتاب الكون (سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٧٨) معلقا على نظرية فليكوفسكى " " زعم كتاب نشر فى عام ١٩٥٠ لمؤلفه الطبيب النفسى عمانويل فليكوفسكى " .... أن اصطدامات كبرى وقعت حديثا شملت الكواكب من زحل وحتى الزهرة ، واقترح المؤلف أن جرما ما ذا كتلة كوكبية ، سماه مذنبا كان قد تكون بشكل ما فى منظومة كوكب المشترى ، ثم تحرك قبل ٣٥٠٠ سنة تقريبا نحو النظام الشمسى الداخلى ، والتقى عدة مرات بالأرض والمريخ ، مؤديا إلى انشقاق البحر الأحمر ، وبالتالى إلى السماح لموسى والإسرائيليين بالهرب من فرعون ، وكذلك إلى توقف الأرض عن الدوران بأمر من يسوع .

وقال أيضا إن ذلك تسبب فى حدوث انطلاق شديد للبراكين والفيضانات وتصور فليكوفسكى أن هذا المذنب استقر بعد ممارسة هذه اللعبة البلياردية المعقدة بين الكواكب فى مدار شبه دائرى ومستقر ومتحولا إلى كوكب الزهرة الذى لم يكن موجودا قبل ذلك .

كنت قد ناقشت هذا الموضوع بشكل مطول فى كتاب آخر، وأثبت أن

هذه الأفكار خاطئة بالتأكيد ، فالفلكيون لايعترضون على فكرة الاصطدامات الكبرى ٠ بل يعترضون على ما حدث منها حديثا ففى أى نموذج للنظام الشمسى نجد أنه يستحيل أن تظهر حجوم الكواكب بنفس مقياس مداراتها؛ لأنها ستكون عندئذ صغيرة لدرجة لاترى معها ، وإذا أظهرت الكواكب فعلا حسب قياسها أى كذرات من الغبار ، فسوف نلاحظ بسهولة أن احتمال التصادم لمذنب ما مع الأرض كل بضعة آلاف سنة هو قليل للغاية ، وفضلا عن ذلك فإن كوكب الزهرة مكون من الصخور والمعادن ، وهو فقير بالهيدروجين ، بينما يتألف كوكب المشترى الذى يفترض فليكوفسكى أن الزهرة جاءت منه من الهيدروجين بشكل كلى تقريبا ٠ ولا يوجد فيه أى مصادر طاقة لكى تقذف مذنبات أو كواكب منه، وإذا مر مذنب أو كوكب قرب الأرض فلن يستطيع إيقافها عن الدوران ، كما أن احتمال جعله إياها تدور مرة ثانية بمعدل ٢٤ ساعة فى اليوم غير وارد ٠ وليس هناك أى دليل جيولوجى يدعم فكرة تواتر حدوث البراكين والفيضانات قبل ٣٥٠٠ سنة ، وتوجد ، مخطوطات قديمة من بلاد ما بين النهرين تشير إلى كوكب الزهرة فى تاريخ يعود إلى ما قبل الزمن الذى قال به فليكوفسكى إن هذا الكوكب تحول من مذنب إلى كوكب - (أن الختم الأسطوانى " آدا " الذى يعود إلى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد يظهر بشكل بارز الآلهة فينوس (الزهرة) أو نجمة الصباح) - وليس من المحتمل بأى شكل أن يستطيع جرم فى هذا المدار الاهليلجى تماما التحول بسرعة إلى المدار الدائرى الكامل تقريبا الذى يتحرك فيه كوكب الزهرة وهكذا دواليك " ٠

وعموما فإن فرضيات عدة قدمها علماء ، وغير علماء بدا فيما بعد أنها غير صحيحة ، ولكن العلم مؤسسة تصحح ذاتها ، ولكى تقبل الأفكار الجديدة يجب أن تنجح فى اختبارات صعبة جدا ، ولعل الناحية الأسوأ فى عمل فليكوفسكى ليست فى أن الفرضيات خاطئة ومناقضة للحقائق المقررة بشكل ثابت فحسب ، بل فى أن البعض الذين دعوا أنفسهم علماء

حاولوا التستر على هذا العمل ، فالعلم يولد من الاستقصاء الحر ويكرس له : معنى ذلك أن أى فرضية مهما كانت غريبة تستحق أن توضع موضع الاهتمام بحكم مزاياها ، وهكذا فإن طمس الأفكار غير المريحة يمكن أن يكون أمرا عاديا فى المسائل العقائدية أو السياسية ، ولكنه ليس الطريق المؤدى على المعرفة . وليس له مكان فى الجهود العلمية ، ونحن لانعرف مسبقا من سيكتشف الأفكار الجوهرية الجديدة " .

رفض العلماء لنظرية فليكوفسكى إجمالا ، وتأكيدهم على عدم وجود أى دليل جيولوجى يدعم صحة أفكاره ، حفز فليكوفسكى لإعداد كتابه "الأرض فى اضطراب " وإذا كان فليكوفسكى اعتمد فى " عوالم فى تصادم " على النصوص التاريخية لقومه ، وعلى الآداب القديمة وملاحم شعوب الشمال ، والكتب المقدسة من المشرق والمغرب ، والآثار المروية والأساطير للجماعات البدائية ، فهو فى " الأرض فى اضطراب " حاول البحث عن الأدلة الجيولوجية التى تؤيد صحة نظريته " ولقد تجنب فليكوفسكى فى هذا الكتاب الثانى ما اعتمد عليه فى كتابه الاول من جمع للبراهين الإنسانية، لم يتضمن " الأرض فى اضطراب " أى شهادات من مصادر أدبية قديمة أو روايات شعبية ، واكتفى بالبحث عن شهادات الصخور والحجارة وبراهين الدهور والأحقاب العديدة قديمها وحديثها من مختلف خطوط العرض شمالها وجنوبها ، من قمم الجبال إلى أعماق المحيطات ، من هياكل عظمية ورماد ولافا ، ويذكر فليكوفسكى متباهيا أنه قد عرف من قبل أن ينتهى جميع الشهود من الادلاء بأقوالهم بأنه لايمكن التهرب من صحة النتائج التى توصل إليها من قبل المتعلقة بالكوارث الكونية التى هزت عالمنا فى الزمن التاريخى . ويضيف أنه على الرغم من الأرض فى اضطراب لم تعتمد على أى مرجع من النصوص التاريخية أو الآثار الأدبية التى ترجع إلى الأزمنة الماضية لإظهار العلاقة بين السجلات التاريخية والسجلات الجيولوجية ، فإن أى قراءة سطحية كما يظن للأرض فى اضطراب ، سوف تربط محتواه مع ما ورد بفصول كتاب عوالم فى

تصادم . فالأدلة الجيولوجية تصل إلى نفس النتائج التى انتهت بها دراسة الآثار المروية فى تاريخ وآداب شعوب العالم ، وتؤكد بدورها أن الكرة الأرضية تعرضت عدة مرات لحوادث مفاجئة على مستوى شمولى ، وأن سبب هذه القوارع عوامل وافدة من خارج الأرض ، وأن بعض هذه الكوارث الكونية قد وقع منذ بضعة الآف من السنين من العصور التاريخية .

فى تناول " الأرض فى اضطراب " لمجريات الأحداث الجيولوجية التى تعتمد على الحقائق والأرقام يتضح كما يرى فليكو فسكى أن الأرض كانت فى وقت من الأوقات مسرحا تمثل عليه دراما عظيمة ولم يكن هناك أى جزء خال من تأثيراتها فهل هذا صحيح ؟ الأمر على هذا النحو متروك للعلماء والمتخصصين ، فهم وحدهم القادرون على الإفادة .

بردية فليكو فسكى

يبدأ التاريخ الذى يقول به فليكوفسكى عند هذه الكارثة الكونية الشاملة ، التى يتقاطع عندها التاريخ الإسرائيلى (حدث الخروج) بالتاريخ المصرى (بردية إيبوور) ، على أساس أن الرواية التوراتية والوثيقة المصرية ليستا إلا روايتين مختلفتين عنها ، ولقد وقعت هذه الكارثة كما يحدد فليكوفسكى عام ١٤٩٥ ق ٠ م ٠

فهل تتطابق هذه الكارثة التى وصفها بدقة متناهية مع النص التوراتى وأيضا مع نص الوثيقة التاريخية للسياسى المصرى العجوز؟ .

بالنسبة للرواية التوراتية فإن مجال هذه الدراسة لايتسع للبحث عن مدى تطابق البلايا التى صاحبت الخروج كما أوردها النص التوراتى ، مع ما وصفه فليكوفسكى من نكبات ومحن أصابت الجنس البشرى من جراء هذه القارعة الكونية التى تفنن فى وصفها ، ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن توراة فليكوفسكى تختلف اختلافا جذريا عن التوراة التى نعرفها ، ويقدسها المؤمنون ، فلقد جرد فليكوفسكى النص الدينى من جوهره الميتافيزيقى ، وبنزوع مادى رفض المنطق الغيبى والتسليم بالمعجزات ، الأساس الوطيد للرواية الدينية ، فالبلايا العشر التى رمى بها (ياهو) المصريين ، ما كان للتوراة أن تستثنى اليهود من نتائجها المدمرة ، إلا استنادا إلى اعتبارها معجزات ربانية كبرى ، تشذ عن القوانين الطبيعية المعروفة ، وهذا ما رفضه فليكوفسكى ،وأوقعه فى التناقض البين الذى وقع فيه ، فلم يستطع أن يبرر استثناء اليهود من نتائج الكوارث الطبيعية إلا مرة وحيدة ، حين أشار إلى الزلازل التى دمرت بيوت المصريين

ومعابدهم ، فسقطت المنازل فى لحظات بضربة واحدة قاضية ، دون بيوت بنى اسرائيل ، فلقد كان الإسرائيليون أحسن حظا فى هذه الكارثة بسبب المواد التى بنيت بها بيوتهم ، فلقد كانوا يسكنون فى منطقة مستنقعات واتخذوا مساكنهم من البوص والطين ٠ أما غير ذلك من آثار مدمرة للبلايا التى صاحبت الخروج ، فلم يسع فليكوفسكى تمشيا مع منطقه المادى إلا التسليم بأنها أصابت الجميع المصريين والإسرائيليين ، ويلتمس سندا له فى الروايات اللاهوتية التى اختلفت عن روح الروايات التى وردت فى الكتاب المقدس ، فلقد ذكرت هذه الروايات أن معظم الإسرائيليين هلكوا أثناء هذه الكوارث ، لم ينج منهم إلا القليل ، الذين فضلوا مغادرة مصر ، وبلغ الهالكون منهم تسعا وأربعين من بين كل خمسين إسرائيليا، وإذا سايرنا فليكوفسكى فيما يحاول أن يقنعنا به ، وصلنا إلى نتائج تخالف كل الحقائق التاريخية المؤكدة، فنحن نعرف أن بنى إسرائيل الذين ارتحلوا من مدينة رعمسيس إلى سكوت " نحو ست مائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد وصعد معهم لفيف كثير أيضا من غنم وبقر ومواش وافرة جدا " (خروج ٣٨،٣٧/١٢) ٠ وبحسبة بسيطة أجراها (ليوتاكسل فى كتابه التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير)، " فإن عدد رجال اليهود الأقوياء المسلحين جيدا يبلغ حوالى ٦٠٠٠٠٠ رجل وإذا أضفنا الأطفال والنساء والأقوام الأخرى التى انضمت إليهم فقد يصل العدد إلى ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة) ، ولا نملك نحن إلا التسليم بصحة العملية الحسابية التى أجراها ليوتاكسل ، وصحة الرقم الذى توصل إليه عن أعداد اليهود الذين خرجوا من مصر مع موسى ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا العدد يمثل ١ : ٥٠ من عدد اليهود طبقا لما ذكر فى الروايات اللاهوتية عن عدد الناجين منسوبا إلى عدد الهالكين ، فإن العدد الإجمالى لليهود الذين كانوا مقيمين فى مصر هو حاصل ضرب ٣ مليون نسمة (× ٥٠) أى مائة وخمسون مليون نسمة ، وهو عدد مهول لم يصل إليه أى تعداد لليهود فى أى فترة من فترات التاريخ قديما أو حديثا ٠

وإذا وضعنا فى اعتبارنا أيضا أن اليهود أقاموا فى مدينة جاسان ، كان علينا أن نصدق أن هؤلاء المائة والخمسين مليون نسمة عاشوا فى هذه المدينة الصغيرة ، فى حين أن مدينة إتريب (بنها) فى ذلك الوقت وهى من كبريات المدن الرئيسية بالدلتا لم تتسع إلا لعشرة الآف نسمة كما هو ثابت من الإحصائيات القديمة ٠

ليس هذا فحسب ، بل إذا سلمنا بأن عدد اليهود الذين كانوا مقيمين فى مصر وصل إلى هذا الرقم (١٥٠ مليون نسمة) ، فلا بد أن نسلم بأن عدد المصريين فى ذلك الوقت لم يكن يقل عن ثلاثة أضعاف هذا العدد، أى أربعمائة وخمسين مليون نسمة وإلا لما فكر اليهود فى مغادرة مصر، تطبيقا لقواعد العلوم العسكرية ، وتطبيقا لقواعد التكتيك العسكرى أيضا لابد من أن يصل تعداد الجيوش التى حشدها الفرعون للهجوم على اليهود الفارين إلى تسعة ملايين مقاتل بمعدل ثلاثة أضعاف أعداد اليهود المرتحلين فى حسبة ، وفى حسبة أخرى تعتد بعدد المقاتلين اليهود (ستمائة ألف مقاتل) من الضرورى أن تبلغ قوة جيش الفرعون مليونا وثمانمائة ألف مقاتل ، وهو حشد ضخم لم يتوفر فى أى من فترات التاريخ لأى دولة من دول العالم مهما بلغت عظمتها ٠ ولنا أن نتذكر أن قوات رمسيس الثانى التى اجتاحت آسيا فيما بعد ذلك تشكلت من أربعة فرق عسكرية وفرقة احتياطية ، وصل قوام الفرقة الواحدة إلى خمسة آلاف مقاتل ، أى أن إجمالى القوات المصرية فى عهد الامبراطورية لم يتعد الخمسة والعشرين ألف مقاتل ٠

ناهيك عن الظروف الطبيعية التى حدث فيها هذا الخروج ، وهذه المطاردة العسكرية ، وما يتطلبه الخروج أو القتال ، من حشد للحشود، وتوفير للامكانيات ، وتنظيم للجماعات والتشكيلات ، وتنسيق للجهود، واعداد لسير وغير ذلك ، وكلها مراحل شاقة ومضنية ، وعلينا أن نصدق أنها تمت بينما الكرة الأرضية تغير محور دورانها ، فيتبدل الليل نهارا، والنهار ليلا ، وتتغير الفصول الطبيعية والاتجاهات الأصلية للعالم ،

الشرق يتحول إلى غرب ، والغرب يتحول إلى شرق ، ونجوم الشمال تصبح نجوم الجنوب ، ونجوم الجنوب تصبح نجوم الشمال، والزلازل المدمرة تهدم الكرة الأرضية فى نصفيها الشمالى والجنوبى ، تغور جبال وتقوم جبال ، تختفى تضاريس وتظهر تضاريس ، والبراكين الثائرة مشتعلة تقذف بالحمم واللافا تحرق البسيطة ، والمحيطات تطغى طغيانا كاملا على اليابسة ، البحر ينشق ، والعواصف جائحة ، الطواعين تفتك بالأرواح ، والذعر يفتك بالنفوس ، وخلال كل هذا الدمار والانقلاب الكونى الذى صوره فليكوفسكى ، يخرج ثلاثة مليون يهودى بأطفالهم ونسائهم غانمين أسلاب المصريين ، هانئين بها ، يجرون بهائمهم المنقادة بوداعة ، حاملين بهدوء تابوت يوسف ، يتعقبهم فرعون مصر وجنوده ، تاركا فى ذلك الوقت العصيب مسئوليات الدولة ، نافضا يديه عن جميع مهام الحكم، لايرى أمامه وحوله غير اليهود النازحين ، لايشغله أى أمر من الأمور إلا إجبارهم على العودة .

نقتصر فى حديثنا عن توراة فليكوفسكى إلى ما وصلنا إليه ، آملين أن نتمكن ذات يوم من تقديم ما توفر لهذه الدراسة من ملاحظات ، وما أكثرها حول التوراة التى يحاول أن يقنعنا منها ، أما مدى تطابق الرواية التوراتية مع هذه الكارثة الكونية التى صورها فى " عوالم فى تصادم " فنكتفى بإلحاق مختصر للنص التوراتى عن الخروج فى جزء لاحق من هذه الدراسة تاركين للقارئ القول الفصل .

كما كان لفليكوفسكى توراته الخاصة التى فصلها بما يتمشى مع الأهداف التى يريد التوصل إليها وتحقيقها ، كانت له أيضا برديته الخاصة التى تختلف اختلافا كاملا عن بردية إيبوور ذلك السياسى المصرى المتألم لما يجرى بالبلاد من صراعات دموية وحروب داخلية ، وبردية فليكوفسكى تدور عن أحداث أنكر العلماء صحتها ، وقعت كما يؤكد عام ١٤٩٥ ق . م ، فى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد ، أى بعد نحو سبعة قرون كاملة من الأحداث المؤكدة التى يصفها إيبو العجوز فى

برديته الشهيرة .

إيبو فليكوفسكى كما أراده أن يكون ،هو شاهد العيان المصرى الوحيد لهذه القارعة الكونية ، التى تعد أعظم قارعة اجتاحت العالم ، عندما اقترب مذ نب جديد طائش من كوكبنا ، ولمس الأرض فى أول الأمر بذيله الغازى ، ومن أبرز العلامات التى تدل على هذا الاحتكاك احمرار سطح الأرض ، بتراب ناعم فى لون صدأ الحديد ، أدى هذا التراب إلى تلوين مياه البحيرات والبحار والأنهار بلون الدم ، وكتب شاهد فليكوفسكى على ورقة البردى " تحول النهر إلى دماء " ، ويجب أن نعترف بما لهذا الشاهد الوحيد من أعصاب فولاذية ، ففى الوقت الذى تطايرت فيه رجوم من النيازك فوق الأرض ، وكان التراب الأحمر مقدمة لسقوط حجارة هائلة من السماء ، وكان سقوطها مصحوبا بضوضاء شديدة كالرعد ،عاتية كالانفجارات ، وتهاوت هذه الأحجار الساقطة مختلطة بالنار ، فحينما اصطدمت بالغلاف الجوى اشتعل بعضها ،وتحول البعض الآخر غير المحترق إلى سائل أسود ثقيل حارق ، حول سطح الأرض إلى سواد ملتهب ، وظل المطر القاتم يتساقط لعدة أيام طوال الليل والنهار ، وبينما اشتعلت النيران فوق الرءوس وهلك جميع سكان الأرض ، وبينما يصب الرب النفط المشتعل على أدمغة المصريين ويحرق بشرتهم ويكوى جلودهم ، وقف إيبو فليكوفسكى هادئا متماسكا ، ليكتب أن لون النهر صار أحمر كالدماء ، ويكتفى بذلك الوصف ، فأين هو من ايبو التاريخى الذى حدثنا أول ما حدثنا عن اعتزام البوابين والغسالين وصيادى العصافير والحمالين الخروج للسلب والنهب ، وكيف ابتليت البلاد بعصابات اللصوص ، وكيف أن النيل فى وقت الفيضان ومع ذلك لايحرث أحد ، فلابد للرجل الذى يريد الحرث من أن يتمنطق ترسه فالجريمة فى كل مكان ، والبلاد تدور كما تدور عجلة صانع الفخار، فيصير اللص صاحب ثروة والأغنياء ينتحبون والمعوزون فى فرح ، ووسط هذه الأحداث الدموية يذكر إيبو التاريخى أن " النهر صار نهرا من دم ، وإن شرب منه

أحد فسيبصقه لأن هذا دم بشرى " · مستعيرا ذلك الوصف تعبيرا عن الحوادث الدامية التى تجرى من حوله ؛ حيث يقتل الأخ أخاه·

ألم يكن من الواجب على ايبو فليكوفسكى أن يحدثنا عن الظواهر الطبيعية المدمرة التى تقع أمام ناظريه؟، والتى لايمكن لأحد أن يتجاهلها ، وهى تفتك بالجنس البشرى ، وتعرض مواطنيه للخطر ، فهل من المنطق أن يسكت عن ذلك؟ ، ولايهتم بتعرض الآدميين للموت ، متفجعا فقط بمقتل كل الأسماك فى النهر المصطبغ باللون الأحمر ، حتى أنتن النهر ، والحقيقة أن إيبو التاريخى حدثنا عن التماسيح التى أصبحت فى تخمة ، نادبا ذهاب الناس إليها بمحض إرادتهم ، حين فضلوا الانتحار لشدة المعاناة التى يقاسون منها ، فالعظماء أصبحوا جوعى ، والخدم أصبح لهم من يخدمهم ، والناس يركضون ويتصارعون للتزود بالطعام ، والرجل الثرى يسرق ويتم الاستيلاء على جميع ما يملك ، والبشر يتغذون على الأعشاب ويشربون الماء فالفواكه والنباتات بل والطيور ذاتها لم تعد موجودة ، وينتزع المرء (غذاءه) من فم الخنزير بسبب الجوع ، وأصبح الكبار والصغار يتمنون الموت ، وأبناء العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، ويتم التنكيل بهم ·

أبصر إيبو فليكوفسكى التراب الأحمر وقد أثار رعب السكان ، فلاذوا داخل منازلهم هم والماشية ، تماما كما ذكر سفر الخروج (١٩/٩) " فالآن أرسل كل مواشيك وكل مالك فى الحقل · جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل ولايجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون " ، ويرى إيبو فليكوفسكى أن هذا النص يشبه قول إيبو التاريخى ، وسمح لنفسه بتعديل وتبديل عبارته حتى تتوافق مع القول التوراتى ، فقول إيبوور بما يشاء " ترك كل الماشية التى تحمل علامته الخاصة " ويعلق على ذلك بأن الحجارة والنار المتساقطة جعلت المواشى تلوذ بالفرار ، وما أشد الاختلاف بين ما قاله إيبو فليكوفسكى وما هو ثابت فى البردية التاريخية عندما وصفت الفوضى الاجتماعية وما نجم عنها " انظروا الماشية شاردة

دون أن يكترث بها أحد يجلب منها كل رجل ويسمها باسمه بالحديد المحمى " .. ويتابع " انظروا من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار فى حوزته الآن قطيعا . من لم يكن فى استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشى ".

ويصف إيبو فليكوفسكى الآثار المدمرة للكارثة الطبيعية التى أنكر العلماء حدوثها " فكتب أيضا يقول : وقعت كل الأشجار ولم تبق أى ثمار أو نبات وهلكت الحبوب فى كل مكان " والحقيقة أن إيبو التاريخى ذلك السياسى المصرى العجوز لم يتفوه بمثل تلك الكلمات ، فالنص الحقيقى الذى قال به " انظروا إذن الأشجار أتلفت الأغصان تجردت والخدم يهجرون منازلهم " ويلى ذلك " انظروا إذن العظماء جوعى ويتألمون ولكن الخدم أصبح لهم من يخدمهم " ." وبعد عدة ابيات ، يرد بالبردية التاريخية ما حوره فليكوفسكى ببرديته ، فيذكر النص التاريخى " انظروا إذن لقد تلفت الحبوب على جميع الدروب ، إننا محرومون من الثياب والعطور والزيوت .... الخ .

شاهد ايبو فليكوفسكى الأرض وقد أرغمت على تغيير طبيعة حركة دورانها ، استجابة لتأثير اقتراب الجرم السماوى الهائل أو المذنب الذى يكاد حجمه يبلغ حجم الأرض ، وباصطدامه بالأرض حدثت لها صدمة كبرى فى غلافها الصخرى، وتحولت الكرة الأرضية كلها إلى منطقة زلازل، إلا أن شاهد فليكوفسكى لم ير هذا الجرم السماوى ،أو هذا المذنب الرهيب ، ولم يشعر إلا بما ترتب على ذلك الاقتراب المدمر من زلازل ، فاكتفى بالقول " تهدمت المدن وأصبحت مصر العليا خرائب .. انقلبت المبانى السكنية رأسا على عقب فى دقيقة واحدة " ، والحقيقة إذا حاولنا أن نجد فى البردية التاريخية ما يقترب من ذلك ، فعبثا نحاول، فالبردية التاريخية تذكر " انظروا إذن إن سفينة الجنوب تغرق ، إن مدينة (...) الجنوب تسلب ، و(البلاد) باتت مقفرة " وفى مقطع آخر "الأقاليم سلبت ونهبت وأسيويو الخارج جاءوا إلى مصر " وفيما بعد ذلك

"إن الفنتين وثنى ... فى الوجه القبلى لم تعد تدفع الضرائب بسبب التمرد " .

اعتمد فليكوفسكى على عدة عبارات لاتتجاوز عدد أصابع اليدين اغتصبها من البردية ، التاريخية وحولها ودورها ، جزأها وحذف منها واضاف إليها ، وبعد أن بدلها وضعها على لسان إيبو شخصى على هواه، لايمت بأية صلة قربى لإيبو العجوز الذى وصف أحداث الثورة التى نشبت خلال الربع الأخير من الألفية الثالثة ، قبل عدة قرون كثيرة من التاريخ الذى حدده فليكوفسكى لحدوث القارعة الكونية التى أنكرها العلماء والمتخصصون .

ولم يجد فليكوفسكى غير هذه الوثيقة الوحيدة ، على امتداد التاريخ المصرى ، الذى ادعى أنه أجرى مسحا شاملا لوثائقه وآثاره حتى استدل عليه ، على الرغم من أن الكارثة التى تفنن فى وصفها استمرت حتى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ، أى نحو مايربو على القرون السبعة أو الثمانية ، خلال كل هذه الفترة التاريخية المديدة من التاريخ المصرى المتصاعد ، لم يعثر فليكوفسكى بين كل الشواهد والآثار التى خلفتها إلا على بردية هذا الشاهد الوحيد ، الذى افترض أنه عاش فى بداية حدوث هذه الكارثة الكونية المرفوضة ، أى منذ يومها الأول حين اقترب جرم فليكوفسكى الهائل وضرب كوكب الأرض بذيله الغازى ، فتناثر الغبار الأحمر .. ولون نهر النيل بلون الدماء ، ولو قدر لهذا الشاهد حقا أن يكون له وجود حقيقى فلن تكتب له الحياة إلا بضع عشرات قليلة من السنين خلال هذه الحقبة الطويلة التى استغرقتها الكارثة ، ولكنها بالطبع كانت كافية لتمكنه من رؤية ملك مصر وهو يغرق بجنوده فى البحر ، ولا بد أنه سيعاصر هذا الملك المهيب وهو يحشد الحشود ويأخذ أهبة الاستعداد ، ويشاهده وهو يخرج متعقبا اليهود ويستمع لأناشيدهم وتهليلهم الفرح على الجانب الآخر من البحر حين يرون مصرعه وجنوده ، ولكنه كان شاهدا عجيبا ، تجاهل هذه الظواهر الهائلة التى تحدث حوله ،

مكتفيا بوصف تافه الأمور ، وأقلها أهمية ، فنظر إلى النهر الذى تحول إلى اللون الأحمر ، وشغله منظره عن أن ينظر إلى السماء ، حتى يرى الحجارة المعلقة التى تهدد المصريين بالسقوط ، والتى ظلت هكذا معلقة فوق رؤوسهم على مدى خمسين عاما متوالية من الذعر ، حتى سقطت على رأس الكنعانيين ، عندما غزا الرجل الطيب يشوع أرض العسل واللبن.

إن فليكوفسكى الذى امتلك من البداية قدرة خارقة على خلط الأوراق ، لم يتمكن من أن يجبر الديك المصرى على أن يبيض البيضة الذهبية التى كان يتمنى أن يمنحها له . ولم تسمح له الوثيقة المصرية الوحيدة التى اختارها بعناية من إحكام أواصر علاقات التشابه بين إيبوور الحقيقى ، وسميه الوهمى الذى حاول تمجيده بكل ما يمتلك من مواهب وقدرات .

تهويد التاريخ

القصة التى لايصدقها عقل حقا ليست قصة يشوع بن نون ، الذى أمر الشمس أن تدوم على وادى جبعون ، والقمر أن يتوقف على وادى إيللون . فدامت الشمس ووقف القمر ، حتى انتقم الشعب من أعدائه ، بل هى القصة التى يحاول فليكوفسكى أن يقنعنا بها ، واضعا تاريخا وضعيا غاية فى الدقة لحدث خروج اليهود من مصر ، ذلك الحدث الذى يعد بداية للتاريخ الإسرائيلى ، ثم مستندا لنقطة التقاطع - التى حددها - بين التاريخين المصرى والإسرائيلى؛ ليعيد ترتيب أحداث تاريخ الشرق القديم.

يقول فليكوفسكى فى أول كتبه " من الخروج إلى الملك اخناتون " عن مشروعه لاعادة ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ ، إنه يستهدف التركيب الكلى للتاريخ القديم الذى يتأرجح فى كفة الميزان؛ ذلك لأنه إذا كانت كارثتا بردية ايبوور وسفر الخروج ، وصفين مختلفين لحدث واحد ، فإن تاريخ العالم كما حدث فعلا لابد وأن يختلف تماما عن ذلك التاريخ الذى تعلمناه ، وعليه فإن التحقق من الزمن الذى حدث فيه الخروج يصبح ذا أهمية قصوى ..

يتابع فليكوفسكى : لم يغادر الإسرائيليون مصر خلال فترة المملكة الحديثة ، ولكنهم غادروها عند نهاية الدولة الوسطى ، وقد حدث ذلك فى رأيه عام ١٤٩٥ ق . م قبل أيام أو أسابيع قليلة من غزو الهكسوس لمصر . وهذه النتيجة التى توصل إليها تمثل أول اختلاف بين التاريخ الذى يقول به وبين حقائق التاريخ المتعارف عليه ، الذى يحدد القرن السابع

عشر قبل الميلاد لتواجد الهكسوس بمصر ، ومن الضرورى أن نتساءل عن السبب الذى دعا فليكوفسكى لعقد هذا الاقتران بين خروج اليهود من مصر ، ودخول الهكسوس إليها، متأخرين قرنين عن التاريخ الثابت لدخولهم إليها .

تبدوا المسألة الأولى أكثر وضوحا، فتوقيت خروج الإسرائيليين بمنتصف الألف الثانى قبل الميلاد يفسح مجالا رحبا من السنين يربو على خمسمائة عام تقريبا تتسع لسنوات التيه ثم لغزو يشوع لفلسطين ، كما تهيىء الفترة الزمنية الكافية لعصر القضاة ، وللاستقرار السياسى بفلسطين وقيام المملكة المتحدة ، قبل وخلال القرن العاشر قبل الميلاد ، بما يتفق مع النص الدينى .

أما المسألة الثانية الخاصة بالهكسوس ، فهى المسألة الأكثر صعوبة ، وحتى نستطيع تفهم محاولات فليكوفسكى ، علينا أن نتفهم أولا النتائج التى يريد أن يتوصل إليها من خلال فكرته عن إعادة ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ القديم . وهى النتائج التى تناولها بتفصيل فى كتابه " من الخروج إلى الملك اخناتون " .

يرى فليكوفسكى أن هناك دينا تاريخيا يدين به الشرق الأدنى فى نيل حريته والتخلص من العبودية ، تدين به مصر أكثر من غيرها للملك شاؤول أول الملوك الإسرائيليين ، لقد كان سقوط حواريس المصرية على يد شاؤول (وليس أحمس الأول) وتدمير جيوش الهكسوس (العماليق) تغييرا حاسما لمسار تاريخ الشرق الأدنى ، فمن جديد نهضت مصر لتبنى قوتها ، وتستعيد حضارتها ، بعدما تحررت من عبودية دامت مئات السنين ، وكان محررها هو أحد أحفاد اليهود الذين كانوا عبيدا فى مصر ، ولكن أعمال هذا الملك العظيمة فى هزيمة الهكسوس لم تقدر ، ولم يعترف بها المصريون . ولم يعتبر الإسرائيليون أنفسهم شعبا حرا ، إلا بعد أن قهروا الفلسطينيين ووضعوا المهمة المزدوجة على عاتق داود ثانى الملوك الذين حكموا امبراطوريتهم؛ ليدمر الهكسوس فى آخر معاقلهم ،

فى مدينة شاروهين جنوب فلسطين ، وقد دام حصارهذه المدينة الحصينة ثلاثة أعوام ، بقوات مختارة ومنتقاة بعناية ، قوامها اثنا عشر ألف رجل من أفضل مقاتلى اليهود ، ودام هذا الحصار بلا جدوى ، حتى استطاع يو آب قائد جيش داود ، ذلك المغامر المغوار أن يخترق الأسوار بمفرده ويمكن الإسرائيليين من اختراق المدينة وسحق الهكسوس وإبادتهم ، ولم يكن داود على رأس الجيش طوال الحصار ، وربما كان الملك المصرى أحمس موجودا مع جيش يو آب كحليف له ، وحصل الملك المصرى على نصيبه من الغنائم كرما من الإسرائيليين ، وعاد إلى مصر مجبور الخاطر .

ويستمر فليكوفسكى فى بناء تاريخه الوهمى ، فالتزامن الصحيح للتاريخ المصرى والتاريخ العبرى الذى يقول به ، يؤكد أن الملكة حتشبسوت كانت معاصرة للملك سليمان ، ليس هذا فقط بل هى بكل تأكيد ملكة سبأ التوراتية التى أتت إلى أورشليم ، ليس من أرض سبأ فى الجزيرة العربية ، بل من مدينة طيبة عاصمة مصر .

أما بعثتها التى أوفدتها إلى بلاد (بونت) - أرض الإله - فلم تكن وجهتها إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ولا إلى السواحل الصومالية ، تلك الانحاء التى اعتبرها المؤرخون بلاد بونت ، مخطئين فى ذلك ، بل كانت وجهتها أرض الإله - مدينة أورشليم (بونت فليكوفسكى) ، وفى أورشليم استرعى نظر الملكة أثناء البعثة الفن المعمارى لليهود ، وهى القادمة من بلاد الأهرامات والمعابد والعمائر العظيمة ، فبهرتها الروعة الهندسية لهيكل الملك سليمان وبعد عودتها ، أقامت الدير البحرى ، أروع وأجمل المعابد المصرية ، ليس على غرار النمط المصرى التقليدى ، فلقد لاحظ علماء الآثار والمصريات الأوائل إن فى الدير البحرى ، عناصر لتصميم أجنبى ملحوظة .

ويستمر فليكوفسكى فى تاريخه الذى يقول به ، فالثروة التى جمعتها أمة اليهود ، تلك الثروة تراكمت على مدى مئات السنين (؟) من العمل

الشاق ، والحياة المستقرة الآمنة على أرض فلسطين ، ثم الغنائم التى جمعها شاؤول محرر الشرق المجيد ، ومن بعده الملك داود ، خلال الحروب التى خاضها كل منهما ، والغزوات العسكرية التى شناها ، بالإضافة إلى الأرباح الطائلة التى تحققت من التجارة التى أدارها الملك سليمان مع آسيا وأفريقيا ، والذهب المجلوب من بلاد أوفير ، وهدايا ملكة سبأ حتشبسوت ، كل هذه الثروات تحولت إلى غنائم لتحتمس الثالث ، كما هو منقوش على حوائط معبد الكرنك .

الفكرة الأساسية لفليكوفسكى باختصار ، تؤكد على تزامن ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، مع ملوك المملكة الإسرائيلية المتحدة ، فعصر أحمس الأول يتزامن مع عهد شاؤول ، وداود ، وعصر حتشبسوت، هو عصر سليمان ، وعصر تحتمس الثالث يتزامن مع وعصر رحبعام ابن سليمان ، وعصر منافسه يربعام فى المملكة الشمالية (اسرائيل) .

كان لابد إذن من أن يتأخر دخول الهكسوس لمصر قرنين من الزمان ، حتى يصبح من السهل على شاؤول أن يهزمهم ، وحتى يتمكن يوآب أيضا من القضاء عليهم قضاء مبرما ، فكيف كان يتأتى لهما ذلك إذ اعترف فليكوفسكى بهزيمتهم على يد أحمس عام ١٥٨٠ ق . م ولكن هذا التصور يشكل معضلة زمنية كبرى أمام فليكوفسكى ، وهو بالطبع قد فطن إليه ، فلقد عاش داود فى القرن العاشر قبل الميلاد ، كما هو ثابت فى التاريخ الاسرائيلى ، أما طرد الهكسوس فقد وضع فى التاريخ التقليدى المتعارف عليه كما سبق القول فى عام ١٥٨٠ ق . م ، مما يترك فجوة مقدارها ستة قرون غير مفسرة ومجهولة، فأى تاريخ يجب أن نحركه لنغطى تلك الفجوة التى تبلغ ستة قرون ؟ ، من غير الممكن أن نضع داود فى القرن السادس عشر قبل الميلاد لاهو ولا غيره من ملوك إسرائيل ، فمؤرخ التاريخ القديم لن يجد أدنى إمكانية لتغيير تواريخ ملوك أورشليم ، ولو لقرن واحد من الزمن ، فضلا عن ستة قرون كاملة ، دون أن يغير معلومات مؤكدة ، ومفاهيم راسخة ومثبتة، فقصص التوراة سجلت تتابع

ملوك يهوذا وإسرائيل ، ملك من بعد ملك ، فالحقيقة الثابتة فى رأى فليكوفسكى تنكر وجود فجوة تاريخية بأى قدر كان ، ولا بأى قدر خارق من التخيل فى التاريخ التوراتى .

يتابع فليكوفسكى ، ومن جهة أخرى فإن التاريخ المصرى مستقر وبإحكام أيضا ، أسرة من بعد أسرة ، وملكا من بعد ملك ، من بداية المملكة الحديثة حتى عصر الحكم الفارسى لمصر ، فأى التاريخين نصدق؟، فإما أن الستمائة عام قد اختفت من تاريخ الشعب اليهودى ، وإما أن الستمائة عام قد ضوعفت أو أضيفت إلى تاريخ مصر؛ ذلك لأنه من المستحيل أن يكون التاريخ فى أورشليم هو القرن العاشر قبل الميلاد ، وأن يكون فيالوقت نفسه القرن السادس عشر ق.م فى مصر ، ويؤكد فليكوفسكى أن بعض حلقات التاريخ المصرى قد وصفت مرتين وأن الستمائة عام الزائدة قد نتجت عن ذلك التكرار ، وأن الخطأ غير موجود فى التاريخ ذاته ، بل فى المؤرخين ، وينتهى فليكوفسكى بأنه لابد من اختصار ستمائة عام على نحو التقريب من زمن المملكة الحديثة .

هل أخطأ المؤرخون أم أن فليكوفسكى هو الذى تعمد الخطأ من البداية ؟ ، المسألة الواضحة وضوحا كاملا حتى الآن ، أن الكارثة التى يصفها إيبو العجوز لاتمت بأى صلة للكارثة الكونية التى يصفها فليكوفسكى ، فلو صحت هذه الأهوال لما قال اليهود لموسى حينما فزعوا من فرعون وجنوده حين تعقبوهم " **هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين من أن نموت فى البرية " (خروج ١٤ - ١١/١٢) ، ثم يعود اليهود للتذمر متذكرين النعيم الذين كانوا يعيشونه فى مصر " ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا الى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع " (خروج ١٦ - ٢/٣)**

ولقد عاش إيبوور كما تأكدنا خلال فترة الانتقال الأولى ووصف أحداث ثورة سياسية أعقبت انهيار الأسرة السادسة ٢٤٢٣ - ٢٢٦٣ ق٠م وشاهد جرائم الحروب الداخلية ومأساة التسلل الآسيوى للدلتا ، ووجه نقده العنيف لأحد ملوك الأسرة الثامنة المتأخرين أو أحد الملوك الأوائل للأسرة التاسعة (٢٢٢٢ - ٢١٣٠ ق ٠م) ، أى قبل التاريخ الذى حدده فليكوفسكى بنحو سبعة قرون ٠

إن فكرة إعادة بناء التاريخ عند فليكوفسكى تختصر من زمن المملكة الحديثة فى مصر ما يقرب من ستمائة عام ، كما يقول حتى يمكن وضع ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى القرن العاشر قبل الميلاد بدلا من الفترة الزمنية التى شغلتها هذه الأسرة ١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق٠م فكيف سيتم هذا الاختصار؟ ، إذا أخذنا رأى فليكوفسكى على علاته ٠

طبقا للتاريخ التلقليدى المتعارف عليه فإن المملكة الحديثة تشمل الأسرات الثامنة عشرة ١٥٧٠ (أو ١٥٨٠) الى ١٣٠٤ ق٠م ، والتاسعة عشرة ١٣٠٤ - ١٢٠٠ ق ٠م ، والعشرين ١٢٠٠ - ١٠٨٥ ق٠م أى أن مجموع السنوات التى استغرقها عصر الدولة الحديثة هو خمسمائة عام على نحو التقريب ، فكيف سيتم اختصار الستمائة عام التى يقول بها فليكوفسكى منها؟ ٠

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن عهد الملك أحمس الأول طبقا لقوائم التاريخ يمتد ما بين عام ١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق٠م وأنه أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ،أى أول ملوك الدولة الحديثة ، فكيف سنختصر الستمائة عام من فترة زمنية لم تبدأ بعد، وحتى يمكن أن يتزامن حكم هذا الملك العظيم مع فترة حكم الملك شاؤول قبل سنوات قليلة من بداية القرن العاشر قبل الميلاد ٠

المسألة على هذا النحوم مستحيلة تماما ، فإذا سايرنا فليكوفسكى محاولين إيجاد مخرج له ، باختصار هذه الستة قرون من الفترات التاريخية السابقة على حكم الملك أحمس ، واجهتنا نفس العقبات ، فطبقا

للتاريخ المتعارف عليه فإن عصر فترة الانتقال الثانية (الأسرات١٣ - ١٧) تبدأ من عام ١٧٧٨ قبل الميلاد وتنتهى بقيام الأسرة الثامنة عشرة ١٥٧٠ ق٠م أى تستغرق ٢٠٨ سنة على نحو التقريب ، وهى مدة لاتفى بالغرض الذى نسعى لتحقيقه حتى تصح وجهة نظر فليكوفسكى ، فهى أقل بكثير من الستة قرون التى يريد اختصارها من التاريخ المصرى حتى يتزامن مع التاريخ العبرى ، علينا إذن أن نضيف فترة حكم الأسرة الثانية عشرة أيضا إلى مدة هذا الاختصار ، وتبدأ هذه الأسرة من عام ١٩٩١ - ١٧٧٨ ق ٠م أى نحو ٢١٣ عاما ، فيصل مجموع السنين من الأسرة الثانية عشرة إلى أول الأسرة الثامنة عشرة إلى ٤٢١ عاما ، وهى أيضا أقل من القرون الستة المطلوبة؛ حتى يتمكن الملك شاؤول من تحرير الشرق من الهكسوس بدلا من الملك أحمس ٠

والحقيقة أن كل هذه الافتراضات هى افتراضات غير صحيحة فى مجملها ، لا لشىء إلا لأن الفرضية الأساسية التى يقول بها عن ضرورة اختصار الستة قرون التى ضوعفت فى التاريخ المصرى لتصحيح الخطأ الذى وقع فيه المؤرخون ، حتى تتطابق أحداث القرن السادس عشر مع أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ، هى فرضية غير صحيحة على وجه الإطلاق ، ذلك لأنه إذا أردنا بالفعل أن تقع أحداث القرن السادس عشر (قبل الميلاد) خلال القرن العاشر (قبل الميلاد) فإن علينا أن نضيف لا أن نختصر القرون الستة التى يقول بها فليكوفسكى حتى يكون تاريخه صحيحا ٠ فهل المقصود هو تحريك مسار التاريخ المصرى فى مجمله باتجاه (الميلاد) مدة هذه الستة قرون؟ ، أى أن تبدأ المرحلة التاريخية عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد وليس عام ٣٢٠٠ ق ٠ م طبقا لما هو متعارف عليه ، وهو احتمال غير قائم ، كما يمكن أن نتصور أن المقصود أن يتم اختصار مدة الستة قرون من المدى الزمنى الذى يمتد بين بداية الأسرة الثامنة عشرة عام ١٥٧٠ ق ٠ م إلى عصر الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق ٠ م ، وفى هذه الحالة سوف نواجه بمشكلة أخرى تتطلب حلا ، هى أن نضيف

الستة قرون مرة أخرى فى ختام التاريخ الفرعونى لينتهى بهذا التاريخ المؤكد للإسكندر الأكبر ، ولنا أن نتخيل حلا آخر أكثر سهولة غير حلول الخصم أو الإضافة ، هو أن يتقافز من يشاء من الملوك والملكات فى وثبات زمنية طويلة ، فى اتجاه الميلاد أو عكس هذا الاتجاه ، مع الاحتفاظ للتاريخ المصرى بمداه الزمنى المتعارف عليه ، هم ووزراؤهم وحكام أقاليمهم وكهنتهم وقادة جيوشهم ، وأبناؤهم وكل من يمت إليهم بصلة قرابة ، أو كل من لايمت إليهم بصلة قرابة من الجماهير المعاصرة لهم؛ ليحتل كل هذا الحشد المتقافز مكان الآخر؛ ليستقر فى المكان الذى يراه فليكوفسكى مناسبا لكى يصح التاريخ الذى يقول به ٠

أليس الأفضل من كل ذلك ، والأصح فى نفس الوقت ، أن يرفض المؤرخون والمثقفون والمهتمون وغير المهتمين ، من المصريين وغير المصريين لعبة الكراسى الموسيقية التى يفرضها إيمانويل فليكوفسكى على التاريخ السياسى ، تماما مثلما رفض العلماء والمتخصصون لعبة البلياردو التى فرضها على التاريخ الطبيعى ٠

زدنا ٠٠ وعدنا ٠٠ وأسهبنا كثيرا ٠٠٠ ومايزال للحديث بقية ٠

القسم الرابع

مــلاحـــق

ملحق ١

من سفر الخروج - التوراة

إصحاح ٣/١ أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية إلى جبل الله حوريب

٣/٢ وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق

٣/٦ ثم قال أنا إله أبيك إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله.

٣/٧ فقال الرب إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . إنى علمت أوجاعهم .

٣/٨ فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة إلى أرض تفيض لبنا وعسلا

٣/١٠ فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر

٣/١٩ لكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية

٣/٢٠ فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع

فيها وبعد ذلك يطلقكم

٢١/٣ وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين .

٢٢/٣ بل تطلب كل مرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين .

إصحاح ٤ ٣/٤ فقال اطرحها إلى الأرض فطرحها إلى الأرض فصارت حية فهرب موسى منها .

٦/٤ ثم قال له الرب أيضا ادخل يدك فى عبك فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج .

٧/٤ ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى قد عادت مثل جسده .

٩/٤ ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك إنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذى تأخذه من النهر دما على اليابسة .

٢١/٤ وقال الرب لموسى عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التى جعلتها فى يدك واصنعها قدام فرعون ولكنى أشدد قلبه حتى لايطلق الشعب

٢٢/٤ فيقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابنى البكر.

٢٣/٤ فقلت لك أطلق ابنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه . ها أنا أقتل ابنك البكر

إصحاح ٥ .

٤/٥ فقال لهما ملك مصر لماذا ياموسى وهرون تبطلان الشعب من أعماله اذهبا إلى أثقالكما .

٢٢/٥ فرجع موسى إلى الرب وقال له ياسيد لماذا أسأت

إلى هذا الشعب لماذا أرسلتنى

٥/٢٣ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلص شعبك .

إصحاح ٦

٦/١ فقال الرب لموسى الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه .

إصحاح ٧

٧/١٠ فدخل موسى وهرون إلى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا .

٧/١١ فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا سحرهم كذلك .

٧/١٢ طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم .

٧/١٣ فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب

٧/١٤ قال الرب لموسى قلب فرعون غليظ قد أبى أن يطلق الشعب

٧/١٥ اذهب إلى فرعون فى الصباح إنه يخرج إلى الماء وقف للقائه على حافة النهر والعصا التى تحولت حية تأخذها فى يدك

٧/١٦ وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلا أطلق شعبى ليعبدنى فى البرية ، وهو ذا حتى الآن لم تسمع .

٧/١٧ هكذا يقول الرب بهذا تعرف أنى أنا الرب ها أنا أضرب بالعصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فيتحول دما .

٧/١٨ ويموت السمك الذى فى النهر وينتن النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء النهر .

٧/١٩ ثم قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما فيكون دم فى كل أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار .

٧/٢٠ ففعل موسى وهرون كما أمر الرب فتحول كل الماء الذى فى النهر دما

٧/٢١ ومات السمك الذى فى النهر وانتن النهر فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر وكان الدم فى كل أرض مصر .

٧/٢٢ وفعل عرافو مصر كذلك بسحرهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب

٧/٢٣ ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجه قلبه إلى هذا أيضا .

٧/٢٤ وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر .

الإصحاح الثامن

٧/٢٥ ولما كملت سبعة أيام بعدما ضرب الرب النهر .

٨/١ قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون .

٨/٢ وان كنت تأبى أن تطلقهم فأنا أضرب جميع تخومك بالضفادع .

٨/٣ فيفيض النهر ضفادع ثم تصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك

٨/٤ وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع .

٨/٥ فقال الرب لموسى قل لهرون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام واصعد الضفادع إلى أرض مصر.

٨/٦ فمد هرون يده على مياه مصر - فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر

٨/٧ وفعل كذلك العرافون سحرهم واصعدوا الضفادع على أرض مصر .

٨/١٢ ثم خرج موسى وهرون من لدن فرعون وصرخ موسى إلى الرب من أجل الضفادع التى جعلها على فرعون .

٨/١٣ ففعل الرب كقول موسى فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول .

٨/١٤ وجمعوها كوما كثيرة حتى انتنت الأرض .

٨/١٥ فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج أغلظ قلبه . ولم يسمع لهما كما تكلم الرب

٨/١٦ ثم قال الرب لموسى قل لهرون مد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضا فى جميع أرض مصر.

٨/١٧ ففعلا كذلك

فصار البعوض على الناس وعلى البهائم كل تراب الأرض صار بعوضا فى جميعا أرض مصر .

٨/١٨ وفعل العرافون سحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا وكان البعوض على الناس وعلى البهائم

٨/١٩ فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب .

٨/٢٠ ثم قال الرب لموسى بكر فى الصباح .

وقل له

٢١/٨ ان كنت لاتطلق شعبى ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك الذبان فتمتلئ بيوت المصريين ذبانا وأيضا الأرض التى هم عليها .

٢٢/٨ ولكن أميز فى ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبى مقيم حتى لايكون هناك ذبانا

٢٣/٨ واجعل فرقا بين شعبى وشعبك إذا تكون هذه الآية.

٢٤/٨ ففعل الرب هكذا

خربت الأرض من الذبان

الإصحاح ٢/٩ فانه إن كنت تأبى أن تطلقهم وكنت تمسكهم بعد فها

٣/٩ يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وبأ ثقيلا جدا .

٤/٩ ويميز الرب بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين فلا يموت من كل ما لبنى إسرائيل شىء

٨/٩ ثم قال الرب لموسى وهرون خذا ملء أيديكما من رماد الآتون وليذره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون.

٩/٩ ليصير غبارا على كل أرض مصر فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور فى كل أرض مصر.

١٨/٩ ها أنا غدا مثل الآن أمطر بردا عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ يوم تأسيسها إلى الآن .

١٩/٩ فالآن أرسل أهم مواشيك وكل مالك فى الحقل جميع الناس والبهائم الذين يوجدون فى الحقل ولايجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون .

٢٢/٩ ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء

٩/٢٣ فمد موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودا وبردا وجرت نار على الأرض وأمطر الرب بردا على أرض مصر ·

٩/٢٤ فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد شيء عظيم جدا لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة·

٩/٢٥ فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل ·

٩/٢٦ إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد ·

٩/٣١ فالكتان والشعير ضربا لأن الشعير كان مسبلا والكتان مبزرا وأما الحنطة والقطانى فلم تضرب لأنها كانت متأخرة ·

٩/٣٤ ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد والرعود انقطعت عاد يخطئ وأغلظ قلبه هو وعبيده ·

١٠/٤ ها أنا أجيء بجراد على تخومك ·

١٠/٥ فيغطى وجه الأرض حتى لايستطاع نظر الأرض · ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل ·

١٠/٦ ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين · الأمر الذى لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ يوم وجدوا على الأرض إلى هذا اليوم ·

١٠/ ١٣فمد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد

٢١/١٠ ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . حتى يلمس الظلام .

٢٢/١٠ فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام

٢٣/١٠ لم يبصر أحد أخاه ولاقام أحد من مكانه ثلاثة أيام ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم .

٢/١١ تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب .

٤/١١ وقال موسى هكذا يقول الرب إنى نحو نصف الليل خرج فى وسط مصر

١/٥ فيموت كل بكر على أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة

٦/١١ ويكون صراخ عظيم فى كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضا

٧/١١ ولكن جميع بنى إسرائيل لا يسنن كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم لكى تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل

٣/١٢ كلما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت .

٤/١٢ وان كان البيت صغيرا على أن يكون كفوا لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة

٥/١٢ تكون لكم شاة صحيحة ذكرا ابن سنة تأخذونه من

الخرفان أو من الماعز .

١٢/٦ ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ثم يذبحه كل جمهور جماعة اسرائيل فى العشية

١٢/٧ ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها

١٢/٨ ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير .

١٢/١١ وهكذا تأكلونه أحقاؤكم مشدودة واحذيتكم فى أرجلكم وعصيكم فى ايديكم وتأكلونه بعجلة هو فصح للرب

١٢/١٢ فانى اجتاز فى أرض مصر هذه الليلة واضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين أنا الرب

١٢/١٣ ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر

١٢/٢٩ فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة

١٢/٣٠ فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت

١٢/٣٥ وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى طلبوا من المصريين أمتعة فضية وأمتعة ذهب وثيابا وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين .

ملحق ٢

مرثيات إيبو - ور

... (فجوة طويلة) .... يقول البوابون " إننا راحلون للنهب " ... ولم يعد الغسال يفكر فى حمل حمله ... واصطف صيادو العصافير فى وضع المعركة ... ويحمل أهل الدلتا التروس ... وينظر المرء إلى ابنه على أنه عدوه .. تعال واستول ... الإنسان القوى الشكيمة (٦٨) يسير مغموما بسبب ما حل بالبلاد ... وفى كل مكان يختلط الأجانب بشعب مصر بحيث يصعب التمييز بينهم .

الدور الأول

انظروا إذن فالوجه شاحب .. لقد وصلنا إلى ما تنبأ به الأجداد .. لقد ابتليت البلاد بعصابات اللصوص ، وعلى المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه ...

انظروا إذن ، فالوجه شاحب والقواس مجهز ، فالجريمة فى كل مكان، ورجل البارحة لا وجود له .

انظروا إذن فالسلاب ... فى كل مكان والخادم محمل بما استولى عليه.

انظروا فالنيل يضرب (ضفافه) ، ومع ذلك فليس هناك من يحرث ، وكل واحد يقول : " لاندرى ماذا حدث فى أرجاء البلاد " .

انظروا إذن ، فالنساء عواقر ولايحملن و"خنوم " لم يعد يخلق ، من جراء أحوال البلاد(٦٩)

انظروا إذن ، فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات . ومن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواما .

انظروا إذن ، إن خدمهم (٧٠) مهموموا القلب . وعظماء (الأمس) لم يعودوا يختلطون برجالهم ليفرحوا .
انظروا إذن، القلوب عنيفة ، والشقاء يعم البلاد بأسرها، والدماء فى كل مكان ولاينحسر الموت وتظن أشرطة المومياء أن المرء لم يعد يقترب منها.(٧١)
انظروا إذن ، فكثير من الموتى يلقى بهم فى النهر . المياه هى القبر و"المكان الطاهر " (٧٢) موجود الآن فى النهر .
انظروا إذن ، الأغنياء ينتحبون ، والمعوزون فى فرح . وكل مدينة تقول : "دعونا نطرد الأقوياء من دارنا " .
انظروا إذن ، الشعب شبيه بأبى منجل (٧٣) والنجاسات تعم البلاد بأسرها ولا يوجد فى الوقت الراهن من يرتدى الملابس البيضاء .
انظروا إذن ، فالبلاد تدور كما تدور عجلة الفخارى. واللص صاحب ثروات ....
انظروا إذن ، النهر صار نهرا من دم . وإن شرب منه أحد فسيبصقه لأن هذا (الدم) دم بشرى ، والناس ظمآى للماء .
انظروا إذن ، التماسيح استولت على " الأسماك " من شباكها فالرجال هم الذين يحضرون من تلقاء ذاتهم .. لقد قالوا بالفعل : " لاتذهب هناك، تنبه ، هناك فخ ولكنهم يهتزون كالأسماك . والانسان المذعور لم يعد يميز شيئا ، من جراء ما يشعر به من خوف .
انظروا إذن ، الرجال أقل عددا ومن يضع أخاه فى التراب (نلتقى به) فى كل مكان ..
انظروا إذن ، لم يعد المرء يميز ابن الانسان الطيب المنبت ... لأن ابن سيدة الدار هو الآن ابن الخادمة (٧٥)
انظروا إذن ، الصحراء تعم البلاد ، الأقاليم سلبت ونهبت ، واسيويو الخارج جاءوا إلى مصر. (٧٦)
انظروا إذن ، ... لم يعد أحد فى كل مكان .

انظروا إذن ، الذهب واللازورد ، الفضة والفيروز ، العقيق الأحمر والبرونز ، وحجر النوبة تحيط بجيد الخادمات ، بينما تهيم السيدات الكريمات الأصل فى طول البلاد وعرضها ، وتقول من كانت (فى الماضى سيدة بيت : " واه ! ليتنا نحصل على بعض ما يسد الرمق ! " .
انظروا إذن ، إن جسد هذه السيدات النبيلات ، يعانى من الأسمال التى يرتدينها ، وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بتحيتهن ...
انظروا إذن ، لقد حطمت الصناديق الصغيرة المصنوعة من الأبنوس ، ونقر خشب سوريا النفيس ...
انظروا إذن ، من كانوا يشيدون المنازل باتوا الآن يعملون فى الحقول. من كانوا فى قارب الإله ، باتوا الآن يساقون للعمل على متنه .
لايبحر أحد إلى بيبلوس (٧٧) هذه الأيام ، كيف سنتصرف للحصول على خشب الأرز من أجل مومياواتنا ؟ إن الكهنة يدفنون مع منتجاتهم فحسب والأثرياء يدفنون مع زيت ، ورد من أماكن قصية ، مثل جزيرة كريت ، ولكنهم لايعودون أبدا . (٧٨) إننا نفتقر إلى الذهب ، وأيضا إلى المواد (اللازمة) لمختلف الأعمال وما كان يمتلكه القصر الملكى " له الحياة - والصحة - والقوة " قد تم نهبه ، ومن ثم فإنه لأمر هام عندما يحضر أهل الواحات محملين بقرابينهم وحصرهم وجلودهم ونباتاتهم الطازجة وشرابهم (؟) وطيورهم ..
انظروا إذن ، إن الفنتين " وثنى " و ... فى الوجه القبلى لم تعد تدفع الضرائب بسبب التمرد . إننا نفتقر إلى الفاكهة وفحم الخشب ومختلف أنواع الخشب : " ارتيو " و " ماعاو " و " نوت " و " شيتاو " فقد أحرقت أعمال الحرفيين (؟)
مانفع خزانة بدون عوائد ؟ (فيما مضى) كان قلب جلالته سعيدا عندما كان (حملة) القرابين يتقدمون نحوه ، وعندما تأتى البلدان الأجنبية : هذه كانت امبراطوريتنا ، (٧٩) هذا كان رخاءنا . ماذا سنفعل فى هذا الصدد ؟ كل شىء تهدم .

انظروا إذن ، لقد اختفت البسمة ، فلا أحد يبتسم ، إن الشكوى ، هى التى تعم البلاد مختلطة بالنحيب .
انظروا إذن، .. لايمكن التمييز بين ابن الرجل الطيب المولد من البائس،.
انظروا إذن ، الكبار والصغار يتمنون الموت ، ويقول الصبية الصغار " ما كان ينبغى لـ
(أبى) أن يمنحنى الحياة "
انظروا إذن ، أبناء العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، فى حين أن الرضع الذين لازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) (يعرضون) فوق مرتفع.(٨٠)
انظروا إذن، أن الذين كانوا فى " المكان الطاهر " يوضعون فوق المرتفع،(٨١) لأن أسرار التحنيط قد ضاعت .
انظروا إذن ، ما كنا لانزال نراه بالأمس ، قد هلك . والبلاد ضاعت (تحت وطأة) ضعفها ، مثلما تكون عند اقتلاع الكتان (٨٢)
انظروا إذن ، الدلتا بأسرها لم تعد متوارية ، فقلب الوجه البحرى يعج الآن بالدروب المطروقة، (٨٣) فما العمل؟ ... ويقال : " اللعنة على "مكان الأسرار " (٨٤) ، انظر إنه الآن بين يدى الذى لايعرفه مثله ذلك الذى كان يعرفه ، إن الأجانب هم منذ الآن الحرفيون الذين يقومون بأعمال الوجه البحرى .
انظروا إذن ، إن مواطنى (الأمس) ينحنون الآن فوق حجر الرحى ، والذين كانوا يرتدون أرق أنواع الكتان يضربون الآن بـ ... ولكن الذين لم يروا النور أبدا يخرجون . وأولئك اللاتى كن على سرير ازواجهن ، يردد الناس القول عنهن : " إنهن يقضين الآن الليل على لوح خشبى " وإذا قالت (إحداهن) : " اللوح المحمل بالمر ثقيل جدا بالنسبة لى " عندئذ سوف يحمل بجرار مملوءة ... (٨٥)
وأصبحن لايتعاملن مع المحفات واختفى ساقى الخمور ، ولا علاج لكل ذلك . ومن الآن ستتألم سيدات (الزمن العابر) ذات الحسب والنسب

كما كانت الخادمات يتألمن (فيما مضى) . والموسيقيات فى حجراتهن ، داخل بيوتهن ، وأغانى الحب هى عبارة عن مراثى (٨٦) . والرواة (ينحنون) على حجر الرحى .

انظروا إذن ، إن الخادمات صرن الآن سيدات بقدرة ألسنتهن (يتحدثن حسبما يحلولهن) . (وفى الماضى) عندما كانت السيدة تتحدث، كان الأمر قاسيا على الخدم .

انظروا إذن ، الأشجار أتلفت ، الأغصان تجردت ، والخدم يهجرون منازلهم . ويقول الناس عندما يبلغهم ذلك : " لم تعد هناك مكافآت طائلة للاطفال بل ولم يعد هناك طعام فبماذا إذن نشبه مذاق اليوم ؟

انظروا إذن ، العظماء جوعى ويتألمون ، ولكن الخدم أصبح لهم من يخدمهم ، . .

انظروا إذن ، " الرأس الساخن " (٨٧) يقول " لو . . كنت أعرف أين هو الإله لعملت من أجله . . ".

انظروا إذن ، الناس يركضون ويتصارعون للتزود بالطعام . (الرجل الثرى) يسرق ويتم الاستيلاء على جميع ما يملك .

انظروا إذن ، فقلب الحيوانات يبكى أيضا والقطعان غارقة فى النواح بسبب أحوال البلاد .

انظروا إذن ، أطفال العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران ، فى حين أن الرضع الذين مازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) يعرضون فوق مرتفع ، إن الإله " خنوم " يئن من التعب . . . .(٨٨)

انظروا إذن ، فبعد أن تأكدت القدرة للجميع يضرب الإنسان شقيقه المولود من أمه ، فيقول الناس ماذا يحدث ؟

انظروا إذن ، الدروب والطرق محروسة ، ويجلس المرء فى الأدغال حتى يصل أحد مسافرى الليل فيستولى على أمتعته . ويجرده من كل ما معه ، ويمتعه بضربات من عصاه ثم يقتله باجرام

انظروا إذن ، ما كنا لانزال نراه بالأمس قد هلك ، والبلاد ضاعت (تحت

وطأة) ضعفها ، مثلما هو الحال عند اقتلاع الكتان ، ومواطنو (الأمس) يروحون ويؤوبون وهم ينتحبون .. " واها ! لو كان هذا هو نهاية البشرية ، لما حملت النساء ولما انجبن قط ، ولغرقت الأرض فى السكون ، ولن تكون هناك بعد ذلك عواصف " .

انظروا إذن ، (البشر يتغذون) على الأعشاب ويشربون الماء ، فالفواكه والنباتات بل والطيور ذاتها ، لم تعد موجودة . وينتزع المرء ... حتى من فم الخنزير ، دون أن يقول أحد (كما فى الماضى) : " ذلك يطيب لك أكثر مما يطيب لى " بسبب الجوع .

انظروا إذن ، لقد تلفت الحبوب على جميع الدروب . إننا محرومون من الثياب والعطور والزيوت . وكل واحد يقول : " لم يعد يوجد شىء " . الحانوت خاو ، وحارسه ممدد على الأرض وسط العشب : إن النباتات هى ما يرغبها المرء الآن ، وهى كثيرة . واه ! لو أن صوتى كان من الممكن أن ينطلق فى تلك اللحظة لانقذنى من الأسى الذى اعانيه !

انظروا إذن ، إن قاعة المحفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها ، إن مكان الأسرار قد جرد الآن (من محتوياته) .

انظروا إذن ، إن الأوراد السحرية قد أميط اللثام عنها وشاعت وانتشرت. فبات مضمونها منذ الآن . غير فعال؛ لأن الشعب (ذاته) يحفظها فى ذاكرته .

انظروا إذن ، المكاتب الادارية مفتوحة ، واختفت منها السجلات ، بحيث أن من كان قنا يمكن أن يصبح سيد أقنان (٨٩)

انظروا إذن ، لقد قتل (الكتبة) ، واختفت مدوناتهم . كم أنا تعس من بؤس هذا الزمان !

انظروا إذن ، إن كتبة مكتب الحبوب قد انتزعت أيضا دفاترهم . إن حبوب مصر ، التى يعيش منها الناس فى الوقت الراهن هى : " إنى أحضر وأخطف " .

انظروا إذن ، إن قوانين القاعة الخاصة قد طرحت خارجا ، (٩٠) بحيث

يدوسها الناس فى الشوارع ويمزقها المعوزون فى الطرقات .
انظروا إذن ، إن الانسان البائس يقترب من مقام آلهة التاسوع ، وأميط اللثام عن الاجراءات القانونية الشهرية " لمجلس الثلاثين " (٩١)
انظروا إذن ، المجلس الخاص العظيم قد تم اجتياحه (٩٢) والمعوزون يروحون ويجيئون فى " البيوت العظيمة " (٩٣)
انظروا إذن ، إن أبناء الأعيان قد ألقى بهم فى الطرقات ، ومن هو على علم يقول : نعم ومن يجهل يقول : لا . ويبدو كل شىء جميلا فى عينى ذلك الذى لايعرف .(٩٤)
انظروا إذن ، إن الذين كانوا فى المكان الطاهر ، يوضعون فوق المرتفع ، لأن أسرار التحنيط قد ضاعت .

الدور الثانى
انظروا ، فى الحقيقة ، سوف تتجه النار صوب المرتفعات ويتصاعد لهيبها ضد أعداء البلاد .
انظروا ، فى الحقيقة ، لقد حدث شىء لم يكن قد حدث قط من قبل : لقد انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى أن بعض الأشقياء اختطفوا الملك(٩٥)
انظروا ، ذلك الذى كان قد دفن بصفته " صقرا " إلهيا (= الملك) هو الآن فوق محفة ، والهرم بعدما كان يضمه أصبح من الآن خاويا .
انظروا ، فى الحقيقة ، لقد انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى أن البلاد حرمت من الملكية على أيدى عدد محدد من الناس الذين فقدوا رشدهم .
انظروا ، فى الحقيقة ، لقد انحدرنا إلى أسفل سافلين حتى حدث تمرد ضد الحية - الصل (ابنة ؟) " رع " (٩٦) التى كانت قد أحلت السلام فى الأرضين .
انظروا ، إن أسرار البلاد التى كان يجهل الناس حدودها (٩٧) كشف عنها الحجاب الآن . لقد دمر المقر الملكى فى ظرف ساعة واحدة .

انظروا ، إن مصر قد انحدرت من الآن إلى أسفل سافلين حتى أنها " تصب الماء " (تقوم بأعمال الخدمة المنزلية) لأن من كان يرش الماء (فى الماضى) على الأرض قد قاد الإنسان الشديد البأس إلى البؤس .

انظروا ، إن الثعبان " قرحت " (٩٨) قد خرج من جحره وتم إفشاء أسرار ملوك الوجهين القبلى والبحرى .

انظروا ، لقد روع المقر الملكى من جراء المجاعة ويمكن للمرء أن يذكى نار الصراعات دون أن يصده أحد .

انظروا ، إن عصابات اللصوص منتشرة فى البلاد (٩٩) والرجل الخسيس يستولى على أملاك الرجل القوى .

انظروا ، ذلك الذى لم يكن فى امكانه أن يصنع لنفسه تابوتا ، باب يمتلك الآن مقبرة .(١٠٠)

انظروا ، لقد أقصى السادة المقدسون فى " المكان الطاهر " إلى مرتفع . بينما ذلك الذى كان لايستطيع أن يصنع لنفسه تابوتا بات الآن " فى بيت الخزانة " . (؟)

انظروا ، فى الحقيقة ، إلى هذه التغيرات التى طرأت على الشعب المصرى: فمن لم يكن فى استطاعته أن يشيد لنفسه مجرد حجرة ، بات يمتلك الآن صناديق حلى .

انظروا ، إن قضاة مصر يطاردون فى جميع أنحاء البلاد ، وقد طردوا من بيوت الملكية (بفتح الميم)

انظروا ، إن السيدات الكريمات الأصل يرقدن على الألواح والأعيان (الحقوا) بالحوانيت . ولكن الذى لم يكن فى مقدوره أن ينام ولو على صندوق ، يمتلك الآن سريرا .

انظروا ، الرجل الثرى فيما مضى يبيت الآن ظمآنا ، أما ذلك الذى كان فى الماضى يستجدى رواسب الأقداح ، فقد أصبحت الجعة عنده ، من الآن تفيض عن الحاجة (١٠١)

انظروا ، من كانوا يملكون فى الماضى ملابس كتانية ، يرتدون من الآن

ملابس رثة ، ومن كان لايستطيع أن ينسج لنفسه صار مالكا لأرق أنواع الكتان .

انظروا ، من لم يكن قد صنع أبدا لنفسه سفينة ، يملك من الآن سفنا مالكها (القديم) ينظر إليها بعد أن لم تعد ملكه .

انظروا ، من كان لايعرف الظل ، لديه الآن ظل ، ومن كانوا فى الماضى يعرفون الظل قذف بهم وسط العاصفة .

انظروا ، من كان لايملك مجرد القيثارة ، عنده منذ الآن الجنك ، وذلك الذى لم يكن أحد يغنى له ، أصبح الآن يسبح لإلهة الموسيقى .

انظروا ، من كانوا يمتلكون موائد نحاسية للمسكوبات ، لم تعد هناك الآن جرة واحدة بين جرارهم تحاط بجدائل الزهور (١٠٢)

انظروا ، من كان ينام بدون امرأة وكان محروما منها (١٠٣) (قد وجد سيدات كريمات الأصل .

انظروا ، من كان لايمتلك شيئا هو الآن رجل موسر ، والعظيم يقدم له التكريم

انظروا ، الرجل المعوز فى البلاد صار ثريا ، والثرى صار فقيرا .

انظروا ... من كان رسولا ، يوفد الآن شخصا غيره .

انظروا ، من كان لايجد خبزا ، يملك مستودع حصاد ولكن مخزنه ملىء بممتلكات الغير .

انظروا ، الرجل الذى بلا شعر الذى كان يفتقر إلى الزيت ، يمتلك الآن جرارا من المر الطيب .

انظروا ، من لم يكن عنده مجرد علبة ، فى حوزته صندوق حلى ، ومن كانت ترى وجهها فى الماء تمتلك الآن مرآة من النحاس .

انظروا ، فى الحقيقة ، يكون الإنسان سعيدا عندما يأكل طعامه . " هنيئا لك " إذن وأنت تأكل من مالك ، فلن يثنيك أحد إذ يطيب للإنسان أن يتناول الطعام الذى خصصه الإله لمن يشمله برعايته ..." من كان يجهل الإله يقدم له الآن القرابين ببخور الغير

انظروا ، النساء العظيمات وسيدات (الزمن الماضى) الكريمات الأصل ، يضعن الآن أطفالهن فوق الأسرة (١٠٤)

(نص كله فجوات)

انظروا ، من كانوا يمتلكون الأسرة هم على الأرض ، ومن كان يرقد فى القذورات يعد لنفسه منذ الآن وسادة من جلد .

انظروا ، السيدات النبيلات جياع ، فى حين أن الخدم متخمون بما يعد من أجلهم .

انظروا ، من الآن لايوجد منصب فى مكانه ، مثل القطيع الذى يضل فى غياب راعيه .

انظروا ، الماشية شاردة دون أن يكترث بها أحد . يجلب منها كل رجل ويسمها باسمه بالحديد المحمى .

انظروا ، إذا قتل رجل بجوار أخيه ، يتركه هذا الأخير لينجو بجلده .

انظروا ، من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار فى حوزته الآن قطيعا . من لم يكن فى استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشى .

انظروا ، من لم تكن عنده بذور ، يمتلك مخازن غلال ، من كان يجلب لنفسه قمحا يقترضه ، يقوم هو الآن بتوزيعه .

انظروا ، من لم يكن له مجرد جيران ، صار الآن صاحب خدم ، ولكن (نبيل البارحة) ينجز بنفسه مهامه .

انظروا ، رجال البلاد ذوو السلطان لم يعد أحد يقدم لهم تقارير عن ظروف (حياة) الشعب ، لأن كل شىء خراب (١٠٥)

انظروا ، لم يعد الحرفيون يعملون ، لأن الأعداء حرموا البلاد منهم (١٠٦)

(نص كله فجوات)

الدوران الثالث والرابع

مهشمان تهشيما بالغا ٠ ويؤكدان أيضا على أعمال التدمير الناجمة عن الثورة الاجتماعية

الدور الخامس – الذكريات والحسرات (١٠٧)
تذكر الطيور السمينة ، والأوز والبط والقرابين المخصصة للآلهة ٠
تذكر النطرون الذى كان يمضغه الناس (١٠٨) والخبز الأبيض الذى كان يعده الانسان ٠
تذكر السوارى التى كانت تقام ، وموائد القرابين التى كانت تقطع ، والكهنة " وعب "
وهم يطهرون الهياكل ، والمعبد الأبيض كاللبن ، ورائحة عطر الأفق الزكية، ووفرة القرابين
تذكر مراعاة القواعد ، والتتابع الصائب للأيام ٠

الدور السادس ... الحنين إلى المملكة الهادئة

إنه لأمر طيب بالتأكيد أن نهبط على النهر
إنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الشباك ممدودة والعصافير ممسوكة..
إنه لأمر طيب بالتأكيد .. عندما تكون الطرقات معدة للنزهة ٠
إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما تشيد أيادى الرجال الأهرامات وتحفر البحيرات وتعد بساتين الفواكه للآلهة ٠
إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما يكون الناس سكارى ويشربون بقلب بهج ٠
إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما تملأ صيحات الفرح جميع الأفواه ، بينما رؤساء الأقاليم يقفون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة ، وقد ارتدوا الكتان الرقيق (وأمسكوا) أمامهم عصى القيادة ، بقلب أبى ٠

إنه لأمر طيب بالتأكيد ، عندما تكون الأسرة مرتبة ويكون مخدع كبار القوم محميا على (يوضع) أحسن وجه ، وعندما تكون حاجة كل إنسان مكفولة بكل بساطة بحصير فى الظل ، والباب موصد على من يرقد فى الأدغال . (١٠٩)

مرثيات إيبو – ور

كلير لا لويت – نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة – ترجمة : ماهر جويجاتى

ملحق ٣

بردية إيبوور

نص المتن يشمل فقرات نثرية وست قصائد شعرية ، وهذه تكون نواته الحقيقية ويبتدئ كما وصلنا بأن نرى الحكيم قد أخذ فعلا فى تصوير مصيبة البلاد : فيقول حراس الأبواب : " فلنذهب لننهب " والغسال يتنحى عن حمل حمله ٠ وصائدو الطيور قد جهزوا أنفسهم للواقعة ، وآخرون من الدلتا يحملون الدروع ٠ وقد ثار القوم حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائعى الحلوى وصانعى الجعة ، وأصبح الرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدو ٠٠٠

والرجل الفاضل يذهب بملابس الحزن بسبب ما حاق بالأرض٠٠٠٠

وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان ٠

(الشعر الأول)

" حقا لقد شحب الوجه ٠٠٠ والأجداد قد تنبئوا ٠٠٠"

وبعد كسر طويل بعض الشيء نقرأ :

حقا فإن ٠٠٠ (والبلاد) ملأى بالعصابات ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه ٠

حقا فإن الخجول يقول : ٠٠٠ (مهشم)

حقا فإن الوجه قد شحب ، وحامل القوس أصبح مستعدا ، والمجرمون فى كل مكان ، ولايوجد رجل من رجال الأمس ٠

حقا إن الناهبين فى كل مكان ٠٠٠

حقا إن النيل فى وقت الفيضان ، ومع ذلك لايحرث أحد من أجله . وكل إنسان يقول " لانعرف ما حدث فى أنحاء البلاد " .

حقا لقد صارت النساء عاقرات ، وانقطع الحمل وأصبح الإله " خنوم، لايسوى الناس بعد بسبب حالة الأرض المضطربة .

حقا لقد أصبح المعوزون الآن يمتلكون أشياء جميلة ، ومن كان يخصف نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة .

حقا إن أرقاء الرجال أضحت قلوبهم فى حزن وأصبح العظماء لايشاطرون أهليهم أفراحهم (؟)

حقا إن القلب لثائر . والوباء قد انبث فى كل الأرض ، والدم صار فى كل مكان . . . ولفائف المومسيات تتكلم، وإن لم يقترب الإنسان منها .

حقا لقد دفن رجال عديدون فى النهر ، فأصبح النهر قبرا ، وصار المكان الطاهر مجرى .

حقا لقد أصبح الحزن يملأ (قلوب) أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلئوا سرورا ، وأضحت كل بلدة تقول : فلنقص القوى من بيننا .

حقا لقد أصبح منظر الناس كمنظر طير " جم " ، والقاذورات منتشرة فى كل البلاد ، ولا يوجد امرؤ بملابس بيضاء فى هذا الوقت .

حقا لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار . وصار اللص صاحب ثروة (ثم يأتى بيت ممزق) .

حقا لقد تحول النهر دما . فهل يشرب الإنسان منه ؟ إنه يعافه بوصفه آدميا (لأن) الإنسان يظمأ للماء .

حقا إن (البوابات) والعمد والجدران قد التهمتها النيران (ومع ذلك) فإن حجرة (؟) قصر الملك لاتزال باقية ، وواقفة ثابتة.

حقا لقد أصبحت سفينة الجنوب شاردة (؟) ، ودمرت البلاد ، وصار الوجه القبلى صحراء خاوية (؟) .

حقا لقد أصبحت التماسيح فى تخمة بما قد سلبت؛ إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر وحالة البلاد أصبحت سيئة ٠٠٠٠ ويقول القوم : لاتدوسوا هنا ، ولكنهم يدوسون هناك كأنما هناك سمك ، لأن الرجل الجبان ينقلب غاية فى الغباوة من الرعب ٠

حقا لقد أصبح الناس قليلين ٠ على أن من يدفن أخاه فى الأرض يرى فى كل مكان وبعد أن يتكلم المرتل يهرب على الفور ٠

حقا لقد أصبح ابن سلالة المجد لايعرف (؟) وأصبح ابن زوجته ابن خادمته (؟) ٠

حقا لقد أصبحت الأرض الحمراء (الأجانب) منتشرة فى كل البلاد ٠ وخربت المنازل ٠ ونزل قوم أغراب من الخارج إلى مصر ٠ " البيت التالى ينتهى " : " ولارجال فى أى مكان " ٠

حقا إن الذهب واللازورد والفضة والياقوت والكرنيليان والبرونز والمرمر و ٠٠٠ تحلى جيد الجوارى ٠ والسيدات النبيلات (؟) يمشين فى طول البلاد وربات الخدور يقلن : ليت عندنا بعض الشىء لنأكل ،

حقا فإن ٠٠٠أعضاء السيدات فى حالة يرثى لها؛ إذ يرتدين الخرق البالية ٠ وقلوبهن تنفطر حينما يحيين ٠

حقا فإن صناديق الأبانوس تكسر : وخشب " سسنم " الثمين يقطع قطعا للأسرة (؟) ٠

حقا لقد أصبح بناءو (الأهرام) عمالا فى الحقول ، والذين كانوا فى سفينة الإله أصبحوا تحت نير واحد ولا يسيح الناس إلى " جبيل " اليوم٠ وإذن ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم للموميات ؟ ٠

فالكهنة يدفنون بمستخرجاتها والأمراء حتى بلاد كفتيو (كريت) يحنطون بزيتها ، فهى لاترد بعد قط ، والذهب قل والـ ٠٠٠ الذى كان يستعمل فى كل الحرف قد انتهى ٠٠٠ وكم يظهر للإنسان عظيما عندما يأتى إليه أهل ألواحات حاملين محصولاتهم من نبات وطيور

حقا فإن " إلفنتين " و " طينة " (؟) وهما من ممتلكات الوجه القبلى

أصبحتا لاتؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية . وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة ، وكل ما ينتجه الصناع ... فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟

ولا شك فى أن قلب الملك يسر عندما يقف على الحقيقة . فقد دخلت (البلاد) كل مملكة أجنبية ، وهذا ماؤنا : وهذه سعادتنا ... ولكن ما العمل ؟وكل شيء ينحدر إلى الدمار!

حقا لقد قضى على الفرح ، ولم يعد يقام ، بل الحزن هو الذى يتمشى فى طول البلاد ممزوجا بالأسى .

حقا فإن الأموات أصبحوا مثل الأحياء (؟؟) ومن كانوا مصريين أصبحوا أجانب (؟)

حقا لقد سقط شعر كل إنسان ؟ وأصبح لا يميز بين ابن الرفيع وبين ابن من لا والد له ... والجلبة لم تكن غير متوفرة فى سنى الجلبة ولا نهاية للضوضاء .

حقا فقد أصبح كل من العظيم والحقير يقول : " ياليتنى كنت ميتا" ! والأطفال الصغار يقولون : " كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة " .

حقا فقد أصبح أولاد الأمراء يضرب الناس بهم عرض الحائط – وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق . وأصبح الإله " خنوم " يئن تعبا .

حقا فإن الذين كانوا فى " المكان الطاهر " قد ألقوا على قارعة الطريق، وأصبح سر المحنطين جهرا .

حقا فإن ماكان لايزال يرى حتى الأمس قد دمر وهجرت الأرض لآلامها كما يقتلع الإنسان الكتان (من أصوله) .

حقا فإن الدلتا بأجمعها أصبحت غير محمية (كما كانت) والاعتماد على أرض الشمال أصبح (الآن) طريقا معبدا . وماذا يفعل الإنسان ؟ ... وسيقول الناس حقا : لمن المكان الوعر ! ولكن انظر فقد أصبح الآن ملكا على السواء لمن يجهلونه ومن يعرفونه ، وأصبح الأجانب مهرة فى

صناعات الدلتا .

حقا فإن المواطنين قد ألقى بهم على أحجار الطواحين . وهؤلاء الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يضربون ... واللائى لم يشاهدن نور النهار قد خرجن ... واللائى كن على أسرة أزواجهن ، أصبحن ينمن على مضاجع مقضة ... وأصبحت السيدات يتألمن مثل الإماء ، ومغنيات الخدور أصبحت أغانيهن لإلهة الغناء أنشودة حزن ، والقاصون ... يجلسون على أحجار الطواحين .

حقا فقد أصبحت الخادمات من الإماء يوجهن ألسنتهن حيث شئن ، وعندما تتكلم سيداتهن فإن ذلك يكون مملا لإمائهن

حقا ... وسيقول الناس حينما يسمعونها : لقد أتلف الفطير لمعظم(؟) الأطفال ، وليس هناك طعام لأجل ... ، فما طعم هذا اليوم ؟

حقا فقد أصبح الحكام جياعا وفى بؤس ....

حقا فإن الرجل الأحمق يقول : " إذا عرفت أين يوجد الإله فإنى أقدم له قربانا " (لقد أصبح الصدق كذبا فى الأرض ، والحصاد قد اغتصب كل متاعه)

حقا فإن كل قلوب الماشية تبكى والقطعان تندب حالة البلاد .

حقا لقد أصبح أبناء الأمراء يضرب بهم القوم عرض الحائط ، والأطفال الذين كانوا محبوبين قد ألقى بهم على قارعة الطريق . والإله " خنوم " يشكو بسبب إعيائه .

بيت مبهم :

حقا لقد ... عمت الوقاحة (فى كل البلاد) عند كل الناس والرجل يقتل أخاه من أمه . فما العمل فى ذلك ؟

حقا لقد أصبحت الطرق ... والشوارع تحرس والناس يختبئون فى الأعشاب حتى يأتى المسافرون فى ظلام الليل ليسلبوا منه حمله. وما عليه يسرق ، ويضرب بالعصا حتى ينقطع نفسه ثم يذبح ظلما .

وفى الحق لقد دمر ما كان مرئيا بالأمس ، وقد تركت الأرض لمتاعبها،

كما يقتلع الإنسان منها الكتان ، والفقير ... فى شجى .... ليت آخر الناس يكون قد حل ، فلا حمل ولا ولادة ! ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنفض المشاحنات !

وفى الحق لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء . وقد أصبحت الطيور ولا فاكهة ولا أعشاب تأكل منها . وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير دون أن يقال (كما كان يقال فى الزمن السالف) " هذا أحسن لك مما هو لى " لأن القوم صاروا جياعا .

وفى الحق قد انعدمت الغلال فى كل مكان وجرد القوم من الملابس والعطر والزيت وصار كل إنسان يقول : " لم يبق شىء " . وصار المخزن خلوا ، وحارسه قد أصبح ملقى على الأرض ، وإن ذلك ليس بالأمر السار لقلبى . وليت فى مقدورى أن أرفع صوتى فى هذه الأونة حتى كان يخلصنى من الألم الذى أنا فيه الآن !

وفى الحق لقد سلبت كتابات قاعة المحاكمة الفاخرة ، وأصبح المكان السرى مكشوفا ..

وفى الحق لقد أذيع سر التعاويذ السحرية ، وصارت لا أثر لها (؟) لأن القوم قد حفظوها فى أذهانهم .

وفى الحق لقد فتحت الإدارات العامة ، ونهبت قوائمها . وصار العبيد أصحاب عبيد

وفى الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت قوائمهم . فتعسا لى بسبب البؤس فى مثل هذا الزمن !

وفى الحق لقد دمرت دفاتر كتاب الحقيبة ، وأصبحت غلال مصر ملكا مشاعا .

وفى الحق لقد وضعت قوانين قاعة المحاكمة فى البهو . وصار القوم يطئونها فى الطرقات ويمزقها الفقراء فى الأزقة .

وفى الحق لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسعة ، وإجراءات بيت الثلاثين قد أفشيت .

وفى الحق لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة ·، والفقراء يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة ·

وفى الحق لقد أصبح أولاد الحكام يلقون فى الشوارع · ومن كان صاحب معرفة يقول: نعم ، والجاهل يقول : لا ، · فالذى لاعلم له يظهر ذلك عنده حسنا ·

وفى الحق أصبح أولئك الذين كانوا فى " المكان الطاهر " يلقون على قارعة الطريق وصار سر المحنطين مكشوفا ·

(الشعر الثانى)

انظر ! إن النار قد اشتعل لهيبها عاليا ، واندلع شررها ضد أعداء البلاد ·

انظر ! لقد حدثت أمور لم تحدث منذ زمن بعيد مضى؛ إذ اختطف الفقراء الملك ·

انظر ! إن الذى دفن كصقر أصبح يرقد على نعش ، وما خبأه الأهرام قد أصبح خلواً·

انظر ! لقد تجاسر بعض الخوارج فحرموا البلاد الملكية ·

انظر ! لقد آل الأمر إلى أن يظهر الناس العداء للصل (حامى ؟) رع الذى جعل الأرضين فى سلام ·

انظر ! إن سر الأرض الذى لايعرف أحد حدوده قد أفشى ، وأصبح مقر الملك رأسا على عقب فى لحظة ·

انظر ! إن مصر قد أصبحت تصب الماء ، ومن كان يصب الماء على الأرض ···· وقد قبض على الرجل القوى ، وهو فى بؤس (صب الماء كان يقوم به الفقراء من الناس) ·

انظر ! إن الحية " كرحت " قد أخذت من وكرها · وبذلك أفشى سر ملوك الوجه القبلى والبحرى ·

انظر ! إن مقر الملك خائف لاحتياجه · والـ ······ وسيحدث الاضطراب وليست هناك مقاومة ·

انظر ! إن الأرض ملأى بالعصابات ، والرجل القوى يغتصب التعساء متاعه .

انظر ! إن الحية " كرحت " ... المتعبين . ومن لم يكن فى مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتا أصبح يملك قبرا .

انظر! إن أرباب المقابر (المكان الطاهر) قد ألقى بهم على قارعة الطريق . وذلك الذى لم يكن فى مقدوره أن يصنع لنفسه كفنا أصبح الآن صاحب ثروة(؟).

انظر! لقد حدث هذا بين الناس ؛ فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناء مسورا .

انظر! إن قضاة البلاد قد طردوا فى طول الأرض ... طردوا من بيوت الملوك

انظر ! إن العقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن ،والأمراء ينامون فى المخزن.ومن لم يكن ميسورا له أن ينام على الجدران أصبح صاحب سرير .

انظر! إن الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ، ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يملك الجعة القوية .

انظر! إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا فى خرق بالية ، ومن كان لاينسج لنفسه أصبح الآن يملك الكتان الجميل .

انظر! إن الذى لم يبن قط لنفسه قاربا أصبح الآن يملك سفنا ، وأصبح صاحبها ينظر إليها ، ولكنها لم تعد ملكه بعد .

انظر! إن الذى لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس أصبح يملك ظلا ، وهؤلاء الذين كانوا يملكون ما يأويهم أصبحوا الآن عرضة لزعازع العاصفة .

انظر! إن من كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك عودا ، ومن كان لايغنى له أحد أصبح الآن يثنى على إلهة الغناء .

انظر ! إن الذين كانوا يملكون موائد شراب من النحاس أصبح لا

يحلى إناء واحذ لفرد منهم (؟؟)

انظر ! إن من قد نام أعزب بسبب الحاجة أصبح الآن يجد السيدات(؟)...

انظر ! إن من كان لا يملك شيئا أصبح ذا ثروة ، وأصبح الرجل العظيم يمدحه

انظر ! إن فقراء الأرض أصبحوا أغنياء ، ومن كان يملك متاعا أصبح لاشيء عنده.

انظر ! إن الذين ... أصبح لهم طائفة من الخدم ، ومن كان رسولا أصبح يرسل غيره .

انظر ! إن من كان لايملك الخبز أصبح يملك جرنا ، وما يملأ به مخزنه هو متاع غيره .

انظر ! إن الأصلع الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أوانى العطور الزكية .

انظر ! إن من كانت لا تملك صندوقا أصبحت تملك صوانا ، وتلك التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة .

(بيت ترك ناقصا)

انظر ! إن الرجل يصبح سعيدا حينما يأكل طعامه . أنفق مالك فى سرور دون أن تغل يدك ! فإنه خير للرجل أن يأكل طعامه ، فإن الله يمنحه من يمدحه .

انظر ! إن من كان يجهل إلهه أصبح يقدم له قربانا من بخور آخر...

انظر ! إن السيدات النبيلات والسيدات العظيمات اللائى كن يملكن متاعا حسنا أصبحن يقدمن أولادهن الى الأسرة .

انظر ! إن من اتخذ سيدة زوجة أصبح والدها يحميه ...

انظر ! إن أولاد رجال البلاط أصبحوا فى خرق بالية .... وما شيتهم صارت متاع الناهبين .

انظر ! إن القصابين يذبحون الماشية للفقراء ....

انظر ! إن من لم يذبح لنفسه قط أصبح الآن يذبح ثيرانا ...
انظر ! إن القصابين يذبحون الإوز الذى يقدم للإله بدلا من الثيران
انظر ! إن الجوارى ... يقدمن الإوز ... السيدات ...
انظر ! إن السيدات الشريفات يهربن ... وأطفالهن ، ويلقى بأطفالهن خوفا من الموت

انظر ! إن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أى عمل بسبب الحاجة ...

انظر ! إن الذين كانوا يملكون الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض . وذلك الذى كان ينام فى الأوساخ أصبح يملك الآن سريرا .

انظر ! إن السيدات الشريفات قد أصبحن جائعات ، ولكن القصابين أصبحوا فى كظة متخمين من الشبع بما يعملونه .

انظر ! فإن الوظائف ليست فى موضعها الصحيح مثل القطيع المذعور الذى لاراعى له .

انظر ! إن الماشية قد تركت تضل سبيلها ولا إنسان يجمعها ويلم شعثها . فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ويسميها باسمه (أى يعلمها)

انظر ! إن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجى نفسه .
انظر ! إن من كان يملك زوج ثيران أصبح يملك أزواجا . ومن لم يكن فى مقدوره أن يحصل على ثيران للحرث أصبح يملك قطعانا .

انظر ! إن الذى لم يكن يملك حبة أصبح الآن يملك أجرانا . ومن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح أصبح الآن يخرج من مخازنه ويجعلها توزع .

انظر ! إن من كان لايملك أتباعا أصبح رب عبيد . ومن كان من علية القوم أصبح الآن ينفذ أوامر غيره .

انظر ! إن عظماء الأرض أصبحوا ولا أحد يخبرهم عن حالة عامة الشعب . وكل شىء آيل للخراب !

انظر ! لا صانع يعمل ، والعدو يحرم البلاد حرفها ٠

انظر ! إن من حصد المحصول لا يعرف عنه شيئا ٠ ومن لايحرث لنفسه يملأ مخزنه

... وإن الحصاد يحرث ، ولكن لم يذكر عنه شيء ، والكاتب يجلس فى مكتبه ، ولكن يديه لاتعملان شيئا ؟؟...

(الشعر الثالث والرابع)

(بعض أبيات ناقصة وممزقة كل منها يبتدىء بكلمة " مدمر" وفى الفقرة التى قبل الآخر يمكن أن تفهم ما يأتى) ٠ الرجل الفقير يستيقظ عندما ينبثق نور النهار عليه دون أن يخافه ، وإنها لخيام قد صنعوها مثل المتوحشين ٠

(والبيت الأخير) : لقد أتلف تنفيذ ما أرسل من أجله الخدم بأمر من أسيادهم ، فإنهم أصبحوا غير وجلين ٠

انظر ! إنهم كانوا خمسة رجال ٠ وهم يقولون : اذهبوا أنتم على الطريق الذى تعرفونه أما نحن فقد وصلنا (إلى موطننا)

(وتتبع ذلك فقرة منفردة)

إن الدلتا تبكى ومخزن الملك أصبح ملكا مشاعا لكل فرد ٠ ولا ضرائب تجبى للقصر كله ، ومع ذلك فإن له قانونا شعيرا وقمحا ودجاجا وسمكا ، يملك المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس والزيت ، ويملك الحصير والبسط ... ومحفة وكل المحاصيل الجميلة ... فإذا لم يعلن ذلك إلى الآن فى القصر فحينئذ ...

أما الشعر الرابع الذى لم يبق منه إلا نتف فإن ستة الأبيات التى يحتويها يبتدىء كل منها : دمر أعداء المقر الملكى العظيم ، (ومن ذلك يستنتج أنه يحتوى بلاشك على الأمر بمقاومتهم)

وقد نعت هنا مقر الملك بصفات مثل صاحب الموظفين المتفوقين ، وصاحب القوانين العدة ، وصاحب الوظائف العدة ، وفى البيت الأول يمكن قراءة الكلمات الآتية : المشرف على العاصمة٠ يخرج بدون شرطة٠

(الشعر الخامس)

نجد فيه ثمانية أبيات أو أكثر تبتدىء بكلمة " تذكر " وهى خاصة بعبادة الآلهة ، وكيف كانت تعبد فيما مضى ، وما سيئول إليه أمرها فى المستقبل ٠

وكل ما يمكن أن يقال عن البيت الأول أنه يذكر فردا فى ألم ويذكر كذلك إلهه

تذكر ٠٠٠ كيف يضمخ بالبخور، والماء يقدم من إبريق فى فلق الصبح٠

تذكر كيف تجلب الإوز سمينة ، ويقرب الإوز والبط والقرابين الإلهية إلى الآلهة ٠

تذكر كيف كان يمضغ النطرون ويجهز الخبز الأبيض فى اليوم الذى يبلل فيه الرأس٠

تذكر كيف كانت تنصب الأعلام ، وتنقش ألواح القربان ، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد ، ويبيض بيت الله كاللبن ، وكيف كان يعطر الأفق ويخلد القربان من الخبز ٠

تذكر كيف كانت ترعى الأنظمة ، وتوزع أيام الشهر ، ويعزل الكهنة الأشرار (؟)

تذكر كيف كانت الثيران تذبح ٠٠٠

(وفى الأبيات الختامية المرزقة نقرأ من بين ما جاء فيها) : وضعت الإوز على النار(طبعا ضحية) ٠

يتلو ذلك فقرة طويلة فيها يخاطب الحكيم نفسه أولا ثم أشخاصا كثيرين ، ولم يفهم مما حفظ إلا " انظر ٠ أين يبحث هو ليسوى البشر ؟ دون أن يميز الرجل الخجول من الرجل الأحمق وهو يجلب البرودة إلى اللهيب ، ويقال عنه إنه راعى الإنسانية ولا يحمل فى قلبه شرا ، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها الى بعض وقلوبها محمومة (من الحزن) "

" وليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول فعندئذ كان فى مقدوره أن

يضرب الشر وكان فى قدرته أن يمد ذراعه (يعنى الشر) ، وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم . فأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق الصدفة ينام ؟ "

انظر ! إن بأسه لايرى

إذ عند ما نلقى فى الحزن فإنى لم أجدك ، ولم أناد . . . .

(وبعد عدة فجوات طويلة يصير المتن ثانيا مفهوما)

" إن القيادة والفطنة والصدق معك ، غير أن ما تبثه فى طول البلاد هو الفوضى وغوغاء الذين يتخاصمون . انظر! إن الفرد يرى الآخر . . . وإذا سافر ثلاثة رجال على طريق واحد فلا يوجد منهم إلا اثنان ، إذ إن العدد الأكبر يذبح الأصغر . أيوجد راع يحب الموت ؟ .

" ولكنك ستأمر أن تجاب . . . فالأكاذيب تتلى عليك ، والبلاد قش ملتهب ، والناس لايعتمدون على الشجار ، وكل هذه الأعوام ارتباك . فالرجل يقتل على سطح بيته حينما يكون مراقبا فى حدود منزله . ولكن إذا كان قويا فإنه ينجى نفسه ويبقى حيا (والناس يرسلون خادما لرجل فقير فيمشى على الطريق إلى أن يرى الفيضان (؟) (ثم يسرق هناك ؟) فيقف مبتئسا(؟) ويسرق ما عليه ثم يضرب بالعصا إلى أن ينقطع منه النفس ويذبح ظلما

" ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك وعندئذ يمكنك أن تقول . . . "

(الشعر السادس)

(وصف للوقت السعيد الذى يحفظه المستقبل)

" على أنه من الخير عندما تسير المراكب جنوبا . . .

(بيت مهشم)

على أنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور . . .

(بيت يحتمل أنه خاص بالطرق)

على أنه من الخير أن تشيد أيدى الناس الأهرام ، وتحفر البرك ، وتنشىء للآلهة مزارع فيها أشجار .

على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى ، وأن يشربوا ··· فرحى القلب ·

على أنه من الخير أن يكون السرور فى أفواه القوم ، وحكام المراكز يقفون وينظرون إلى الأفراح فى بيوتهم(؟) وهم مرتدون جميل الملابس···

على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة ، ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ، ورغبة كل إنسان تحقق بسرير مظلل خلف باب مغلق (فلا يحتاج ؟) إلى النوم فى الأعشاب ·

على أنه من الخير عندما ينشر الكتان الجميل فى يوم رأس السنة (؟)

(وبعد سلسلة فجوات فى ورقة البردى تأتى فقرة لابد أنها كانت تحتوى على جواب الملك الذى يجيب عليه الحكيم بعد ذلك · وفيما حفظ من هذه الفقرة يظهر أن ذكر " المقترعين " قد جاء، وأن الشباب قد ثار وهاجم مصر كالأجانب · ثم أراد أهل الجنوب أن يأخذوا بناصر مصر التى هى بمثابة الأخ والأخت)

··· ولا يوجد أحد يقف لحمايتها ··· وإذا كان أى إنسان يحارب من أجل أخته فإنه يحمى نفسه ·

والسود يقولون : " سنكون حامين لكم · دع القتال يعظم ليقهر " شعب القوس " ·

وإذا كان فيهم " تمحو " فعندئذ نعيد الكرة ·

وقوم " المتاو" المصادقون لمصر (يقولون ؟) : كيف يمكن أن يكون هناك رجل يريد أن يقتل أخاه ؟·

والجنود الذين نجندهم لنا أصبحوا من شعب القوس الذين أرادوا أن يدمروا المكان الذى نبعوا منه ، وهم يظهرون للبدو حالة البلاد ، غير أن كل البلاد الأجنبية خائفة منهم ···

(وبعد فجوة طويلة) : يقول المقترعون ···

(الباقى كله مهشم)

وهذا ما قاله " إبور" عندما أجاب جلالة رب العالمين ... على أن تكون جاهلا به فإن ذلك أمر يسر القلب . ولقد عملت ما هو صالح فى قلوبهم ، وقد جعلت الشعب يحيا بينهم ،غير أنهم لايزالون يسترون وجوههم خوفا من الغد .

واتفق أن وقف مرة رجل مسن أمام الموت، وكان ابنه لايزال طفلا لاإدراك له... ولم يفتح بعد فاه ليتكلم إليك. وقد اختطفته بموت محتوم...

(وهناك كلمات مفردة لاتزال موجودة تدل على أن الموضوع الذى تحت البحث كان مستمرا فى سرد حالة البلاد :- البكاء ، واقتحام مقاصير القبور وإحراق التماثيل)

بردية إيبوور

عن سليم حسن - موسوعة مصر القديمة

فهرس الكتاب الأول
عصور ليست فى فوضى

عصور فى فوضى

رؤى نقـديـة

الكتاب الثانى

العلماء يواجهون فليكوفسكى

كـــارل ســـاجـــان
ج. ديرال مـولهـولاند
بتـــــرج. هـوبـر
دافـيـد مـوريـسـون

ترجمـة :
رفعت السيد على

تحليل لـ « عوالم فى تصادم »

كارل ساجان

«إذا أخذنا فى الإعتبار حركة المذنبات والجاذبية الأرضية، سندرك مدى البلاء الناجم عن اقتراب تلك المذنبات من الأرض، فقد تحدث طوفاناً جديداً يغمر الأرض، أو تغرقها فى لجج من اللهب يدمرها ويحولها إلى شذرات حطام ورماد، أو على أضعف الاحتمالات يخرجها عن مسارها، فينفصل عنها القمر، أو الأسوأ من ذلك، أن تنفى إلى مدار خارج مدار زحل، فيسودها شتاء كونى لا يحتمله حيوان ولا بشر، حتى ذيول المذنبات لا يمكن أن نستهين بها، إذا انفصلت عن المذنب جزئياً أو كلياً فى النطاق الجوى للأرض»

لامبيير - رسائل كونية

(١٧٦٧م)

«مهما كانت خطورة اصطدام المذنبات بالأرض، إلا أنها قد تكون هينة، فربما تدمر فقط الجانب الذى اصطدمت به من الأرض؛ بل أنها قد تكون ذات نفع، فبينما تدمر مملكة ما، إلا أنها تفيد باقى الأرض بالنعم الوفيرة التى تجلبها معها. قد يذهلنا أن نجد أن حطام تلك الكتل التى نخشاها مكون من الذهب والألماس؛ ولكن ترى من تصيبه الدهشة أكثر، نحن، أم قاطنى المذنب الذين سيجدون أنفسهم فجأة على الأرض؟ كم سينظر كل طرف إلى الآخر بغرابة فى دهشة وذهول.»

موبير، رسالة عن المذنبات

(١٧٥٢م)

مقدمة

للعلماء - مثلهم مثل باقى البشر - آمالهم ومخاوفهم، تطلعاتهم ويأسهم وقنوطهم، وقد تدمر انفعالاتهم القوية مجرى أفكارهم العقلانية الصافية وسلوكياتهم الموضوعية، إلا أن العلم أيضاً له القدرة الذاتية على تصحيح المسارات. قد تواجه البديهيات الجوهرية والنتائج المترتبة عليها تحديات كثيرة، إلا أنها تواجه التحديات، دون استناد إلى سلطة، لابد كذلك لأى افتراض علمى أن يعلن بلا خفاء لفحصه وتمحيصه، كذلك التجارب التى اعتمد عليها لإثبات صحة الفرضية لابد أن تكون قابلة لإعادة إجرائها فى أى وقت وتعطى نفس النتائج.

تاريخ العلم ملىء بنظريات وافتراضات علمية كانت مقبولة فى وقت وزمن طرحها، ثم أطاحت بها حقائق علمية أحدث وأوثق تفسر الحقائق بكفاءة أكثر.

قد نجد رفضاً نفسياً لأمور علمية تدوم أحياناً على مدى جيل كامل، ثم تليها ثورة فى الفكر العلمى تلقى قبولاً عاماً كعنصر هام وضرورى لتقدم العلوم.

وإنه من الثابت فعلاً أن النقد العقلى المنطقى الذى يمتلك أسباباً منطقية والموجه ضد معتقد سائد أو نظرية شائعة، إنما يؤدى خدمة فعالة لمؤيدى ذلك المعتقد أو تلك النظرية، فإن لم يكن باستطاعتهم الدفاع عن ذلك المعتقد أو تلك النظرية، فإن عليهم التخلى عنها. إن ذلك التنقيح الذاتى واصلاح الأخطاء وتصويب الاتجاهات من أهم خواص المنهج العلمى الدافعة لتطوير العلوم، ويرفعه إلى مرتبة خاصة من مراتب

الأنشطة الإنسانية، مرتبة تختلف تماماً عن مراتب السياسة والمعتقدات الدينية.

إن مفهوم أن العلم منهج فكرى أكثر منه مجموعة معارف لا يلقى الاحترام والتقدير الكافى خارج الدوائر العلمية؛ بل أن ذلك يصل أحياناً إلى بعض المسالك والدهاليز العلمية ذاتها.

لهذا السبب، قمت مع بعض الزملاء من الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (AAAS) بفحص الفرضيات العلمية التى تطرح كل عام والتى تعد من ذلك النوع من الفرضيات الذى يمضى على حافة العلم ويحظى باهتمام الرأى العام.

الهدف من ذلك ليس – بالطبع – تأكيد وترسيخ تلك الافتراضات والمفاهيم، بل توضيح ما بها من منطق إن وجد فى بعض جوانبها، أو خلو جوانب أخرى منها من أى منطق، وربما أيضاً لايضاح كيف يتناول العلماء أى مشكلة بطريقة منهجية دون أن يتركوا المشكلة لتجارب هامشية هشة، أو أن تكون تلك المشكلة فكراً غير قويم، أو أن تكون باعثة على الانفعالات أكثر منها على الفكر الموضوعى.

لقد قاوم بعض العلماء عقد مثل هذه اللقاءات؛ وعلى سبيل المثال : رأى بعض العلماء فى ندوة الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم التى عقدت عام ١٩٦٩، والتى كان موضوعها الأجسام الطائرة المجهولة الهوية، أنها تهديد للمنهج العلمى، إلا أن الندوة قد عقدت، ونشرت وقائعها (ساجان وبيج، ١٩٧٢)، وظل جوهر العلم سليماً لم تشبه شائبة. بل أننى أرى أن ذلك قد أكسب العلم دوافعاً جديدة وقوة محركة من خلال المناقشات وتبادل الآراء الذى تم فى تلك الندوة.

النقد الحاد والضارى للأفكار والنظريات الجديدة من الأمور المألوفة فى العلوم. وبينما يتفاوت نمط النقد ويختلف باختلاف الناقد، إلا أن النقد شديد التهذيب والوداعة لا يفيد صاحب النظرية ولا العلم ذاته. كل الاعتراضات الموضوعية مسموح بها، بل لابد من تشجيعها، الاستثناء

الوحيد لذلك هو النقد المرفوض؛ أى النقد الذى يوجه للإساءة إلى المشاعر والتجريح الشخصى أو للتشكيك فى دوافع صاحب النظرية. لا يهم الدافع الذى حدا بصاحب نظرية علمية إلى تقديمها، كما لا يهم الدافع وراء نقد من ينقدونها، المهم بشكل جوهرى مدى صحة أو خطأ النظرية المقدمة، هل هى واعدة بفتح آفاق جديدة أم ترجع إلى ما عفا عليه الزمن وتجاوزته العلوم؟ (ومن الثابت أن هذا على عكس الخطب السياسية ومناحى أخرى كثيرة من الحياة المعاصرة).

إليكم على سبيل المثال ملخص لنمط غير معتاد من النقد - إلا أنه لا يعد نادراً - لبحث تم تقديمه إلى صحيفة «إيكاروس» العلمية وقدمه أحد الباحثين وهو على درجة علمية متخصصة: «ومن رأى المحرر أن هذا البحث لا يمكن قبوله للنشر فى صحيفة «إيكاروس»، فمن الواضح أنه لم يعتمد ولم يستند إلى المنهج العلمى، وهو فى أفضل الأحوال تخمينات جانبها الصواب، كما أن مقدمها لم يحدد فرضياته؛ والنتائج غير واضحة ومبهمة، غامضة وملتبسة ولا تستند إلى أسس موضوعية، ولا توجد أسانيد على إرتباطها بأفكار أخرى مماثلة، والأرقام والجداول الواردة بها غير موصفة بطريقة منهجية؛ ومن الواضح أن كاتبها ليس على دراية بأهم قواعد وأسس الكتابة العلمية ...».

ويمضى المحكم أو المحرر فى تبرير ملاحظاته بالتفصيل، ورفض نشر ذلك البحث. مثل ذلك الرفض فى صالح العلم كما هو فى صالح كاتب البحث. أغلب العلماء متهمين بأنهم لا يتلقون إلا نقداً مخففاً فى كل مرة يتقدمون فيها بأحد أبحاثهم إلى جريدة علمية. النقد - دائماً - ذو فائدة عظيمة. وكل الأبحاث التى وضع أصحابها فى أذهانهم ونصب أعينهم احتمالات النقد الذى يمكن أن يوجه لهم غالباً ما تقبل للنشر، وكمثال آخر على النقد المباشر والصريح الموجه إلى بحث عن علوم الكواكب، يمكن أن يرجع من يهمه الاستزادة من ذلك إلى البحث المسمى «ملاحظات حول تأثير كوكب المشترى - چين ميوس (١٩٧٥)»، وما ناله من انتقادات على

صفحات جريدة «إيكاروس».

النقد القاسي المدقق يعد بناءً في العلوم أكثر منه في أي أنشطة بشرية أخرى، ففيه مستويات صلاحية عالية متفق عليها بين المحترفين والمتخصصين في جميع أنحاء العالم. الهدف من ذلك النوع من النقد ليس لبث الإحباط، بل على العكس، بل للوصول إلى أفكار جديدة فعلاً: أفكار تصمد وتظل حية أمام الشكوك المدققة والتفحص والتمحيص العميق والتي تحوز فرصة جيدة في الصراع لإثبات مصداقيتها أو تبرهن على الأقل على أنها مفيدة.

أما الجانب الأنفعالي العاطفي فقد ارتفع بشدة في الأوساط العلمية بعد نشر أعمال إيمانويل فليكوفسكي، خاصة كتابه الأول «عوالم في تصادم» الذي نشر عام ١٩٥٠.

أنا أعرف أن بعض العلماء ضايقهم بشدة مقارنة بعض الكتاب فليكوفسكي بأينشتين، ونيوتن، وداروين، وفرويد، إلا أن هذا الاستياء نبع من هشاشة الطبيعة البشرية، لا من حكم موضوعي عليه. وكلاهما من مكونات الطبيعة البشرية. أما غيرهم فقد أفزعهم الاستشهاد بنصوص هندية، وصينية، ونصوص من حضارة الأزتك، ونصوص آشورية، وتوراتية، لتوضيح نظرية ابتداعية حول آليات حركة الكواكب. وأنا بدوري أشك في أن أغلب علماء الطبيعة وعلماء قوانين ميكانيكا الفضاء وآليات حركة الأجرام السماوية، يلمون بتلك اللغات أو يتعاملون مع تلك النصوص.

إن ما أومن به – بعمق – لا يتعلق بمدى الهرطقة العلمية التي تتسم بها التفسيرات ولا النتائج المترتبة عليها مهما كانت درجة عدم استساغتها، فلا مبرر – بأي محاولة – لإحباط وإجهاض أفكار جديدة، على الأقل من جانب العلماء الذين يعتمد عملهم على التبادل الحر للآراء، لذلك سعدت جداً بموافقة الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (AAAS) على عقد هذه المناظرة.

وبعد قراءة المقالات النقدية حول «عوالم فى تصادم»، أدهشنى قلة تلك المقالات، كما أدهشنى قلة تناولها للنقاط المركزية والجوهرية التى اعتمد عليها فليكوفسكى فى فرضياته التى بنى عليها نظريته.

فى الحقيقة، اكتشفت أنه لا ناقدى فليكوفسكى ولا مؤيديه قد قرأوا أعماله بالعناية والدقة اللازمة؛ بل أننى وجدت بعض الجوانب التى لم يقرأ فيها فليكوفسكى أعماله بدقة. وربما يعاوننا هذا العمل الذى بين أيدينا على إيضاح تلك الجوانب.

أصحاب نظرية الاتساق الكونى.
وأصحاب نظرية الكوارث الكونية.

إننى أسعى فى هذا الفصل لإجراء تحليل نقدى للفرضيات التى طرحها فليكوفسكى فى «عوالم فى تصادم». وعمدت إلى تناول الطرح بمصطلحات فليكوفسكى كما تناولته بمصطلحاتى العلمية - مع المراعاة الشديدة للنصوص القديمة التى تعد محور ارتكاز نظريته- وفى الوقت نفسه، لنقض استنتاجاته بكل الحقائق والمنطق العلمى الذى أحوزه.

يرتكز المنطلق الأساسى لفرضيات فليكوفسكى على أن الأحداث العظمى فى تاريخ كوكب الأرض وكواكب المجموعة الشمسية الأخرى نتجت عن كوارث كونية.

هناك مقولات طريفة للچيولوچيين تلخص خلافات عظمى نشبت بينهم فى مهد علم الچيولوچيا وبداياته الأولى، وهى خلافات شبت فى الفترة ما بين ١٧٨٥م - ١٨٣٠م وظهرت فى أعمال «چيمس هوتون» و «تشارلز ليل» وأيدت تلك المقولات الطريفة مبدأ الاتساق وانتظام حركة الأجرام الأزلى. كلا الاسمين وأعمالهما استدعى سلفاً المفاهيم الدينية واللاهوتية. ويؤمن أصحاب نظرية الثبات بأن اليابسة التى تكونت على الأرض قد تكونت عبر آليات مازلنا نشاهدها ونرصدها حتى اليوم، وأن تلك الآليات

ظلت تعمل من آماد زمنية سحيقة حتى الآن. أما أصحاب نظرية الكوارث فهم يؤمنون بأنه عن طريق عدد معين من الأحداث العنيفة الكارثية والتى دام كل منها فترات قصيرة، حدثت التغيرات التى طرأت على كوكب الأرض.

بدأت نظرية الكوارث الكونية فى الظهور على الأغلب فى أذهان بعض الچيولوچيين الذين آمنوا حرفياً بالتفسير النصى لسفر التكوين، خاصة ما ورد عن طوفان نوح. ومن الواضح أنه لا سبيل لدفع ذلك بأننا لم نعاصر كارثة مماثلة على مدى حياتنا. هذا الافتراض عن الكوارث الكونية يذهب أيضاً إلى أنها نادرة الحدوث. ولكن إذا أثبتنا أن هناك من الوقت ما يكفى لإحداث تلك التغيرات البطيئة والتى مازلنا نشاهدها حتى اليوم فى تكوين اليابسة أو الظواهر موضع الإفتراضات، فلن توجد ضرورة على الأقل لطرح نظرية الكوارث. وربما عمل الثبات والكوارث معاً - على إحداث التغيرات على وجه كوكبنا.

أما فليكوفسكى، فإنه يعتقد أن كوارث كونية قد وقعت فى التاريخ الحديث للأرض، من احتكاكات بمذنبات وكويكبات وكواكب. ولا يوجد ما لا يمكن تخيله من احتمالات فى التصادمات الكونية. لم يتردد الفلكيون فى الماضى فى تفسير بعض الظواهر الطبيعية بحدوث تصادمات كونية. فعلى سبيل المثال افترض كل من «لايمان سبتسر» و «والتر باد» (١٩٥١) أن موجات الأشعة الكونية الصادرة من خارج المجرة قد تكون ناجمة عن صدام مجرات ببعضها حيث تحتوى كل مجرة على مئات البلايين من النجوم. ثم ثبت خطأ ذلك الافتراض، لا بسبب استبعاد احتمال حدوث صدامات بين المجرات والأجرام السماوية، ولكن لأن سرعة تردد وخواص الصدامات المحتملة لا تتوافق مع ما عرف بعد ذلك عن خواص وتردد الإشعاع الكونى. وأيضاً مثل النظرية التى ما تزال شائعة عن مصدر طاقة أشباه النجوم والتى تنسب إلى تصادمات نجمية عديدة فى مراكز المجرات، حيث يتوقع أن تكون الكوارث الكونية محتملة الوقوع. أصبحت

نظرية الاصطدامات والكوارث الكونية جزءاً لا ينفصل عن علم الفلك الحديث المعاصر، وكانت سائدة على مدى قرون عديدة (ارجع إلى الفقرات المقتبسة المذكورة فى بداية هذا الفصل).

على سبيل المثال، فى تاريخ المجموعة الشمسية المبكر، كان يوجد عدد من الأجرام أكثر كثيراً مما هو موجود الآن - بما فيها من أجرام كانت تدور حول الشمس فى مدارات غير منتظمة - وكانت الصدامات عند نشأة المجموعة كثيرة. ولذلك سعت أبحاث معاصرة لتفسير الأنماط الحالية لمنطقة الكويكبات بين المريخ والمشترى، ومنها أبحاث «مايرون ليكر» و«فريد أ. فرانكلين» (١٩٧٣) بعد مئات الاصطدامات التى وقعت على مدى بضعة آلاف من السنين فى التاريخ المبكر لذلك الحزام الكويكبى.

وفى بحث آخر حديث بعنوان «صدامات المذنبات والأحقاب الچيولوچية» الذى قدمه «هارولد أوراى» (١٩٧٣) قام فيه بفحص سلسلة من الأحداث شملت الزلازل والهزات الأرضية العظمى، وارتفاع درجة حرارة المحيطات التى قد تكون قد صاحبت صدام أو احتكاك الأرض بمذنب تصل كتلته المحتملة إلى $١٠^{١٨}$ جرام (أى تساوى واحد وإلى يمينه اثنى عشر صفراً من الأطنان)(*)، كذلك كارثة «تانجوسكا» التى وقعت عام ١٩٠٨م فى روسيا، والتى سحق فيها نيزك غابة سيبيرية بأكملها، مع أنه يعد من المذنبات الصغيرة، ولا ننسى الحفر العملاقة الموجودة على سطح كوكب عطارد، وكوكب المريخ، وفوبوس، ودايموس، كما يحمل سطح قمر الأرض شهادة دامغة تثبت حدوث صدامات غزيرة مكثفة بسطحه على مدى التاريخ الطويل للمجموعة الشمسية. لا يوجد ما يعد هرطقة أو خرافة فيما يخص الكوارث الكونية، وهى حقائق يؤمن بها علماء طبيعة المجموعة الشمسية على الأقل بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر عن طريق الدراسات التى أجراها «جروف كارل جيلبرت»، أول مدير لمعهد

(*) المترجم

الولايات المتحدة للأبحاث الجيولوجية.

إذن، ما المشكلة، وعلام الضجيج؟

المشكلة فى توقيت وزمن حدوث تلك الكوارث، وفى كفاية وصدق الأدلة المقدمة لإثبات تلك التوقيتات. لابد أن تكون حوادث كثيرة قد وقعت على مدى ٤٫٥ بليون عام التى تكون عمر النظام الشمسى، ولكن، هل وقعت كوارث كونية عظمى على مدى وخلال آخر ثلاثة آلاف وخمسمائة عام من عمر الأرض؟ وهل بدراسة النصوص القديمة وحدها يمكن إثبات وقوع مثل تلك الكوارث والاصطدامات؟

هذا هو جوهر الخلاف

منهج الإثبات بالخرافات والأساطير:

لفت فليكوفسكى الأنظار إلى مجموعة غزيرة من القصص والأساطير المتداولة بين شعوب قديمة كثيرة ومختلفة تفصلها عن بعضها مسافات هائلة وحوائل وحواجز طبيعية تحول دون تواصلهم. وأنا لا أدعى أن لدى معارف أو خبرات عن ثقافات أو لغات أى من تلك الشعوب القديمة، إلا أننى وجدت نفسى مواجهاً بسلسلة مذهلة من الأساطير التى جمعها فليكوفسكى، إلا أن خبراء تلك الثقافات القديمة كانوا أقل تأثراً ودهشة. ومازلت أتذكر مناقشة دارت بينى وبين أستاذ فى تاريخ الحضارات السامية فى إحدى الجامعات المرموقة، وقال على ما أذكر: «ما ذكره فليكوفسكى عن التاريخ الآشورى، والتاريخ المصرى، والتعاليم التوراتية، والتلمود والمدراش؛ كلام فارغ؛ ما أدهشنى حقاً ما كتبه فى علم الفلك»، إلا أن وجهة نظرى كانت على عكس ذلك. من الأفضل بالطبع ألا أتأثر بوجهات نظر الآخرين، فوجهة نظرى تتلخص فى أنه لو كان عشرين بالمائة من الأساطير التى ستَّفها فليكوفسكى صحيحة، فإن هناك أشياء حقيقية تحتاج إلى تفسير. عدا ذلك، هناك سلسلة من الأحداث المؤثرة فى التاريخ - بدءاً مما توصل إليه هنريك شيلمان فى موقع مدينة طروادة

القديمة، إلى ما توصل إليه ايجال يادين فى مسعدة(*) حيث اتخذا النصوص القديمة كحقائق ثابتة.

لو اشتركت ثقافات مختلفة فى مضمون أسطورة ما، فكيف يمكن تفسير ذلك؟ يبدو أمامنا أربعة احتمالات لتفسير ذلك:

الملاحظة العامة المشتركة.

الانتشار المباشر للأسطورة.

التواصل العقلى عن بعد.

والتوافق بالمصادفة. (التزامن)

وسنأخذ كل احتمال من هذه الاحتمالات فى الاعتبار.

الملاحظة العامة المشتركة:

شهدت الحضارات المذكورة حدثاً عاماً واحداً شمل الأرض كلها، وفسرته كل الشعوب القديمة التفسير ذاته. قد يكون هناك بالطبع أكثر من وجهة نظر فى تفسير ذلك الحدث.

الانتشار المباشر للأسطورة:

تنشأ الأسطورة فى أحضان حضارة واحدة، ولكن بسبب هجرات الشعوب إلى أماكن بعيدة نائية، تنتشر الأسطورة فى مكان جديد وتتعرض للتحوير والتغيير النسبى من حضارة إلى حضارة. ومثال بسيط على ذلك أسطورة «سانتا كلوز» (بابا نويل) فى أمريكا (كلوز هو اختصار لاسم نيكولاس فى ألمانيا وهى مهد الأسطورة)، و «نيكولاس» فى ألمانيا القديس راعى الأطفال، والأسطورة مستمدة أصلاً من تقاليد حضارية سابقة على ظهور المسيحية.

(*) مسعدة : مدينة فلسطينية (المترجم).

التواصل العقلى عن بعد:

وهو افتراض يعرف عنه أحياناً أنه ذاكرة عرقية عبر جنس معين أو عبر اللاوعى الجمعى. وتتضمن أن هناك أفكاراً معينة، وأفكاراً بدائية أولية، وأساطير، وقصص، تعد كلها مكونات فكرية بشرية موجودة بالولادة، ربما بالطريقة ذاتها التى يخاف فيها وليد قرد البابون من الأفعى رغم أنه يراها لأول مرة فى حياته، وبالطريقة التى يبنى بها طائر نشأ منعزلاً عشه دون أن يتعلم ذلك من بنى جنسه. ومن الملاحظ والواضح أنه إذا كان منشأ أى حكاية أو أسطورة من الملاحظة المباشرة أو بالانتشار فإن ذلك يماثل «التواصل العقلى»، وكلها تعد موروثا ثقافيا.

التوافق بالمصادفة (التزامن):

بالصدفة المحضة قد يحدث أن يتشابه محتوى أسطورة ما لشعب ما بمحتوى مماثل لأسطورة أخرى لدى شعب آخر. وعلى الجانب العملى فإن هذا الافتراض ينضوى هو الآخر تحت افتراض التواصل العقلى.

فإذا كان علينا أن نمحص بطريقة نقدية ذلك التماثل الواضح فى المحتوى الأسطورى لشعوب مختلفة، نجد لزاماً علينا أن نتحوط بعض التحوط أولاً. هل تحتوى الأساطير على العناصر الأساسية نفسها؟ ولو فسرت على أنها راجعة فى تماثلها إلى الملاحظة العامة المشتركة، فهل ترجع فى أصولها إلى نفس المرحلة التاريخية؟ وهل بإمكاننا أن نستبعد حدوث اتصال مباشر بين أصحاب تلك الحضارات موضع التساؤل أثناء أو قبل العصر الذى نناقشة؟

من الواضح أن فليكوفسكى اختار افتراض الملاحظة العامة المشتركة وتغاضى عن افتراض الانتشار المباشر؛ فعلى سبيل المثال (فى صفحة ٣٠٢ من كتابه) يذكر: «كيف يمكن لتنويعات فولكلورية غير عادية أن تصل إلى جزر نائية حيث لم يكن متاحاً لسكان تلك الجزر الأصليين أى وسيلة انتقال أو تواصل عبر المحيطات؟»، وأنا لا أدرى تحديداً أى جزر وأى سكان أصليين يشير إليهم فليكوفسكى، من الواضح أن سكان أى جزيرة

قد انتقلوا إليها بوسيلة ما، ولا أظنه يعتقد أن سكان تلك الجزر قد خلقوا خلقاً خاصاً منفصلاً فى جزر «جيلبرت» وجزر «إليس» مثلاً. أما فيما يخص منطقة بولينيزيا وميلانيزيا فإن هناك الآن دلائل عديدة كثيرة على أنهم كانوا يقطعون رحلات بحرية تصل فى أطوالها إلى بضعة آلاف من الكيلومترات خلال الألف عام الأخيرة ومن المرجح قبل ذلك أيضاً (إرجع على سبيل المثال إلى دود، ١٩٧٢ م). أو كيف يفسر فليكوفسكى مثلاً حقيقة أن اسم الإله بلغة التوليتك فى أمريكا الجنوبية قديماً كان «تيو» كما هو أيضاً فى المدينة العظمى لأهرام المكسيك، مدينة «تيو تى هاو كان» (مدينة الآلهة) والتى تقع بالقرب من مدينة مكسيكو المعاصرة، هل كانت تسمى سان خوان تيو تى هاو كان؟ لا يوجد حدث سماوى أو كارثة كونية يمكن أن تفسر بإقناع ذلك التماثل. إن لغة التوليتك ولغة النهواتل ليستا من اللغات المشتقة من اللغة الهند أوروبية، ومن غير المعقول أن يتماثل الاشتقاق اللفظى لكلمة إله فى جميع لغات الشعوب والأقوام إلا أن لفظ «تيو» الذى يعنى إله يبدو ذو أصل مستمد من الجذر اللغوى الهند أوروبى الذى يعنى إله، ومازال ذلك واضحاً فى لفظ «دايتى»، و «تيولوچى».

الافتراض الأقرب إلى الصواب فى مثل تلك المسألة هو افتراض التزامن المتصادف أو الانتشار المباشر. وهناك أدلة على أنه كان يوجد تواصل قبل «كريستوفر كولومبس» ما بين القارات القديمة والجديدة. إلا أن التصادف الزمنى يجب ألا يؤخذ باستخفاف أيضاً.

إذا قارنا لغتين من خلال عشرات الآلاف من مفرداتهما، وتتحدث بهما كائنات بشرية لها حناجر متماثلة وألسنة وأسنان متماثلة وهى أدوات الحديث البشرى، فإنه لن يدهشنا أن نجد تماثلاً صوتياً بين بضعة مفردات فى اللغتين، ولا يدهشنا بالمثل أو يلفت انتباهنا تماثل بعض العناصر فى بعض الأساطير التى تنتمى إلى شعوب مختلفة مهما نأت عن بعضها، إلا أننى لا أومن أن كل التماثلات بالمصادفة يمكن تفسيرها بهذا المنطق الذى اتبعه فليكوفسكى.

دعونا نضرب مثلاً لمنهج فليكوفسكى فى إجابته على ذلك التساؤل إنه يشير إلى قصص متماثلة المضمون، مباشرة، أو غير مباشرة تتعلق بأحداث كونية، تبدو على شكل ساحرة عجوز تمتطى مكنسة، أو فأر أسطورى، أو أفعى، أو تنين (صفحات ٧٧، ٢٦٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠).

وتفسير فليكوفسكى: مذنبات متنوعة ومختلفة، عند اقترابها من الأرض، سواء بسبب الجاذبية أو تبادل شحنات كهربائية أو إفراغ الشحنات، تتبدل أشكالها وتتخذ أشكالاً أخرى تبدو على هيئة ساحرة تمتطى مكنسة، أو على شكل فأر، أو أفعى، أو تنين، ويتم تفسيرها بالشكل نفسه والهيئة ذاتها عند شعوب مختلفة متنائية ذات خلفيات ثقافية ومعرفية متباينة. لم تبذل محاولة لإثبات أن الشكل الواحد على صفحة السماء - مثلاً الساحرة راكبة المكنسة وعلى رأسها قبعة مدببة - يمكن أن يفسر تفسيرات متباينة فى مختلف أرجاء الأرض على اختلاف المخيلة البشرية المتباينة الثقافات والمعارف، هذا إذا قبلنا فرضية اقتراب مذنب اقتراباً حثيثاً من الأرض، إن اختباراتنا وأبحاثنا مع اختبارات «رور شاش» النفسية وغيرها من الاختبارات تثبت بشكل قاطع أن الشعوب المختلفة ترى الشكل غير اليقينى برؤى متباينة دون أن يقع اتفاق عام على شكل بعينه، بل أن فليكوفسكى ذهب إلى ما هو أبعد كثيراً من ذلك حين اعتقد فى فرضياته تلك أن كوكب المريخ عندما اقترب من الأرض قد تبدل شكله هو الآخر إلى أشكال شائهة حتى أنه اتخذ شكلاً يقارب هيئة الأسد أو هيئة ابن آوى (ص ٢٦٤) أو شكل كلب، أو خنزير، أو سمكة؛ ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك أيضاً حين قرر أن من رأيه أيضاً أن ذلك كان سبباً فى عبادة المصريين القدماء للحيوانات والأشكال الحيوانية. وبالطبع لا يبدو ذلك سبباً معقولاً ولا قوياً.

قد نفترض أيضاً أن حديقة الحيوانات التى ذكرها كان بمقدورها الطيران فى الألف الثانى قبل الميلاد وقد نقبل ذلك إلا أنه يثبت نظرية الانتشار الأسطورى. لقد قضيت بالفعل وقتاً فى دراسة نصوص أخرى

عن أساطير التنانين على كوكب الأرض، ولفت نظرى التباين الكبير فى المنشأ الدينى والعقائدى لتلك الأساطير، إلا أنها كلها فى الفكر الغربى لا تتجاوز كونها تنانين، لا تعدو ذلك أبداً.

وكمثال آخر، لو تناولنا ما ذكره فليكوفسكى فى الفصل الثامن، الجزء الثانى من عوالم فى تصادم، من ميل العالم القديم بمجمله إلى الاعتقاد على مدى عصوره القديمة أن العام مكون من ٣٦٠ يوماً، وأن الشهر يحتوى على ٣٠ يوماً، ثم نجد أن ما ذكره لا يتفق مع ما يذكره بعد ذلك من أن العام القديم كان مكوناً من عشرة أشهر. ويدعى فليكوفسكى أن الفلكيين القدماء كانوا على درجة من البلادة فى مهنتهم حتى أنهم لم يدركوا نقص خمسة أيام من كل عام أو فرق نصف يوم كل دورة كاملة للقمر، لو صح ذلك فإنهم كانوا سيفاجأون بليال يغمرها ضوء قمر كامل فى حين تشير حساباتهم إلى محاق، وكانت العواصف الجليدية والثلجية تغمرهم فى حين تشير حساباتهم إلى أنه الصيف مثلاً وأن ذلك لا يلفت انتباههم إلى خطأ حساباتهم وأنهم كانوا يتغاضون عن ذلك أيضاً، هذا إن لم يعلقهم الحكام من آذانهم. ومع أنى أحطت ببعض علوم الفلك الحديث، إلا أنه ليست لدى معرفة عن مدى كفاءة الفلكيين القدماء بالدرجة التى يعرفها فليكوفسكى. وهو يدعى أن زمن اليوم والشهر والعام كان مختلفاً عما هو عليه فى عصرنا وأن ذلك يعد دليلاً على زيارة مذنبات وكواكب وأجرام أخرى لكوكب الأرض وقمره.

هناك تفسير آخر لفروق الزمن التى يذكرها وأنا أستمده من حقيقة معروفة وهى أنه لا يوجد عدد من الدورات القمرية الكاملة كل عام شمسى، ولا عدد صحيح من الأيام فى كل دورة قمرية. تلك الكسور غير القابلة للحساب فى العصور القديمة لقصور أدوات القياس، ولأنهم بالكاد كانوا قد توصلوا فى تلك العصور إلى مبادئ الحسابات إلا أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة الأرقام الكبيرة أو الكسور المعقدة من وحدات الحساب. ولازال أثر ذلك مستمراً حتى اليوم لدى المسلمين واليهود الذين

وجدوا أن رمضان لدى المسلمين وعيد الخلاص عند اليهود يأتيان فى فصول مختلفة من العام الشمسى نظراً للفروق بين العام القمرى والعام الشمسى.

من الواضح أنه كان هناك تمسك قومى واعتزاز وطنى قديم بحسابات الأنشطة البشرية القديمة مع ما فيها من عدم انتظام على مدى أربعة أعوام من الحسابات القديمة. العام المكون من ٣٦٠ يوماً كان يتلائم مع حضارة تعتمد فى حساباتها على وحدة من ستة أعداد، مثلما كان سائداً فى الحضارات السومرية والأكادية والآشورية والبابلية. وبالمثل يبدو العام المحتوى على عشرة أشهر كان متلائماً مع حسابات تعتمد وحدة العشرات. وأتعجب وأتساءل لماذا لم يقع تصادم بين حضارات تعتمد على وحدة الستة أعداد وحضارات تعتمد وحدة العشرة، بدلاً من تصادم المريخ بالأرض؟. حقيقة، وقف الفلكيون القدماء عاجزين أمام فشل توفيق التقاويم مع الدورات الكاملة للشمس والقمر، إلا أن ذلك كان من متاعب المهنة على أى حال، إلا أنها رفعت عن عاتقهم التعامل مع كسور الأرقام، وهو جوهر الأمر الذى فسره فليكوفسكى بالطريقة التى تلائمه.

ويشير أحد خبراء العصور القديمة (ليتش، ١٩٥٤) إلى أن القدماء كان يطلقون أسماءاً على الأشهر الثمانية أو العشرة الأولى من العام، إلا أنهم لم يطلقوا أسماءاً على الشهور الأخيرة من العام بسبب عدم أهميتها الاقتصادية للشعوب القديمة فى النشاط الزراعى الذى كانوا يمارسونه. إن شهر ديسمبر الذى يشغل موضع الشهر الثانى عشر من أشهر العام يعنى فى أصله اللاتينى عشرة (سبتمبر تعنى ٧، أكتوبر تعنى ٨، نوفمبر تعنى ٩) وبسبب الأعداد الكبيرة المتضمنة فى الموضوع، فإن فلكىِّ ما قبل عصر العلم لم يتمكنوا من حساب أيام العام بدقة بالرغم من اجتهادهم فى حساب الشهور. ويعلق المؤرخ «أو تو نيوجباور» (١٩٥٧) وهو أحد رواد التاريخ للعلوم والحسابات القديمة على ذلك قائلاً: فى بلاد ما بين النهرين (ميزوبتاميا) وفى مصر، كان هناك تقويمان مختلفين معتمدين

لدى كل منهما: تقويم حضارى تعتمد مكوناته على الحسابات المجردة، وتقويم عملى يتم ضبطه بتكرار وهو تقويم المواسم الزراعية، وكان غير دقيق إلا أنه كان الأقرب إلى المواسم الزراعية والحقائق الفلكية. وحلت حضارات كثيرة من الحضارات القديمة إشكالية وجود تقويمين غير متوافقين بإضافة خمسة أيام بلا أسماء إلى العام. ولا يمكن أن نصدق أن إضافة القدماء لخمسة أيام إلى العام يعد دليلاً يتخذه فليكوفسكى لإثبات أن العام كان فى ذلك الوقت ٣٦٠ يوماً هى زمن دوران الأرض دورة كاملة حول الشمس.

من الممكن التوصل إلى إجابة حاسمة لذلك التساؤل بفحص حلقات نمو الشعب المرجانية، والتى يمكن للعلماء التوصل عن طريقها إلى عدد أيام الشهور القديمة بدقة مطلقة وإلى عدد أيام العام، ويمكن التوصل إلى ذلك عن طريق فحص الشعاب المرجانية المعرضة للمد والجزر. اتضح من الأبحاث التى أجريت على الشعاب أنه لا يوجد فارق بين طول العام فى العصور القديمة والعصور الحديثة، وأن قصر زمن اليوم والشهر (لا طولهما) كلما اتجهنا إلى الماضى كان منسقاً مع نظرية المد والجزر والاحتفاظ بالطاقة والحركة الزاوية بين الأرض والقمر، دون أن يكون ذلك عائداً إلى تدخل من مذنبات أو أى أجرام كونية أخرى.

هناك مشكلة أخرى فى منهج فليكوفسكى، وهى إعتقاده أن الأساطير التى تبدو متماثلة، لابد أن تكون فى نشأتها الأولى منتمية إلى زمن واحد. لقد تجاهل تماماً هذه المشكلة فى «عوالم فى تصادم»، بالرغم من أنه تعرض لها فى بعض أعماله الأخيرة، على سبيل المثال (ص ٣١)، يلاحظ فليكوفسكى ويسجل فكرة أن هناك أربعة عصور مرت على الأرض ووجدها فى التراث الفكرى الهندى القديم وفى الحضارات القديمة بأمريكا الوسطى والجنوبية. غير أن «البهاجاد فيتا» و «القيدا» ذكرتا أرقاما عديدة وأطوالا زمنية مختلفة عن تلك العصور التى مرت على الأرض، والأكثر إثارة فى ذلك التراث الثقافى، أن الدورة الزمنية بين كل

كارثة عظمى تنهى الحياة على الأرض تماماً، مذكورة بالتحديد وبالأرقام (ارجع إلى كامبل، ١٩٧٤)، وأن تلك الدورة الزمنية وصلت إلى ٤٠٣ بليون عام، وهو الزمن ذاته المقدر لعمر المجموعة الشمسية منذ نشأتها حتى الآن. ولا يتفق ذلك بالطبع ولا يتوافق مع إعادة حسابات الزمن التى يذكرها فليكوفسكى؛ فهو يتحدث عن مئات وآلاف الأعوام: إن افتراضات فليكوفسكى، والمعلومات التى أوردها ليدعم بها افتراضاته، تتناقض فى رقم يصل إلى مليون عام لا بضعة آلاف من السنين، فقد تناول مسألة ثورة البراكين وكميات الحمم التى تدفقت منها فى اليونان والمكسيك، كما قارن ذلك بما ذكرته التوراة. لم يبذل فليكوفسكى أى جهد فى إرجاع الأحداث إلى أزمانها الحقيقية، كما أنه لم تكن هناك حاجة إلى تفسير ثورة البراكين المذكورة وتدفق حممها بزيارة جرم خارجى ليصطنع مصداقية للنصوص التوارتية.

وبالرغم من الإشارات الغزيرة التى يسوقها فليكوفسكى واحدة وراء أخرى، إلا أنها أو أغلبها ينقصها التبرير، وسأذكر بعضاً منها على سبيل الاستشهاد: هناك فكرة ألح فليكوفسكى على تأصيلها وترسيخها، وهى أن أى إشارة فى نصوص دينية، لدى أى من الشعوب القديمة، إلى أى إله ممثل لجرم سماوى، فإن ذلك يمثل إشارة مباشرة للجرم السماوى ذاته، وهو افتراض شديد الجرأة والتجاوز، وبالرغم من عدم يقينى مما يعنيه ظهور المشترى لأهل «ليديا» مثلاً على هيئة بجعة، أو كسيل من حبات الذهب المتساقط فى نظر أهل «دانى»، إلا أنه أفترض فى صفحة ٢٤٧ أن تطابق الآلهة المعبرة عن الكواكب بالكواكب ذاتها يساعدان فى تحديد الزمن الذى كتب فيه هوميروس ملحمته الشهيرة «الالياذة». على أى حال، حين أشار «هسيود» و «هوميروس» إلى أن الربة أثينا ولدت كاملة وناضجة من رأس «زيوس»، فإن فليكوفسكى يأخذ المعنى بحرفيته ويفترض أن الربة أثينا هى التى انفصلت عن كوكب المشترى. ما هو الجرم الفضائى أثينا؟ إنه يكرر على الدوام وباصرار أنه كوكب الزهرة

(الجزء الأول، الفصل التاسع، وفى مواضع أخرى كثيرة من النص).
بالكاد يخمن المرء من قراءة عوالم فى تصادم أن الأغريق ربطوا تحديداً ما بين أفروديت وكوكب الزهرة، ولم يربطوا بين أثينا وأى كوكب محدد. كانت أفروديت وأثينا من الربات المتعاصرات، ولدت كلتاهما فى الزمن الذى كان فيه زيوس رباً للأرباب، وفى صفحة ٢٥١ يلاحظ فليكوفسكى أن لوسيان «قد نسى أن أثينا هى ربة كوكب الزهرة»، ويبدو أن المسكين لوسيان واقع تحت تأثير عدم إدراكه أن أڤروديت هى ربة كوكب الزهرة!!. ولكن فى هامش صفحة ٣٦١ تتضح سقطة سقطها فليكوفسكى، ففى ذلك الهامش يستخدم فليكوفسكى للمرة الأولى والأخيرة مصطلح «الزهرة – أفروديت». فى صفحة ٢٤٧ نسمع عن أفروديت – ربة القمر. من كانت إذن «أرتميس»، شقيقة ابوللو إله الشمس، أو، من التى كانت تسمى فى عصور سابقة «سيلين»؟

قد تكون لديه أسبابه المنطقية على قدر ما أعرف، فى التعرف على أثينا على أنها كوكب الزهرة، إلا أن ذلك لا يتصف بالحكمة لا فى عصرنا ولا من ألفى عام مضت، مع أنه من فرضيات فليكوفسكى المحورية؛ لأنه لن يحوز ثقتنا عند تقديمه لمعتقدات أقل شهرة عندما نجده يقفز فوق الحقائق والثوابت بمثل تلك السهولة والخفة.

هناك مقولات أخرى حرجة وهامة أضفيت عليها معانى لا تمت لها بصلة، وفى الوقت نفسه تعد من المفاصل المحورية فى فرضيات فليكوفسكى الكبرى، وهى على سبيل المثال (صفحة ٢٨٣) أن: «الشهب والنيازك» حين تدخل الغلاف الجوى للأرض تحدث أصواتا وضجيجاً شديداً مرعباً، بالرغم من أنه ثابت من كل الرصد للشهب والنيازك أنها لا تصدر أى أصوات عند احتكاكها بالغلاف الجوى للأرض، ومقولة أخرى (ص ١١٤) تذهب إلى أن «الصاعقة حين تضرب مغناطيساً، فإنها تعكس قطبى المغناطيس» كذلك (ص ٥١) تفسير كلمة «البَردَ» المذكورة فى التوراة على أنها تعنى الشهب والنيازك؛ وكذلك افتراضه (ص ٨٥) الذى

قال فيه: «كما هو معروف كان بالأس إسماً آخر لتيفون» فى صفحة ١٧٩ يحاول أن يرسى مبدأً جديداً، وهو أنه إذا إشترك إله وكوكب فى صفة فإن ذلك يشير بالأصل إلى الكوكب مباشرة أى أن عشتروت المقرنة لابد أنها الزهرة المقرنة، وهو ما فسره فليكوفسكى بأن الزهرة كانت تظهر على هيئة هلال كدليل على أن الزهرة فى العصر الذى يشير إليه كانت قريبة جداً من الأرض حتى أن مراحل تدرج شكلها كان يمكن مشاهدتها بالعين المجردة. ولكن ما علاقة ذلك، أو ما الذى يمكن أن يضفيه - مثلاً - على الإله المصرى آمون - رع؟ هل رأى المصريون الشمس (رع) على هيئة كبش (آمون)؟

هناك تعارض (ص ٦٣) بين ما يذهب إليه وبين النصوص القديمة؛ فهو يذكر أن البلاء العاشر الذى واكب الخروج مذكور فى التوراة أنه أدى إلى قتل «أبكار» المصريين، إلا أنه يذكر أن المقصود هو قتل «المختارين» من المصريين، وهو أمر خطير للغاية، وهو - على الأقل - يظهر أو يثير الشكوك فى أن التوراة متضاربة مع افتراضات فليكوفسكى، أو أن فليكوفسكى يعيد تفسير التوراة. كثير من المشاكل التى يعرضها ويثيرها من الممكن أن تكون لها إجابات بسيطة، إلا أن تلك الاجابات البسيطة لا نجدها بسهولة فى «عوالم فى تصادم».

أنا لا أذهب إلى أن ظواهر التوافق الأسطورى وكل التراث الفكرى القديم مجرد ترهات وأباطيل، ولكنى أذهب إلى أن جله وأعظمه وما بقى منه ذو أصل انتشارى، أى بدأ فى مكان وانتقل إلى شعوب أخرى.

بمثل هذا الموقف المشوش من الأسطورة والقصائد الدينية القديمة، سيقابل أنصار فليكوفسكى أى أدلة من أى مصادر بترحيب وتهليل. لقد أدهشنى غياب أى دليل من الفنون البدائية يؤيد تلك النظريات. هناك رسومات قديمة لا حصر لها، ونقوش جدارية، وأغطية آنية ومنتجات فنية أخرى كثيرة انتجها البشر القدامى وتعود إلى عصور قديمة تمتد حتى عشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد، وتمثل تلك الأعمال الفنية القديمة

كل الموضوعات والأفكار - خاصة الجوانب الفكرية العقائدية والدينية - وكلها موضوعات تمثل عصب وجوهر تلك الحضارات التى صنعت تلك الأعمال الفنية، وتسجيل الظواهر الفلكية ليس نادراً فى تلك الأعمال الفنية. وفى عصرنا (برانت وآل ١٩٧٤)، تم كشف دليل هام على تسجيل الأحداث الفلكية القديمة فى الأعمال الفنية، وكان ذلك على هيئة رسومات جدارية فى أحد كهوف الجنوب الغربى الأمريكى، وهى رسومات تسجل ما شاهدوه عندما توهج برج السرطان عام ١٠٥٤، كما سجلته الحكايات والقصص الصينية واليابانية والكورية. لقد بذل الباحثون والعلماء مجهودات كبيرة للحصول على معلومات من رسومات الكهوف التى سجلت ظواهر فلكية قديمة سابقة على توهج برج السرطان، ووجدوا بالفعل ظواهر توهج أبراج سابقة (برانت وآل ١٩٧١)، ولكن ظاهرة السوبر نوفا أو التوهج النجمى ليست أهم أو أعظم تأثيراً من الاقتراب الشديد لكوكب آخر من الأرض وما يصاحب ذلك من تبادل شحنات كهربائية بين الكوكب والأرض، وهناك كهوف عديدة لم تغمرها المياه أبداً، وفوق مستوى أى طوفان وبعيدة عن البحار، فإن كانت الكوارث الكونية التى يعتمد عليها فليكوفسكى فى نظريته قد وقعت بالفعل، لماذا لم يسجلها من عاصروها على جدران تلك الكهوف؟ لذلك لا أجد أن القاعدة الأسطورية التى بنى عليها فليكوفسكى فرضياته تجبرنا على قبولها، لو كانت فرضياته عن تصادم الكواكب والكوارث التى تعرضت لها الأرض من جراء ذلك قد دعمتها أدلة مادية قوية لكنا أوليناها الاهتمام اللائق بها، فإذا كان الدليل المادى هش وضعيف ولا يوجد ما يثبته، فإن البرهان الدينى الأسطورى لا يستطيع أن يقف على أقدامه ولا يكفى وحده لأثبات صحة تلك الفرضيات.

فرضيات فليكوفسكى الرئيسية

دعونى الآن ألخص لكم فهمى للملامح الرئيسية لافتراضات فليكوفسكى المحورية، وسأحاول تلخيصها على ضوء الأحداث المذكورة فى سفر الخروج، بالرغم أن قصصاً كثيرة فى حضارات أخرى عديدة يقال إنها تماثل سفر الخروج.

فكوكب المشترى يلفظ من كتلته الهائلة مذنباً ضخماً، يتجه مباشرة إلى كوكب الأرض ويحتك به أو يمضى قريباً جداً منه عام ١٥٠٠ ق.م، كل الكوارث والبلايا العشر التى حلت بمصر الفرعونية المذكورة فى سفر الخروج والتى واكبت خروج بنى إسرائيل من مصر تعود كلها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى ذلك الاقتراب الحميم: فالمادة التى تساقطت من المذنب هى التى حولت لون نهر النيل إلى ما يشبه لون الدم، والهوام التى عجت بها مصر والمذكورة فى سفر الخروج تساقطت من المذنب، كذلك الذباب والخنافس تساقطت من المذنب، بينما تكاثرت الضفادع الموجودة بمصر بشكل مخيف من جراء الحرارة الناجمة عن إقتراب المذنب من الأرض، وقضى الزلزال الناجم عن المذنب على المصريين بينما لم يؤثر على العبريين (ما أغفل فليكوفسكى ذكر سقوطه من المذنب هو مادة الكوليستيرول ليصلب ويقسى بها قلب الفرعون على العبرانيين) كل ذلك تساقط من ذؤابة المذنب، وفى اللحظة التى ضرب فيها موسى بعصاه على الصخر، انشق البحر الأحمر - إما بسبب جاذبية المذنب التى جذبت المياه إلى أعلى، أو بسبب مجال مغناطيسى متبادل بين المذنب والبحر الأحمر وحين أتم اليهود عبور قاع البحر المنشق بنجاح، كان المذنب قد تجاوز موضعه فانهارت جبال المياه المنشقه وأغرقت جيش فرعون مصر. أما أبناء إسرائيل الذين تاهوا فى برية سيناء أربعين عاماً، فقد كانوا يتغذون على المن المتساقط من السماء، والذى أوضح فليكوفسكى الآن أنه كان مادة هيدروكربونية (أو كربوهيدراتية) متساقطة من ذيل المذنب.

القراءة الثانية لـ«عوالم فى تصادم» تظهر أن البلايا وأحداث البحر

الأحمر تمثل مرورين مختلفين للمذنب أو اقترابين من الأرض يفصلهما عن بعضهما شهر أو شهران، ثم بعد موت موسى وانتقال القيادة إلى يشوع ينطلق المذنب - ذاته - مرة أخرى ليقترب مرة أخرى من الأرض. وفى اللحظة التى يصيح فيها يشوع «يا شمس اثبتى فى مكانك على جبعون، واثبت يا قمر على وادى عجلون»، - وربما بسبب تأثير جذر جديد، أو مجال مغناطيسى للمذنب أجبرت الأرض على التوقف عن الدوران، حتى تتوقف الشمس فى مكانها وتسمح ليشوع بإنهاء معركته ضد الكنعانيين وينتصر فى معركته، ثم اقترب المذنب بعد ذلك إقتراباً حثيثاً من المريخ، وكان الاقتراب عنيفاً حتى أنه أخرج المريخ عن مداره، حتى أن المريخ بدوره أقترب مرتين اقتراباً شديداً من الأرض نتج عن أحدهما هلاك جيش الملك سينا شيريب الآشورى: لأنه جعل حياة الأجيال التالية من الإسرائيليين حياة تعسة بائسة، وكانت النتيجة النهائية القذف بالمريخ إلى مداره الحالى الذى هو عليه الآن، واستقرار المذنب فى فلك أقرب إلى الشمس، حيث تحول من مذنب إلى كوكب هو كوكب الزهرة. فى ذات الوقت بدأت الأرض بشكل ما - فى الدوران حول نفسها من جديد وبالسرعة ذاتها تقريباً التى كانت تدور بها حول نفسها قبل توقفها بسبب تلك المواجهات الكوكبية. لم تحدث أية مواجهات أو اقترابات أو أى كوارث فى المجموعة الشمسية منذ القرن السادس قبل الميلاد، بالرغم من شيوع الكوارث فى الألف الثانى قبل الميلاد حسب ما يفترضه فليكوفسكى.

تلك هى القصة الرائعة المشهودة، والتى يصعب أن يعترض عليها المؤيدون أو المعارضون. فهل يعد من حسن حظه أن تلك القصة محصنة ضد البحث العلمى؟ إنه يصدر أحكاماً كأنها نبوءات مؤكدة: وهى أن المذنبات قد انفصلت عن كواكب، وأن تلك المذنبات احتكت أو اقتربت اقتراباً حميماً من الكواكب وأن الهوام تحيا فى المذنبات وتتكاثر بها، كما أنها تحيا أيضاً فى أجواء المشترى والزهرة، وأن مواداً كربوهيدراتية موجودة بوفرة فى الكوكبين المذكورين، وأن كميات هائلة من تلك المركبات

الهيدروكربونية تساقطت بوفرة على شبه جزيرة سيناء، واقتات عليها العبرانيين على مدى أربعين سنة هى أعوام التيه فى برية سيناء، وأن المدارات غير المنتظمة لمذنب الزهرة وكوكب المريخ اللذان سببا تلك الكوارث قد تحولت إلى مدارات منتظمة ومستقرة خلال بضعة مئات من السنين، وأن ثورة البراكين العظمى والأعاصير والكوارث الكبرى على الأرض والقمر كانت معاصرة زمنياً لتلك الكوارث الكونية، وهكذا دواليك إلى آخر منظومة افتراضاته.

ولابد أن نناقش ونفحص تلك الأفكار، لقد ذكر فى معرض أفكاره أن سطح الزهرة سطحاً ساخناً، وهو افتراض فرعى من مجمل افتراضاته، إلا أن مؤيديه روجوا هذا الخطأ لدعم افتراضاته، وهو يتنبؤ أيضاً بأن قطبى المريخ لابد أن يكونا من المواد الهيدروكربونية.

فى المناقشة التالية سنلجأ إلى استعمال أساليب التكميم البسيطة والاستعانة بالأرقام كلما أمكن. ومن الواضح أن المناقشة على ضوء أرقام محددة إنما تمثل مصفاة دقيقة للافتراضات أكثر من المناقشات الكيفية. على سبيل المثال، لو ذكرت أن موجة مد عظمى ابتعلت الأرض، فإننا نتوقع مدى عريض وواسع من الكوارث المدمرة - بدءاً من الفيضانات التى تغرق مناطق ساحلية حتى الطوفان أو الإغراق الكامل لكل اليابسة - ولكن حين أشير تحديداً إلى نوبة مد يرتفع الماء فيها إلى مائة ميل، فإننى أشير إلى نمط محدد، غير هذا، قد يكون هناك دليلاً حيوياً ينفى أو يثبت إمكانية حدوث مثل ذلك المد أو الطوفان.

على أى حال، وحتى يتيسر على القارئ العادى غير الملم بقواعد علوم الفيزياء ... الجأ إلى الأرقام البسيطة فى التحليل الكمى، مع الاستعانة بأبسط القواعد الأساسية لعلم الفيزياء.

وربما لا أحتاج إلى التذكير أن مثل هذه الاختبارات الكمية للفرضيات تعد من الأسس المعتادة فى علوم الفيزياء والأحياء فى عالمنا المعاصر. وباستبعاد الفرضيات التى لا تتفق مع منهج التحليل الكمى، سنتمكن من

الانتقال بسهولة إلى الفرضيات التى تتوافق أكثر مع الحقائق العلمية.

هناك نقطة أخرى إضافية حول المنهج العلمى الذى لابد أن ننهجه ونسلكه ولازمة لتوضيح أطره، فالمقولات العلمية ليست ذات قيمة علمية متساوية، فقوانين نيوتن للحركة وقوانين بقاء الطاقة والحركة الكامنة الزاوية، كلها قوانين صارمة لا تقبل الجدل وهى ثوابت علمية، وتم إجراء ملايين التجارب المستقلة التى أثبتت صحة هذه القوانين - لا على الأرض فقط، بل بالرصد الكونى لحركة الأجرام السماوية وتطبيق قوانين الفيزياء الكونية وميكانيكا حركة الأجرام الفضائية عليها- فى مناطق عديدة من المنظومة الشمسية، وفى مجموعات كونية متعددة النجوم، بل حتى فى مجرات أخرى. من جهة أخرى، نجد أن المقولات العلمية الخاصة بطبيعة أسطح الكواكب، ومناخها، وأعماقها، تقف على أرضية علمية هشة لم يتم التوصل إلى حقائقها، كما يبدو من الجدل الدائر بين علماء كواكب المجموعة الشمسية فى الأعوام الأخيرة، والمثال الواضح فى الفرق بين القوانين العلمية والآراء العلمية يتضح من المناقشات التى جرت حول المذنب «كوهويوتلو». لقد تم رصد هذا المذنب أول مرة وهو بعيداً جداً عن الشمس. ومن الملاحظات الأولية المبكرة وضع العلماء تنبؤين : كان الأول خاص بالمدار الذى سيتخذه المذنب فى المستقبل، وهل سيمكن رؤيته من الأرض قبل شروق الشمس، أم بعد غروبها؟ - وهو تنبؤ يعتمد فى التوصل إلى إجابته إلى إجراء حسابات باستعمال قوانين نيوتن للحركة- وكانت الإجابة دقيقة وصحيحة تماماً، بل فى دقة شعرة الهاموشة، أما التنبؤ الثانى فقد كان يتعلق بدرجة تألق المذنب، ويعتمد ذلك على تخمين أو تقدير معدل تبخر جليد المذنب الذى يكون ذيله الطويل من خلفه والذى يعكس ضوء الشمس الساقط عليه فيبدو متألقاً متوهجاً، وأتت النبوءات من هذا الصنف مخطئة كلياً، وكان المذنب أقل تألقاً من منافسه الزهرة، كما لم يتمكن أحد من مشاهدته بالعين المجردة. هذا هو ما عنيته بالتفريق بين الحقائق والقوانين العلمية الراسخة وبين المناقشات العلمية المعتمدة على

بعض حقائق الفيزياء والكيمياء والتى لم نتوصل إلى منظومة قوانينها كاملة، ولابد أن يكون ذلك مستقراً فى أذهاننا عند إجراء أى تحليل لأى فرضية من الفرضيات المذكورة فى «عوالم فى تصادم».

فرضياته المتعلقة بالحركة السماوية لابد أن نطبق عليها قوانين نيوتن للحركة، أو قوانين بقاء الطاقة وما ينتج عنها لابد أن نقبله بلا جدال إذ لن يتمخض عن ذلك إلا حقائق موضوعية. أما الفرضيات المبنية على خواص طبيعية أسطح الأجرام السماوية - على سبيل المثال - فإنها ذات وزن علمى أقل كثيراً فى غياب القوانين التى تحكم طبيعتها ولذلك تظل تخمينات لا يمكن إثباتها، وسنثبت أن فرضيات فليكوفسكى تمضى وسط صعوبات علمية مميتة وخطيرة فى كلا الجانبين، ذلك الذى تنظمه قوانين راسخة لا يمكن اختراقها، وتلك المبنية على تخمينات علمية لا ترتكز على قوانين، إلا أن المصاعب التى تواجه فرضياته لا يقل أى جانب منها فى خطورته عن الجانب الآخر.

المشكلة الأولى:

انفصال الزهرة كمذنب عن المشترى

تبدأ فرضيات فليكوفسكى بحادث فلكى لم يسبق أن رصد مثله أى من الفلكيين القدامى أو المحدثين، كما لا يتفق مع القوانين العلمية المعروفة عن فيزياء الكواكب والمذنبات، وهو تحديداً انفلات أو انقذاف كتلة ذات حجم يكون كوكب من كتلة كوكب المشترى. ربما واتته الفكرة من الحقيقة المعروفة أن أبعد نقطة لأى مذنب من المذنبات قصيرة الدورات عن الشمس تصل إلى مدار كوكب المشترى، وقد افترض ذلك من قبله كلٌ من «بيتر سيمون»، و «مارك دى لابلا» وافترضا فى مرحلة مبكرة أن أصل المذنبات هو كوكب المشترى، وهو افتراض ثبت خطأه وحتى المذنبات طويلة الدورات من الممكن أن تتحول إلى مذنبات قصيرة الدورات بتأثير جاذبية كوكب المشترى القوية، وظلت النظرية القديمة سائدة لما يزيد عن قرن

باستثناء الفلكى الروسى «ف.س. سخسفياتسكى» الذى كان يؤمن أن أقمار كوكب المشترى هى التى تقذف بالمذنبات من البراكين العملاقة الموجودة على سطحها.

لينقذف مذنب منفصلاً عن المشترى وجاذبيته العملاقة لابد أن ينطلق بطاقة حركة طبقاً لقانون رياضى تساوى ١/٢ ك س^{٢}إ، حيث تمثل ك كتلة أو وزن المذنب، وتمثل س إ سرعة إنطلاق المذنب من المشترى، وهى ٧٠ كم/ثانية ومهما كان سبب انفصال كتلة المذنب عن كوكب المشترى، سواء إن كان بسبب ثورة بركانية ،أو بسبب اصطدام أجرام أخرى بالمشترى فإن جانباً مهماً من طاقة الانطلاق يصل إلى ١٠٪ سوف يستنفد نتيجة تحوله إلى طاقة حرارية.

الحد الأدنى من طاقة الحركة منسوبة إلى وحدة الكتلة المنطلقة تصبح ١/٢ س^{٢}إ= ٢.٥ × ١٠^{١٣} إرج/جم.

أما الطاقة المستنفذة بالحرارة فإنها تزيد عن ٢.٥ × ١٠^{١٢} إرج/جم.

ومن المعروف أن الطاقة الكامنة لتماسك الصخور حوالى ٤ × ١٠^{٩} إرج/جم. وهى الحرارة التى لابد من استهلاكها لتحويل صخور صلبة ساخنة قرب درجة الانصهار إلى حمم سائلة. ولابد من استهلاك طاقة مقدارها ١٠^{١١} إرجم/جم لرفع درجة حرارة الصخور الباردة إلى قرب درجة انصهارها، ولذلك فإن أى حدث يؤدى إلى انقذاف مذنب أو كوكب من المشترى لابد أن تصل درجة حرارته إلى بضعة آلاف من الدرجات، وسيان إن كان مكوناً من صخور، أو جليد، أو مواد عضوية، فإنها جميعاً تنصهر تماماً، بل إنها تتحول كلية إلى رذاذ من جزيئات صغيرة من الأتربة والذرات، والتى لا تحمل بعدها أى صفة من صفات الكوكب الأم.

ويبدو من المعادلات السابقة إن إحتمال قذف كوكب من المشترى أو مذنب جليدى قذفاً ناجحاً يستمر معه الكوكب أو المذنب موجوداً من الاحتمالات الضعيفة جداً (وقد يبدو ذلك بالمصادفة دليلاً وبرهاناً يستعين به فليكوفسكى ليدلل به على ارتفاع درجة حرارة كوكب الزهرة، إلا أن

ذلك الجانب لا يعد من جواهر فرضياته).

المشكلة الأخرى هى السرعة اللازمة للانفلات من جاذبية الشمس وهى عند كوكب المشترى تساوى ٢٠ كم/ثانية. وآليات القوى اللازمة للانفلات عن المشترى لا تدرك ذلك بالطبع، لذلك فإن سرعة الانفلات من كوكب المشترى إذا كانت تقل عن ٧٠ كم/ ثانية، فإن الكتلة المنفلتة أو المنقذفة ستعود لتسقط من جديد على سطح المشترى بفعل جاذبيته، ولو كانت أكبر من $[(٢٠)^{٢} + (٧٠)^{٢}]^{١/٢}$=٧٣ كم/ثانية، فإن الكتلة المنقذفة ستفلت من زمام ونطاق المجموعة الشمسية بأجمعها، ولذلك لا يوجد إلا هامش ضيق من السرعات هو الوحيد الذى يتفق مع افتراضات فليكوفسكى، هذا لوتغاضينا عن إحتمال تبخر المذنب عند انقذافه.

وهناك مشكلة أخرى وهى أن كتلة كوكب المشترى ضخمة جداً، فهى أكبر من ٥×١٠^{٢٧} جم، وهى أكبر من ذلك فى افتراضات فليكوفسكى عند أقرب نقطة للمشترى من الشمس، والطاقة الكلية المطلوبة لانقذاف الزهرة وانعتاقها من جاذبية المشترى من الممكن حسابها وهى تصل إلى $١٠^{٤١}$ إرج، وهى طاقة مساوية للطاقة المنبعثة من الشمس فى عام كامل، وتساوى مائة ضعف من الطاقة المنبعثة من أكبر توهج شمسى تم رصده حتى الآن. ومطلوب منا أن نصدق دون أى مناقشة ولا برهان، انقذاف كتلة تحتاج إلى طاقة أقوى من أى طاقة منبعثة من الشمس ذاتها، والتى تعد نجماً يحتوى على طاقة أكثر بمراحل لا تقارن بأى طاقة على كوكب المشترى.

أى عملية تؤدى إلى تكون أجرام كبرى تؤدى أيضاً إلى تكون أجرام أصغر، ويصدق هذا الأمر على وجه التخصيص فى مواقف تحكمها قوانين حركة التصادمات، وفى الفرضيات التى يقدمها فليكوفسكى هناك جانب خاص بفيزياء الانسحاق، وجزىء يصل فى حجمه إلى عشر أكبر جزىء نعرفه سيكون أكثر غزارة ووفرة فى العدد مئات بل آلاف المرات. بالفعل تحتوى فرضيات فليكوفسكى على صخور متساقطة من السماء فى

صداماته الكوكبية، ويصور الزهرة والمريخ كمصدر لزخات عظمى يرشانها على الأرض، ويذكر أن تلك الزخات من الصخور المتساقطة من المريخ أدت إلى دمار وهلاك جيش «سينا شيريب»، ولكن إن كان ذلك صحيحاً وإن صدق افتراضه، كان لابد أن تنهمر على الأرض كتل مساوية لكتلة القمر على مدى مئات من الأعوام الماضية، كما أن الكتل المتساقطة على سطح الأرض لابد أن تؤدى إلى تكوين فوهات على سطح الأرض يبلغ قطرها ميل أو أكثر وكان ذلك التساقط يتكرر على الأقل كل أسبوعين، إلا أنه لا يوجد أى دليل أو علامة على الأرض ولا على القمر يدل على سقوط كتل حديثة على مدى الآلاف الأخيرة من الأعوام. على عكس ذلك، فإن الأجرام القليلة، وهى كتل نيزكية صغيرة، والتى تدور فى أفلاك ومسارات يحتمل معها أن تتقاطع وتتصادم بالقمر الأرضى، هى بالكاد أجرام وكتل ثابتة العدد ومتكافئة مع نسبة الفوهات القمرية التى تم رصدها على سطحه، كما أن عدم وجود كتل أو أجرام ذات أفلاك تتقاطع مع مسار الأرض يعد من الاعتراضات الجوهرية التى تنقض الافتراضات الأساسية لفليكوفسكى .

المشكلة الثانية:
الاصطدام أو المواجهات المتكررة بين الأرض والزهرة والمريخ

«إن احتمال أن يصطدم مذنب بكوكبنا (الأرض) لمن الاحتمالات غير الواردة، إلا أن الاحتمال ليس منافياً للعقل» (ص ٤٠)، وذلك صحيح تماماً، إلا أن الأمر يخضع لحساب الاحتمالات، وهو ما أغفل فليكوفسكى ذكره لسوء الحظ.

أما حسن الحظ، فهو أن علوم الفيزياء المؤكدة تعد فى غاية البساطة، ويمكن إجراء حساباتها بسهولة، بل يمكن إجراءها على مستوى أى جرم دون أى اعتبار للجاذبية. فالأجرام ذات الأفلاك غير المنتظمة، والتى تنتقل

من منطقة المشترى حتى تقترب من منطقة الأرض، تنتقل بسرعات عالية جداً حتى أن الجاذبية المتبادلة بين كل من الجرم الشارد والأرض التى يقترب منها ويوشك على التصادم بها أو التأثير على غلافها يمكن إغفالها. ونتبين من حسابات ذلك الاقتراب أن أى «مذنب» أبعد نقطة له عن الشمس تصل إلى مدار المشترى وأقرب نقطة له من الشمس تصل إلى مدار الزهرة فإن الاحتمالات الحسابية تظهر أنه لابد أن ينقضى ثلاثون مليون عام أرضى قبل أن يكون هناك أى احتمال لاصطدامه بالأرض، ونجد - أيضاً - من الحسابات أن الجرم إذا كان عضوا من مجموعة أجرام ذات مسارات تصادمية، فإن الزمن المحتمل لتصادمه يفوق عمر المجموعة الشمسية، ولكن بالرغم من ذلك دعونا نتخذ فى احتمالاتنا الحسابية أقرب الحسابات التى نعدها فى صالح فرضيات فليكوفسكى وهو رقم ثلاثين مليون عام، فحتى على افتراض هذا الحد الأدنى فإن إحتمال عدم الاصطدام بالأرض تصل نسبته فى أى عام مفترض إلى ٣×١٠^{٧} إلى واحد؛ وكذا فإن احتمال التصادم خلال ألف عام يصل إلى ١: ٣٠٠٠٠، إلا أن الاحتمال عند فليكوفسكى لم يكن ١: ٣٠٠٠٠ (انظر على سبيل المثال ص ٣٨٨ من عوالم فى تصادم)، بل خمسة مواجهات ما بين الزهرة والمريخ والأرض - وكل منها بدا وكأنه يحمل احتمالات إحصائية منفردة، وبحساباته الخاصة، تجاهل أن هناك نظماً دقيقة لاحتمال تماس تلك الكواكب تقررها مسارات الدورات النسبية لكل جرم على حدة، لذلك نجدنا نتساءل عن الاحتمالات التى تبناها والتى جعلت الكواكب تبدو وكأنها جزء من لعبة بليارد كونية.

لو كانت الاحتمالات مستقلة أو منفردة لكل كوكب، فإن الإحتمال الكلى الذى يجمع بين حدوث خمس تصادمات أو مواجهات فى خلال الألف عام المذكورة يندرج تحت المعادلة الرياضية $(٣ \times ١٠^{٧} \div ١٠^{٣})^{-٥} = (٣ \times ١٠^{٤})^{-٥} = ٤٫١ \times ١٠^{-٢٣}$ أى أن احتمال حدوث ما ذكره يصل إلى ما نسبته واحد إلى مائة مليون تريليون، ولحدوث ستة تماسات خلال تلك

الألف عام المذكورة فإن الاحتمالات تنخفض إلى $(3 \times 10^{7} \div 10^{3})^{-6} = (3 \times 10^{4})^{-6} = 3.7 \times 10^{-28}$ أى واحــــد إلى تريليـــــون كدريليـون(*) وفى الحقيـقة، فإن تلك الاحـتمالات المحسـوبة هـى الحدود الدنيا، عدا أن أى تماس مع المشترى؛ لابد أن يدفع الجسـم المتماس معه إلى خارج المجموعة الشمسية بأسرها، مثلما أطاح المشترى بمركبة الفضاء بيونير ١٠ إلى خارج المجموعة الشمسية.

مثل تلك الحسابات للاحتمالات ليست إلا تقنيناً رياضياً منضبطاً يكشف خطأ، افتراضات فليكوفسكى، حتى لو لم تشب بقية افتراضاته اخطاء أخرى، وتدل ضآلة أو استحالة حدوث المواجهات أن افتراضاته يتعذر الدفاع عنها. ومع المشاكل الأخرى المذكورة سابقاً والتى سنذكرها لاحقاً، فإن احتمال صدق الفرضيات المذكورة فى كتاب «عوالم فى تصادم» يصبح منعدماً وتصبح الفرضيات بأجمعها فى غاية التهافت.

المشكلة الثالثة:

دوران الأرض

يبدو أن عدم الرضى تجاه «عوالم فى تصادم» ينبع من تفسير فليكوفسكى لقصة يشوع والأساطير المتعلقة به والتى تتضمن أن دوران الأرض حول نفسها قد توقف كلية. إن الصورة الخيالية التى هيجت المحتجين ضدها تماثل تلك التى ظهرت فى فيلم سينمائى عن قصة خيال علمى لـ «هـ. ج. ويلز»، وهى قصة «صانع المعجزات»: وفيها أنه بفضل معجزة ما، توقفت الأرض عن الدوران، إلا أن «ويلز» لم يغفل أن كل المحتويات على سطحها غير مثبتة بمسامير فاستمرت فى الاندفاع بسرعة دوران الأرض حول نفسها، وهى سرعة تصل إلى ألف ميل فى الساعة.

(*) الكدريليون رق مؤلف من واحد إلى يمينه ١٥ صفر فى أمريكا وفرنسا و٢٤ صفر في بريطانيا وألمانيا. (المترجم)

من السهل تبين أن التباطؤ التدريجى لسرعة دوران الأرض بعجلة تناقصية تبلغ 10^{-2} أو نحوها من الممكن أن تؤدى إلى تباطؤ تدريجى حتى التوقف على مدى أقل من يوم. وعند هذا المعدل التدريجى من التباطؤ على مدى يوم كامل لن يحدث اندفاع للموجودات والكائنات، بل إن الكائنات الدقيقة الهشة يمكن أن تظل حية ولا تهلك، ونتبين من الحسابات أن الطاقة اللازمة لوقف دوران الأرض غير كافية لجعلها تنصهر، إلا أن ذلك لا ينفى أن درجة حرارتها سترتفع: فدرجة حرارة مياه المحيطات ستصل إلى الغليان، وهى حقيقة علمية من الواضح أن مصادر فليكوفسكى القديمة قد أغفلتها تماماً، أو ربما لم تدركها فى ذلك الحين.

بالرغم من ذلك، فإن هذا الاعتراض لا يعد الأخطر على تفسير فليكوفسكى لأسطورة يشوع التوراتية، فأخطر اعتراض يقع على الجانب المعاكس، وهو كيف عادت الأرض للدوران من جديد وبنفس سرعة دورانها السابقة؟ لا يمكن أن تستعيد الأرض القدرة على الدوران من تلقاء ذاتها، وهى حقيقة علمية ينظمها قانون بقاء طاقة الحركة الزاوية.

ويبدو أن فليكوفسكى لم يدرك ولم يع تلك المشكلة حين كتب تلك الافتراضات.

لم ترد أى إشارة أو تلميح إلى أن توقف الأرض و «فرملة» حركة دورانها حتى «الثبات» نتيجة تماس جرم فضائى آخر، أمر لا يقل خطورة عن استعادتها للحركة التى كانت عليها بالضبط قبل توقفها. وفى الحقيقة، فإن احتمال توقف الأرض عن الدوران حول نفسها بسبب تماسها أو اقتراب جرم فضائى منها يكاد يكون احتمالاً منعدماً، كما أن احتمال حدوث تماسات تالية، تعيد الأرض إلى حركة دورانها السابقة بمعدل دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة، أشد استحالة من الافتراض الأول الذى أدى إلى توقفها.

ويبدو فليكوفسكى غامضاً فى شرح وتقديم الآليات والقوى التى أدت

إلى توقف الأرض عن الدوران يذكر - أحياناً - أنها ربما كانت موجة تجاذب قوية، وفى أحيان أخرى أنها كانت قوى مجالات مغناطيسية، وكلا النوعين من القوى يتضاءل تأثيره بمعدل كبير بازدياد المسافة بين جرمين، فالتجاذب يتضاءل بمعدل جذر تكعيبى عكسى مع المسافة، والتجاذب المزدوج بين جرمين يقل بمعدل جذر سداسى، أما القوى المغناطيسية فإنها تتضاءل بمعدل أكبر من التجاذب. ولذلك فإن القوى التى يمكن أن تؤدى إلى توقف كامل لحركة الأرض لا تصبح فاعلة إلا فى حالة تماس قريب جداً تنظمه المعادلة الرياضية ٢ ق/س، حيث تمثل ق قطر الأرض وتمثل س السرعة النسبية للمذنب والأرض، وحيث أن س تقدر بـ ٢٥ كم/ثانية، فإن زمن التماس المقدر لا يزيد عن عشر دقائق.

هذا هو الوقت الكلى الذى يمكن فيه أن تتأثر الأرض بتماس مذنب معها والذى يمكن للمذنب فيه أن يؤثر على حركة دورانها حول نفسها؛ وإن حدث ذلك فإن تأثر سرعة دوران الأرض يقل بمقدار عجلة سرعة متناقص مقدارها ١ . ٠، فإذا لم تتطاير الجيوش من على وجه الأرض بسبب ذلك، فذلك المقدار من النقص أو الزيادة غير كافٍ لافناء جيوش. حتى زمن الانتشار الصوتى على الأرض - وهو الحد الأدنى من الوقت اللازم للتأثير الخارجى حتى يتم الأحساس به على الأرض بوجه عام - وهو ٥ . ٨ دقيقة، غير كافٍ هو الآخر، وهكذا نجد أنه لا يوجد تأثير لمذنب، حتى فى حالة الاقتراب الحميم، من الممكن أن يوقف حركة دوران الأرض حتى تظل الشمس فى موضع ثابت بالنسبة لها، أى أن تظل الشمس ساطعة على وادى جبعون، كما تذكر التوراة عن يشوع الذى أمر الشمس والقمر أن يثبتا فى موضعيهما حتى يتمكن من انجاز مهمته فى القضاء على الفلسطينيين.

إن ما يذكره فليكوفسكى عن تاريخ دوران الأرض من الصعب تتبعه أو تصديقه.. فى صفحة ٢٣٦ نجده يذكر ويصف حركة الشمس فى السماء بشكل يتفق بالمصادفة مع مظهر وحركة الشمس، كما تظهر من

على سطح الكوكب عطارد، لا كما تبدو من على سطح الأرض، وفى صفحة ٣٨٥ نجد تراجعاً كاملاً وكلياً من فليكوفسكى؛ لأنه فى تلك الصفحة يفترض أن ما حدث لم يكن تحولاً فى السرعة الزاوية لدوران الأرض، بل إنها مجرد حركة مختلفة على مدى بضع ساعات فى قوة الحركة الذاتية الدائرية، واتجاهها تحول فيها اتجاه الحركة بزاوية قائمة على مستوى دائرة البروج الحالية التى هى عليها الآن، وهو تحول فى اتجاه يترتب عليه ثبات وضع الشمس، مثلما هو الحال فى كوكب أورانوس. وباستثناء المشاكل العويصة التى تعتور الجوانب الفيزيائية لهذا الافتراض، نجد أنه لا يتفق ولا يتوافق مع افتراضات فليكوفسكى ذاتها؛ لأنه سبق له قبل هذا الافتراض أن وضع كل ثقله خلف حقيقة : "أن حضارات منطقة أوراسيا والشرق الأدنى قد سجلت حدوث يوم طويل لا يعرف مقداره، بينما سجلت حضارات الأمريكتين وقوع ليل طويل، ومع هذا التباين لا يمكن تفسير ما سجلته حضارات المكسيك). إننى أرى أن فليكوفسكى تناسى وتغاضى عامداً افتراضاته القوية التى استمدها من سجلات الحضارات القديمة.

فى صفحة ٣٨٦ لدينا افتراضات كيفية يعرضها لأول مرة، ذكر فيها أن الأرض من الممكن أن تكون قد توقفت كلياً عن الدوران بسبب مجال مغناطيسى قوى، ولم يذكر قوة المجال المغناطيسى الكافية لايقاف حركة دوران الأرض، ولكن من الواضح أن تلك القوة المغناطيسية اللازمة لإيقاف حركة الأرض لابد أن تكون قوة هائلة. ولا توجد أى علامة أو أثر فى المجال المغناطيسى للصخور الأرضية يدل على سابق تعرضها فى أى وقت؛ لمثل ذلك المجال المغناطيسى الهائل، وما يوازى هذه الحقيقة فى الأهمية، الدليل الثابت والبرهان الدامغ المستمد من رحلات كلٍ من المركبات الفضائية السوفيتية والأمريكية من أن المجال المغناطيسى للزهرة ضئيل جداً، بحيث يمكن اهماله إذ يقل كثيراً عن المجال المغناطيسى للأرض الذى يبلغ نصف جاوس؛ وهو لا يفى بأى حال بفرضية فليكوفسكى المذكورة.

المشكلة الرابعة:
چيولوچيا الأرض، وفوهات القمر البركانية

بشكل يبدو معقولاً، يعتقد فليكوفسكى أن تماس كوكب آخر بالأرض ترتبت عليه نتائج كارثية ومأساوية، بسبب الشحنات الكهربائية المتبادلة والتأثيرات المغناطيسية، وجاذبية الجرم المقترب التى أدت إلى ارتفاع المياه فى البحار والمحيطات (إلا أن فليكوفسكى لم يكن واضحاً بأى حال فى هذا الصدد). إنه يعتقد (صفحتى ٩٦ و ٩٧) أن: «أثناء الخروج من مصر، كان العالم يرتجف ويهتز وتمطره الصخور المنهالة من السماء، وتقيأت كل براكين الأرض حمماً بركانية منصهرة، واجتاحت كل القارات موجات متتالية من الزلازل العنيفة».

وهناك شك أن تكون الزلازل قد صاحبت مثل ذلك التماس إن كان قد حدث. لقد سجلت أجهزة السيزموميتر فى سفينة الفضاء "أبوللو" - الخاصة برصد الزلازل على سطح القمر - حدوث زلازل على سطح القمر عندما يكون القمر فى الحضيض القمرى(*)، ويشير ذلك - أيضاً - إلى حدوث زلازل خفيفة على الأرض حين يكون القمر فى نقطة الحضيض، أما الادعاء بحدوث تقيؤ للحمم من كل البراكين دفق بالحمم المنصهرة على كل سطح الأرض مع ظهور بركانى نشط كثيف شمل البراكين الخامدة والنشطة، فهذه قصة أخرى.

من السهل جداً حصر تدفقات الحمم البركانية وتواريخ حدوثها، وما يجب على فليكوفسكى تقديمه هو متابعة تاريخية لتدفقات الحمم البركانية على الأرض على مدى تاريخى معين. وسيظهر هذا السجل على ما أعتقد أنه لم يحدث نشاط جمعى وجماعى لكل براكين الأرض ما بين ١٥٠٠ ق.م و ٦٠٠ ق.م، وأنه لم تكن هناك ظاهرة خاصة أو غير طبيعية شملت

(*) الحضيض القمرى : هو الوضع الذى يكون فيه القمر فى أقرب نقطة له من الأرض. (المترجم).

البراكين فى تلك الفترة المشار إليها.

إن فليكوفسكى يعتقد (صفحة ١١٥) أن قطبى الأرض قد انعكسا أى انقلب القطب الشمالى إلى الجنوب وصار القطب الجنوبى فى الشمال تحت وطأة الشحنات المغناطيسية المضادة الموجودة بالمذنب؛ إلا أن السجلات المغناطيسية للأرض وصخورها واضحة لا ريب فيها - مثل ذلك الانعكاس يحدث كل مليون عام -، إلا أنه لم يحدث فى الآلاف الأخيرة من الأعوام، وهى تتكرر بآلية تماثل عمل الساعة، فهل هناك ساعة كونية على كوكب المشترى توجه المذنبات إلى الأرض كل مليون عام؟

إن وجهة النظر العلمية التقليدية المستقرة أن الأرض تتعرض لانعكاس قطبيها بطريقة آلية، وأن ذلك الانعكاس ينتج عنه تكون المجال المغناطيسى الأرضى، ويبدو حتى الآن أنه تفسير معقول.

أما جدال فليكوفسكى الذى يدعى فيه : أن الجبال العظمى قد تكونت من بضعة آلاف من السنين، فهو جدال عقيم على كل المستويات الچيولوچية التى تثبت بالبرهان والدليل أن الجبال قد تكونت من عشرات الملايين من السنين إن لم يكن أكثر. أما فكرة تجمد حيوانات الماموث بفعل انتقال قطبى الأرض المفاجئ من بضعة آلاف من السنين، فيمكن اختبار صحتها عن طريق الكربون ١٤ المشع، أو بفحص عمر الأحماض الأمينية فى تلك الكائنات، وسأكون فى غاية الدهشة إذا دلت تلك الاختبارات على مدى زمنى حديث كما يدعى فليكوفسكى.

يعتقد فليكوفسكى أن القمر الذى لم يكن بمعزل عن الكوارث التى حلت بالأرض، قد تعرض بدوره لآثار مدمرة ألمت بسطحه من بضعة آلاف من السنين، وأن كثيراً من الفوهات والتشققات التى على سطحه قد نتجت عن الأحداث نفسها التى تعرضت لها الأرض (انظر الجزء الثانى - الفصل التاسع)، إلا أن هناك ما يدحض تلك الفكرة، فالعينات المأخوذة من سطح القمر والتى جلبتها سفينة الفضاء "أبوللو" أثبت فحصها أن صخور سطح القمر لم تتعرض لانصهار حديث بعد الانصهار الأول الذى كانت عليه من مائه مليون عام.

عدا ذلك، إذا كانت الفوهات القمرية والفوالق قد تكونت بغزارة على سطح القمر من ألفين وسبعمائة عام كما يذهب فليكوفسكى، فلابد أن تتعرض الأرض الأكبر حجماً لنفس الكارثة وكان من المنطقى أن نجد فوهات بركانية، وصدوغ أرضية، وفوهات تصادمية تفوق ما هو موجود على سطح القمر، وأن تصل تلك الفوهات التصادمية إلى ما يزيد عن كيلومتر فى قطرها، ولكن لم يلاحظ وجود أى من ذلك على سطح الأرض على مدى الألفين وسبعمائة عام التى مضت، بل إنه لم يلاحظ وجود فوهة واحدة بهذا القطر، ويبدو أن فليكوفسكى قد تجاهل كل الأدلة والبراهين الدامغة التى تدحض هذا الافتراض بكل حسم.

ويعتقد أن مرور الزهرة أو المريخ بالقرب من الأرض قد نتج عنه فيضانات تصل إلى ما يشبه الطوفان، أو ارتفاع للمياه وصل على الأقل إلى أميال فى علوه (صفحتى ٧٠، ٧١)؛ وفى الحقيقة، لو مرت هذه الكواكب على بعد عشرات الآلاف من الكيلومترات من الأرض كما يعتقد، فإن فيضانات الماء والأجسام الصلبة على سطح كوكبنا، ستصل إلى مئات الكيلومترات علواً عن سطح الأرض حيث أن إرتفاع المد السائل أو الصلب يتناسب مع كتلة الجرم المسبب له كما يتناسب عكسياً مع مربع المسافة بين الأرض والجرم المقترب منها.

وفى نطاق ما أعلم، لا يوجد دليل چيولوچى على وقوع أو حدوث إغراق للأرض، لا فى القرن الثامن قبل الميلاد، ولا فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وإن كانت مثل تلك الفيضانات الطوفانية قد وقعت، وحتى لو كانت قد وقعت لمدى زمنى قصير، فإنها لابد أن تكون قد تركت أثراً واضحاً فى السجلات الچيولوچية الطبيعية على سطح الأرض، هذا عدا البراهين الآثارية المعمارية وبقايا الأحياء القديمة، وأين الآثار التى تدل على الموت الجماعى للفصائل الحيوانية فى ذلك التاريخ؟ وأين الدليل على الانصهار الكلى فى تلك القرون؟ وأى موضع تعرض أكثر من غيره للتشوه بسبب تلك الأحداث؟

المشكلة الخامسة:
الكيمياء الحيوية للنباتات الأرضية

افتراضات فليكوفسكى لابد أن يترتب عليها تبعات كيميائية وحيوية تحدث فوضى واضطراب للمواد البسيطة. ويبدو أنه لم يدرك (ص ١٦) أن الأكسچين يعاد إنتاجه عن طريق المادة النباتية الخضراء (الكلورڤيل) فى عملية التمثيل الضوئى للنباتات على سطح الأرض، عدا ذلك فإنه لم يشر بأى شكل إلى أن غلاف كوكب المشترى يتكون بشكل أساسى من غازى الهيدروچين والهيليوم، بينما يتكون غلاف كوكب الزهرة التى يفترض فليكوفسكى أنها انفصلت عن كوكب المشترى حسب فرضياته من غاز ثانى أكسيد الكربون، ويعتقد فليكوفسكى أن المن الذى تساقط من السماء على بنى إسرائيل أثناء أعوام التيه فى شبه جزيرة سيناء كان من مصدر مذنبى، ويفرض ذلك حتمية وجود مواد كربوهيدراتية فى كل من المشترى والزهرة. من جهة أخرى، ذكر أن هناك مصدراً غزيراً للنار والنافثا (النفط) التى تساقطت من السماء، وفسر الأمر على أنه نفط سماوى اشتعل فى غلاف جو الأرض المحتوى على غاز الأكسچين اللازم للاشتعال (ص ٥٣ حتى ص ٥٨)، ومع إيمانه العميق بذلك، فإنه يظهر تشوشه والتباس الأمر عليه فى إدراك الفارق الجوهرى بين الكربوهيدرات والهيدروكربونات، وفى مواضع من كتابه كان يبدو وكأن الإسرائيليين التائهين فى برية سيناء يتغذون على نفط يسقط من السماء على مدى أربعين عاماً.

قراءة النص تزداد صعوبة بتلك النتائج الظاهرية التى يسوقها (ص ٣٦٦) عن قطبى المريخ المكونين من المن وهى المادة التى وصفها بشكل غامض وملتبس بأنها «من المحتمل أن تكون ذات طبيعة كربونية»، والمواد الكربوهيدراتية لها خاصية امتصاص ضوئى قوى عند مستوى ٣,٥ مايكرون فى المطياف الضوئى نتيجة للذبذبات التمددية للرابطة بين الكربون والهيدروچين، ولم يثبت وجود أى أثر لتلك الخاصية عند إجراء

التحليل الضوئى الطيفى لقطبى المريخ، والتى قامت بإجرائها سفن الفضاء مارينر (٦، ٧) عام ١٩٦٩ .م، بل على عكس ذلك، أثبتت سفن الفضاء مارينر ٦، ٧، ٩ ببراهين كثيرة : أن قطبى المريخ مكونان من ماء متجمد فى الأعماق مغطى بطبقات كثيفة وسميكة من ثانى أكسيد الكربون المتجمد.

إن إصرار فليكوفسكى على الأصل الفضائى للنفط يصعب قبوله وتصديقه. وفى فقرات عديدة من تاريخ هيرودت توجد إشارات، ونصوص محددة، ووصف لاحتراق النفط الطافح من جوف الأرض إلى سطحها فى بلاد ما بين النهرين وفارس، بل إن فليكوفسكى أقر بنفسه (صفحتى ٥٥، ٥٦)، بأن قصص أمطار النيران، وقصص النفط مستمدة من قصص شعوب تلك المناطق التى لديها رواسب طبيعية من النفط، والتى تشير وتدل على الأصل الأرضى للنفط، ولا يمكن - بالطبع - للنفط إن كان قد تسرب من سطح الأرض إلى أعماقها من ألفين وسبعمائة عام أن يكون بهذه الغزارة فى استخراجه التى نشهدها حالياً، كما لم تكن عمليات استخراجه تواجه بالصعوبات التى نعرفها الآن فى استخراجه لو صحت إفتراضاته. على ضوء افتراضاته - أيضاً - يصعب فهم وتبرير اختلاط النفط بحفريات عضوية وكيميائية يرجع أصلها من عشرات إلى مئات الملايين من السنين، إلا أن التفسير يصبح يسيراً بإرجاع نشأة النفط إلى تحلل الكائنات العضوية الدقيقة المكونة من جزيئات كربونية هى وغيرها من المواد العضوية التى دفنت فى الأحقاب الچيولوچية المبكرة، وهى حقائق أثبتها علماء الچيولوچيا؛ أى أن أصل منشأ تكون النفط أرضى لا مذنبى.

آراء فليكوفسكى عن المخلوقات أو الحياة خارج نطاق الأرض لا يقل غرابة، إنه يعتقد أن «الهوام» والحشرات المذكورة فى سفر الخروج، والتى ضاقت بها مصر، خاصة الذباب - قد سقطت هى الأخرى من المذنب - بالرغم من أنه لم يقطع بالأصل غير الأرضى للضفادع، إلا أنه نقل عن

نصوص إيرانية قديمة هى نصوص «البونداهيس» (ص ١٨٣)، نصاً يشير إلى حدوث أمطار من الضفادع - ولكن دعونا نأخذ فى اعتبارنا الآن الذباب وحده، فهل نتوقع أن نجد الذباب - واسمه العلمى دورسوفيلا ميلانو جاستر - فى الاكتشافات القادمة بين سحب كوكب الزهرة وفى غلاف كوكب المشترى؟ وهل تسقط كل نظريات فليكوفسكى إذا لم نجد ذباباً فى سحب وأغلفة الكوكبين؟

إن فكرة فليكوفسكى «أنه باستثناء كل الحشرات والهوام الطائرة على الأرض، فإن الذباب وحده ذا أصل غير أرضى» تبدو متفقة مع الرأى الغريب لمارتن لوثر والذى ذكر فيه أن «كل ما هو موجود قد خلقه الرب إلا الذباب الذى يبدو أنه من صنع الشيطان لأنه من الواضح أنه لا فائدة منه على الاطلاق»؛ ولكن الذباب من الكائنات الجديرة بالإحترام، وهو على قرابة شديدة فى التشريح ووظائف الأعضاء والكيمياء الحيوية من كل الهوام الأرضية.

إن إحتمال مرور أربعة بلايين ونصف عام من التطور المستقل للذباب على كوكب المشترى - هذا لو صح وجود مناخ طبيعى فيزيقى مماثل لمناخ الأرض - ويؤدى إلى تكون كائن لا يمكن التفريق بينه وبين باقى الكائنات الأرضية من وظائف أعضاء وتشريح وكيمياء عضوية ليس إلا إهداراً لكل علوم تطور الكائنات.

الذباب يحتوى على الانزيمات نفسها، والأحماض الأمينية ذاتها، بل إنه يحتوى على نفس الشفرات الجينية لباقى الكائنات الأرضية (وهى الشفرة التى توجه الأوامر للأحماض الأمينية لتصنيع المادة البروتينية فى الكائنات الحية). هناك علاقة وشيجة بين الذباب وباقى الكائنات الأرضية حتى يستحيل القول أنه ذا منشأ غير أرضى، وتؤكد ذلك كل الأبحاث التى أجريت على الذباب.

يذكر الاصحاح التاسع فى سفر الخروج : "أن ماشية المصريين فنت بأجمعها بينما لم تمت لأبناء إسرائيل "رأس واحدة من الماشية"، ثم يذكر الاصحاح نفسه : "أن البلاء دمر محاصيل الكتان والشعير، إلا أنه لم

يدمر محاصيل الحنطة والقطانى"(*). وهذا التمييز الغريب لدى الهوام القادمة من المذنب لتدمر محصولاً وتبقى على آخر يصعب فهمه مع انعدام أى تجارب أو خبرات سابقة لها أو أى اتصال بيولوچى سابق بالمحاصيل الأرضية، إلا أنه يمكن تفسيره لو كانت تلك الهوام أرضية لا مذنبية؛ ثم هناك بعد ذلك ما هو أغرب، وهو أن تلك الهوام تتمثل الأكسچين الجزيئى الموجود بغلاف الأرض. من الثابت أنه لا وجود لغاز الأكسچين على كوكب المشترى، ولا يمكن أن يوجد، فالأكسچين من الغازات غير الثابتة حرارياً فى حالة وجود كثيف للهيدروچين.

هل يمكن أن نتخيل أن الناتج الكلى لانتقال الاليكترونات المطلوب لوجود غاز الأكسچين قد حدث من قديم الأزل على المشترى من قبل كائنات مشترية على أمل أن تنتقل فى يوم ما إلى الأرض؟! إن كان ذلك قد حدث فهو يعد معجزة أعظم من كل نظريات فليكوفسكى.

إن فليكوفسكى (ص ١٨٧) يتغاضى عن استحالة أن تحيا الهوام والحشرات التى نعرفها فى جو يخلو من الأكسچين، ويطرح ذلك تساؤلاً : وهو كيف لكائن تطور وعاش على المشترى أن يحيا ويتغذى فى جو آخر غنى بالأكسچين؟

ويلى ذلك مشكلة دخول الذباب إلى غلاف الأرض بسرعة كبيرة. إن الذباب له كتلة ووزن وحجم مثل جزيئات الشهب والنيازك، ولابد أن تتعرض للاحتراق وهى على بعد مائة كيلومتر من سطح الأرض حين تدخل فى نطاق غلافها الغازى مع جزيئات المذنب، فالهوام الساقطة مع جزئيات المذنب بسرعة عالية لن تتحول فقط إلى هوام مشوية عند دخولها غلاف الأرض؛ بل إنها ستتحول مثلها مثل جزيئات أى مذنب إلى بخار وذرات، ولن تصل إلى سطح الأرض لتثير ذعر فرعونها. وبالمثل، فإن الحرارة المصاحبة لانقذاف كتلة من المشترى للخروج من أسر جاذبيته التى أشرنا إليها سابقا، كافية هى أيضاً لشى ذباب وهوام فليكوفسكى.

(*) القطانى : نبات ذو حبوب من فصيلة الشعير (المترجم)

الاستحالة هنا مزدوجة، فهوام وذباب يتعرض للشى مرتين ويتحول إلى غازات وذرات لن يبقى حياً بأى حال فى مثل تلك الظروف. وأخيراً، هناك إشارات ذكرها تعنى وجود حياة ذكية خارج الأرض، ففى صفحة ٣٦٤ يذكر فليكوفسكى : أن المواجهات والاقترابات الخطرة لكل من المريخ والأرض والزهرة «يجعل من المستحيل استمرار أى نوع من أنواع الحياة إن كانت توجد من قبل على المريخ بعد تلك الاقترابات»، إلا أن الصور التى التقطتها سفينة الفضاء «مارينر ٩» لسطح المريخ، أظهرت وجود حفرة تصادمية تزيد على ثلث الكوكب، ولها حافة تذكر بشكل ما بالفوهات القمرية الارتطامية؛ كما لا يظهر على السطح أى أمارات على حدوث كوارث حديثة؛ باستثناء تلك الحفرة العظمى التى تعود إلى أزمان سحيقة تقدر بملايين السنين، وعوضاً عن ذلك تظهر علامات قوية على نشاط عظيم قديم من مكونات الكوكب نفسها، وتدفقات حممية من باطنه وأنشطة بركانية تعود جميعها إلى بضعة مئات من ملايين السنين.

كم قليل من الفوهات والحفر يعود عمره إلى بضعة آلاف من الأعوام، إلا أنه لا يمكن توفيق تلك الصورة مع وجهة نظر وفرضيات تذهب إلى أن ذلك الكوكب قد مر بأحداث كارثية قريبة أنهت أى حياة ذكية على سطح المريخ، وأنها قد أبيدت وانتهت نتيجة لتلك المواجهات والتماسات المذكورة، فلماذا لم تنتبه كل أشكال الحياة على الأرض وقد تعرضت للكارثة نفسها؟.

المشكلة السادسة:

المـــــن

كلمة «المن» الواردة فى نصوص التوراة - وطبقاً لدراسة وجذور المفردات الواردة فى سفر الخروج - مشتقة من اللفظ العبرى «من - هو»، والتى تعنى «ما هى؟» وبالفعل نجده سؤالاً هاماً. إن فكرة سقوط طعام وغذاء من المذنبات ليس صحيحاً على إطلاقه. لقد أظهرت التحليلات

الطيفية الضوئية لذيول المذنبات حتى قبل صدور كتاب "عوالم فى تصادم" عام ١٩٥٠ وجود نسبة ضئيلة من المواد الهيدروكربونية فى ذيول تلك المذنبات؛ إلا أنها تخلو من الالدهيد، وهو الوحدة الأولية التى تتكون منها المواد الكربوهيدراتية، وكان الاعتقاد القديم أنها ربما تكون متوفرة بذيول المذنبات، ولكن بعد المرور الأخير لمذنب كوهيوتيك ورصده من الأرض، تبين من فحص التحليل الطيفى الضوئى أنه يحتوى على كميات كبيرة من مركبات النيترايت البسيطة، خاصة سيانيد الهيدروچين، وسيانيد الميثيل. وهى مواد شديدة السمية، وهو ما يثبت أن مادة المذنبات غير صالحة كطعام.

ولكن دعونا نترك هذا الاعتراض الجوهرى جانباً، وننضم لفليكوفسكى فى افتراضه ونحسب ما يترتب على صحة هذا الافتراض. كم من المن مطلوب لإطعام مئات الألوف من بنى إسرائيل أثناء تيههم فى برية سيناء على مدى أربعين عاماً؟ (ارجع إلى سفر الخروج ١٦: ٣٥).

فى سفر الخروج ١٦: ٢٠، نجد أن المن الذى كان يترك ليلاً يتفشى فيه العفن فى الصباح التالى، ويصدق ذلك - بالطبع - إذا كان المن من الكربوهيدرات لا من الهيدروكربونات (ربما كان موسى كيميائياً أمهر من فليكوفسكى). ويدل ذلك على أن المن لم يكن قابلاً للتخزين؛ لأنه كان سريع العطب والتلف، كان المن يسقط يومياً من السماء على مدى أربعين عاماً كما تذكر التوراة.

سنفترض أن الكميات المتساقطة يومياً كانت تكفى لإطعام بنى إسرائيل التائهين فى برية سيناء. ويؤكد فليكوفسكى (ص ١٣٨) من مصادر ذكرتها المدراش(*) أن كميات المن التى كانت تسقط كل يوم كانت تكفى لإطعام بنى إسرائيل لألفى عام لا لأربعين عاماً فقط. دعونا نفترض

(*) المدراش : هو التفسيرات المختلفة للتوراة بالإضافة إلى القصص الدينى الأسطورى اليهودى. (المترجم)

أن الفرد الواحد كان يحتاج إلى ثلث كيلوجرام من المن كغذاء يومى، وهو أقل - بالطبع- قليلاً من الاحتياج اليومى لأى فرد من المواد الكربوهيدراتية، وبذلك يحتاج الفرد إلى مائة كيلوجرام كل عام أى أربعة آلاف كيلو جرام على مدى الأربعين عاماً من التيه فى برية سيناء، وبافتراض أن قافلة التائهين كانت تتكون من مئات الآلاف، والعدد مذكور فى التوراة ويمكن الرجوع إليه، فإن الكمية التى يحتاجونها فى الأربعين عاماً تزيد على مليون كيلوجرام من المن. لا يمكن لأحد أن يتخيل سقوط أنقاض ومكونات ذيل المذنب يومياً على سيناء وحدها(*) التى تصادف أن الإسرائيليين تاهوا بها، ولن يكون ذلك أقل إعجازاً إن كان قد حدث، عما ذكرته التوراه عن الغذاء السماوى. إن المنطقة التى تاه بها مئات الآلاف من أبناء قبائل إسرائيل الماضين تحت قيادة موسى لا تساوى إلا واحد من عشرة مليون من مساحة الأرض السطحية، وعلى ذلك لابد أن المن قد تراكم فى كل بقعة من سطح الأرض بقيمة تساوى $١٠^{١٨}$ جم لكل متر مربع من سطح الأرض، أو ما يكفى لتغطية سطح الكرة الأرضية كلها بالمن لعمق يصل إلى بوصة. لو كان ذلك قد حدث حقاً لكان قد أصبح من الأحداث الأرضية التى لا تنسى، ولا يوجد سبب يجعل المن يتساقط على الأرض وحدها على مدى أربعين عاماً، فذيل المذنب، - إن كان من المذنبات قصيرة المدى - لكى يكمل دورته داخل نطاق المجموعة الشمسية، لابد أن يكون قد قطع فى الأربعين عاماً مسافة تقدر بـ $١٠^{١٠}$ كم أى

(**) فى حقيقة الأمر يذكر سفر الخروج أن المن كان يتساقط يومياً ما عدا يوم السبت من كل أسبوع، وكان المن المتساقط يوم الجمعة ينزل بكميات مضاعفة لا تفسد ولا تتحلل حتى انتهاء يوم السبت، ويتناقض هذا مع فرضيات فليكوفسكى: فكيف للمذنب أن يكون مدركاً؟ وهذا ما يخلق بالفعل مشكلة عامة لمنهج فليكوفسكى التاريخى، فبعض ما تذكره النصوص الدينية يأخذه كحقائق لا تقبل الجدل، ويتعامل مع نصوص أخرى من المصادر نفسها وكأنها «إضافات محلية»، ولكن ما هو المعيار الذى يحكم به على هذا أو ذاك من النصوص؟ لابد أن معياره ينطوى على مقاييس مستقلة عن الجدل المثار.

عشرة مليارات كيلومتر، وقياساً على النسبة المساحية لسطح الأرض وتناسبها مع ذيل المذنب آخذين في الاعتبار كمية المن المتساقطة على الأرض وحدها، لابد أن ذيل المذنب وزع في فراغ المجموعة الشمسية كمية من المن تصل إلى $١٠^{٢٨}$ جم (أي رقم عشرة وعلى يمينه ثمانية وعشرين صفراً)، وهي كتلة ووزن يزيدان عما هو معروف من أوزان المذنبات؛ بل أنها أكبر من كتلة الزهرة، ولا أنسى أن أضيف أنه لا توجد مذنبات مكونة من المن الخالص (وفي الحقيقة، لم يتم حتى الآن رصد أي منّ في أي من المذنبات)، ومن المعروف أن المذنبات تتكون بشكل رئيسي من الجليد، ونسبة الكثافة النوعية لمادة المذنبات الجليدية قياساً على كثافة المن تزيد على $١٠^{٣}$. وعلى ذلك فكتلة المذنب المفترض لابد أن تكون أكبر من $١٠^{٣١}$ جم، وهي كثافة كوكب المشترى. فإن كان علينا أن نقبل ما ذكرته مصادر فليكوفسكي المستمدة من المدراش، فلابد أن نقبل أن للمذنب كثافة مساوية لكثافة الشمس. وعلى ذلك لابد أن يكون الفضاء الكوني داخل المجموعة الشمسية قد امتلأ الآن بالمن. وسأدع للقارئ أن يحكم بنفسه على مدى صحة فرضيات فليكوفسكي على ضوء الحسابات التي ذكرتها.

المشكلة السابعة:
سحب الزهرة

اعتبر كثيرون أن تكهن فليكوفسكي أن سحب الزهرة مكونة من مواد كربوهيدراتية تكهن علمي سديد وصائب، ومن فرضياته العامة وحسابات الكميات التي ذكرناها تواً نتبين أن كوكب الزهرة لابد أن يموج بالمن. ويذكر فليكوفسكي (ص ١٠): «إن إثبات وجود غازات هيدروكربونية، وأتربة في السحب المحيطة بالزهرة سيكون إختباراً حاسماً على صحة الفرضيات كلها». وهنا نتبين مثالاً آخر على تشوشه وخلطه بين الهيدروكربونات والكربوهيدرات، كما لا يتضح من المقتطف السابق إن

كـانت «الأتربـة» التى يذكـرها تشـيـر إلى أتربة كـربونيـة أم أتربة رمليـة سيليكونية عادية، ويذكر فليكوفسكى فى الصفحة نفسها: «على أسس قـوية من هذا البـحث، أفـتـرض أن الزهرة لابد أن تكون غنيـة بـغـازات النفط»، وهو ما يعنى بلا غموض وجود غازات طبيعية، مثل الميثان، والايثان، والايثيلين، والاسيتيلين.

وفى هذا الموضع، لابد أن يدخل بعض من التـاريخ فى سـيـاق الموضوع. ففى خلال الثلاثينيات وبدايات الأربعينيات من القرن العشرين، كان الفلكى الوحيد المتخصص فى كيمياء الكواكب هو روبرت ڤيلد، بدأ أبحاثه فى جامعة جوتنجن بألمانيا، ثم انتقل إلى جامعة «يل». وكان ڤيلد هو أول من أعلن عن وجود غاز الميثان فى غلاف كوكب المشترى، وكذا فى غـلاف كـوكب زحل، وكـان هو أيضـاً أول من افـتـرض وجـود غـازات هيدروكربونية فى أغلفة الكوكبين.

ولذلك، فإن فكرة احتمال وجود «غازات نفطية» على المشترى ليست فكرة ولا فرضية فليكوفسكى. وكان ڤيلد - أيضاً - هو من افترض أن الفـورمـالدهيـد قـد يكون من بين مكونات غـلاف الزهرة، وأن المكثـفـات الكربوهيدراتية قد تكون هى التى تكون السحب المحيطة بكوكب الزهرة، مما يعنى أن فرضية المواد الكربوهيدراتية بالزهرة ليست من فرضيات فليكوفسكى كما أدعى، فمن الصعب أن نصدق أن من تابع الأبحاث الفلكية السابقة فى كل عقد الثلاثينيات، وعقد الأربعينيات لا يعرف، أو لم يقرأ أبحاث ڤيلد التى تتصل بشكل مباشر بالأفكار التى كان فليكوفسكى ينوى الكتابة فى موضوعها نفسه، والتى تتعلق بفرضياته وأطروحاته، إلا أنه من المدهش غياب أى ذكر أو أى إشارة إلى أبحاث ڤيلد فى هوامش كتاب عصور فى فوضى، ولم يسجل فى كتابه إلا تذييلاً عن الفورمالدهيد (ص ٣٦٨)، لم يذكر أن ڤيلد قد سبقه فى افتراض وجود مكثفات كربوهيدراتية فى سحب الزهرة.

ونجـد أن ڤـيلد، بعكس فليكوفـسكى، يدرك جـيـداً الفـرق بين

الهيدروكربونات والكربوهيدرات؛ فضلاً عن ذلك، أجرى أبحاثاً لم يكتب لها التوفيق عن التحليل الطيفى الضوئى للطيف الأدنى فوق البنفسجى لإثبات وجود الفورمالدهيد الذى افترض وجوده فى سحب الزهرة، وحين لم يتمكن من اثبات ذلك ألغى فرضياته (١٩٤٢م)، فى حين أصر فليكوفسكى على صحة فرضياته لكن بلا أبحاث تثبت صحتها.

وكما أعلنت من سنوات مضت (ساجان ١٩٦١)، فإن ضغط غازات الهيدروكربونات البسيطة من السهل رصدها إذا كانت ضمن السحب المحيطة بالزهرة، إلا أنه لم يمكن رصدها، وعلى مدى الأعوام التالية، وبالرغم من استخدام مجالات متعددة من التقنيات التحليلية، لم يتم رصد وجود أى من الهيدروكربونات ولا الكربوهيدرات.

لقد جرى البحث عن تلك الجزيئات باستخدام تقنيات حديثة من التحليل الطيفى بأجهزة متقدمة ذات دقة ضوئية مجسمة واضحة، بما فيها تقنية التحويل التى انجزها «فورييه»، وبعد إجراء التحليل الطيفى فوق البنفسجى من مرصد ولاية ويسكونسن، وبعد الرصد الفلكى من المحطات الفضائية المدارية من خارج الأرض (oAo-2)، وبعد رصد متعدد من محطات مختلفة للأشعة تحت الحمراء، وبالمجسات السوفيتية المباشرة، لم يثبت وجود أى من تلك المركبات المذكورة، واتضح وجود نسبة ضئيلة جداً من أبسط مركبات الهيدروكربون والألدهيد، وهى وحدات ثنائية من الكربوهيدرات لا تتجاوز نسبتها بضعة جزيئات من كل مليون جزئ (كونز و آل ١٩٦٧، أوين وساجان، ١٩٧٢) وكذلك فى الطبقة العليا لغلاف المريخ كانت نسبة تركيز تلك المواد لا تتجاوز بضعة جزيئات من كل مليون (أوين وساجان، ١٩٧٢).

كل الأبحاث والرصد والنتائج أجمعت على أن غلاف الزهرة مكون بصفة أساسية من غاز ثانى أكسيد الكربون، وبالفعل؛ لأن الكربون موجود على شكل أوكسيد، لذلك فأقصى ما يمكن أن يوجد فى ذلك الغلاف نسبة ضئيلة من الهيدروكربونات. أظهرت نتائج الرصد لنطاق

٣.٥ مايكرون فى المطياف الضوئى أنه لا توجد أى مركبات هيدروكربونية ولا كربوهيدرات (بولاك وآل ١٩٧٤).

كل التحليلات الضوئية الطيفية لكوكب الزهرة من فوق بنفسجية حتى تحت الحمراء أصبحت معروفة الآن وبدقة متناهية؛ ولا يوجد فيها ما يدل على وجود هيدروكربونات أو كربوهيدرات، كما لم يوجد أى طيف فى التحليل الطيفى لأى مركب عضوى؛ مما يفسر لنا على وجه اليقين الطيف تحت الأحمر للزهرة المعروف بشكل يقينى للعلماء والدارسين.

علاوة على ذلك، فإن مشكلة مكونات السحب المحيطة بالزهرة - والتى ظلت لغزاً على مدى قرون - تم حلها أخيراً (يونج ويونج، ١٩٧٣؛ سيل، ١٩٧٢؛ يونج ١٩٧٣؛ بولاّك وآل، ١٩٧٤) فقد ثبت أخيراً أن السحب المحيطة بالزهرة تتكون من ٧٥٪ حامض كبريتيك، وتتفق هذه الحقيقة وتتوافق مع طبيعة كوكب الزهرة، كما ثبت أيضاً وجود حامض الهيدروكلوريك والهيدروفلوريك فى سحبه وغلافه، وهما ظاهران بوضوح فى المطياف التحليلى الضوئى، مع انعدام بخار الماء فوق تلك السحب الحمضية وأسفلها، ولا يتفق وجود هذه المركبات نهائياً مع وجود مركبات هيدروكربونية ولا كربوهيدراتية من تلك التى أفترض فليكوفسكى وجودها.

ومع إسقاط نظرية وجود سحب عضوية حول الزهرة، لماذا انتشر بين المهتمين بهذه الجوانب أن أبحاث سفن الفضاء أثبتت صحة فرضيات فليكوفسكى؟

يستلزم ذلك الأمر بدوره رواية كيف وقع ذلك؟.

فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٢، طارت أول مركبة فضاء كوكبية بنجاح بالقرب من كوكب الزهرة، وهى المركبة «مارينر ٢»، وكانت المركبة مزودة بمعمل نفاث، كما حملت بين معداتها البحثية المختلفة جهازاً لقياس الأشعة تحت الحمراء، وكنت واحداً من أربعة علماء أشرفوا على التجارب التى أجراها ذلك الجهاز والنتائج التى تم التوصل إليها، وكان ذلك بالطبع قبل أول رحلة ناجحة للمكوك القمرى «رينچر»، كانت وكالة «ناسا» للفضاء لم تعتد

بعد فى ذلك الوقت على الأسلوب الأمثل لإعلان النتائج العلمية لرحلات مركباتها، وعقدت الوكالة مؤتمراً صحفياً فى واشنطن لتعلن لوسائل الاعلام عن نتائج الرحلة، واختارت الوكالة «ل. د. كابلان» وهو أحد الأربعة الذين شكلوا فريق العمل الذى كنت ضمنه، ليعلن للمندوبين العلميين لوسائل الإعلام عن النتائج العلمية لرحلة مركبة الفضاء مارينر ٢. حين أتى دوره فى الحديث، وصف النتائج بالطريقة التالية (ليست كلماته بالضبط): «كانت التجربة التى تخصنا جهاز مطياف ثنائى القنوات للأشعة تحت الحمراء، إحدى القناتين ضبطناها على مدى ٤ . ١٠ مايكرون لحزام ثانى أكسيد الكربون الساخن؛ والموجة الأخرى ضبطناها على ٤ . ٨ مايكرون كنافذة حرة لكشف غازات غلاف الزهرة.. كان الهدف قياس التألق المطلق لدرجات الحرارة والتفاوت فى الانتقال الحرارى ما بين القناتين، ووجدنا علاقة إعتامية غير كاملة بحيث كان التفاوت الكثافى يصل إلى التفاوت ما بين ميو و إس الفا حيث تمثل ميو القطب الزاوى ما بين مستوى الكوكب ومستوى الرؤية، و...» وعند مثل ذلك الموضع من الشرح المتعذر فهمه، قاطعه أحد المندوبين الذى كان صبره قد نفذ قائلاً: «لا تحدثنا عن الجوانب المعقدة، حدثنا عن النتائج، ما سمك تلك السحب؟، ما مدى إرتفاعها عن سطح الكوكب؟، وما هى المواد التى تتكون منها سحب الزهرة؟». أجاب كابلان بوضوح : أن جهاز الأشعة تحت الحمراء لم يصمم للتوصل إلى إجابات لتلك الأسئلة. إلا أنه قال ما يعنى: «سأقول لكم ما أعتقده»، ثم راح يدلى بوجهة نظره الشخصية وما يفترضه من أن نظرية الصوبة الزجاجية التى من المفترض أن تحتفظ بالحرارة العالية للزهرة لا تعمل على كوكب الزهرة؛ لأن مكونات الغلاف الجوى للزهرة شفافة فى مدى موجى يقرب من ٥ . ٣ مايكرون، ولو كان هناك ما يمتص الحرارة عند هذه الدرجة لما كانت هناك شفافية وبالتالى كانت نظرية الصوبة تقوم بعملها فى إحداث الاحتباس الحرارى، وكان يمكن على أساسها أن نفسر السبب فى إرتفاع درجة حرارة غلاف الكوكب.

وأفترض أن الهيدروكربونات كانت ستصبح بمثابة صوبة زجاجية جيدة.

لم يلتفت مندوبوا وسائل الإعلام إلى أن ما قاله كابلان افتراضاته النظرية الشخصية، لذلك كانت العناوين الرئيسية فى معظم الصحف الأمريكية فى الصباح التالى تدور حول: «اكتشاف سحب هيدروكربونية حول الزهرة بمركبة الفضاء مارينر ٢».

وفى الوقت الذى كان فيه المحررون العلميون للرحلة بقاعدة «ناسا» يعكفون على وضع تقريرهم ويسجلون نتائج الرحلة، وجدوا الصحف تثير المسألة على ذلك النحو وصاحوا مدهوشين: «لم نعرف أننا وجدنا هيدروكربونات على الزهرة»، وهكذا، أدرجوا ضمن النتائج (ويلوك ١٩٦٣) وجود سحب هيدروكربونية، بل إنهم أدرجوها كأهم نتائج الرحلة التى قامت بها «مارينر ٢»:

«تبلغ درجة الحرارة فى الطبقات السفلى للسحب ٢٠٠ درجة فهرنهايت، وربما تتكون السحب من هيدروكربونات مكثفة متماسكة فى طبقات زيتية»، وفسر التقرير حرارة الكوكب العالية بهذه الكيفية.

ومن الممكن أن يتخيل المرء موظفى ناسا وهم يقدمون تقارير تلك النتائج الرائعة إلى الرئيس فى التقرير السنوى لإدارة الفضاء، ثم ينقله الرئيس فى تقريره السنوى إلى الكونجرس، ثم انتقاله إلى كاتبى نصوص روايات الفضاء، الحريصين على الكتابة عن آخر ما توصل إليه عالم البحث العلمى؛ لذلك فلا عجب هناك حين نجد أن فليكوفسكى والعلماء السطحيين عديمى الخبرة بالوسائل الملغزة لوكالة "ناسا"، يذكرون فى حبور: هذه هى النتائج العملية لفرضيات نظرية طرحها فليكوفسكى وثبتت صحتها: وهو تنبؤ غريب، توصل إليه قبل إثباته، ثم أتت البراهين من رحلة الفضاء لتثبت صحة افتراضاته.

والحقيقة مخالفة تماماً لما حدث كما حكيت لكم : لم تثبت مارينر ٢ ولا غيرها من سفن الفضاء التى تلتها فى رحلات لاحقة وجود أى هيدروكربونات ولا كربوهيدرات فى أى صورة من الصور من غازية أو

سائلة أو صلبة. من المعروف الآن (بولاَّك ١٩٦٩) أن ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء شغلا النافذة الحرة ذات الـ ٥ . ٣ مايكرون، ومن العجيب أن إطلاق معلومات خاطئة عن اكتشاف مارينر ٢ لوجود مواد هيدروكربونية بغلاف الزهرة جاء من محاولة لتفسير ظاهرة الاحتباس الحرارى على كوكب الزهرة التى لم يدعمها فليكوفسكى.

من العجيب أيضاً أن "كابلان" ساهم بعد ذلك فى كتابة بحث قرر فيه: أن الطبقة العليا من سحب كوكب الزهرة تحتوى على كميات كثيفة من غاز الميثان (غاز نفطى) وقد توصل إلى ذلك بالبحث الطيفى فى غلاف الزهرة (كونز و آل، ١٩٦٧).

وباختصار، فإن إقتراح وافتراض فليكوفسكى أن سحب كوكب الزهرة مكونة من مواد هيدروكربونية وكربوهيدراتية، افتراض لا يحمل أى قدر من الصحة، وأثبت الاختبار الحاسم فشله.

المشكلة الثامنة:
درجة حرارة الزهرة

حين يأتى ذكر حرارة كوكب الزهرة، نجد أنها تعرض على أنها من التنبؤات التى ثبت صدقها من تنبؤات فليكوفسكى، وأن ذلك يدعم باقى نظريته، إلا أنهم يتجاهلون الأسباب التى ذكرها لتفسير إرتفاع حرارة كوكب الزهرة.

فلنرجع – أولاً – للتذكير بوجهات نظر فليكوفسكى وفرضياته عن حرارة كوكب المريخ (صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨)، إنه يعتقد أنه بسبب صغر حجم كوكب المريخ، إرتفعت درجة حرارته عند المواجهات الكوكبية أكثر من الأرض والزهرة، وافترض أن الآلية التى حققت ذلك هى آلية تحول طاقة الحركة إلى طاقة حرارية، وهو تفسير يبدو غامضاً إذا أدركنا أن الحرارة هى حركة الجزىء؛ ثم فسر ارتفاع درجة الحرارة بطريقة أكثر طرافة حين قال: «إنها ناتجة عن شحنات كهربائية متبادلة بين الكواكب»

التى «من الممكن أن تؤدى إلى اندماج نووى بما يترتب عليه من إشعاعات وإطلاق حرارى هائل».

ويقرر فى الفصل نفسه بجرأة هائلة: «إن المريخ يطلق من داخله حرارة تفوق الحرارة التى يستمدها من الشمس» حتى يتفق ذلك مع فرضياته التى يذكرها فى كتابه "عوالم فى تصادم"، وكل ما ذكره فى هذا الشأن غير صحيح جملة وتفصيلاً بلا أدنى جدال.

لقد قامت سفن الفضاء السوفيتية والأمريكية بقياس درجة حرارة المريخ مرات متتالية كما تم قياسها من المحطات الأرضية، وتبين أن درجة الحرارة فى جميع أرجاء المريخ هى ناتج الطاقة الحرارية الساقطة من الشمس على الكوكب ويمتصها سطحه، فضلاً عن ذلك، كانت هذه المعلومة معروفة فى الأربعينيات من القرن العشرين قبل أن ينشر فليكوفسكى كتابه، وبينما يذكر أسماء أربعة علماء معروفين ممن أهتموا بقياس درجة حرارة المريخ قبل عام ١٩٥٠م، إلا أنه بطريقة متعمدة لم يشر إلى أبحاثهم، كما ادعى بجرأة يحسد عليها أنهم أقروا أن المريخ يصدر حرارة أكثر مما يتلقى من الشمس.

من الصعب قبول تلك السلسلة المتتابعة من الأخطاء، أكثر الاقتراحات تسامحاً وكرماً من جانبى يجعلنى أفترض أن فليكوفسكى قد تشوش وخلط ما بين الطيف الكهرومغناطيسى الناتج عن إضاءة الشمس للمريخ، والطبقة تحت الحمراء من التحليل الطيفى التى تخص الحرارة الصادرة من الكوكب. وطبقاً لما يذكره فليكوفسكى، فإن المريخ ينتج ويشع حرارة أكثر من الزهرة، أى أنه أسخن من الزهرة. فهل ثبت أن المريخ ساخن؛ لو صح ذلك تصح فرضياته، ولكن ثبت أن حرارة المريخ هى الحرارة المتوقعة لكوكب فى مداره، ورغم ذلك لم يظهر من يقرر أن فرضيات فليكوفسكى ثبت زيفها.

وحين ننتقل إلى الحديث عن كوكب الزهرة، نجد الجدل نفسه يظهر ويطفو على سطح الحديث، وتعجبت أن فليكوفسكى لم يذكر أن حرارة

الزهرة العالية نتجت عن انفصاله وانقذافه عن سطح المشترى كما يفترض (ارجع إلى المشكلة الأولى)؛ إلا أنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، افترض أنه بسبب المواجهات المتعددة للزهرة مع كل من الأرض والمريخ ارتفعت درجة حرارتها؛ إلا أنه يذكر سبباً إضافياً (صفحة ٧٧): «مر رأس المذنب الزهرة بالقرب من الشمس وأصبح على درجة عالية من التوهج، ثم، حين تحول المذنب بعد ذلك ليصبح كوكب الزهرة، لابد أنه كان مازال ساخناً جداً وملتهباً» و «بدأ يشع حرارته» (ص ٩). وأذكركم مرة ثانية أنه أشار إلى علماء ما قبل عام ١٩٥٠ (صفحة ٣٧٠)، فقط لكى ينقل عنهم أن درجة حرارة الجانب المظلم من الزهرة لا تقل عن درجة حرارة الجانب المواجه للشمس. فى هذا الموضع يشير فليكوفسكى إلى الأبحاث الفلكية، ومن تلك الأبحاث استعار الفقرة التالية (ص ٣٧١): «الجانب المظلم من الزهرة يشع حرارة عالية، فالزهرة كوكب ساخن»، بالطبع ... !

ما أعتقد أن فليكوفسكى يسعى إلى ذكره هنا، هو أن زهرته مثل مريخه كوكبين ساخنين ويشعان حرارة أكثر مما يتلقيان من الشمس، وأن الحرارة الصادرة من كل من الجانب المظلم والجانب المضيء راجعان - أصلاً - إلى توهج الكوكب، وأن توهج الكوكب الزائد عن مما يتلقاه من حرارة ناتج من مواجهاته السابقة واقترابه الخطر من الكواكب الأخرى. هذا ما يريد قوله، إلا أن ما يريد قوله خطأ خطير.

إن مقياس الحرارة الإشعاعى للزهرة يبلغ ٧٣ . ٠، وهو قياس يتفق كلية مع الاشعاع الحرارى المرصود بالأشعة تحت الحمراء لسحب الزهرة والذى تبلغ حرارته ٢٤٠ درجة، مما يعنى أن سحب الزهرة فى درجة حرارة متوقعة ومتناسبة مع الاشعاع الشمسى الساقط على الزهرة والذى يمتصه سطح الكوكب وغلافه.

لقد افترض فليكوفسكى أن الزهرة والمريخ يشعان حرارة أكثر من الحرارة الساقطة عليهما أو التى تصل إليهما عبر الاشعاع الشمسى وهو على خطأ فيما يخص الكوكبين. لقد افترض «چيرار كويبيه» (١٩٤٩) من

قبله أن المشترى يشع حرارة أكثر من التى يتلقاها من الشمس، وأثبتت الأبحاث التى أجريت بعد ذلك صحة رأى «چيرار»، أما فرضيات عوالم فى تصادم فقد ثبت خطؤها على إطلاقها.

لقد افترض فليكوفسكى أن الزهرة ساخنة بسبب المواجهات التى وقعت بينها وبين كل من الأرض والمريخ، وكذلك مرورها حين كانت مذنباً بالقرب من الشمس، وحيث أن المريخ ليس ساخناً أكثر من طبيعته، فإن حرارة الزهرة العالية لابد أن تعزى إلى مرورها بالقرب من الشمس حين كانت الزهرة مذنباً كما يفترض «فليكوفسكى».

من باب الجدل فقط يمكننا حساب الطاقة التى تلقتها الزهرة عند مرورها بالقرب من الشمس، وتظهر الحسابات أن ذلك لو كان قد حدث، فإن الزهرة تفقد كل ما اكتسبته من حرارة خلال شهور كحد أدنى وبضعة أعوام كحد أقصى، وأنه لا يوجد أى سبب يجعل الكوكب يحتفظ بالحرارة حتى عصرنا الحالى. لم يذكر فليكوفسكى المدى الذى كانت فيه الزهرة قريبة من الشمس، إلا أن الاقتراب الشديد كان يحمل معه خطر الانجذاب إلى داخل الشمس. وبالمصادفة كانت هناك إشارة بسيطة فى عوالم فى تصادم تذكر : أن المذنبات تتوهج بسبب إصدارها للحرارة أكثر من توهجها بسبب انعكاس ضوء الشمس عليها، وربما كان ذلك سبباً فى الخلط الذى أظهره فيما يخص الزهرة.

يذكر فليكوفسكى فى طبعة عام ١٩٥٠، صفحة ٧٧ بغموض، أن المذنب الذى تحول بعد ذلك إلى كوكب الزهرة كان فى حالة «توهج»، ولكن فى مقدمة طبعة عام ١٩٦٥ (ص ١١) يدعى فليكوفسكى أنه تنبأ بحالة من عدم التوهج للزهرة - وهو تناقض واضح - بسبب التبريد السريع بعد الاقتراب المفترض من الشمس، وعدا ذلك فقد افترض أن الزهرة ستبرد مع مرور الزمن؛ ولذلك لابد أن نتساءل: ما الذى يعنيه فليكوفسكى حين أكد أن الزهرة كوكب «ساخن»؟ إن قوله ذاك قول غامض بوجه عام.

لقد كتب فليكوفسكى عام ١٩٦٥: أن رأيه بسخونة كوكب الزهرة كان

«يتعارض – تماماً – مع ما كان معروفاً عام ١٩٤٦ »، واتضح بعد ذلك أن الحقيقة بعكس ما ذكره تماماً.

لقد فهم ڤيلد، بعكس فليكوفسكى، طبيعة المشكلة، تنبأ بشكل صحيح أن الزهرة، لا المريخ، لابد أن تكون «ساخنة»، وفى بحث نشره عام ١٩٤٠ فى الدورية العلمية «جريدة فيزياء الفضاء»، ذكر ڤيلد : أن سطح الزهرة أشد سخونة عن ما يعتقده الفلكيون التقليديون، وأرجع تخمينه إلى تأثير تركيز غاز ثانى أكسيد الكربون المرتفع، والذى يماثل فى تأثيره الصوبة الزجاجية؛ أى فى الاحتباس الحرارى فى غلاف الكوكب.

لقد تم اكتشاف وجود غاز ثانى أكسيد الكربون عن طريق التحليل الطيفى لغلاف الزهرة، وأشار ڤيلد إلى أن الكميات الكثيفة من غاز ثانى أكسيد الكربون ستحتفظ بالإشعاع الحرارى الصادر عن سطح الكوكب، وبالتالى ترتفع حرارة السطح إلى قيمة عالية، حتى أن حرارة الشمس الساقطة بالكاد تعادل الانبعاث الحرارى الصادر عن الكوكب، والذى تم رصده بالأشعة تحت الحمراء، وأجرى ڤيلد حساباته التى بينت أن درجة الحرارة الصادرة عن الكوكب تعادل ٤٠٠ درجة بمقياس كلڤن(*) أو ما يعادل تقريباً درجة غليان الماء بالمقياس المئوى (٣٧٣ كلڤن = ٢١٢ درجة فهرنهايت = ١٠٠ درجة مئوية). كان ذلك أقصى ما يمكن التوصل إليه قبل عام ١٩٥٠م، ومن العجيب لمرة ثانية أن نجد أن فليكوفسكى الذى قرأ كل الأبحاث المنشورة فى الجريدة العلمية الدورية «فيزياء الفضاء» فى عقود العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، يبدو وكأنه تغافل عن قراءة تلك الأبحاث الهامة التى نشرها ڤيلد فى الجريدة نفسها.

نعرف الآن من المعلومات التى حصلنا عليها من خلال محطات الرصد الأرضية، ومن خلال رحلات سفن الفضاء الناجحة التى تمكن الاتحاد

(*) ميزان كلفن للحرارة : هو ميزان الحرارة المطلقة، وتعادل درجة الصفر فيه – ١٦، ٢٧٣ مئوية. (المترجم)

السوفيتى خلالها من انزال مجسات حرارية بيّنت أن درجة الحرارة عند سطح الكوكب تبلغ حوالى ٧٥٠ كلفن (ماروف، ١٩٧٢)، وأن مقدار ضغط الغلاف عند سطح الكوكب يساوى ٩٠ ضعف من الضغط الجوى للأرض عند السطح، وأن الغلاف الجوى للزهرة يتكون بصفة رئيسية من غاز ثانى أكسيد الكربون.

وقد تم التأكد من ذلك التركيز العالى لغاز ثانى أكسيد الكربون، بالإضافة إلى تركيزات بسيطة من بخار الماء، وهى تركيزات كافية لتسخين جو كوكب الزهرة إلى درجة الحرارة التى هو عليها بسبب ظاهرة الصوبة الزجاجية، ثم أثبت الروبوت «ڤينيرا ٨» الذى تم انزاله على سطح الكوكب على الجانب المضىء منه صحة تلك المعلومات (ماروف و آل، ١٩٧٣). وتم تأكيد ذلك من خلال الرحلات الفضائية التى تبعتها وانزلت على سطح الكوكب ڤينيرا ٩، وڤينيرا ١٠ والتى حصلت أيضاً على صور واضحة فى ضوء الشمس لصخور السطح، ويكشف هذا عن خطأ آخر من أخطاء فليكوفسكى، إذ ذكر فى صفحة ٩: أن « أشعة الشمس لا تخترق الغلاف السحابى لكوكب الزهرة»؛ وأخطأ أيضاً حين ذكر فى الصفحة نفسها: أن «ظاهرة الصوبة الزجاجية لا تفسر تلك الحرارة العالية على سطح الزهرة».

هناك أيضاً إدعاء متكرر من فليكوفسكى أن الزهرة تبرد مع مرور الزمن، ويعزو درجة حرارتها العالية إلى مرورها القريب جداً من الشمس فى مسارها الأول حين كانت مذنباً.

فى مناسبات ومواضع مختلفة يقارن فليكوفسكى بين درجات الحرارة العالية التى تم تخمينها فى عقود مختلفة، ليثبت منها أن الزهرة تبرد بمرور الزمن، إلا أن هناك رصداً محايداً للموجات القصيرة الصادرة عن حرارة الزهرة، وتم الرصد من الأرض وهو يبين أنه لا يوجد من خلالها أدنى أثر يثبت هبوط درجة الحرارة مع مرور الزمن.

وأثبت الرصد بالمطياف الضوئى للأشعة تحت الحمراء الصادرة عن

سحب الزهرة أن درجة حرارتها أقل من درجة حرارة السطح، وأنها لا تنخفض بمرور الزمن، ويثبت ذلك أن فرضيته هذه كانت هى الأخرى غير صحيحة، ومجموع الأخطاء فى الجزئيات يدل أيضاً على خطأ الكليات.

إن حرارة سطح كوكب الزهرة المرتفعة أحد الأركان الرئيسية لما أطلق عليه فليكوفسكى «براهين» دامغة على صحة فرضياته، إلا أننا نذكر بالنقاط التالية:

١- لم يحدد أبداً فى كتابه كم تبلغ درجة الحرارة العالية التى يفترض أن يكون الكوكب عليها.

٢- الآلية المسببة لإرتفاع درجة الحرارة غير مقنعة، ولا كافية لإثبات وجهة نظره.

٣- أن سطح الكوكب لا يبرد بمرور الزمن كما يفترض.

٤- إن التخمين بارتفاع درجة حرارة الكوكب لأسباب مغايرة لأسبابه نشرت فى دوريات علمية سبقت نشره لكتاب عوالم فى تصادم بعشرة أعوام على الأقل.

المشكلة التاسعة:
حفر وفوهات سطح الزهرة

فى عام ١٩٧٣ تم الكشف عن جوانب هامة من سطح الزهرة، توصل إليها رتشارد جولد شتاين ومعاونوه، نتيجة لما حصل عليها من صور الرصد الرادارى لأحد الأجهزة التى زودت بها مراكب الفضاء الموجهة للزهرة، فقد وجد كل من جولد شتاين و آل من خلال التصوير الرادارى – الذى اخترق سحب الزهرة – أن سطح الزهرة ملىء بالحفر والفوهات ويماثل سطح القمر الأرضى، بل إن الحفر والفوهات فى بعض مناطقه أشد كثافة ويعلو بعضها الآخر، ويدل شكل الحفر والفوهات أنها حدثت بسبب اصطدام صخور فضائية هائمة لا بسبب تدفقات بركانية، وهى نتائج لم يتنبأ بها فليكوفسكى، إلا أن ذلك ليس هو ما يهمنى، فهذه الحفر

والفوهات مماثلة للحفر التى على سطح قمر الأرض، وكوكب عطارد، ومنطقة فوهات المريخ، وكلها ناتجة عن اصطدام أجرام وحطام كونى بأسطحها، والحفر الكبيرة ناتجة عن أجرام كبيرة دخلت غلاف الزهرة ولم تحترق كلياً بالرغم من الكثافة العالية لغاز ثانى أكسيد الكربون لكبر حجمها. ما يهمنا من كل ذلك هو أن الأجرام التى ارتطمت بسطح الزهرة وكونت تلك الفوهات والحفر، لا يمكن أن تكون قد ارتطمت بسطحه خلال الآلاف العشرة الأخيرة من الأعوام، وإلا كانت الأرض هى الأخرى قد غمرتها الحفر والفوهات من جراء ارتطام أجرام وحطام كونى شارد بسطحها. إن المصدر المحتمل لتلك الأجرام هو الشهب والنيازك التى قد تتقاطع أفلاكها مع فلك الأرض، وهى تسمى أجرام أبوللو، وكذلك المذنبات الصغرى، ولكن أن تنتج تلك الشهب والنيازك والمذنبات الصغرى حفراً وفوهات بذلك الحجم الموجود على سطح الزهرة؛ فإن ذلك يدل على أن تلك الحفر والفوهات الكثيفة قد تكونت على مدى ملايين من السنين أو أن تكون قد حدثت فى زمن ينتمى إلى التاريخ المبكر للمجموعة الشمسية. من جهة أخرى، لو كانت الزهرة من ٣٥٠٠ سنة مازالت جزءاً فى أعماق كوكب المشترى كما يفترض فليكوفسكى، فإنه لا توجد وسيلة لتكون تلك الحفر على سطح الزهرة وهى مازالت جزءاً فى باطن المشترى. إن الاستنتاج الواضح من تلك الحفر الزهرية أن الزهرة كانت هدفاً عبر ملايين من السنين تصطدم به الأجرام والشهب والنيازك والمذنبات الصغرى، وهو ما يتعارض بشكل مباشر مع فرضية فليكوفسكى التى تذهب إلى أن الزهرة انفصلت كمذنب عن سطح المشترى من ٣٥٠٠ سنة مضت.

وتبدو حفر وفوهات الزهرة بحواف متآكلة بشكل واضح مما يدل على قدمها، وتبدو بعض الصخور كما ظهرت من صور ڤينيرا ٩، وڤينيرا ١٠ كصخور حديثة العمر، وتبدو صخور أخرى متآكلة بشدة، والاحتمالات التى تؤدى إلى تآكل الصخور على سطح الزهرة – بما فيها التآكل

الكيميائى والتحلل البطىء فى درجات الحرارة العالية - موصوفة بالتفصيل فى موضع آخر (ساجان، ١٩٧٦). تلك المكتشفات لم يأت أى ذكر لها فى فرضيات فليكوفسكى: إن الأنشطة البركانية الحديثة على سطح الزهرة لا تحتاج إلى مرور الزهرة بالقرب من الشمس، ولا أن تكون الزهرة حديثة العمر، فهناك أنشطة بركانية على الأرض بالرغم من عمرها الطويل.

سجل فليكوفسكى فى أحد مقالاته (١٩٦٧): «من الواضح أن عمر الزهرة ملايين السنين، لم تكن لتحتفظ بتلك الحرارة العالية حتى الآن، بالإضافة إلى أن أى انفجارات إشعاعية من التى تنتج حرارة عالية؛ لابد أن تكبو تلك الحرارة وتتلاشى سريعاً على مدى أعوام، كما أن ذلك لا يتفق مع من يقدرون عمر الزهرة ببلايين السنين».

ولسوء الحظ، فشل فليكوفسكى فى فهم نتيجتين تقليديتين لفيزيقا علم الأجرام السماوية؛ فالإشعاع الحرارى عملية بطيئة للغاية، أبطأ من تيارات الحمل الحرارى، وتعد الأرض مثلاً واضحاً على تدرج الجيولوجيا الحرارية، والبث الحرارى من باطنها، وينطبق الأمر نفسه على الزهرة، كما أن الموجات الإشعاعية المسئولة عن الحرارة الإشعاعية لقشرة الأرض عبارة عن نظائر مشعة طويلة العمر من اليورانيوم والثوريوم والبوتاسيوم، نظائر ذات نصف عمر إشعاعى يتفق مع عمر الأرض. ومرة أخرى نذكِّر بأن الحقائق ذاتها تنطبق على كوكب الزهرة.

المشكلة العاشرة:
استقرار الزهرة فى فلك شبه دائرى
والقوى المغايرة لقوة جذب المجموعة الشمسية

إن فكرة فليكوفسكى التى تذهب إلى أن الزهرة قد تحولت على مدى بضعة آلاف من السنين، من جرم فضائى يسبح فى مدار غير مركزى إلى جرم يسبح فى مدار مركزى يعد من أكثر المدارات انتظاماً واستواءاً بعد

مدار كوكب نبتون، تلك الفكرة، تتناقض مع ما هو معروف عن آليات الحركة للأجرام الثلاثة موضع المناقشة وهى الأرض والزهرة والمريخ، إلا أننا لابد أن نقر أن تلك المشكلة لم تحل حلاً كاملاً، بينما تكثر الخلافات والاختلافات، إلا أنها غير معجِّزة وكلها ضد فرضيات فليكوفسكى فى هذا الشأن وتتناقض معها. فضلاً عن ذلك، حين يفسر فليكوفسكى فرضياته بعزو ما حدث من تغير لأفلاك ومسارات إلى قوى كهربائية أو مغناطيسية، دون أن يهتم أدنى اهتمام، ودون أن يزعج خاطره بقياس تلك القوى والتوصل إلى مختلف تأثيراتها، فإننا لابد أن نثمن أفكاره ونختبر ما تحمله من صواب أو خطأ.

لذلك لابد أن نقرر أولاً أن الطاقة المغناطيسية اللازمة لوضع مذنب ذى مسار غير دائرى فى مسار منتظم شبه دائرى لهى قوة عظيمة جداً، ولا يوجد دليل حتى الآن يثبت وجود مثل تلك القوة الهائلة حتى بعد دراسة القوى المغناطيسية لمختلف أنواع الصخور من فضائية وأرضية.

بإمكاننا أن ندرس ذلك الجانب من جذوره، فقوانين ميكانيكا الفضاء لنيوتن قوانين صارمة وبإمكانها أن تحدد مقدماً وبدقة متناهية احتمالات تصادم مركبة فضاء قبل تصميم مسارها أو قبل إطلاقها فى رحلة بين الكواكب، حتى أنه - على سبيل المثال - كان بالإمكان وضع مسار سفينة الفضاء مارينر ٨ بدقة متناهية فى مسار تكون فيه من الجهة المضيئة لكوكب الزهرة ومواجهة لخط استواء الكوكب، وتحديد مسار مارينر ٩ بحيث تمر على بعد مائة كيلومتر فقط من الكوكب، أما مارينر ١٠ فقد تم تحديد مسارها طبقاً لقوانين نيوتن لميكانيكا الفضاء فى مسار دقيق ومحكم بزاوية اقتراب معينة من كوكب المشترى تجعله يقذف بها إلى خارج نطاق المجموعة الشمسية، ولم تواجه أي من مراكب وسفن الفضاء المذكورة أى نوع من أنواع الطاقة الكهربائية أو المغناطيسية المجهولة أو المفاجئة من تلك الأنواع من الطاقة التى يتحدث عنها فليكوفسكى.

قوانين نيوتن الخاصة بميكانيكا الفضاء يمكنها أن تنبأنا مقدماً بكل تحركات الأجرام فى الفضاء الكونى وبدقة متناهية، وهى على سبيل المثال يمكن أن تحدد لنا بالثانية الأوقات التى تحدث فيها أقمار المشترى كسوفاً لبعضها البعض ومتى يحجب أحدها ضوء الشمس عن الآخر. حقيقة أن المذنبات تكون أحياناً أكثر استعصاءاً فى التنبؤ بحركتها؛ إلا أن ذلك يعود بالتأكيد إلى غليان جليدها حين تقترب من الشمس، وإلى تأثر محتواها الصخرى القليل بذلك.

أما ظاهرة الذؤابات المذنبية التى تبدو على شكل قرون إن كانت قد حدثت، فإنها قد تكون عائدة إلى تبخر بعض ذلك المحتوى الجليدى عند إقتراب المذنب من الشمس؛ ولكن لا يمكن أن يكون المحتوى الصخرى الضئيل قد سبب انجذاب المذنب انتقائياً ليمر على مسافة خطرة من الأرض أو المريخ، فمذنب «هالى»، والذى اعتاد سكان الأرض على مشاهدته على مدى الألفين الأخيرين من الأعوام، مازال حتى الآن يمضى فى فلك غير دائرى، ولم يظهر على مدى ذلك الزمن أى ميل إلى التحول إلى فلك أو مسار دائرى؛ بالرغم من أنه فى عمر «مذنب فليكوفسكى»، وسيكون من العجيب جداً أن يكون لمذنب فليكوفسكى أى وجود، فضلاً عن أن يكون قد تحول ليصبح كوكب الزهرة.

مشاكل أخرى عديدة:

النقاط العشر أو المشاكل العشر السابقة التى ذكرتها هى الأخطاء الجوهرية العظمى فى فرضيات فليكوفسكى، على قدر ما استطعت أن أفند فرضياته. لقد سبق وشرحت فيما تقدم من هذا الفصل بعض المصاعب التى تواجهه عند تناوله للنصوص القديمة، ودعونى هنا أعرض بعض المشاكل الأخرى المتنوعة التى صادفتنى عند قراءتى لـ «عوالم فى تصادم».

فى صفحة ٢٨٠ - مثلاً- يذكر فليكوفسكى أن قمرى المريخ فوبوس ودايموس قد انتزعا لنفسيهما بعضاً من غلاف المريخ الذى يدوران حوله ولذلك يبدوان متألقين. ولكن من الثابت علمياً الآن أن سرعة الانفلات أو الانعتاق للخروج من القمرين لابد أن تكون ٢٠ كم/ ساعة، أى أنهما بلا جاذبية ذاتية على الاطلاق؛ حتى أنهما لا يقدران لانعدام جاذبيتهما الذاتية على الاحتفاظ بغلاف غازى حولهما ولا حتى بشكل مؤقت ولحظى؛ بل إنهما من أشد الأجرام السماوية إعتاماً لا تألقاً من بين كل أجرام المجموعة الشمسية.

ومن بداية صفحة ٢٨١، نجد مقارنة بين ما ورد فى سفر «يوئيل» وما ذكر فى تراتيل الڤيدا الهندية التى تصف ماروت، ويعتقد فليكوفسكى أن «الماروت» كانت مصدراً للشهب والنيازك وكان يسبق المريخ ثم يليه أثناء اقترابه الخطر من الأرض، وأنه هو المذكور أيضاً فى سفر «يوئيل».

ثم يذكر فى صفحة ٢٨٦: «لم ينقل سفر يوئيل ما هو مذكور به عن نصوص الڤيدا الهندية كما لم تنقل الڤيدا عن سفر يوئيل، إلا أنه يذكر فى صفحة ٢٨٨ أنه من المبهج أنه وجد أن كلمتى المريخ وماروت ذاتا أصل وجذر لغوى واحد.

ولكن، كيف يتأتى أن تكون كل من الڤيدا وسفر يوئيل مستقلان لم يستقيا من بعضهما، ولا من مصدر مشترك وفى الوقت نفسه تنتمى مسمياتهما لجذر لغوى واحد؟

فى صفحة ٣٠٧، نجد أن أشعيا يتنبأ تنبؤاً دقيقاً بموعد عودة المريخ فى اقتراب جديد خطر من الأرض يحدث كوارث لسكانها «معتمداً على خبراته التى كونها أثناء الفوضى السابقة والكوارث السالفة»، ولو صدق ذلك، كان بمقدور أشعيا أن يدرك مشكلة الكواكب الثلاثة والتى نتج عنها كوارث من جراء الشحنات الكهربائية المتبادلة بينها والقوى المغناطيسية التى أثر بها كل منها على غيره، وإنه لمن المحزن أن أشعيا لم ينقل إلينا تلك المعارف التى توصل إليها ولم تنتقل إلينا عبر نصوص العهد القديم (التوراة).

فى صفحتى ٣٦٦ و ٣٦٧ نجد فرضية أخرى من فرضيات فليكوفسكى مضمونها:أن الكواكب الثلاثة، الأرض والمريخ والزهرة، قد تبادلت غازات أغلفتها الجوية - لو كان ذلك قد حدث- لابد أن تكون كميات كبيرة من الأكسچين الجزيئى الأرضى (الذى يكون ٢٠٪ من غلاف الأرض) قد انتقلت إلى كل من الزهرة والمريخ بكميات هائلة. والمدى الزمنى اللازم لاستهلاك الأكسچين الأرضى إن لم يكن متجدداً، لا يقل عن ألفى عام، ويستنفذ بسبب استهلاكه فى عمليات حيوية وعضوية على سطح الأرض، أما فى حالة غياب أى نوع من أنواع الحياة العضوية على كل من الزهرة والمريخ، فإن كميات الأكسچين الجزيئى الأرضى التى انتقلت إليهما من غلاف الأرض كما يفترض فليكوفسكى من ٣٥٠٠ عام لابد أن تكون مازالت موجودة بغلافى المريخ والزهرة حتى الآن.

إلا أننا نعلم علم اليقين من التحليل الطيفى لغلاف الكوكبين أن الأكسچين موجود فى أفضل الأحوال بكميات نادرة فى الغلاف الشحيح الرقيق للمريخ وكذلك فى غلاف الزهرة، وقد أثبتت سفينة الفضاء مارينر ١٠ وجود نسبة ضئيلة جداً من الأكسچين بغلاف الزهرة وفى الطبقات العليا من غلافها، وندرة الأكسچين أو لنقل عدم وجوده بغلاف الزهرة يجعل من المستحيل تصديق ما يذكره فليكوفسكى عن حرائق ونيران نفطية فى الطبقات السفلى من غلاف الزهرة - فلا الوقود ولا الأكسچين اللازم لاحتراق الوقود، موجودان بذلك الكوكب - ويؤمن فليكوفسكى أن مثل تلك النيران سينتج عنها بخار ماء، يتحلل ضوئياً لينتج الأكسچين الذرى (أ).

هكذا، تتطلب نظرية فليكوفسكى لاثبات صحتها وجود غاز الأكسچين فى صورته الجزيئية أ٢ حتى يحدث الاحتراق الذى ينتج عنه ماءً ليتحلل ضوئيا وينتج عنه أكسچين ذرى على سطح الغلاف وفى أعلاه.

وفى الحقيقة، فإن النسبة الضئيلة من الأكسچين الذرى الموجودة بالطبقات العليا لغلاف الزهرة يرجع وجودها إلى التحلل الضوئى الكيميائى للمركب الأساسى الغالب على غلافها وهو غاز ثانى أكسيد

الكربون ك أ٢ الذى يتحلل إلى ك أ + أ. ويبدو أن هذا الاختلاف البين فى أصل الغاز قد غاب عن أذهان مؤيدى فليكوفسكى، الذين هللوا لما كشفت عنه سفينة الفضاء مارينر ١٠ من ذرات أكسچين بغلاف الزهرة واعتبروه دليلاً على صدق فرضيات فليكوفسكى كما ذكرها فى عوالم فى تصادم. وحيث أنه توجد كميات نادرة من الأكسچين وبخار الماء فى غلاف المريخ، يرى فليكوفسكى أن هناك مكونات أخرى من مكونات الغلاف الأرضى الغازى قد انتقلت إلى غلاف المريخ خلال تلك الاقترابات الخطرة التى ذكرها، إلا أن حجته لسوء حظه قد خذلته تماماً فى هذه المرة، فقد ذكر أن ما أخذه المريخ من غلاف الأرض غازى الأرجون والنيون، بالرغم من الحقيقة المعروفة أن الغازين نادران تماماً فى غلاف الأرض. كان أول من افترض غنى غلاف المريخ بغازى الأرجون والنيون «هاريسون براون» عام ١٩٤٠، وقد أثبت التحليل الطيفى لغلاف المريخ عدم وجود غاز النيون وقد تم إجراء هذا التحليل عن طريق مركبة الفضاء مارينر ٩، ولكن بافتراض وجود كميات وفيرة من غاز الأرجون بغلاف المريخ، فإن تلك الكميات لا تعد دليلاً على صدق نظرية فليكوفسكى عن تبادل غازات بين أغلفة الكواكب المذكورة، لأن أغلب غازات الأرجون (أ/ ٤٠)، تنتج عن التحلل الأشعاعى لعنصر البوتاسيوم ٤٠، المتوقع وجوده على القشرة السطحية للمريخ.(*)

المشكلة الخطيرة التى تواجه فرضية فليكوفسكى عن تبادل غازات أغلفة الكواكب، والتى تهدم نظريته من أساسها هى عدم وجود غاز النيتروچين (ن٢) فى غلاف المريخ، وغاز النيتروچين غاز نشط نسبياً، ولا يتجمد فى درجة حرارة المريخ، كما لا يمكنه التسرب إلى الفراغ الكونى

---

* كشفت سفينة الفضاء فايكنج عند نزولها على سطح المريخ عام ١٩٧٦ أن غلاف المريخ مكون بصورة غالبة من غاز ثانى أكسيد الكربون، وأن غاز الأرجون ٤٠ يكون ٢٪ من غلافه الجوى، وأن النيون موجود بنسبه أقل كثيراً حتى أنه يعد نادر الوجود.

عبر الطبقة الخارجية لغلاف المريخ، وغاز النيتروچين هو المكون الأساسى الغالب على غلاف الأرض، فإن كان تبادل غازات الأغلفة قد حدث، فأين ذهبت كميات غاز النيتروچين التى انتقلت إلى غلاف المريخ من غلاف الأرض؟ تلك الجوانب من افتراضات فليكوفسكى لم تحظ بأى قدر من تفكيره المتمعن قبل أن يكتبها ويقدمها فى كتابه، وجاء واقع الاختبارات العلمية لينقض ويناقض كل فرضياته.

النتائج:

كتاب عوالم فى تصادم محاولة لإثبات صحة ما ورد فى التوراة والقصص الدينى القديم كتاريخ لا كعقيدة. لقد حاولت أن أتفهم ما ورد به دون حكم مسبق من جانبى، ووجدت أحداثاً دينية متشابهة وجذابة لشعوب قديمة تستحق مزيداً من البحث، ووجدت أن الأحداث الدينية والمعجزات يمكن أن تعزى فى تشابهها فى الثقافات القديمة إلى الانتشار المباشر نتيجة لهجرات الشعوب القديمة. أما الجانب العلمى من النص، فإنه بالرغم من كل الادعاءات بوجود «براهين» تثبته، إلا أنه يصطدم بعشر مصاعب منفصلة تعد كل منها على حدة مشكلة علمية خطيرة.

من المشاكل العشر المذكورة آنفا والتى تدور - حول جوهر فرضياته، لم تثبت صحة أى فرضية منها كما لم تكن متوافقة مع النظريات والقوانين الفيزيقية الأولية البسيطة أو الرصد العلمى الصائب. فضلاً عن ذلك، فإن الاعتراضات - خاصة المشاكل ١، ٢، ٣، ١٠ - اعتراضات جوهرية، تعتمد فى نقدها لفرضياته على قوانين الحركة وقوانين بقاء الطاقة فى علم فيزياء الفضاء، الفرضيات العلمية التى يمكن قبولها لابد أن تقدم تسلسل واضح من البراهين والأدلة، ولو انهارت حلقة واحدة من حلقات تسلسلها الموضوعى، فإن الفرضية تنهار بأجمعها. فى حالة عوالم فى تصادم نجد عكس ذلك المنهج العلمى المتفق عليه: فكل حلقة من حلقات التسلسل البرهانى مكسورة، ولانقاذ تلك الفرضيات فإنها تحتاج إلى

مرافعات ودفوع من نوع خاص، أو خلق نوع خاص من العلوم الفيزيقية غير المعروفة يتفق ويتوافق معها. وطبقاً لذلك، فإن فرضيات فليكوفسكى التى تشكل جوهر نظريته تبدو بعيدة تماماً عن أى حقائق علمية ولا تتطابق مع قوانين العلوم الفيزيقية.

عدا ذلك، هناك مشكلة جوهرية خطيرة تتعلق بالمادة الدينية. فالأحداث التى يعرضها يفترض أنها وقعت من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام وكلها مستمدة من الأساطير الدينية والقصص الشعبى القديم، إلا أن تلك الكوارث التى يفترض أنها دمرت الحياة على الأرض تقريباً غير ممثلة بوضوح فى السجلات التاريخية لكثير من الشعوب القديمة. إنه يعزو غياب أى ذكر لتلك الكوارث العظمى فى السجلات التاريخية لكثير من الشعوب القديمة إلى «فقدان الذاكرة الجماعى». إنه يريد أن يمرر فرضياته بوسيلتين متناقضتين، فحين يوجد تماثل بين قصص الشعوب القديمة، فإنه حاضر وجاهز لاستخلاص أعظم الاستنتاجات من ذلك التشابه، وحين لا يوجد تماثل أو تشابه، فإنه يتغاضى عن ذلك باللجوء إلى ما يسميه «فقدان الذاكرة الجماعى»، بهذا التهافت فى الاستدلال، يمكن لأى فرد إثبات ما يريد إثباته.

لابد أن أشير أيضاً إلى أن هناك تفسيراً بديلاً لمجمل أو أغلب الأحداث المسجلة فى سفر الخروج، وهو بديل أكثر اتفاقاً مع قواعد وقوانين علوم الفيزياء، فالخروج كما هو مسجل فى سفر الخروج الأول، قد وقع قبل أن يشيد سليمان هيكله بأربعمائة وثمانين عاماً، وبحسابات أخرى تدعم ذلك، فإن الخروج حدث تقريباً عام ١٤٤٧ ق.م (كوفى، ١٩٧٥)، ونجد أن هذا التاريخ يتفق بشكل مدهش مع تاريخ انفجار وثورة بركان «تيرا» والمثبت تاريخ حدوثه علمياً فى العام نفسه (أو سانتورين)، وهو الانفجار الذى دمر الحضارة المنوانية فى جزيرة كريت وترتب على وقوعه تداعيات خطيرة فى مصر التى تبعد ٥٠٠ ميل إلى الجنوب من البركان. وهناك دليل علمى خطير لهذا الحدث مستمد من الكربون المشع

تم الحصول عليه من شجرة دفنت فى الرماد البركانى فى جزيرة «تيرا» عام ١٤٥٦ ق.م، مع احتمال خطأ حسابى يقدر بثلاثة وأربعين عاماً زيادة أو نقصاً.

كانت كميات التراب والرماد والدخان البركانى كافية لإحداث إظلام كامل وحجب ضوء الشمس لمدة ثلاثة أيام، والأحداث التى ترتبت على ذلك كانت بسبب الزلازل الناجمة عن انفجار البركان، والمجاعة، وانتشار الهوام، ومجموعة الكوارث الفليكوفسكية الأخرى المشار إليها. نتج أيضاً عن الانفجار، موجة مد كبيرة فى البحر المتوسط والتى ذكر عنها «انچيلوس جالانابولس» (١٩٦٤) أنها كانت سبباً فى موجة مد مشابهة فى البحر الأحمر، و «جالانابولس» هو صاحب أغلب البحوث الچيولوچية والآثارية البشرية فى جزيرة «تيرا» (وقد توصل إلى معلومات هامة غزيرة تفسر الأساطير الدينية على ضوء الأحداث الچيولوچية وكلها منشورة فى كتاب من منشورات دار دوروثى ڤيتاليانو (١٩٧٣). انظر أيضاً ل. سبراج دى كامب (١٩٧٥). وبشكل ما، نجد أن تفسيرات «جالانابولس» لأحداث سفر الخروج أكثر إقناعاً من تفسيرات وفرضيات فليكوفسكى، فـ «جالانا بولس قدم براهين مقنعة على أن انفجار تيرا يتفق تقريباً فى جوهرة مع كل تفاصيل أسطورة اتلانتس المفقودة، ولو صدقت رؤيته، فإن دمار أتلانتس أو اختفاء تيرا (لا ظهور مذنبات ومواجهات الكواكب) هو الذى أتاح للإسرائيليين فرصة الخروج من مصر.

هناك تناقضات كثيرة فى "عوالم فى تصادم" ذكرنا بعضها فيما سبق. ولكن مع آخر صفحة من الكتاب، وجدت نفسى أجذب نفساً عميقاً لانتهائى من تلك الفرضيات التى يعدها فليكوفسكى فرضيات جوهرية. إنه يعرض علينا مقارنة عتيقة وغير صحيحة لتركيب المجموعة الشمسية وتركيب الذرة.

وفجأة يقدم لنا افتراضاً بأن الانتقالات الشاردة أو الضالة للكواكب، عدا أن تكون ناتجة عن صدامات، فإنها تعود أيضاً إلى تغير مستوى

الطاقة الحركية الكامنة تماثل اكتساب فوتون فى حركة إليكترونات الذرة فينتقل الاليكترون إلى فلك آخر كما تنتقل الكواكب إلى أفلاك أخرى.

النظام الشمسى متماسك بقوى جذب، أما الذرات فبقوى كهربائية، وبينما تتناسب طاقة القوتين تناسباً عكسياً مع مربع المسافة، إلا أن لكل منهما طبيعة مختلفة وصفات مغايرة، من تلك الاختلافات - على سبيل المثال- نجد أن القوى الكهربائية تنقسم إلى شحنات موجبة وشحنات سالبة، فى حين تتكون قوى الجذب من نوع واحد من القوى. نحن نفهم وندرك جيداً طبيعة التركيب والقوى التى تحكم ترابط كل من الذرة والمجموعة الشمسية، حتى أننا يمكننا أن نقرر بيقين أن ما افترضه فليكوفسكى من انتقال كوكب إلى فلك آخر بما يفترض هو أنه نتيجة «قفزه فى الطاقة الحركية» بين الكواكب لا يمثل إلا عدم فهم من جانبه لكل من النظريات وبراهينها.

بقدر علمي، وما توصلت إليه بعد قراءتى "لعوالم فى تصادم"، لم يتوصل فليكوفسكى إلى تنبؤ واحد صحيح، ولم يجاوز ما قدمه التخمين المتسم بالغموض الذى قد يصادفه بعض من حظ حسن إن صدقت بعض جوانبه؛ كما أن هناك كثير من الادعاءات ثبت خطؤها. أحياناً يشير مؤيدوه إلى الإطلاق الإشعاعى للمشترى على أنه من أصدق تخمينات فليكوفسكى التى ثبتت صحتها، إلا أن كل الأجرام السماوية تطلق إشعاعات مماثلة إذا كانت درجة حرارتها فوق الصفر المطلق. أما المواصفات التفصيلية العلمية لإشعاع المشترى والتى تبين بالرصد العلمى أنها غير حرارية، ومستقطبة، ومتقطعة، ومستمرة، وذات علاقة تأثرية بالأحزمة الهائلة من الجزيئات المشحونة الموجودة بأحزمة المشترى، والأحزمة المحيطة ذات مجال مغناطيسى قوى، إلا أن فليكوفسكى لم يتنبأ بأى من تلك الحقائق التفصيلية. وفى الحقيقة، فإن تنبؤاته لا ترتبط فى مضمونها بأى من فرضياته التاريخية التى يطرحها.

إن مجرد التخمين الصحيح لجزئية ما لا يعنى بالضرورة المعرفة المسبقة أو صحة التنظير - على سبيل المثال - هناك عمل من أعمال الخيال العلمى صدر عام ١٩٤٩م، تخيل فيه «ماكس إيرهليك» قرب اصطدام الأرض بجرم سماوى آخر يقترب من الأرض وأثار فزع سكانها، وكان ما يثير ذعر الناس فى تلك القصة أن الكوكب المقترب من الأرض كان يتميز بشكل مخيف إذ كان فى منتصفه ما يشبه العين الضخمة؛ وهو جانب من جوانب التخيل المشابه بشدة لفرضية فليكوفسكى التى فاقت الخيال العلمى بتعددية الصدام والاقتراب والكوارث، إلا أن ذلك ليس ما أود قوله بطبيعة الحال. ففى مناقشة قريبة كانت تدور حول السبب فى أن جانب القمر المواجه للأرض ملىء بالحفر والفوهات الناجمة عن اصطدام أجرام ونيازك به، فى حين أن السطح البعيد عن الأرض خال من الحفر والفوهات، قدم «چون وود» عالم فيزياء الفضاء فى معهد سميثونيان نظرية ملخصها : أن الجانب القمرى الذى يواجه الأرض حالياً لم يكن هو الجانب الذى يواجهها وأنه استدار على مدى بلايين السنين، طبقاً لقوانين «أولر»، غير القمر من اتجاهه تحت تأثير طاقة الحركة الكامنة، حتى أصبح الوجه الذى كان يشكل مقدمة حركته، هو الوجه المقابل حالياً للأرض، وأصبح الوجه الذى كان يواجه الأرض هو الجانب الشرقى له، ويحتوى هو الآخر على عديد من آثار ضربات قديمة تعود إلى بلايين السنين، وتسمى البقعة الداكنة الشرقية، والتى تبدو تماماً كعين عملاقة. ولم يقل أحد أن «إيرهليك» حين كتب روايته التى اسماها «العين العملاقة» اعتمد على ذاكرة الأجيال السالفة لحدث يبعد عنا بثلاثة بلايين من الأعوام، الأمر مجرد مصادفة. إن روايات الخيال العلمى كثيرة، وتقدم فيها فرضيات علمية تخيلية، وعاجلاً أم آجلاً سنجد أن هناك حقائق تخيلها كتاب الخيال العلمى بالمصادفة.

بتلك الاحتمالات العديدة اللانهائية، كيف حاز «عوالم فى تصادم» تلك الشهرة الغالبة؟ هنا فقط يمكننى أن أخمن. فعلى أحد الجوانب أجد أنه

محاولة لإثبات صحة النصوص الدينية. ويقول لنا فليكوفسكى من خلال نص الكتاب : أن قصص العهد القديم كلها صادقة حرفياً، وأننا يجب أن نفهمها على وجهها الصحيح، فالشعب اليهودى مثلاً، بنجاته من فراعنة مصر، وملوك آشور، ومن كوارث أخرى لا حصر لها بتدخل دائم من المذنبات، له كل الحق أن يؤمن أنه شعب مختار. إن فليكوفسكى يحاول انقاذ لا الدين وحده، بل علم التنجيم أيضاً: أى أن نتائج الحروب، ومصائر الشعوب، تتقرر طبقاً لمواضع الكواكب والأجرام السماوية.

وبشكل ما، فإن عمله المشار إليه يحمل وعداً وتأكيداً بأن هناك رابطة ما تربط بين مصائر الشعوب ومجرات السماء، وهو شعور قد أتعاطف معه، إلا أنه مجال مغاير لما نحن بصدده (ارجع إلى ساجان، ١٩٧٣)، كما لا يفوتنى أن أؤكد على أن الشعوب القديمة والثقافات الأخرى المغايرة لم تكن شديدة الغباء ولا مغفلة بأى مقياس.

إن صغار العلماء والدارسين الذين صدمهم الهجوم على عوالم فى تصادم كان لهم تأثيراً سيئاً على محفل العلم، فلقد تأثر بهم بعض الشباب حين رأوهم تياهين بذلك العمل؛ وتأثر غيرهم بفهم خاطئ للعلوم، وربما يستريحون من هذا العناء حين يجدون أن العلماء استردوا التوجه الصحيح.

أما فيما يخص عدم إيلاء العلماء الاهتمام الكافى "لعوالم فى تصادم" كما انتظر منهم فليكوفسكى، فإننى أقر : أننا معشر العلماء مسئولون عن تضخم تلك الزوبعة الفليكوفسكية.

العلماء على الدوام لا يهتمون بالأعمال التى لا ترقى إلى مرتبة العلوم الخالصة، والمجتمع الأمريكى المعاصر ملىء بمثل تلك الأعمال.

إن أعمال الفكر، والتدقيق الحسابى، وانجاز هذا الفصل - على سبيل المثال - استهلك منى وقتاً كنت فى أمس الحاجة إليه لمتابعة أبحاثى العلمية. إلا أن الأمر لم يكن باعثاً على الملل بأى حال، فقد قرأت على الأقل أساطيراً ممتعة. وأتمنى أن تلقى نظريات فليكوفسكى فى المستقبل

وكذلك وجهات نظر مؤيديه ومسانديه الذين يلمون بهوامش العلوم لا بلبها ردود فعل أفضل.

إن محاولة انقاذ دين قديم يبحث فيه أهله بيأس عن أى جذور روحية، وعن معنى للوجود البشرى فى هذا الكون، قد يكون مجدياً وقد يكون أيضاً لا مجدياً. وأنا أعتقد أن الدين القديم كان يحتوى على كثير من الجوانب الخيرة، كما كان ينطوى على كثير من الشرور، إلا أننى لا يمكن أن أتفهم أو أتقبل أن هناك إحتياجاً إلى إنصاف المعايير، ولو كنا مجبرين على الاختيار - ونحن بكل يقين لسنا مجبرين - أليس الأفضل إختيار رب موسى من إختيار مذنب فليكوفسكى؟

أفلاك الأجرام السماوية
خطأ فليكوفسكى الخطير

ج. ديرال مولهولاند

عبر ذاكرة الشعوب، طفرا الزهرة والمريخ فى السماء، واندفعا مقتربين اقتراباً خطيراً من الأرض ومن بعضهما البعض عدة مرات، فتسببا فى فوضى كارثية فاقت الخيال: توقفت الأرض عن الدوران حول نفسها، وانقلبت وانعكس قطباها، وتغير زمن العام والشهر فدمرت وانهارت الحضارات القديمة. وأخيراً، استقر المذنبان العملاقان فى فلكيهما الآمنين الحاليين وتحولا إلى كوكبين مسالمين، وخلفا بعد ذلك مخاوف مشروعة ظهرت آثارها فى المعتقدات الدينية، ولم يخفف من وطأة ذلك الخوف والهلع إلا مرور قرون كثيرة بلا كوارث فلكية جديدة حتى محيت تلك الذكرى من أذهان البشر واختفت من الذاكرة الجماعية للشعوب.

تلك هى الرؤية التى يقدمها لنا إيمانويل فليكوفسكى ليفسر من خلالها: أسس الأديان ومعتقدات الشعوب القديمة.

فهل من الممكن أن يكون ذلك قد وقع فعلاً؟ هل حدثت تلك الوقائع الكونية؟ وكيف لنا أن نتأكد؟

إن هدف العلم ووظيفته تفسير العلاقة بين البشر والكون والوجود، ولذلك تعد الأسئلة السابقة ذات شأن هام بل وخطير ولابد من تناولها بكل إهتمام وجدية وعناية، إن التحدى الذى يوجهه فليكوفسكى للعلماء ليس من نمط التحديات التى تنحصر الاستجابة لها فى أن نصدقها أو لا نصدقها. إنه لا يقول: «ثقوا بى» أو «صدقونى»، بل يقول: «هذه هى نتائج توصلت إليها بالملاحظة. ويبدو لى أنه يسعى إلى تأسيس حلول فيزيائية. إنه لا يلجأ إلى الغموض والأحاجى، ولا يؤيد دعواه بمخلوقات فضائية خضراء صغيرة بثلاثة آذان؛ بل يؤيدها بثلاثة كواكب حقيقية وواقعية. لا يكفى أن نرد عليه قائلين أن أفكاره عبثية؛ لأن هناك كثير من الأفكار بدت

عبثية عند ظهورها، ولكن ثبت صحتها بعد ذلك.

هل تبدو تفسيراته معقولة؟ على الأقل من الجانب الظاهرى تبدو معقولة حقاً. لو مر جرم فضائى يصل إلى حجم كوكب بالقرب من الأرض، سترتفع مياه البحار والمحيطات فى موجة مد عظمى تعلو فى الفضاء وتكتسح اليابسة، وتقع زلازل تجتاح الأرض كلها، ويغير القطب الشمالى موضعه وينعكس فى موضع القطب الجنوبى، ويتغير طول اليوم والشهر والعام والفصول، لا دخل للإيمان الدينى هنا؛ فتلك النتائج حتمية ولابد أن تحدث طبقاً لقوانين حركة الأجرام. لابد أن نقبل صورة الجحيم الذى نشأ على الأرض بسبب تلك الأجرام التى اقتربت منها كما يذكر فليكوفسكى. لا يعنى هذا اعترافاً بأن تلك الأحداث التى يذكرها قد وقعت فى أى وقت؛ لأن هناك ثلاثة أسئلة أو استفسارات تحتاج إلى إجابات وحلول : هل معارفنا من قوانين حركة الأجرام تسمح أو لا تسمح بإمكان حدوث مثل تلك الاقترابات بين الكواكب المعروفة؟

هل تفسيرات فليكوفسكى لبعض الظواهر هى أفضل التفسيرات المتاحة؟

هل هناك معلومات ومعارف بالملاحظة والرصد تؤيد أو تنفى فرضية حدوث كوارث كونية متكررة بين كواكب المجموعة الشمسية؟. لابد أن نحاول الإجابة على هذه التساؤلات على أسس من واقعية الأسباب وعلى ضوء سجلات الأحداث القديمة، ولابد أن نتوخى الحذر والدقة حتى لا نقع تحت سطوة المؤثرات الدينية، فيأتى عملنا موضوعياً لا يدعم الأصولية الدينية كما لا يدعم الحداثة العلمانية. لو تمسكنا بهذا المنهج وتلك المبادئ، فإن ذلك ربما يقودنا إلى آليات الحقيقة التى قد تنقض وتنفى تلك التأثيرات الكارثية التى كانت للزهرة والمريخ فى العصور القديمة.

إلا أن قوانين حركة الأجرام السماوية التى وضعها سير «إسحق نيوتن» و «سيمون نيوكومب» لم تعد المقياس النهائى. قوانين حركة الأجرام السماوية فى هذا العصر أصبحت علم حى وحيوى أثبت عدم

وجود ما كان يسمى بتأثيرات الجذب، وأثبت وجود قوى كهرومغناطيسية ومرونة كوكبية، وأثبت بالإحصاء وقوع حوادث ووقائع تترتب على وجود أعداد كبيرة من الأجرام السماوية.

وبالرغم من معارفنا الحديثة المعاصرة، إلا أنه من الممكن أن تكون هناك قوى أخرى لم نعرف كنهها بعد.

هل مال محور الأرض عن وضعه الذى كان عليه؟ الجوهر الذى ترتكز عليه نظرية فليكوفسكى هو أن الأرض قد اضطرب دورانها فجأة ومال محورها عن اتجاهه الذى كان عليه، كما انتقلت وتحركت قشرة الأرض باتجاه قطبى محور الدوران، وربما توقف دوران الأرض حول نفسها لبعض الوقت، أو انعكس اتجاه الدوران أيضاً لبعض الوقت، ودليله على حدوث ذلك نص دينى يذكر : أن الشمس ثبتت فى موضعها من السماء، فأطالت النهار فى جانب من الأرض كما أطالت الليل على الجانب الآخر، ودليل آخر استمده من تصوير قبة مقبرة مصرية قديمة لنجوم السماء تبدو فيه مجموعات النجوم فى عكس أبراجها المعروفة، ودليل ثالث استنتجه من اختلال خطوط عرض بعض المدن القديمة المعروفة التى أصبحت على خط عرض مختلف.

إن حدوث نهار متصل، أو ليل متصل بصورة غير مألوفة يسود قصصاً فولكلورية شعبية كثيرة فى جميع أرجاء الأرض، وعرض فليكوفسكى لكثير من قصص الشعوب القديمة فى هذا الشأن عرضا مؤثرا حقاً، وربما لجأ إلى سرد كثير منها حتى يضعف أى تشكك، وعزا تراوح المدى الزمنى فى السرد القصصى الشعبى لذلك النهار الطويل أو الليل الطويل الذى تراوح بين ثلاثة إلى عشرة أيام إلى عدم قدرة من عاصروا ذلك الحدث على تحديد الزمن بدقة، لعدم تناوب الليل والنهار، وقرر فليكوفسكى أن الفرق بين سبعة أيام فى بعض المصادر، وتسعة أيام فى مصادر أخرى لهو فرق يمكن إهماله بين شعوب ذكر عنها فى موضع آخر من الكتاب : أنه كان لديهم آلات أو أدوات دقيقة لقياس الوقت

والزمن. مازاد قصته ضعفاً وتهافتاً ما ذكره عن التوزيع الجغرافى للنهار والليل أثناء تلك الكارثة. لا يهم إلى أى موضع انتقل قطبى الأرض، ولا يهم موضع الكرة الأرضية فى ذلك الوقت، إلا أن الثابت أن النور والظلام لابد أن يشغل كل منهما نصف الكرة الأرضية فى ذات اللحظة، ولكن من الواضح أن الأساطير والقصص الدينية لا تجيب على هذه التساؤلات بالدقة المطلوبة.

إن ما يمكن الاعتراض عليه فى خريطة أبراج نجوم السماء المرسومة على سقف مقبرة «سن موت» الفرعونية، هو أن تلك الخريطة تظهر السماء الجنوبية كما تبدو من نصف الكرة الأرضية الجنوبى. ولا يجب أن نفترض (كما فعل فليكوفسكى) أن ذلك إنما يدل على أن الأرض قد انقلبت وتبدل موضع قطبيها، فإما أن يكون تصوير السماء الشمالية قد تم بطريقة خاطئة، أو أن الرسم يشير إلى تصوير السماء كما تبدو من مكان جنوب الأرض. ويكفى أن نعرف أن المصريين قبل عصر بناء تلك المقبرة كانوا يقومون برحلات بحرية حول رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا وكانوا يشاهدون السماء الجنوبية كما تظهر فوق القطب الجنوبى.

أما ما عرضه فليكوفسكى عن المواضع الجغرافية، فإنه يعانى من إفتراضين يحتمل خطأ أى منهما: أولاً، افتراض أن آلات وأدوات قياس الزمن كانت دقيقة للغاية من سبعة وعشرين قرناً مضت، وثانيا، أن تلك الأدوات صنعت واستخدمت فى الأماكن التى عثر عليها فيها.

على تلك الأسس، نجد أن ما يقدمه فليكوفسكى من أن مدينة بابل قد أصبحت على خط عرض آخر يبعد نحو ٢٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب من خط العرض الذى كانت عليه يعود إلى ميل محور دوران الأرض حول نفسها، إلا أنه لم يقدم تقديراً لخط العرض الذى انتقلت منه مدينة الفيوم وخط العرض الجديد الذى أصبحت عليه، مع أنه يقرر أن الساعة الشمسية التى عثر عليها الباحثون فى الفيوم فى مصر لا تقرأ الوقت مضبوطاً فى الموضع الذى عثر عليها فيه، ولا فى أى موضع آخر من

أرض مصر، وهو بذلك يوحى أن مدينة الفيوم كانت تقع على خط عرض آخر حينما صنعت تلك الساعة الحجرية، وبالتالى أصبحت تلك الأداة التى صنعت قبل الكارثة غير صالحة لقراءة الوقت بعدها بسبب تغيرات زوايا ميل الشمس على الأرض التى حدثت. وأخيراً، عرض علينا ساعة طيبة المائية وتوصل إلى أنها مصممة بخطأ فى التصميم فى تقدير الساعات وأغفل ما يشير إليه ذلك الخطأ، وكل ذلك مفهوم، حيث نجد أن تفسيره لخطأ قياس زمن تلك الساعة يتطلب أن نحرك مدينة طيبة المصرية القديمة ١٠٠٠ كيلومتر إلى الشمال، بينما نحرك المدن الأخرى التى تقع شرقها إلى الجنوب، ومن الصعب قبول أو تفهم ذلك التناقض.

هل تغيرت أماكن المعالم على خطوط العرض؟ نعم، بالتأكيد. لقد تم رصد تغيرات تصل إلى بضعة أمتار فى العام،. ولكن هل تتغير مواضع خطوط العرض بعشرات الدرجات، أو بآلاف الكيلومترات؟ ممكن بالتأكيد، ولكن على مدى چيولوچى يقدر ببلايين السنين هل الدليل الذى يقدمه فليكوفسكى يعد دليلاً معقولاً على أن محور الأرض قد انتقل فجأة بشكل كارثى من سبعة وعشرين قرنا مضت؟ بالقطع كلا.

اليوم، والشهر، والعام

حتى عصرنا الحالى، لا يمكن التعرف على الوقت إلا من خلال تحركات الأجرام السماوية، ويحكم زمن اليوم دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة، وزمن الشهر القمرى دوران القمر حول الأرض دورة كاملة، والعام الشمسى بدوران الأرض حول الشمس دورة كاملة، وكل أنواع أدوات قياس الوقت تم تصميمها لتقسيم زمن اليوم، الأداة الوحيدة التى تم تصميمها عام ١٩٥٥ لتعمل دون الاعتماد على حركة الأجرام السماوية لقياس الزمن هى الساعة الذرية، وهى متناهية الدقة. كيف للمرء إذن أن يقدر زمن اليوم قبل إختراع الساعة الذرية؟، وكيف نتيقن إن كانت سرعة دوران الأرض قد اختلت فيما مضى؟. الحقيقة المجردة هى أننا لا

نستطيع أن نتيقن من ذلك بلا غموض فيما يخص الزمن السابق على عام ١٩٥٥؛ وهكذا، لابد أن يلجأ المرء إلى بعض القياسات الدالة والتى يمكن عن طريقها أن نقيم النتائج التى يمكن التوصل إليها.

إن القياسات التى يعتمد عليها فليكوفسكى فى نظريته مستمدة من قصص قديمة عن عصور كانت ذات تقنيات بدائية، وهو يتقبلها كدليل وبرهان لا يقبل الجدل مع وجود أدوات قياس للزمن يعتبرها دقيقة فى المناطق المشار إليها، ويبدو هذا غريباً خاصة حين تكون هناك أدلة أكثر معقولية، فبإمكان المرء أن يتفحص المجموعة الشمسية للتوصل إلى مفاتيح ما حدث فى الماضى. ربما كان فليكوفسكى على حق برفضه نظرية الثبات للمجموعة الشمسية كدليل مضاد لنظريته، فلم توجد أدلة ولا براهين تؤيد ذلك الثبات المطلق حتى الآن. لا يستطيع المرء أن يقطع أن دخول أجرام سماوية كبرى من خارج المجموعة الشمسية لن يحدث فى المستقبل ولا أن يقطع بأنه لم يحدث فى الماضى، إلا أنه يمكن القطع أن أى من ذلك لم يحدث فى الماضى القريب (خلال العشرة آلاف عام الأخيرة مثلاً). لقد لوحظ أن هناك نظاماً ثابتاً منتظماً يجعل المسافات ثابتة بين الكواكب (كان ذلك الجانب هو ما انصبت عليه ابحاث كبلر)، من الصعب جداً خلق أفلاك دائرية منتظمة للكواكب الشمسية عن طريق عدد محدود من الاقترابات الكوكبية كما يفترض فليكوفسكى. وفى الحقيقة لا نستطيع أن نجزم أن كان عام أو أعوام قد اختلفت فى الماضى فى طول أزمانها بنسبة ١ أو ٢٪ عن ٣٦٥ يوم، ولكن أن يصل التغير بالعام إلى ٣٠٠ يوم فقط، فإن ذلك سيرفع حرارة الأرض بنسبة ٢٠٪، وهذا التغير الحاد إن كان قد حدث لابد أن يشكل خطراً شديداً على جميع أشكال الحياة العليا على الأرض، ولو صح ذلك، فإن ذلك التغير الكبير لابد أن يترتب عليه تغيراً فى طول زمن اليوم وعدد شهور العام، وكذلك تغيراً فى مسار وفلك قمر الأرض.

نحن نعلم فى عصرنا الحالى أن هناك تغيراً يقع بانتظام فى زمن اليوم وزمن الشهر كما يبدو من قياس الساعة الذرية؛ إلا أنه تغير لا يكاد يذكر ولا يؤدى إلى تغير فى زمن العام. القياسات الحالية بالساعة الذرية تظهر زيادة فى طول زمن اليوم مقدارها ٢ مللى ثانية كل قرن. واتضح من دراسة عن القياسات الفلكية القديمة من عام ٧٦٣ ق.م وجود زيادة فى طول اليوم من ذلك العام حتى الآن، أى على مدى يربو على الألفى عام بمعدل زيادة ٢.٤ مللى ثانية كل قرن، مع دلالات على تغير مفاجئ فى الأعوام ٧٠٠ م، ١٣٠٠م لا قبل ذلك، وفى دراسة أخرى اعتمدت على الرصد المسجل من عام ١٣٠٠ ق.م، إتضح أنه لم تحدث أى تغيرات حادة أو فجائية فى العصور السابقة على العصور المسيحية. كل الدراسات المختلفة التى أجريت على حلقات النمو فى حفريات الأشجار القديمة أظهرت زيادة فى طول اليوم مقدارها ٢ مللى ثانية كل ١٠٠ عام على مدى ٣٦٠ مليون سنة (وبمعدل أعلى قليلاً فى السبعين مليون عام الأخيرة)، وهكذا، نجد أن لدينا أدلة وتسجيلات طبيعية تدل على نمط ومعدل الزيادة فى طول اليوم. المعلومات الفلكية أيضاً المتعلقة بالأعوام وطول زمنها فى الأعوام التى يذكر فليكوفسكى أن كوارثه وقعت بها لا تظهر أى اختلاف فى زمن اليوم ولا زمن العام.

فإما أن تلك الأحداث لم تقع أو أن أكثر من حدث قد وقع ونسخ لاحقهم تأثير ما سبقه، وبذلك لم تترك دليلاً على وقوع تلك الأحداث. ولكن الاقتراب الكوكبى الخطر لابد أن يحدث قدراً كبيراً من الاختلال فى دوران الأرض، وإن حدث ذلك، فإنه لن توجد أحداث أخرى تصحح آثاره أو تخففها.

الملاحظات ذاتها يمكن تطبيقها على طول زمن الشهر أو أشهر العام. أو الخسوف القمرى، ودورات المد والجزر التى تؤثر على نمو الحلقات النباتية فى جذوع الأشجار، لم يوجد دليل فى أى منها على حدوث تغير ملحوظ فى عدد شهور العام. هل وجدت قبل ذلك أشهر مكونة من ثلاثين

يوماً؟ نعم، من ٦٠ مليون عام مضت حين كان العام ٣٨٠ يوماً. هل كان هناك عام مكون من عشرة أشهر؟ كلا، ليس أبعد من عشرة ملايين سنة مضت ولا أقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، وهل وقع بين التاريخين المذكورين عام أو أعوام مكونة من عشرة أشهر؟ كلا، إلا إذا كانت قد وقعت مجموعة أحداث الغى بعضها تأثير ما سبقه فيما يخص فلك القمر ودورة الأرض حول نفسها، ويتطلب تصديق ذلك إيمان دينى شديد لا يحتاج إلى أدلة علمية.

هناك براهين أخرى نستمدها من معدل دوران أجرام أخرى فى المجموعة الشمسية وهى ذات أفلاك منتظمة تمام الانتظام. وهناك علاقة ثابتة لطاقة الحركة الكامنة منسوبة إلى الكتلة وهى علاقة ثابتة بين الكواكب وبعضها بعضاً، وكذلك فى علاقتها بالكويكبات ذات الأفلاك الثابتة. هذه العلاقة، التى تغطى خمسة مستويات من الكتلة، من الممكن أن نحدد أنها تتعلق بتكون وثبات النظام الشمسى بأجمعه وهى فى الوقت ذاته دليل على ثبات المنظومة على مدى دهور سحيقة. الأجرام التى لا ينطبق عليها ذلك هى تلك الكواكب المعروف عنها أنها أبطأت من دورانها بفعل الجاذبية التى تتعرض لها. دوران عطارد حول نفسه قد تأثر بجاذبية الشمس، بينما تأثر دوران الزهرة بفعل أسر الأرض. السبب الأخير هو أبعد الأسباب ولا يمكن أن يكون دليلاً على حدوث مواجهات أو اقترابات كوكبية: لأن دوران الزهرة الحالى حول نفسها مرتبط بالمسارات الحالية للكوكبين ذوى التأثير على بعضهما البعض، وهو نظام يعمل بثبات منذ أن تكونت أفلاك ومسارات الكواكب. نحن نعرف الكثير عن قوى التجاذب والزمن المطلوب لظهور تأثيرها. إن ثلاثة آلاف عام ليست إلا زمناً قصيراً للغاية. والأمر نفسه ينطبق على فلك القمر ومساره.

لابد أن نعترف أن دوران المريخ يشكل اختلافاً؛ لأن حركته الكامنة تجعله يخرج عن النسق العام ويبدو ظاهرياً وكأنه لا ينتمى إلى الكواكب المتأثرة بجاذبية بعضها البعض. إلا أنه لا توجد أسس ديناميكية تثبت

تخمين فلايكوفسكى أن زمن الـ ٢٤ ساعة فى الزهرة يعود إلى مواجهة مع الأرض. إن الجرم الفضائى يؤثر على سرعة دوران جرم آخر حول نفسه عن طريق قوة مجال جاذبيته، والدليل الذى نسوقه عن سرعة دوران الأجرام حول ذاتها يمكن أن نلخصه فيما يلى: دوران المريخ حول نفسه لا يؤيد ما ذهب إليه فليكوفسكى، ودوران الأرض والزهرة، وقمر الأرض، وتقريباً كل الأجرام الأخرى فى المجموعة الشمسية لا تؤيد بأى حال إمكانية حدوث كارثة كوكبية فى آلاف الأعوام الأخيرة.

أقمار الأرض والمريخ

بالإضافة إلى النتائج التى ذكرها فليكوفسكى عن مسار قمر الأرض، أضاف أن الفوهات القمرية الهائلة ليست إلا بقايا فقاقيع غازية منفجرة طفت على سطح القمر من باطنه حين أدى اقتراب الزهرة أو المريخ من الأرض إلى انصهار سطح القمر، ومتجاهلاً أن الصخور المنصهرة لا تبرد بالسرعة التى تجمد الفوهات على شكلها الذى حدثت به، فإن مجرد وجود فقاعات يصل قطرها إلى ١٠٠ كيلومتر يتطلب أن يكون القمر قد انصهر حتى أعماق سحيقة.

إن الشكل الحالى للقمر ليس إلا دليلاً دامغاً على أنه لم ينصهر أبداً. لا يوجد اجتماع لمسار ودوران من الممكن أن ينتج هذا الشكل، لو حدث انصهار عام حديث فى الثلاثة آلاف وخمسمائة عام الأخيرة، لكان السطح قد ظل مرناً حتى الآن، وهو ما تنفيه الدراسات التى أجريت بعد نزول السفينة أبوللو على سطحه.

لقد ادعى أيضاً أن وصف «جوناثان سويفت» لأقمار المريخ قبل اكتشافها ليس إلا دليلاً على أن القدماء قد شاهدوا تلك الأقمار حين مر كوكب المريخ قريباً جداً من الأرض، وقياساً على المعارف والفلسفة التى كانت متاحة فى ذلك الوقت، فإن تخمين سويفت ليس تخميناً عظيماً كما يعتقد فليكوفسكى. وبعيداً عن أنه يدعم قضيته، فإن وجود القمرين

الصغيرين الصخريين فى فلك يدور بالقرب من سطح المريخ لهو أقوى دليلا على أن المريخ لم يمر أبداً بالقرب من الأرض، ولا من الزهرة، ولا من أى جرم آخر كبير على مدى دهور فلكية طويلة.

فى أي مواجهات كوكبية من التى يدعيها فليكوفسكى، كان القمران الصغيران سيضطربان بشدة، هذا إذا لم ينتزعا كلياً من المريخ.

من أين تأتى المذنبات؟

إن تخمينات كوارث فليكوفسكى تذهب إلى أن المذنبات التى سببت الكوارث بما فيها الزهرة قد انفصلت مباشرة عن كوكب المشترى قبل اندفاعها باتجاه الأرض، ويؤيد دعواه من أساطير الشعوب القديمة التى تتحدث عن مولد الربة الزهرة، وأن مسار كثير من المذنبات له علاقة بمسار المشترى، وكذلك الاعتقاد بأن المذنبات فى الماضى كانت أكثر منها الآن. بالطبع، لا تختص ميكانيكا حركة الأجرام السماوية بالأساطير الشعبية، ولا الأساطير الدينية القديمة والعكس صحيح أيضاً. عدا ذلك، لا أعتقد أن هناك احتمال ثالث.

فى كثير من الأحيان لم يكن القدماء يميزون ما بين المذنبات والكويكبات، كلاهما كان يعتبر ظاهرة فضائية، والعلاقة بين أفلاك المذنبات والكويكبات وفلك المشترى علاقة صحيحة، ولذلك لابد من تناولها بالشرح والتفسير.

لا يبدو أن هناك فرقا جوهريا بين المذنبات طويلة المسار (بمعنى أن دورتها تمتد إلى حواف المجموعة الشمسية) والمذنبات قصيرة المسار، إلا أنه لم يثبت أبداً أن أى من تلك المذنبات طويلها أو قصيرها قد انفصل عن المشترى فى العصور الحديثة، ولكن المذنب كوهيوتيك يمضى حالياً فى فلك يبلغ زمن دورته مائة ألف عام. لم يرصد أى مذنب قصير المدى خرج من مدى المجموعة الشمسية، وفى الحقيقة، أظهر الرصد المتكرر أنه أصعب كثيراً خروج مذنب قصير المدى إلى خارج المجموعة الشمسية، فى

حين أنه من المحتمل أسر مذنب طويل المدى وتحوله إلى مذنب قصير المدى.

القوة الرئيسية التى تحدث ذلك الأسر للمذنبات طويلة المدى هى كوكب المشترى، فهو أكبر الكواكب كتلة، وعدد المذنبات طويلة المدى مع تعرضها لديناميكية الأسر، كاف ليفسر لنا زيادة عدد المذنبات قصيرة المدى، أما عدد المذنبات طويلة المدى، فهو يتناسب مع وجود حزام المذنبات (مثل حزام الكويكبات) على تخوم المجموعة الشمسية، لو وجد ذلك الحزام من المذنبات، فإن اقتراباتها الحثيثة من الكواكب لابد أن تدفعها إلى حافة الاقتراب من الشمس فى الوقت الذى يتعرض فيه لأسر الكواكب، كما لو كانت لعبة بليارد سماوية، وكما لاحظ فليكوفسكى، فإن المشترى يعدل من مسار المذنبات، إلا أنه ليس مصدرها كما افترض.

مواجهات الكواكب والاقترابات الخطيرة

ما الذى يفعله محاربونا السماويين الآن؟ فى الحقيقة، أفلاك الزهرة والأرض والمريخ أفلاك عادية جداً، كلها تمضى فى مستوى واحد، وكلها تدور فى أفلاك شبه دائرية لا كاملة الاستدارة. الزهرة تمر على بعد ٣٠ مليون ميل من الأرض، بينما يندر أن يقترب المريخ من الأرض أكثر من ٤٠ مليون ميل، إلا أنه طبقاً لما يذكره فليكوفسكى، علينا أن نتخيلهم فى أفلاك أكثر استطالة أو انبعاجاً، حتى يمكنهما أن يقتربا أو يقتحما مسار الأرض مرة بعد أخرى، حتى أثرت عليهما قوة ما، جعلت من مساريهما أكثر استقراراً للكوكبين، فتركا الأرض فى أمان.

أصبحنا نعلم الكثير حالياً عن القوى التى يمكن أن تغير فلك أومسار جرم فضائى، ولا تقتصر معارفنا فقط على تأثيرات الجاذبية، بل تمتد إلى التأثيرات المغناطيسية والكهربائية التى يمكن أن تؤثر على مسارات الأجرام الفضائية، وكذا الشد الذى يمكن أن تبذله الأغلفة، والدفع الناتج عن الانفجارات الداخلية والغازات الناتجة. لقد تم نقل وتغيير مسار

سفينة الفضاء مارينر ٩ من مسار متطاول أو بيضاوى يتقاطع مع مسار الأرض إلى مسار يتقاطع مع مسار المريخ بتطبيق تلك المعارف، وبينما نجد أن معرفتنا بكل آليات حركة الأجرام غير كاملة، إلا أن المعارف النظرية والتجريبية التى بحوزتنا حتى الآن تجعل بمقدرتنا تقييم العوامل التى ذكر فليكوفسكى أنها أثرت على الأجرام، فحتى يوضع كل من الزهرة والمريخ فى أفلاكهما الحالية المنتظمة، فإن ذلك يتطلب وجود قوة خارجية عنهما أقوى آلاف المرات من القوة المطلوبة لتغيير اتجاه محور دوران الأرض حول ذاتها، أو التى يمكن أن تحدث اضطراباً فى دورانها حول ذاتها، أو التى يمكن أن تدمر مساحات من الأرض. لا يوجد أى عنصر أو عامل من الممكن أن يبذل مثل تلك القوة الهائلة الخارجة عن نطاق الكوكبين. من الممكن أن يتخيل المرء جرمين فى حجم الكواكب المتوسطة يقتحمان المجموعة الشمسية، أحدهما يقترب من الزهرة، والآخر يقترب من المريخ، بطريقة تؤثر عليهما وتضعهما فى مسارات منتظمة شبه دائرية، ثم يغادران المجموعة الشمسية بعد أن ينجزا تلك المهمة دون أن يتركا أثراً، أو يمكن للمرء أن يتخيل مجموعة أو جماعات من الملائكة يدفعون بهما - بالكاد - إلى المكان الملائم، وكلا الافتراضين لا يمكن تصديقهما.

إن فلكى الزهرة والمريخ الحاليان من الأفلاك العادية، وكلاهما له من المواصفات ما يؤيد ثباته من آماد طويلة من الزمن تقدر ببلايين الأعوام. مسار الزهرة يظهر تأثراً ضعيفاً بمسار الأرض. ونفس التأثير متبادل بين المريخ وعديد من الكويكبات، وهى صفات وتأثيرات يمكن تفسيرها وفهمها كديناميات للمسارات، والأفلاك التى تكونت عليها المجموعة الشمسية، وثبات الأجرام فى مساراتها لا يشى بأى تعديلات حديثة فى مساراتها.

من المستحيل الزعم أن الصدامات بين الأجرام الفضائية لا تقع أو لا تحدث، فعديد من الفوهات الهائلة على قمر الأرض والمريخ وعلى الأرض تشهد بوقوع مثل تلك الحوادث. من المحتمل، إلا أنه ليس مؤكداً ولا

يقينياً، إن قمر الأرض وأقماراً أخرى عديدة للكواكب قد تم أسرها حين اقتربت من الكواكب، حتى كوكب بلوتو ذاته وقع فى أسر كوكب نبتون لبعض الوقت ثم انفصل بعد ذلك، وبالرغم من تقاطع مساريهما، إلا أنهما لن يصطدما أبداً، بسبب قوى الجذب التى تشبه رقصة «الفالس». الأرض ذاتها، كان لها اقترابات خطرة من عائلة كاملة من الكويكبات، وكذلك وقع اقتراب خطر من المذنب هالى عام ١٩١٠ (مذنب القرن العشرين).

حقيقة، تصطدم الأرض كل عام بتيارات من الشهب التى تعد حطام وبقايا مذنبات فانية. إن احتمال حدوث ذلك ليس موضع جدل، من وجهة نظر ديناميكية بحتة، هناك تساؤلات يعتد بها. فمعارفنا عن العوامل، والجاذبية، وخلافه التى تؤثر على حركة الأجرام السماوية كلها تنفى نفياً مطلقاً أن الزهرة والمريخ كان لهما مسارات تتقاطع مع مسار الأرض فى عصور فلكية حديثة نسبياً، ومعلومات وملاحظات الرصد المتكرر والمتوفرة لنا تفرض بقوة أنه لم يوجد أى جرم بحجم كوكبى قد مر بالقرب من الأرض على مدى عصور تاريخية، بل ربما لعصور أقدم كثيراً من ملايين السنين.

أنا متعاطف مع محاولات فليكوفسكى لحل ألغاز ثقافية وچيولوچية، إلا أن حلول تلك الألغاز لن يأتى من تخميناته بوقوع صدامات كوكبية.

الدلائل المسمارية على وجود كوكب الزهرة

بيتر ج. هوبر

طبقاً لما يذكره إيمانويل فليكوفسكى فإن كوكب الزهرة قد انفصل عن كوكب المشترى فى وقت ما قبل منتصف الألف الثانى قبل الميلاد، وأنه بعد انفصاله راح يتخبط فى مسارات خطرة فى فضاء المجموعة الشمسية لعدة قرون، ثم استقر فى فلكه الحالى فقط بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد.

وقدم فليكوفسكى أدلة تاريخية ومعمارية آثارية يرى أنها تثبت صحة تخمينه، ولكن لسوء الحظ فإن حججه وأسانيدة مستمدة من مصادر هامشية قديمة، يعتمد فى جانب منها على ترجمات لنصوص قديمة ثبت خطؤها (الترجمات) وبالتالى فقدت حجيتها.

وعدا ذلك، فإنه كثيراً ما يلجأ إلى إنطاق النصوص القديمة بما لا تعنيه، ثم يرتب على ذلك رؤاه، والأمر ذاته فيما يخص الآماد الزمنية، والأماكن (على سبيل المثال، فسر النص الشهير الذى اكتشفه كوجلر والمرقم SH - 272 – عن الحسابات القمرية للأعوام ١٠٤ ق.م حتى ١٠١ ق.م الخاص بمنطقة بابل، بأنه إنما يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وأنه يخص الرصد فى مدينة نينوى، ويستخدم ذلك النص ليدعم وجهة نظره عن الأحداث التى يدعى أنها وقعت بين ٧٤٨ ق.م و ٦٨٨ ق.م).

وأنا أقر أن النتائج التى يتحدث عنها فليكوفسكى قد تحتوى على بعض الحقيقة، حتى لو كانت فرضياته ونظريته على خطأ.

إلا أن المصادر المسمارية الأولى التى ترجع إلى الألف الثانى والثالث قبل الميلاد لا تؤيد أيا من تخميناته وافتراضاته، بل إنها على العكس من ذلك تتناقض معها تمام التناقض.

بوجه خاص، سأقدم أدلة على التأكيدات التالية:

١- أن كوكب الزهرة كان معروفاً كنجم الصباح والمساء بكل يقين عام ١٩٠٠ ق.م، وأن فى نصوص جدارية أخرى تعود إلى زمن قريب من عام ٣٠٠٠ ق.م، كانت الزهرة تذكر على أنها نجم له علاقة بشروق الشمس وغروبها؛ أى أن الكوكب كان فى ذلك الوقت فى فلكه ومساره الذى هو عليه الآن بين كوكب الأرض والشمس.

٢- أنه طبقاً لرصد الكوكب فى تسجيلات القرن السادس عشر قبل الميلاد (١٥٨٠ ق.م حتى ١٥٦٠ ق.م) فإن تحركات الزهرة تتفق مع مسارها التى هى عليه الآن، وينطبق نفس الأمر على درجة تألق الكوكب قديماً وحديثاً.

معلومات تمهيدية

ابتدعت الكتابة المسمارية عام ٣٠٠٠ ق.م، وأقرب نص مسمارى مازال موجوداً يعود إلى عام ٧٤.م، وظهر علم الفلك البابلى متأخراً، والمعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى أن الرصد الفلكى المنتظم والمستمر بدأ من عام ٧٥٠ ق.م، ولا نعرف إلا القليل عن علم الفلك البدائى فى بابل فى الألف الثانى قبل الميلاد، باستثناء الرصد الشهير لكوكب الزهرة فى عصر «عميزا دوجا» (القرن السادس عشر قبل الميلاد)، وبعض التنبؤات الفلكية القديمة، ولا توجد إلا نصوص فلكية قليلة - من عام ١١٠٠ ق.م، أو أقدم- خاصة بالنجوم التى تشرق وتغرب مع الشمس فى شهر معين، وبعض التخمينات عن حجم الكون، ولا شىء عدا ذلك.

ومن الممكن أن نستخلص بعض المعلومات الإضافية عن العصور الأقدم من النصوص الأسطورية والعقائدية التى تعود بنا إلى زمن يلى مباشرة بداية الألف الثانى قبل الميلاد، حين كانت اللغة السومرية تندثر كلغة حديث منطوقة فى بابل وتحل محلها اللغة الأكادية، أغلب الأساطير السومرية حفظت من ذلك العصر على ألواح طينية، إلا أنها تتضمن

معارف كانت شفاهية تعود إلى عصر أقدم من العصر الذى دونت به.

كانت أشهر وأبرز ربة معبودة فى مجمع الآلهة السومرى هى الربة إنانا (كلمة سومرية تعنى ملكة السماء)، وهى ربة عرفت بعد ذلك على هيئة ربة الشعوب السامية عشتار. كانت إنانا هى ربة ثلاثة مجالات رئيسية فى حياة شعوب المنطقة، فقد كانت ربه الحب، وربة الحرب، وربة كوكب الزهرة.

إثبات رصد كوكب الزهرة فيما قبل المملكة البابلية القديمة

هناك إشارات كثيرة مباشرة وأخرى غير مباشرة تشير - جميعاً - إلى الأصل السماوى للربة إنانا، على سبيل المثال، توجد نسخة سومرية لنص يتحدث عن «نزول إنانا للعالم السفلى»، وهى نسخة لنص محفوظ على ألواح طينية من بدايات الألف الثانى قبل الميلاد، وتقدم إنانا نفسها فى ذلك النص إلى حارس العالم السفلى قائلة: «أنا إنانا، من العالم الذى تشرق فيه الشمس» (وتعنى نجم الصباح).

أما أقدم نص أدبى مباشر فنجده فى تراتيل رائعة موجهة إلى إنانا بصفتها ربة كوكب الزهرة، وزمن تلك التراتيل معروف؛ لأنها تتضمن اسم الملك إدينداجان الإيسينى (١٩٠٩ - ١٨٨٩ ق.م)، والذى أضفيت عليه صفات رفيقها وقرينها دوموزى، والنص ينتمى إلى نصوص شعائر الزواج المقدس، الذى يحل فيه الملك والكاهنة محل الزوجين الإلهيين.

فى ذلك النص، تبرز بوضوح الطبيعة السماوية للربة إنانا : «حين تبرز إلى السماء مثلما تبرز الشمس ويبرز القمر»، ويبرز النص بوضوح وتكرار الثنائية الظاهرية للربة إنانا كنجمة المساء «فى المساء هى النجم الغريب، نجم الزهرة»، وكنجمة الصباح «النجم الغريب، نجم الزهرة، ملكة الصباح»، وهكذا نجد أن كوكب الزهرة كان موجوداً فى مدار وفلك ثابت يقع بين الأرض والشمس حوالى عام ١٩٠٠ ق.م، فالكواكب التى تقع بين

الأرض والشمس هى التى يمكن رؤيتها من الأرض على هيئة نجم الصباح ونجم المساء (ولا تظهر فى الليل أبداً بعد الغروب).

من النادر أن نجد نصوصاً تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولا أتوقع أن بإمكاننا أن نتعقب الأصل السماوى لإنانا/ عشتار إلى زمن أبعد من ذلك، أى إلى الأسرات الاكادية مثلاً (٢٣٥٠ ق.م)، على أى حال، فإن البحث الدائم والدؤوب فى الأدب الأشورى ونصوصه التى تتحدث عن عصور أقدم قد أظهر جوانباً مثيرة.

إن أقدم وثيقة مدونة كتابة على ظهر الأرض كانت قد اكتشفت فى منطقة أوروك (فى منطقة ما بين النهرين)، وتصادف أن تلك المنطقة كانت مركز عبادة الربة إنانا، وتعود هذه الوثائق من الألواح الطينية إلى بدايات الألف الثالث قبل الميلاد، وهى تمثل مرحلة مبكرة جداً من بداية التدوين الكتابى، ولبدائيتها لم يتم التوصل إلى حل رموزها كلها حتى الآن، إلا أن نصف العلامات المستخدمة فى كتابة النص ظل مستعملاً فى اللغة المسمارية حتى وصلت إلى اكتمال نموها ونضجها، لذلك أمكن قراءتها بلا أدنى شكوك فى صحتها، وتم اكتشاف الألواح فى المستوى الرابع من الحفر (وهو أعمق مستوى فى الأحافير التى استخرجت منها ألواح مكتوبة)، ونتبين منها علامات «نجم» و «إنانا». وحيث أن رمز النجم كان يوضع كتعريف قبل إسم الآلهة فى العصور اللاحقة، فإن ذلك لا يعنى فى النصوص المشار إليها أكثر من «الربة إنانا»، ولكن أحد ألواح المستوى الثالث، ذكر عند نهايته «النجم، إنانا، الشمس المشرقة» وفى لوح آخر «نجم، الشمس الغاربة، إنانا». ويبدو أن النصين كانا يحتويان على قوائم التقدمات. من الواضح أن النصوص لها علاقة بعلم الفلك القديم، إلا أن الترجمة الكاملة لنصوص الألواح مازالت غير مكتملة.

ويخمن «فالكنشتاين» أن تلك التقدمات كانت تقدم فى مناسبات الظهور أو الغروب للنجم إنانا، أى حين يبزغ لأول مرة فى ظهوره الدورى وعند اختفائه آخر مرة فى دورته الثابتة صعوداً وهبوطاً عند الأفق. وعلى

ضوء الفقرة الخاصة بنزول إنانا إلى العالم السفلى التى ذكرناها سابقاً، فإنه يبدو منطقياً أن تلك التقدمات الطقسية كانت تقدم إلى إنانا كنجمة الصباح ونجمة المساء على التوالى، وأخيراً، وطبقاً لما يذكره «فالكنشتاين»، هناك لوح (غير منشور) من المستوى الثالث ب يذكر «عيد فى يوم غروب إنانا».

وبضم المعلومات بعضها إلى بعض، تكون تلك النصوص برهاناً ثابتاً أن الزهرة، النجم إنانا، كانت معروفة مباشرة بعد عام ٢٠٠٠ ق.م من واقع نصوص مسجلة، ويبدو أن الكوكب كان معروفاً جداً فى شكليه كنجم الصباح ونجم المساء.

البراهين البابلية و ما بعدها عن كوكب الزهرة

سنتناول هنا أشهر رصد لكوكب الزهرة. والذى تم فى عصر عميزا دوجا، ملك بابل والمذكور فى سلسلةالنبوءات والبشائر المسماة «إنوما أنو إنليل»، وجاءت التسمية من الكلمات الأولى من اللوح الأول من سلسلة الألواح. إن سلسلة «النبوءات والبشائر» التى أعرضها هنا، تشير إلى مجموعة من عدد من الألواح الطينية تحتوى على نصوص مكونة من قائمة طويلة من أحداث مزدوجة متقابلة، أى توقع وقوع أحداث معينة إذا تحقق وضع معين للنجوم. كانت تلك التنبؤات أو النبوءات تغطى أنواعاً كثيرة من الأحداث، وهى مدونة على شكل عمودين متقابلين يمكن أن نشير إلى العمود الأول بحرف إكس وإلى العمود المقابل بحرف ياء، ومن الممكن أن تكون إكس عبارة عن صفات كبد الحيوان المضحى به، أو ولادة متعثرة، أو سلوكيات شاذة تظهر على الحيوانات، أو ظاهرة فلكية أو نيزكية على سبيل المثال، وكذلك الأحداث المقابلة، أى الياءات، من الممكن أن تتفاوت أيضاً تفاوتاً واسعاً: من حال الطقس، إلى المحاصيل، حظ شخص، شئون مملكة ما داخلية أو خارجية،.... وهكذا.

أما التشاؤم فى التنجيم فهو من نصيب العامة، حيث كانت النجوم واضحة فى سماء البلاد كلها فى منطقة ما بين النهرين.

ويحتوى اللوح الثالث والستون من سلسلة ألواح «إنوما أنو إنليل» على إشارة تشاؤم تعتمد على الرصد الفعلى لكوكب الزهرة، وهو يسمى فى ذلك النص نينسياناً («ملكة السماء المتوهجة»).

والنص الذى يرصد تحركات الزهرة يغطى مدى زمنى يصل إلى واحد وعشرين عاماً من الرصد المتصل باستثناء توقفين : التوقف الأول كان قصيراً فى النبوءة الثانية فى العام الثامن، التوقف الثانى كان أطول وكان فى العام الثامن عشر من الرصد، ووضع النص بدلاً منه جدول بدائى لحساب أوقات ظهور واختفاء الزهرة.

وتعرف «كوجلر» على عام بعينه كانت الزهرة فيه فى طور معين من أطوار ظهورها وهو العام الثامن من الرصد، وكان العام الوحيد الذى حمل إسم عام «العرش الذهبى»، وقد حدث أنه كان العام الثامن من حكم «عميزا دوجا» ملك بابل، والذى دام حكمه واحداً وعشرين عاماً. وبذلك يتضح أن الواحد وعشرين عاماً التى حكمها عميزا دوجا كانت هى نفس الفترة التى رصدت فيها الزهرة، وسجلت نتائج الرصد على تلك السلسلة من الألواح، ويؤيد ذلك بقوة نموذج الشهور المضافة، وهى الشهور التى كانت تضاف إلى الشهور القمرية حتى تكون الشهور متوافقة مع فصول العام المناخية والزراعية.

الأعوام ذات الشهور المضافة

تغاضى كل من «فليكوفسكى» و «روز» عن مغزى الشهور المضافة، وفى الحقيقة، كانت الشهور المضافة اختباراً حقيقياً لا فقط فى نسب ألواح الزهرة إلى عصر «عميزا دوجا»، ولكن أيضاً فى كشف ما قالت روز عنه «ألغاز المنجمين المحيرة».

كان التقويم البابلى يعتمد على الشهور القمرية، كان الشهر يبدأ فى

المساء حين يتم رصد أول ظهور للهلال القمرى الوليد. وهكذا، كان طول الشهر يتناوب ويتفاوت ما بين ٢٩، ٣٠ يوماً؛ أى أن اثنى عشر شهراً قمرياً يصل مجموع أيامها إلى ٢٥٤ يوماً. وبانتظام، كل ثالث عام، كان البابليون يدخلون الشهر الثالث عشر حتى يحافظوا على اسم كل شهر متفقا مع فصول العام.

قبل عام ٥٠٠ قبل الميلاد، كانت الشهور المضافة تتم بطريقة عشوائية وطبقاً لمرسوم ملكى، وتم العثور على لوح أصلى يحتوى على المرسوم الملكى الصادر عن الملك «حمورابى» (سبق عصر عموزا دوجا بقرن ونصف)، وكان موجهاً إلى الحاكم «سيندنام» فى «لارسا» وكان نصه: «إلى سيندنام: هكذا يأمر حمورابى: الشهر القادم سنعتبره أولولو الثانى [السادس مكرر]، وبدلاً عما هو معروف لكم من أن الجزية لابد أن تصل بابل فى يوم ٢٥ تشريت [الشهر السابع]، فإنها لابد أن تصل ٢٥ من أولولو المكرر»

كان الشهر المضاف إما أن يزاد بعد الشهر السادس من العام مثلما حدث فى ايلولو المكرر، أو أن يزاد فى نهاية العام باسم ادارو المكرر.

وبذلك يصبح لدينا فى فترة حكم عميزادوجا سبعة أو ثمانية شهور مضافة على طول امتداد فترة حكمه التى ربت على واحد وعشرين عاماً.

تاريخ حكم عميزا دوجا

بعد نحو ثلاثين عاماً من انتهاء حكم «عميزا دوجا»، أغار الملك الحسينى «مورسيليس» الأول على بابل، وأنهى حكم الأسرة البابلية الأولى. بعد ذلك، حكم بابل عدد من الملوك القسطينيين، إلا أنه من غير المعروف عدد الأعوام التى تداخل فيها حكم الملوك القسطينيين مع الأسرة البابلية الأولى.

وعلى ذلك، بينما نجد أن تتابع عهود الشرق الأدنى وملوكهم معروف جيداً (بمعدل خطأ لا يتجاوز بضعة أعوام) حتى عام ١٤٥٠ ق.م، وبينما

نجد أن تتابع تواريخ حكام المنطقة معروف على مدى ثمانمائة عام الواقعة بين حكم سارجون الأكادى وإغارة «مورسيليس» على بابل، نجد أن هناك فجوة غير معروف أسماء ملوكها، تتراوح ما بين خمسين إلى مائتى عام تقع ما بين الفترتين المذكورتين.

فلو توصلنا إلى تحديد بداية حكم «عميزا دوجا» بدقة من خلال التسجيلات الفلكية التى تمت فى عهده والمحفوظة على سلسلة الألواح الطينية، سنتمكن من سد الفجوة ويتضح تتابع العهود على مدى ألف عام كاملة.

حالياً، لا يوجد أمامنا غير أربعة احتمالات تتوافق كلها بدرجة ما مع التاريخ والفلك. هذه الاحتمالات هى: أن حكم «عميزا دوجا» بدأ عام ١٧٠١ ق.م، أو ١٦٤٥ ق.م، أو ١٦٣٧ ق.م، أو ١٥٨١ ق.م. من تلك الاحتمالات الأربعة نجد أن إحتمال بداية حكمه فى ١٧٠١ ق.م يخلق فترة حكم أطول مما هو معروف من سنين حكم الأسرات الحسينية لبابل، بينما نجد أن أى تاريخ بعد ١٥٨١ ق.م يجعل من فترة حكم الأسرات الحسينية لبابل أقصر من حقيقتها.

كل الأبحاث الفلكية السابقة التى حاولت التوصل إلى سنة بداية حكم «عميزا دوجا»، من خلال حسابات دورات كوكب الزهرة، بدءاً من عصرنا الحالى ورجوعاً بالزمن حتى دورات الزهرة المسجلة على الألواح الطينية فى عصر «عميزا دوجا» عانت من نقطة ضعف تتعلق بحساب تاريخ أول (أو آخر) رؤية لكوكب الزهرة تلت (أو سبقت) الاقتران الدورى للزهرة. لقد تم حساب تلك التواريخ بافتراض أن الزهرة كانت مرئية ذات مساء أو صباح معين فى حالة وجود الشمس فى موضع معين من الأفق بالنسبة للزهرة (اقتران الزهرة)، وتحت الأفق الحسابى فى لحظة ظهور الزهرة.

والأفق «الحسابى» هو ذلك الأفق الافتراضى عندما يكون سطح الأرض مسطحاً، وخالياً من أى عوائق أو تضاريس طبوغرافية مثل التلال والجبال أو الأشجار، الخ.

من بين التواريخ الأربعة المفترضة لابد من استبعاد كل من التاريخين الأوسطين لأسباب إحصائية زمنية باحتمال نسبة خطأ ۰.۰۱٪، وهى نسبة تكاد أن تكون منعدمة، وبالنسبة لعام ١٦٤٥ ق.م، نجده يبدو سابقاً على حكم عميزا دوجا (بحساب يومين زيادة فى كل إقتران للزهرة على طول الفترة الزمنية حتى عصرنا)، وينطبق ذلك على الأحوال الأربعة لرؤية الزهرة (أول أو آخر ظهور، وإن كان صباحاً أو مساءً)، وبالنسبة لعام ١٦٣٧ ق.م، نجد أن الموقف ينعكس، وأن تاريخ الرصد يبدو متأخراً جداً. الاحتمالان الآخران يتغلبان على كل المصاعب المذكورة، وعلى ضوء البراهين التاريخية نجد أن عام ١٥٨١ ق.م هو أنسب التواريخ ملائمة لبداية حكم عميزا دوجا.

قد نتوقف برهة لنلاحظ أنه حين يكون هناك معدل خطأ ± ٢ يوم عبر تسجيلات ثلاثة آلاف وخمسمائة عام لكل اقتران لكوكب الزهرة، فإن ذلك إنما يدل على ثبات وإحكام دورة الزهرة، لذلك لابد لأشد المتشككين أن يقتنع أن بيانات رصد كوكب الزهرة قديماً تتفق تماماً مع حسابات رصدها فى عصرنا باستخدام الآلات والأجهزة البصرية الحديثة الدقيقة.

لتلخيص البيانات المدونة فى ألواح عميزا دوجا، فإننى أقرر أنه من بين خمسين تاريخاً مدوناً فى رصد مراحل دورة الزهرة، هناك تسعة تواريخ لا تتفق نهائياً مع أى دورة. (ربما كان ذلك راجعاً إلى خطأ فى التسجيل على الألواح)، و ٦ تواريخ بتشكك طفيف فى صحتها أو دقتها، ونصف تلك الأخطاء من المكن أن نجد لها تفسيراً مقبولاً. على سبيل المثال، نجد مدوناً فى الحالات الثلاث التى كانت فيها الزهرة غير مرئية لوجودها فى الاقتران السفلى أن كل فترة إختفاء كانت سبعة أيام، فإما أن تاريخ بداية الاختفاء، أو تاريخ ظهورها من جديد، أو كلاهما، لم يكن دقيقاً، ويجعلنى ذلك أتساءل إن كان من قام بنقش الألواح إعتاد قبل ذلك على أن فترة الاختفاء سبعة أيام، فوضعها دون تدقيق كأمر اعتاده، أما الخمسة والثلاثون تاريخاً المتبقية فى قوائم الرصد (وهى تمثل ٧٠٪ من

إجمالى تواريخ الرصد على الألواح) فإنها تتفق تماماً مع النسق الذى تم تدوينه فى العصور البابلية المتأخرة.

وأجمل النتيجة النهائية فى أنه على عكس ما ذكر فليكوفسكى فى فرضياته، نجد أن المعلومات المتوفرة عن كوكب الزهرة من عصر عميزا دوجا تتفق تماماً مع الرصد للكوكب، مع الأخذ فى الاعتبار غياب الدقة الشديدة فى الرصد فى العصور البابلية لاعتماد الراصدين على رؤية العين المباشرة.

الخلاصات:

النتائج الرئيسية التى استخلصناها من الدراسات التقنية والحسابية المطولة يمكن تلخيصها فيما يلى: اتضح بمعاونة الوسائل الاحصائية الدقيقة أن الاحتمالين الأوسطين لبداية عصر عميزا دوجا (أى أن البداية إما كانت ١٦٤٥ ق.م، أو ١٦٣٧ ق.م) لا يتفقان مع حسابات دورة الزهرة المسجلة على الألواح الطينية القديمة فى عصر عميزا دوجا، وأن الاختلاف يظهر نماذج مترابطة منطقياً. وإذا كان الانتقال إلى الماضى بحساب دورات الزهرة يختلف بمقدار ± يومين فى كل دورة، فإن ذلك يبين بتفرد أفضل من أى دليل آخر أن حسابات دورات الزهرة بالرغم مما شابها من بعض الأخطاء عند التسجيل على الألواح، مازالت تحتوى على معلومات دقيقة وصحيحة فى ملاحظة دورات كوكب الزهرة فى العصر الذى سجلت فيه. من جهة أخرى، فإن كلا من الافتراضين، الافتراض الطويل (١٧٠١ ق.م)، والقصير (١٥٨١ ق.م) كبداية لحكم عميزا دوجا يتفقان مع الدورات المذكورة لكوكب الزهرة فى ذلك العصر (التاريخ الأقصر أكثر اتفاقاً، إلا أن فارق الحسابات لا يحسم الأمر).

بينا على وجه الخصوص، بعكس ما افترضه فليكوفسكى، أن سجلات دورات الزهرة تتفق مع المسار الحالى للكوكب، مع الأخذ فى الاعتبار غياب الدقة المتناهية فى الرصد فى العصور البابلية القديمة.

علم أفلاك الكواكب
ونظرية الكوارث الفليكوفسكية

دافيد موريسون
معهد الفلك - جامعة هاواى

مقدمة

منذ أن نشر كتاب «عوالم فى تصادم» عام ١٩٥٠م، ظل فليكوفسكى ومؤيدوه يصرون على أن التراث الشفاهى للشعوب وسجلات الحضارات القديمة تدل على وقوع اقترابات خطرة أو احتكاكات كوكبية بين كل من الأرض، والقمر، والزهرة، والمريخ، فى الفترة المحصورة بين بداية الألف الثانى قبل الميلاد حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد، ويؤكدون أن هناك جوانب كثيرة چيولوچية وفلكية تؤكد حدوث تلك الكوارث بدلائل مؤكدة وأن ذلك يدعو إلى إعادة ترتيب أحداث التاريخ القديم، إلا أن أغلب علماء الطبيعة (خاصة علماء الفلك) اعترضوا بشدة على ادعاءات فليكوفسكى، وترتب على ذلك حدوث مشادات ونزاعات غير منهجية على مدى ربع قرن منذ أن نشر الكتاب، وبرغم عدم اتفاق الطرفين المتنازعين على أى جزئية من التى وردت بالكتاب، إلا أنهما اتفقا على أن النظريات قد تقبل، أو ترفض، أو تعدل على أسس من البراهين العلمية، لا على أسس من الفلسفة والأساطير والمعتقدات الدينية. لقد قدم فليكوفسكى أفكاره على أنها علمية، وتحدى ومعه مؤيدوه أى اختبارات علمية تثبت عكس ذلك؛ وعلى ضوء ذلك التحدى سأناقش الأدلة التى تراكمت من دراسة قمر الأرض وكذلك من كواكب المجموعة الشمسية على ضوء نظرية الكوارث والحوادث الكوكبية فى العصور التى تعد قريبة بمعايير الأزمان الفلكية.

أود أن أؤكد بداية أن مسألة الصراع بين فليكوفسكى وعلماء الفلك والچيولوچيا لا يعد صداماً مأساوياً ولا فاجعاً فى حد ذاته.

من الواضح أن أسطح القمر والكواكب مليئة بالندوب والحفر الهائلة الناتجة عن ارتطام الكويكبات والنيازك بها؛ وتعرف علماء چيولوچيا الأرض في الأعوام الأخيرة على العوامل السيادية التي تسبب الأحداث المأساوية المفاجئة، مثل انفجارات وثورات البراكين، والحمم البركانية الهائلة المتدفقة، والتي شكلت تضاريس سطح الأرض، وحتى فيما يخص مجال قوانين ميكانيكا وآليات حركة الأجرام السماوية، لا يوجد أدنى شك في حدوث صدامات بين الكويكبات الشاردة، كما حدثت صدامات بين أجرام كوكبية أخرى عند بداية تكون المجموعة الشمسية.

عدا ذلك، فإننا لا نعرف إن كانت مسارات وأفلاك الكواكب قد ظلت على مواضعها ومساراتها التي هي عليها الآن، أم أن قوى جاذبة أثرت عليها على مدى مئات الملايين من السنين، وغيرت من أفلاكها التي تدور فيها. المشكلة التي نواجهها أمام نظرية فليكوفسكي هي مشكلة مدى زمني. إنه يختزل ويكثف ما يمكن أن يتم خلال بلايين السنين في المجموعة الشمسية ويختزله لكي يتم خلال بضعة قرون، فالجبال التي يؤمن الچيولوچيون أنها تكونت على مدى مائة مليون عام، يرى فليكوفسكي أنها تشكلت خلال عدة أيام، وخلال الأيام نفسها غلت أعماق القمر وتصاعدت من باطنه فقاعات غازية هائلة إنفجرت على السطح، وشكلت الفوهات القمرية التي نراها الآن على سطح القمر، كما اصطدمت أجرام وصخور هائلة بسطحه في الأيام نفسها وسببت مزيداً من الفوهات والحفر، وتحت سمع وبصر أسلافنا الذين كانوا يشاهدون تلك الدراما الكونية، كانت الكواكب تغير مساراتها من عام لآخر فاربكت منجمي بابل والصين في العصور المعنية.

مثل تلك الافتراضات تضرب في الصميم أسس علم الفلك، وعلم الچيولوچيا الأرضية، فهي تفترض أن النظام كله، من تزمين چيولوچي، إلى قوانين ميكانيكا الفضاء التي توصل إليها «إسحق نيوتن»، وچيولوچيا القمر مبنية كلها على أوهام. إنه إذن ذلك المفهوم عن كوارث قريبة جداً

زمنياً الذى يفصل فليكوفسكى فصلاً تاماً عن التيارات الأساسية للعلوم الرئيسية.

لا أعتقد أن فليكوفسكى، وأغلبية مؤيديه يدركون مدى ثورية تلك الافتراضات. إنهم يصرون بالرغم من تناقض المنطلقات والأسس أن فرضياته تتفق بصفة جوهرية مع العلوم والمعارف التى توصل إليها العلماء. وكمثال على ذلك، تخطى فليكوفسكى كل الحدود فى مقدمة كتابه "عوالم فى تصادم" ليعبر عن إيمانه بـ«أن نظرية الكوارث الكونية، من الممكن إذا تطلب الأمر، أن تتوافق مع قوانين ميكانيكا، وآليات حركة الأجرام السماوية التى توصل إليها نيوتن». وعلى صفحات جريدة «المعرفة»، وهى جريدة مؤيدة لأفكار فليكوفسكى كانت تصدر ما بين ١٩٧٢، ١٩٧٤م) انتشرت الإدعاءات أن النتائج التى توصلت إليها برامج استكشاف الفضاء تثبت مرة بعد أخرى صحة افتراضات فليكوفسكى، وليس لدى من الأسباب ما يجعلنى أتشكك فى صدق تلك العواطف الجياشة المليئة بالحماس، إلا أنه فى الوقت الذى تتشابك فيه الأمور وتتعقد نجد أن كم المعلومات الصحيحة مدفون بين ركام الطنين والمديح الزائف على صفحات صحف تدعى أنها علمية، ومن المعروف أن غير العلماء يفشلون فى إدراك الهوة التى تفصل فليكوفسكى عن عالم العلوم. وربما يعون ما أعرضه هنا لعبور تلك الهوة ويضعون ظاهرة فليكوفسكى فى موضعها الصحيح.

بالرغم من لجوء فليكوفسكى ومنتقديه إلى التحكيم العلمى لكشف التباين الواقع بينهم، إلا أنه على الجانب العملى يبدو أن الجانبين ليس لديهما ما يكفى من الفهم للجانب المضاد، ولا حتى للتحكيم العلمى. أكثر المصاعب فى تناول ذلك العمل ينشأ عن النطاق الواسع الذى تناوله فليكوفسكى والمستجدات التى يفترضها، والأفكار الجديدة التى يطرحها. لقد اختار منفرداً أن يهاجم الأسس الجوهرية لعلوم الفيزياء والفلك والچيولوچيا والآثار، إنه لم يلق فقط بالمفاهيم التقليدية جانباً، بل قام

باعتداء واسع النطاق على كل المفاهيم العلمية التى تم التوصل إليها حتى منتصف القرن العشرين، ومنهجه الذى يتبعه منهج انتقائى، يعتمد فى ذلك على تعددية الجوانب التى يتناولها أكثر من اعتماده على النقد التفصيلى المنهجى العلمى.

عدا ذلك، نجد أن كتاباته موجهة إلى القارئ العادى، وغالباً ما يستعمل أسلوباً تأثيرياً أكثر من استخدامه لغة موضوعية. على سبيل المثال، حين يتناول مسألة الغطائين القطبيين لكوكب المريخ، نجد أن استخدامه التبادلى لمصطلحى كربوهيدرات وهيدروكربونات، يترك القارئ المهتم مشوشاً تماماً فيما يخص ذلك الجانب، ومثل ذلك تلاعبه بالشقوق والفوالق، والفوهات، والفقاعات الغازية الهائلة المنبعثة من جوف القمر حين التهبت أعماقه وانصهر سطحه كجانب من افتراضاته النظرية التى يقدمها.

عدم دقته فى الجمل اللغوية أحد أكبر المصاعب والمشاكل التى تواجه أى امرئ يحاول فهم ما يفترضه فليكوفسكى، صياغاته خادعة ومضللة.

دعونا نحاول على أى حال تقديم النقد الموضوعى الذى يأمله، بعملية طويلة من الصواب والخطأ، توصل العلماء عن طريق المنهج التجريبى إلى منهج علمى دقيق لتمحيص الأفكار الجديدة، أو التعديلات التى يتقدم بها أى امرئ لتطوير فرضية علمية، والعملية المنهجية لأى تمحيص منهجى تمضى على خطوات محددة:

١- من المتوقع أن تكون النظرية الجديدة فى إطار متوافق مع الملاحظات والتجارب التى سبقتها. على سبيل المثال، نظرية «إينشتين» عن الجاذبية تمت صياغتها من البداية بحيث تكون متوافقة مع قوانين «نيوتن» تحت مختلف الظروف.

٢- لابد أن تتوفر لأى نظرية جديدة الدقة الكاملة، وأن تكون مقننة كمياً فى المواضع التى تختلف فيها مع النظريات التى سبقتها، وبذلك يمكن اختبار صحتها مقارنة بما سبقها من نظريات. كما يفترض أن أى

نظرية جديدة تقدم تنبؤات جديدة يمكن اختبار صحتها لإثبات أنها تتفق بالفعل مع واقع القوانين وحقائق الكون أكثر من النظريات التى سبقتها.

٣- الرصد الصحيح أو التجربة الصحيحة ترجح نظرية على أخرى، وهى كافية لقبول نظرية ورفض أخرى (ولا يعنى ذلك أن نحكم أن نظرية بأجمعها خطأ وأخرى بأجمعها صواب بشكل مطلق، ولكن الصحيح أن واقع الوجود يتفق مع نظرية أكثر من اتفاقه مع أخرى لا تتطابق معه تمام التطابق).

٤- وأخيراً من جوهر العلم أن يتم فحص واختبار أى نظرية جديدة بصورة علنية واضحة، وأن يقوم على ذلك محكمون معروفون بتمكنهم من الجوانب موضع الاختبار والتمحيص، ويتم ذلك عادة من خلال لقاءات وندوات واجتماعات وبالنشر فى الصحف العلمية المتخصصة.

على الجانب العملى، لم تخضع نظريات فليكوفسكى، ولا ردود منتقديه للمعايير السابقة، وذلك لأن: أولاً: النطاق الذى شملته نظرياته نطاق واسع جداً، ولم يحاول فى أى موضع أن يثبت توافقها مع الكم اللانهائى المتوفر لنا من علوم ومعارف، مؤكدة وثابتة.

بدلاً من ذلك، كان على درجة عالية من الانتقائية للمعلومات التى اختارها مع ابتسار بعضها لإثبات فرضياته على الورق، وتجاهل تجاهلاً تاماً الانجازات العلمية لكثير من العلماء المرموقين. فضلاً عن ذلك، خلت نظريته من التكميم، وبالتالى لا يمكن إخضاعها للتجريب أو الرصد لإثبات صحتها أو خطئها.

بمعنى آخر جاءت نظريته مرسلة دون أرقام يمكن إخضاعها للتجريب.

مجرد استمرار وامتداد الجدل على مدى خمسة وعشرين عاماً لمعرفة ما يعنيه بافتراضه : أن الزهرة كوكب ساخن «متوهج»، يوضح ما أريد قوله وما أعنيه.

بالفعل، يعتمد كل عمله - بشكل كبير - على مادة تاريخية قديمة، حتى أنها لا تترك أى احتمال لإجراء تجارب عليها، لاثبات مدى صحتها فى عصرنا الحالى.

على سبيل المثال، فإن السيناريو الذى تخيله عن تحركات الكواكب يتطلب إثبات وجود قُوى قديمة كانت تؤثر على حركة الكواكب فى ذلك العصر القديم، إلا أنها لم تعد موجودة الآن، ومع ذلك لم يقدم أى دليل يفصح عن كنه تلك القوى ومقدارها، إن كانت قد وجدت، ولا كيفية تأثيرها. وبذلك لا يمكن اجراء تجارب لإثبات صحة ما هو غير محدد.

وأخيراً، فإن عمله لا يندرج بالطبع تحت أى باب من أبواب العلوم الكمية، لذلك اعتبر أغلب العلماء أن ما قدمه لا يستحق الاهتمام، أو إبداء الانتباه وبالتالى لم تكن هناك أى ردود من أى عالم على هذا العمل.

وبالرغم من المصاعب التى شرحتها، إلا أنه مازال من الجائز أن نحاول تناول بعض المواضع التى قدم فيها بعض التكميم التنبؤى، ونرى إلى أى مدى يمكن أن تصمد تلك التنبؤات الكمية، أو الكيفية للملاحظة والتجريب العلمى، وهما من المتطلبات العلمية المنهجية اللازمة لتناول أى نظرية جديدة.

وهذا الفصل يتناول جزئية واحدة كمثال لتوضيح التبعات التى تترتب على نظرية فليكوفسكى إن كانت صحيحة، وهى التأثيرات الفيزيقية على الكواكب وقمر الأرض المترتبة على مولد الزهرة من كوكب المشترى، وما نتج عنه من صدامات واقترابات خطرة للكواكب من بعضها البعض.

فهل هناك أدلة متوفرة تدعم نظريات فليكوفسكى؟

وهل هذه النظرية متعادلة ومتوازنة؟

أم أنها متناقضة فى بنائها؟

نحتاج للإجابة على هذه التساؤلات إلى فحص الأسس الفلكية التى بنى عليها فرضياته.

عند مناقشة هذا الجانب حاولت بقدر الإمكان أن أتناول فرضيات فليكوفسكى بمصطلحاته التى استخدمها. على سبيل المثال، لم أتناول أبداً بالنقد كل ما أورده من جوانب غير واضحة، ولا محددة من التى ينطبق عليها صفة الكلام المرسل دون دليل على صحته، مثل الآليه التى كانت

سبباً فى انفصال الزهرة عن المشترى، إذ أنه لم يذكر أسباب ذلك.

على أى حال ركزت فقط على ثلاثة أمور عريضة، تؤكد فيها نظرية فليكوفسكى أنه وقعت مواجهات بين الكواكب، نتج عنها كوارث عظمى فى الآلاف الأخيرة من الأعوام، فإن كان ذلك قد حدث، فلابد أنه قد ترتبت على حدوثه نتائج وآثار وتداعيات لابد أن تكون موجودة حتى الآن :

أول تلك التداعيات التغير الذى لابد أن يحدث فى كيمياء الكواكب المعنية، والتى ذكر عنها أنها تأثرت بما تساقط عليها من مذنب الزهرة الذى انفصل عن كوكب المشترى، واتجه مباشرة إلى الأرض ليحتك بها ويسقط عليها من مكوناته الكيميائية، وكذلك التبادل الذى تم بين الأغلفة الغازية للأجرام المعنية. وثانيها، التغير الحرارى الناجم عن الاحتكاك أو الاقتراب، وهو ما دفع فليكوفسكى إلى استنتاج أن الزهرة والمريخ وقمر الأرض قد غلت من أعماقها نتيجة لتلك الاقترابات الحميمة، والمواجهات التى وقعت. وثالثها، شكل سطح تلك الأجرام التى لابد أن تكون قد تعرضت لتغيرات كبرى، نتيجة لتلك المواجهات الكارثية، وثورات البراكين الهائلة فى الأجرام المذكورة والتى لابد أن ينتج عنها انصهار لكل القشرة الخارجية.

سأتناول كل جانب من تلك الجوانب فى دوره وعلى حدة، بعد أن أشرح باختصار الافتراض الأشمل، والأعم الذى يدعى فيه أن التأثيرات الكهرومغناطيسية لتلك المواجهات، كان لها تأثير هائل على القمر والكواكب المعنية.

الكهرومغناطيسية فى المجموعة الشمسية

الجانب الجوهرى فى السيناريو الذى قدمه فليكوفسكى عن التاريخ الحديث للمجموعة الشمسية هو التغير الذى طرأ على أفلاك الكواكب، نتيجة للمواجهات التى وقعت قبل ثلاثة آلاف عام بين الزهرة والأرض والقمر والمريخ، والتى أدت إلى وضع تلك الأجرام فى أفلاكها الحالية،

وينعم كل جرم بفلك مستقل يسبح فيه، ومسافة كافية تفصله عما يليه من كواكب فى مسارات شبه دائرية، أو أقرب للدائرية.

إنها حقيقة بديهية فى عصرنا الحالى أن الأجرام والكواكب السماوية لا تشكل تهديداً بالخروج عن مساراتها لتهاجم جيرانها الآخرين من كواكب المجموعة الشمسية، وأن تلك الكواكب ظلت فى أفلاكها التى هى عليها الآن، وبثبات تام على الأقل منذ الرصد والمتابعة الفلكية التى قام بها اليونان والأغريق، وأكدها فى القرن الثانى الميلادى «كلوديوس بطليموس». فما هى تلك القوى الغريبة التى ظهر تأثيرها من خمسة وعشرين قرناً مضت، وأثرت بقوة على حركة كواكب المجموعة الشمسية، والتى تبدو الآن وكأنها خبت واستكانت؟ لقد أكد فليكوفسكى مراراً أنها قوى كهرومغناطيسية.

والكهرومغناطيسية فرع معروف من فروع علم الفيزياء، وتأثيرها على الكواكب يمكن حسابه، ووجد العلماء بعد بحث قيمتها أنها غير مؤثرة على حركة الكواكب، ويتفق ذلك - أيضاً - مع الرصد الفلكى ونتائجه.

من سوء حظ فليكوفسكى أن أياً من العلماء من قبله لم يذكر أن تلك القوى كانت أشد تأثيراً فيما مضى، بالرغم من المجهودات البحثية الخارقة التى بذلها «ميكلسون»، إلا أننا نجد أن فليكوفسكى يصر هو ومؤيدوه على تبنى هذا الزعم، ويهاجمون بقسوة كل من ينتقده.

تبنى الفليكوفسكيون مفهوم أن القوى الكهرومغناطيسية من الممكن أن يتولد عنها قوة هائلة (وهذا حق)، إلا أنهم بعد ذلك يقفزون إلى أن تلك القوى لابد أن توضع فى الاعتبار لتفسير حركة كواكب السماء فى الماضى (لا فى الحاضر). أما كيفية حدوث ذلك فى الماضى فهو غير مشروح وغير مفسر، وهكذا نجد أنفسنا بلا أمل فى اختبار صحة هذا التأكيد.

فى الوقت نفسه، يبدو من أفكار فليكوفسكى أن كل اكتشاف للتأثيرات الكهرومغناطيسية على النظام الشمسى بدءاً من حقل المجال المغناطيسى

لعطارد، لاحزمة «ڤان ألن» الكهرومغناطيسية الموجودة حول المشترى، إلى المسارات المائلة لزوائد المجموعة الشمسية، يستغله فليكوفسكى للدفاع عن نظريته، ويتغاضى عن حقيقة أن هذه الظواهر الطبيعية ليس لها أى تأثير على حركة الكواكب. إنه يتجاهل ذلك كل التجاهل.

وهناك اقتراح أو افتراض كثيراً ما يطرحه أنصار فليكوفسكى، وهو أن الكهرومغناطيسية - أو أى قوى أخرى مجهولة - أثرت بقوة على الكواكب أثناء مواجهاتها واقتراباتها الخطرة، وأنها أثرت بقوة على مدى زمنى محدود ثم تلاشت. وهكذا، لم يعد بالإمكان رصد تلك القوى فى عصرنا الحالى ولا تحديد قوتها وقياسها.

بالرغم من ذلك، فإن هذا الافتراض الخيالى الذى ابتدع خصيصاً كتبرير ليس بإمكانه انقاذ فرضيات فليكوفسكى.

فبطريقة ما، تطورت أفلاك الكواكب من شكل كانت عليه من ألفين وستمائة عام (فى الوقت الذى كان بإمكان الزهرة فيه أن تحتك بالمريخ، وكان بإمكان المريخ أن يحتك بالأرض)، وانتقلت إلى أفلاكها الحالية.

أفلاك الكواكب عبارة عن مسارات شبه دائرية مغلقة، وتقع تحت تأثير جاذبية الشمس بشكل رئيسى، وإن كانت مساراتها متقاطعة، فقد كانت ستظل متقاطعة حتى يقع التصادم، وإذا افترضنا أن هناك قوى غير الجاذبية أثرت لفترة زمنية محددة كما يزعم فليكوفسكى، فإن تلك القوة المجهولة لم تكن لتقدر على وضع الكواكب فى أفلاك شبه دائرية منتظمة بعد آخر اقتراب خطير. إن افتراض أن تلك القوى المجهولة من الممكن أن تتوافق مع السلوك المنتظم الحالى للكواكب نتيجة لتأثيرها لفترة مؤقتة لايمدنا بأى تفسير لتحول الكواكب عن المسارات المتقاطعة التى أدت إلى حدوث المواجهات.

أقوى ما يرى فليكوفسكى أنه يثبت نظريته هو اكتشاف ما تنبأ به من أن المشترى يصدر عنه نبضات إشعاعية، وقد اكتشف العلماء ذلك عام ١٩٥٣ على شكل نبضات صادرة من كوكب المشترى، وبقوة تزيد عن تلك

التى تنبأ بها فليكوفسكى.

وطبقاً للخطاب الفليكوفسكى، اعتبر تلك الواقعة دليلاً على تنبؤ صادر عن نظرية علمية غير مشهورة (نظريته) تأكد صدقها بعد ذلك بالأدلة والبراهين، وأن هذا يثبت صحة مجمل النظرية.

أما التقييم الحقيقى لذلك، فهو أن ذلك ليس إلا مزيداً من الالتباس.

من الواضح أن تنبؤ فليكوفسكى بنى على اقتناعه أنه توجد مجالات كهرومغناطيسية فى كوكب المشترى، وحيث أن للمشترى غلاف ديناميكى، فإن الطاقة الحركية الكامنة لابد أن تتحول إلى نبضات إشعاع كهرومغناطيسى. هذا الترتيب المنطقى ترتيب جيد ويحسب لصالح ورصيد فليكوفسكى.

إلا أن تخمينه الصحيح لم يتطور أبداً ليرقى إلى مرتبة «نظرية علمية»، كما أنه لم يقدم ما يمكن أن يحل محل نظرية سابقة كانت تفترض عكس ما يفترضه، وفوق كل ذلك لم يقدم مواصفات علمية محددة لتلك الاشعاعات التى افترض وجودها من طول الموجات ومداها وحدتها وترددها.. الخ، وهكذا نجد أن اكتشاف العلماء لوجود تلك الموجات بعد تنبؤ فليكوفسكى بوجودها لا يعد اختباراً علمياً لأى نظرية كهرومغناطيسية لكوكب المشترى، ولا لأى كواكب أخرى، يزيد على ذلك أن الموجات الكهرومغناطيسية الموجودة بغلاف المشترى لا علاقة لها بنظرية فليكوفسكى الرئيسية التى تعتمد فى جوهرها على حدوث صدامات، أو اقترابات خطرة بين الكواكب، وحيث أنه لا يوجد دليل على أن التأثيرات الكهرومغناطيسية من الممكن أن تؤثر على حركة الأجرام، وأن موجات المشترى الكهرومغناطيسية لا يمكن أن تؤدى إلى ذلك، فإن تنبؤ فليكوفسكى بوجود تلك الموجات لا يدعم نظريته، ولا يحمل أى معنى يفيد جوهر فرضياته عندما تواجه أسس العلم الراسخة.

سيدعى بعض مؤيدى فليكوفسكى أنه ليس من العدل أن نتوقع من دكتور طبيب يحمل خلفيات بسيطة عن العلوم الفيزيائية، أن يطور نظرية

كمية محددة بمعادلات حسابية عن تأثير الموجات الكهرومغناطيسية على حركة الكواكب والأجرام السماوية، كما أنهم يؤكدون أن نظريته مستمدة من أدلة وقرائن وبراهين تاريخية تؤكد على حدوث صدامات ومواجهات واحتكاكات كوكبية فى الماضى القريب (من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام)، ويؤكدون على أن عدم وجود نظرية علمية متكاملة تثبت حدوث ذلك لا ينفى أنها وقعت.

وأريد - أيضاً - أن أتناول هذا الطرح، وأن أطرح السؤال كاملاً، وهو لماذا وقعت تلك الكوارث التى يفترضها؟ وفى آخر هذا الفصل سأركز على طرح الأدلة المؤيدة والأدلة المضادة لإمكان حدوث مثل تلك المواجهات الكوكبية فى الماضى القريب وسأتجنب تماماً إيراد أى تخمينات.

إلا أنه فى مقابل ذلك، لابد أن يتوقف فليكوفسكى ومناصروه عن الادعاء بأن وجود موجات كهرومغناطيسية تصدر عن كوكب المشترى يعد - بشكل ما - برهاناً على صحة فرضيات فليكوفسكى عن حدوث كوارث كوكبية فى الماضى القريب.

إعتبارات خاصة بكيمياء الفضاء

يشكل مولد كوكب الزهرة من كوكب المشترى فرضية أساسية ومحورية فى نظرية فليكوفسكى، ولذلك ركز فى كتابه "عوالم فى تصادم" على التماثل والتشابه بين الكوكبين الذى يؤكد وحدة منشأهم، فلو كانت الزهرة قد انفصلت عن المشترى، فلابد أن يكون لها نفس تركيب المشترى، أو أن تكون على الأقل ذات تركيب حالى يصلح أن يكون قد تطور عن منشأ يعود إلى كوكب المشترى.

وفى واحد من تنبؤاته المشهورة، افترض فليكوفسكى أن مناخ الزهرة لابد أن يكون غنياً بالهيدروكربونات وسأعود بعد ذلك إلى بيان مكونات غلاف الزهرة، إلا أننى سأتناول أولاً مشكلة تركيب الكتلة لكل من الكوكبين.

تبلغ كتلة كوكب المشترى ٣١٨ ضعفاً لكتلة الأرض، وتبلغ كثافتها ١.٣ جم/سم٢. وتزودنا تلك الحقائق بمفاتيح هامة، فالكثافة المنخفضة تشى بأن أغلب كتلته تتكون من عناصر خفيفة، ومن أشيع العناصر وأكثرها انتشاراً فى المجموعة الشمسية الهيدروچين والهليوم والنيون والأرجون والأكسچين والنيتروچين والكربون.

والحجم الكبير جداً للكوكب يدل على ضغوط داخلية عالية وبالتالى ضغوط على تلك العناصر؛ حين نضم تلك المعلومات جنباً إلى جنب مع بيانات ومعلومات عن انضغاطية المواد، يتضح أن أغلب باطن المشترى مكون من الهيدروچين والهليوم، وهى تشكل أيضاً المواد الغالبة فى أى نجم، وهناك ملاحظات إضافية تتعلق بالشكل، ومجال جاذبية الكوكب، ومعدل إطلاقه الحرارى الذى يكبح أكثر باطن الكوكب، وتوضح المعلومات الحديثة المستمدة من تحليق مركبة الفضاء «بيونير» بالقرب من المشترى أن الكتلة الرئيسية الغالبة مكونة من الهيدروچين، وهو فى حالة انتقال دائم من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة عند عمق ١٠٠٠ كم، ومن حالة سيولة عادية إلى سيولة معدنية موصلة للتيار عند عمق ٢٥ ٠٠٠ كم، وتزيد درجة الحرارة باتجاه العمق حتى تصل إلى ٣٠ ٠٠٠ درجة عند المركز، وفى المركز نواة صخرية، أو معدنية ذات كتلة تبلغ أضعاف كتلة الأرض، وقد تم رصد وجودها، إلا أن مثل تلك النواة من المعادن الثقيلة لا تشكل إلا نسبة مئوية ضئيلة من الكتلة الكلية للمشترى. كل المكونات والحسابات تظهر أن مكونات الكوكب لا تختلف كثيراً عن مكونات الشمس.

أما الزهرة فتختلف تماماً عن ذلك، فكثافتها تصل إلى ٥.١ جم/سم٢، وهى كثافة مماثلة لكثافة كوكب الأرض إلا أنها أربعة أضعاف كثافة كوكب المشترى؛ بالرغم من صغر حجمها وقلة القوى الضاغطة فى باطنها.

بتلك الكثافة، من المستحيل أن يحتوى كوكب كالزهرة على كميات

كبيرة من غازى الهيدروچين والهليوم، بل إن العناصر الأخرى الأثقل مثل الأكسچين والنتيروچين والكربون لابد أن تكون أقل غزارة عن العناصر الكونية الأثقل مثل الكبريت والسليكون والألومينيوم والحديد والنيكل.

التكوين الدقيق لباطن كوكب الزهرة غير معروف حتى الآن مثلما هو معروف عن باطن كوكب المشترى، وأخر بحث يبدو معقولاً هو بحث نظرى قام به «چون لويس» من معهد ماسا تشوستس للتكنولوچيا اعتمد فيه على نتائج الرصد المباشر مع التصورات المحتملة للعمليات الكيميائية المحتملة فى الكواكب ذات الكتل، افترض أن نواة الزهرة مكونة من الحديد والنيكل وتغطيهم قشرة من سليكات حديد المنجنيز، وبالخلاف مع أى نموذج، استنتج أن الزهرة مكونة مثل الأرض من المعادن فى النواه وفوقها قشرة من الصخور المختلطة بالمعادن، ويتضح من ذلك أن كيمياء تركيب الزهرة والمشترى متباينة ومختلفة عن بعضها، بل إنهما لا يمكن أن يكونا أكثر وأشد اختلافاً عن ذلك.

لم يفسر فليكوفسكى مشكلة اختلاف المشترى والزهرة فى التركيب والمكونات، إلا أنه كرس كل اهتمامه وتركيزه على الغلاف الجوى للزهرة. والأدلة المستمدة من التحليل الطيفى، ومن المقياس الطيفى للنجوم المحتجبة، ومن أبحاث رحلات سلسلة سفن الفضاء التى تحمل إسم «بيونير» الموجهة إلى كوكب الزهرة، تظهر كلها أن الجانب الأغلب من غلاف الزهرة مكون من الهيدروچين فى صورة أبسط مركباته أى ميثان؛ ونشادر، وماء، والميثان أبسط صورة من صور الهيدروكربونات، وهناك دليل حديث يثبت أن هناك هيدروكربونات أكثر تعقيداً من الميثان بنسب قليلة فى الطبقات العليا لغلاف الزهرة الغازى.

وعلى عكس كوكب المشترى، فإن غلاف الزهرة مؤكسد، فالرصد الذى تم إجراؤه بواسطة محللات الطيف عالية النقاء والوضوح (بصرية ورادارية)، والرصد الرادارى من سفن الفضاء، والعينات المباشرة التى تم الحصول عليها بواسطة مجسات سفن الفضاء، أظهرت كلها أن غلاف

الزهرة يتكون فى أغلبه من غاز ثانى أكسيد الكربون، مع كميات نادرة من الماء (مازالت نسبة الماء موضع جدل). ونيتروچين، وأرجون، وكميات ضئيلة من حامض الهيدروكلوريك والهيدروفلوريك وعند سطح الكوكب يصل الضغط إلى ما يوازى مائة ضغط جوى أرضى.

وبالرغم من أن مكونات غلاف كوكب الزهرة قد تم استجلاؤها من سنين عديدة، إلا أن مكونات السحب والغيوم التى تحيط بالكوكب مازالت تحير العلماء حتى الآن. وبحلول عام ١٩٧٢، تم اجراء عمليات مكثفة من الرصد عن طريق الرصد البصرى وانعكاسات الأشعة تحت الحمراء من سحب الزهرة، تم التوصل إلى درجة حرارة تلك الغيوم وحجم الجزيئات ودرجة كرويتها ودرجة الانكسار بها، والضغط النسبى لبخار الماء الموجود بها، إلا أنه لم يتم التعرف على تركيب معين يمكن أن يكون له تلك الخواص.

وكمثال مثير على البحث العلمى الدؤوب، وجد أكثر من باحث كان كل منهم يعمل منفرداً أن السحب والغيوم المحيطة بكوكب الزهرة مكونة من بخار حامض الكبريتيك بتركيز ما بين ٧٥ إلى ٨٥ بالمائة، وتبين أن هذا التركيب يتوافق تماماً مع الصفات، والمواصفات، والخواص التى تم رصدها لسحب وغيوم الزهرة. من جهة أخرى، لا يوجد أى دليل على وجود مواد هيدروكربونية فى سحب الزهرة، ولا فى الغلاف الغازى للكوكب، خاصة بعد ثبوت غياب الموجة الطيفية ذات سمك ٣.٥ ميكرومتر وهى الطبقة الطيفية التى تظهر فى التحليل الطيفى عند وجود اتحاد بين ذرات الهيدروچين والكربون.

أما التقارير الصحفية المغلوطة التى نشرتها الصحافة من عقد مضى والتى أعلنت أن سفينة الفضاء «مارينر ٢» قد اكتشفت أن سحب الزهرة هى سحب هيدروكربونية، فإنها تقارير لا ترتكز على أى أساس علمى موثق.

وهكذا يتضح عدم وجود أى مواد هيدروكربونية بالزهرة من تلك التى

افترض فليكوفسكى وجودها.

ويؤكد «فليكوفسكى» أنه حدث تبادل لغازات الأغلفة الجوية بين الزهرة والأرض والمريخ، نتج عنه انتقال مواد هيدروكربونية من غلاف الزهرة إلى غلاف الأرض (المن الذى تساقط على سيناء)، كما انتقلت إلى غلاف المريخ، وكذلك انتقلت غازات الأرجون والنيون من غلاف المريخ إلى غلاف الأرض. على تلك الأسس التخمينية، تنبأ أن الغطائين القطبيين للمريخ مكونان من الهيدروكربونات، وأن جانب من غلاف المريخ مكون من غازى الأرجون والنيون، ولابد أن نبحث مدى صحة التنبؤين الذين تنبأ بهما فيما يخص المريخ.

فى الوقت الذى أعلن فيه فليكوفسكى لأول مرة أن الغطائين القطبيين للمريخ مكونان من مواد هيدروكربونية، لم يكن متوفراً فى ذلك الوقت أى معلومات علمية مؤكدة عن مكوناتهما، وقد افترض أغلب العلماء أنهما مكونان من مياه متجمدة مثل قطبى الأرض، بينما افترض عدد قليل منهم أنهما مكونان من ثانى أكسيد كربون متجمد (ثلج جاف).

أول معلومات مباشرة ومؤكدة حصل عليها العلماء عن طريق مقياس الأشعة تحت الحمراء الذى تم وضعه فى سفينتى الفضاء مارينر ٦ ومارينر ٧ اللذان مرا قرب المريخ عام ١٩٦٩، وأظهرت أن حرارة البخر السطحى للقطبين مساوية لحرارة البخر السطحى لثانى أكسيد الكربون المجمد ومختلفة تماماً عن درجة الانبعاث الحرارى للماء المجمد. وتلا ذلك تجارب حرارية وتحليل طيفى، أكد المعلومات التى حصلت عليها سفن الفضاء من أن القطبين فى المريخ مكونان من غاز ثانى أكسيد الكربون المجمد، ولم تتعد كميات الهيدروكربونات التى تم تقديرها عن طريق التحليل الطيفى بضعة جزيئات من كل مليون جزىء، أى نسبة تكاد أن تكون منعدمة.

وحين نشر كتاب "عوالم فى تصادم" لأول مرة، كان الغاز الوحيد الذى أمكن التعرف عليه فى غلاف كوكب المريخ هو غاز ثانى أكسيد الكربون،

إلا أنه لم يمكن فى ذلك الحين قياس كميته ولا مقدار الكتلة الكلية للغلاف الغازى للكوكب. وعند منتصف الستينيات من القرن العشرين تم جمع معلومات من مصدرين هما موجات الراديو الملتقطة عن طريق سفن الفضاء، ونتائج دراسات تحليل طيفى تم إجراؤها بأجهزة حديثة من تليسكوبات أرضية، وتبين أن الضغط على سطح المريخ أقل من ١٪ من ضغط الأرض الجوى، وأن ثانى أكسيد الكربون هو الغاز الغالب على غلاف المريخ، أما القياس المباشر الذى حدث لأول مرة فى التاريخ عن طريق مركبة الفضاء «فايكنج» التى نزلت على المريخ لأول مرة عام ١٩٧٦، فقد أظهر أن نسبة ثانى أكسيد الكربون فى غلاف المريخ تصل إلى ٨٠٪ من غلاف الكوكب الغازى على أقل تقدير، وأن العشرين بالمائة الباقية مكونة من غازات خاملة مثل النيتروجين، والأرجون والنيون. فى الوقت نفسه، استمر فليكوفسكى فى الادعاء أن الأرجون والنيون هما الغازان الرئيسيان فى غلاف المريخ.

ثم حسمت التجارب التى أجرتها مركبة الفضاء «فايكنج» التى نزلت على سطح المريخ كل التخمينات والتنبؤات، وتبين من نتائج التحليل الغازى النهائية أن غاز ثانى أكسيد الكربون يكون تحديداً نسبة ٩٦٪ من غلاف المريخ، ويكون النتيروچين نسبة ٥ . ٢٪، والأرجون ٥ . ١٪، مع نسب ضئيلة من غازات الأكسچين والكربتون والزينون.

وبذلك نصل إلى حسم القضية ونثبت خطأ نظرية فليكوفسكى التى أكد فيها أن الأرجون والنيون هما المكونان الرئيسيان لغلاف المريخ.

ولتلخيص هذا الجانب، نعيد التأكيد على أن تنبؤات فليكوفسكى التى ذهب فيها إلى أن سحب وغيوم الزهرة ومكونات الغطائين القطبيين فى المريخ من الهيدروكربونات، وأن غلاف الزهرة الغازى يحتوى على غازات هيدروكربونية، وأن غلاف المريخ مكون بصفة أساسية من غازى الأرجون والنيون، ثبت أنها جميعاً افتراضات غيرصحيحة بالأدلة العلمية القاطعة.

عدا ذلك، فإن مفهوم ولادة كوكب من كوكب آخر، وأن الكواكب من

الممكن أن تغير أفلاكها قرباً وبعداً عن الشمس، مفهوم لا يتفق نهائياً مع تركيب الكتلة.

كل ماذهب إليه فليكوفسكى - فى هذا المجال - كان مخيباً للآمال التى ادعاها.

إعتبارات حرارية:

أثناء المواجهات الكوكبية التى افترضها فليكوفسكى، لابد أن تزداد الضغوط الداخلية للكواكب لزيادة سخونة أعماقها، وافترض فليكوفسكى أن الزهرة ارتفعت درجة حرارتها حتى التوهج، وافترض أن تلك الحالة من التوهج ترتفع فيها درجة حرارة الكوكب حتى تصل إلى ١١٠٠ درجة مئوية، وعند تلك الدرجة تشع الصخور المنصهرة حرارة عالية وتبدو من الأرض كوكباً «متوهجاً». وفى "عوالم فى تصادم" وما تلاه من أعمال ومقالات، استنتج فليكوفسكى أن جوفى الزهرة والمريخ يغليان ويشعان حرارة عالية، أى أن الكوكبين يصدر عنهما إشعاع حرارى أكثر من الذى يستقبلانه من الشمس، ثم قدم الافتراض نفسه مؤخراً عن القمر الأرضى.

فلنبدأ أولاً بالمريخ. من النتائج التى تحققت عن طريق سفن الفضاء الموجهة «مارينر» ٦، ٧، ٩، ومن مركبة الفضاء «فايكنج» التى دارت حول المريخ، فإن الاشعاع الحرارى الصادر عن مساحات شاسعة رصدتها سفن الفضاء بأجهزة الأشعة تحت الحمراء التى ترصد الانبعاث الحرارى، سجلت الأجهزة قراءات لموجات محصورة بين ١٠ و ٢٠ مايكرومتر، وتم تحليل البيانات بعناية فائقة على ضوء الخواص الحرارية للسطح. تبين من تحليل البيانات أن درجات الحرارة التى تم رصدها تتوافق مع التوازن الحرارى الطبيعى، وأنه لا يوجد أى انبعاث حرارى من باطن المريخ.

وهذه المسألة بالرغم من أنها ليست من الفرضيات الجوهرية فى نظرية فليكوفسكى إلا أنه ظل مصراً عليها.

إن إرتفاع درجات الحرارة للأجرام التى ذكر أنها كانت أطراف مواجهات واقترابات خطرة يعد منطقياً إن كانت تلك المواجهات قد وقعت، وكذلك ما ذكره عن انصهار القمر إن كان قد حدث، وسأناقش فيما يلى ما يختص بفوهات سطح القمر.

لم يقترح فليكوفسكى أن القمر حين سخن باطنه، وانصهر سطحه «توهج» هو الآخر مثلما توهجت الزهرة، وأعلن فى عام ١٩٦٩ أن سخونة أعماق القمر الناتجة عن تلك المواجهات يمكن قياسها إذا تمكنا من قياس درجة حرارة ما تحت سطح القمر.

ولقد تم القياس بعد ذلك عن طريق سفن الفضاء أبوللو ١٥ و ١٧، وتبين أن الانبعاث الحرارى من السطح يتراوح ما بين ١٥ إلى ٢٠ إرج/سم٢ من مساحة السطح، وهى أقل من الانبعاث الحرارى الصادر عن سطح الأرض، وتظهر تلك الدرجة من الانبعاث الحرارى من سطح القمر أن الصخور الداخلية فى الباطن لا تبدأ فى الانصهار إلا على عمق بضعة مئات من الكيلومترات من السطح القمرى، وأظهرت نتائج دراسات رحلة أبوللو أن القشرة الصلبة للقمر سميكة جدا، مما يثبت خطأ تنبؤات فليكوفسكى، مما يعنى أن التشققات القمرية والفوالق قد حدثت من بضعة ملايين من السنين.

أوسع تنبؤات فليكوفسكى انتشاراً كان تنبؤه عن سخونة وتوهج الزهرة نتيجة للمواجهات الكوكبية واقتراب الزهرة من الشمس حين كانت مذنباً، وبينت القياسات المتكررة لحرارة السطح العلوى لسحب الزهرة عند أطوال مختلفة لموجات الأشعة تحت الحمراء بما فيها القياسات التى أجرتها آخر سفينة فضاء (مارينر ١٠). أن الطاقة الحرارية الاجمالية الصادرة عن كوكب الزهرة مساوية للحرارة المنبعثة من أى جرم معتم غير متوهج وكانت الحرارة المسجلة ٢٣٠ كيلفن، أى ما نجده أو ما نتوقعه فى غياب أى مصدر يشع حرارة غير عادية من باطنه، وهذا ينفى أن الزهرة تشع حرارة أكثر مما تتلقاه من الشمس.

أما افتـراض أن درجـة الحـرارة فى مناطق أوطـأ داخل غـلاف الزهرة الجوى، وبالقرب من سطحها أكثر كثيراً من تلك التى على السطح العلوى للسحب المغلفة للكوكب، فقد كان أول من افترضه روبرت ڤيلد من جامعة بيل عام ١٩٣٠ وظل ذلك الافتراض قائماً حتى حتى عام ١٩٥٧، ثم أعلن فليكوفسكى فى كتابه «عوالم فى تصادم» أنه هو أول من تنبأ بذلك. على أى حال تم قياس درجة حرارة سطح الكوكب عن طريق الموجات القصيرة لأول مرة عام ١٩٥٠، ثم بطريقة مباشرة عن طريق سفينة الفضاء ڤينيرا ٧ عام ١٩٧٠م، وأظهرت القياسات بالإضافة إلى قياسات أخرى عديدة أن درجة حرارة سطح الزهرة مقدارها ٧٥٠ ± ٢٠ كيلڤن.

افترض فليكوفسكى أن الزهرة كانت متوهجة جزئياً اعتماداً على معلومات نشرت قبل عام ١٩٥٠ وكان فحواها أن درجة حرارة السحب العلوية للزهرة لا تظهر أى اختلاف بين ليل الزهرة أو نهارها، وفسر ذلك بأنه منطقى نتيجة لحرارة الباطن العالية.

وفسر العلماء حرارة السطح التى تصل إلى ٧٥٠ كلڤن بأن ذلك يعود إلى سيادة ظاهرة الصوبة الزجاجية فى غلاف الزهرة الغازى.

ولأن درجة حرارة سطح كوكب الزهرة العالية تلعب دوراً هاماً جداً فى نظرية فليكوفسكى، والمعتقدات الدينية التى تحيط بها، فمن الملائم أن نحلل بعض تلك الادعاءات فى الخطاب الفليكوفسكى بتفصيل أوسع. فمن جهة لم تثبت صحة أى نبوءة من النبوءات التى تنبأ بها فليكوفسكى عن إرتفاع درجات حرارة الزهرة والمريخ وقمر الأرض، ومن جهة أخرى، فإن هذه التنبؤات ليست محورية ولا جوهرية فى نظريته، وغياب أى دليل على ارتفاع درجة حرارة قمر الأرض خلال الثلاثة آلاف وخمسمائة عام الأخيرة يجهض ذلك التنبؤ، وركز فليكوفسكى جانباً من نظريته على طبوغرافية ومعالم سطح قمر الأرض، والدلالات التى يخرج بها من شكل السطح.

سطح القمر والكواكب

سأعود مرة أخرى لمسألة تداعيات المواجهات، والاقترابات الكوكبية وأثرها على شكل أسطح تلك الكواكب، وتاريخ تشكل تلك الملامح السطحية. افترض فليكوفسكى أن مواجهات الكواكب نتج عنها سيل منهمر من النيازك، وثورة شاملة للبراكين، وانصهار كلى لأسطح الزهرة والمريخ وقمر الأرض، وربما سطح الأرض أيضاً، ولكن - بدرجة أقل- الأرض ليست موضوعى فى هذه الدراسة، إلا أننى بالرغم من ذلك لابد أن أذكركم بالندرة الشديدة لسقوط نيازك على سطح الأرض، أو وجود فوهات على سطح الأرض تدل على سقوط تلك النيازك، ولكن ماذا عن باقى الكواكب؟

يرى فليكوفسكى أن أسطح الأجرام المساهمة فى الكوارث قد تأثرت بشدة، ولقد تمت دراسة أسطح عطارد، والمريخ، وقمر الأرض، دراسة وافية من سفن الفضاء فى العقد الماضى، كما تم الحصول على مسح لسطح الزهرة باستخدام الأشعة الرادارية التى تخترق سحب وغيوم الكوكب، وتم رصد آثار حمم بركانية كثيرة على سطح عطارد ثبت أنها تعود إلى عصور قديمة، وبالمثل على أسطح قمر الأرض والمريخ، إلا أن الصدوع والفوالق الموجودة فى صخور تلك الحمم يظهر أنها قديمة، ولا تتناسب مع الزمن الذى يقدر فليكوفسكى فيه حدوث مواجهات بين الكواكب، بالإضافة إلى ذلك فإن للمريخ وديان بركانية عظمى مع مظاهر أنشطة بركانية وزلزالية قديمة، بما فيها من انكسارات عظمى، ووديان متصدعة عظمى، ولا نعرف إن كانت قد حدثت سيول بركانية على سطح الزهرة، لعدم التمكن من رؤية سطحها بوضوح بسبب الغيوم المحيطة بها.

أوضحت صور الرادار وجود فوالق على سطح الزهرة، وتلك الفوالق تقف عائقاً أمام نظرية فليكوفسكى التى تتحدث عن منشأ حديث للزهرة، ونعرف من المعدل الحالى لاصطدام النيازك، والصخور الشاردة بسطح الزهرة أن الأمر يتطلب ما يزيد على بليون عام حتى تتكون فوالق وفوهات

بتلك الكثافة، أو أن تكون قد تعرضت لوابل من النيازك بكثافة عالية غير طبيعية كانت مصاحبة لمولد الزهرة، إلا أن هناك إعتراض هام على ذلك، فحيث أن فليكوفسكى قرر أن ذلك قد حدث حين كانت الزهرة متوهجة، وهى حالة يفترض معها أن السطح كان منصهراً، أو على الأقل عالى المرونة، لذلك لا تتكون أى فوهات على سطح متوهج، أو منصهر، وهو إثبات آخر على عدم صحة نظرية فليكوفسكى.

فى السيناريو الذى يقدمه فليكوفسكى، كانت قشرة الزهرة ستظل رقيقة حتى اليوم، فلا يبقى دعم كاف لحواف تلك الفوهات. الظروف الشاذة والاستثنائية فقط والغريبة أيضاً (مع السيناريو الغريب الذى يقدمه فليكوفسكى عن كوكب الزهرة) هى التى من الممكن أن تجعل الحطام الكونى من نيازك وصخور شاردة تنتظر فى الجوار بالقرب من الزهرة حتى يبرد سطح الكوكب، ثم تنطلق عند إشارة معينة لتمطره بوابل من صخورها، حتى تتكون تلك الفوهات الصلبة، وهكذا نجد أن فوهات سطح الزهرة ومعالم السطح تعد أقوى دليلا ضد حداثة ميلاد كوكب الزهرة الذى يدعيه فليكوفسكى.

ويمكن فهم التماثل التام فى الملامح العظمى لأسطح وچيولوچية الكواكب المذكورة (بما فيها قمر الأرض) على أسس النظرية التى تفترض أن المناطق ذات الفوهات الأكثر تكونت فى المراحل الأخيرة من انفصال الكواكب عن السديم الشمسى الأول، وأنه حدث نشاط داخلى طفيف فى عطارد وقمر الأرض، ونشاط داخلى أكبر فى كوكب المريخ الأكبر حجماً، ونشاط أكبر فى الأرض لحجمها الأكبر.

إن الصور التى التقطتها مؤخراً سفينة الفضاء مارينر ١٠، بينت أن سطح عطارد ملىء بالفوهات مثل سطح القمر الأرضى، وأفاد ذلك فى إظهار التطور، والتغيرات التى تعرضت لها أسطح الكواكب، ومن الممكن من فحص تفاصيل تلك الصور تكوين خرائط چيولوچية تبين الأزمان النسبية لتلك الأسطح والتغيرات التى طرأت عليها، إلا أنه من غير الممكن

عن طريق البحث عن بعد أو التصوير عن بعد فقط، أن نؤسس تاريخاً صارماً لتلك الأسطح، وهكذا، بينما نجد أن تلك المعلومات متوافقة ومتفقة على أن تلك الفوهات العظمى والتغيرات السطحية قد حدثت من ٤٠ بليون عام (ولا يختلف هذا التقدير عن التقدير الخاص بزمن التبلور لأقدم الصخور النيزيكية على الأرض)، ولا يستطيع أى أمرئ أن يبرهن على حدوثها: فى عصور أقرب من ذلك.

ولحسن الحظ، لدينا تقديرات زمنية لكثير من الأحداث الچيولوچية القمرية، تم الحصول عليها من عينات الصخور القمرية التى جلبتها إلى الأرض سفينتى الفضاء «أبوللو» و «لونا». ولكن قبل مناقشة نتائج تلك الأبحاث، لابد لى أن أبدى ملاحظة نوعية بسيطة عن أسطح القمر والمريخ والزهرة المليئة بالفوهات، فكما لاحظنا قبل ذلك، فإنه لا توجد فوهات على الأرض ناتجة عن ارتطام أجسام وكتل فضائية بسطحها فى عصور قريبة، وقياساً على ذلك يمكن لأى امرئ أن يدرك أن الفوهات على الأجرام الأخرى ليست حديثة هى الأخرى، ولا يمكن، بل لا توجد أى وسيلة تجعل النيازك والركام الكونى ينهال علي المريخ والزهرة وقمر الأرض عند وقوع مواجهات بين الكواكب وتستثنى الأرض وحدها.

استعملت فى تقدير عمر صخور القمر وسائل تقنية عديدة، كلها تستهدف تقدير الوقت المنصرم لتبلور الصخور الصلبة منذ أن كانت منصهرة، وتعتمد فى ذلك على تقدير نصف العمر الاشعاعى للعناصر المستخلصة من تلك الصخور ذات النشاط الاشعاعى، مثل اليورانيوم والثوريوم والرصاص والبوتاسيوم - أرجون، والرابيديوم - استرونيوم.

وتظهر الدراسة أن أغلب صخور القمر التى تم أخذها من حواف الفوهات العظمى يقدر عمر تجمدها بـ ٤٠ بليون عام، وأن آخر طوفان حممى قد حدث قبل ٣٠ بليون عام.

والأرقام المذكورة تحتوى على هامش خطأ يقدر بـ ٥٪، هناك وسائل أخرى لتقدير عمر معالم القمر وتضاريسه، فمن الممكن تقدير عمر

الفوهات القمرية من الحطام الصخرى الضخم المتطاير حول الفوهات الناتجة عن ارتطام النيازك بسطح القمر، والتى أدت إلى تطاير تلك الصخور المهشمة، ذلك الحطام الصلب الضخم يدل على أن سطح القمر كان صلباً وقت الارتطام مما أدى إلى تطاير تلك الصخور، أى أن السطح كان صلباً من أزمان سحيقة.

وهناك طريقة ثالثة يمكن حساب الزمن باستخدامها وذلك بتقدير زمن تعرض الصخور القمرية للأشعة الكونية، فالصخور المعرضة لوابل مستمر من الأشعة الكونية على سطح القمر لغياب غلاف جوى حاجز وحاجب حول القمر تترك الأشعة الكونية عليها خطوطاً إشعاعية خاصة بالصخور المعدنية، وأظهرت أقل التقديرات تعرض الصخور فى حالتها الصلبة لتلك الأشعة لملايين السنين.

فى هذا الفصل عرضنا مختلف البراهين التى تثبت أن سطح القمر قديم جداً، وأنه لا الأرض ولا قمرها تعرضا من أزمان سحيقة لوابل نيزكى أو مذنبى، كما لم ينصهر سطحاهما فى عصور قريبة تقدر بآلاف الأعوام كما يدعى فليكوفسكى.

قدم البراكين القمرية الخامدة، وقدم الفوهات الضخمة على سطح القمر يتعارض بصفة أساسية مع مفهوم وقوع كوارث كونية بين الكواكب كما يفترض فليكوفسكى، وينطبق الأمر نفسه على فوهات سطح الزهرة.

وكل الأدلة الفلكية تنقض وتتناقض مع المرتكزات الأساسية والمحاور التى تكون نظرية فليكوفسكى.

النتائج

سعيت فى هذا الفصل إلى مراجعة كل الجوانب الفلكية التى وردت فى كتاب عوالم فى تصادم على شكل تنبؤات علمية، وكذلك ما جاء فى مقالات أخرى نشرها فليكوفسكى فى وسائل الإعلام المختلفة.

وحاولت تجنب السقوط فى الشراك التى تصاحب ظاهرة منفردة

بمعزل عما يرتبط بها، على العكس من ذلك عمدت إلى تقديم صورة واسعة المدى توجه الانتباه إلى الأساليب الحديثة فى رصد القمر والكواكب، وما تم اكتشافه باستعمال تلك الوسائل الحديثة، والتى جاءت نتائجها متعارضة تماماً مع ما تنبأ به فليكوفسكى. إننى لا أقدم إعتذاراً لتناولى ما ورد فى عوالم فى تصادم من جوانب فلكية؛ لأن فليكوفسكى صرح من وقت قريب عام ١٩٧٤ فى محاضرة كان يلقيها بالجمعية الأمريكية لتقدم العلوم : إنه يقف بكل صلابه وإصرار مع كل كلمة كتبها فى عوالم فى تصادم، وإنه حتى تلك اللحظة لم يصل إلى علمه أن أى تنبؤ من تنبؤاته قد ثبت خطؤه.

وأنا أقدم هنا الآن كل ما يثبت بصرامة أن كل تنبؤ جوهرى من تنبؤاته ليس إلا خيال علمى.

وأثبتت الأبحاث العلمية التى أجريت على الكواكب أنه لا يوجد أى تماثل كيميائى بين الزهرة والمشترى، وعدم وجود أى دليل على حدوث تبادل لغازات الأغلفة الجوية بين الزهرة والمريخ والأرض، والأهم من كل ذلك، اجتماع عدد لا نهائى من البراهين ينفى حدوث توهج حرارى قريب للزهرة أو المريخ أو قمر الأرض، ولا ثورة بركانية شاملة، ولا سقوط وابل من النيازك والصخور على القمر الأرضى والكواكب الأخرى المعنية.

إنه لمن الصعب على أى عالم بالعلوم الفيزيائية أن يتفهم كيف يمكن لنظريات فليكوفسكى بعد كل هذا السجل الحافل من أدلة فشلها، وتستمر فى جذب اهتمام جماهيرى واسع، أو أن يكون لها مدافعون متحمسون فى الدفاع عنها.

من وجهة نظر فلكية، ذخر ربع القرن الأخير باستكشاف مكثف للكواكب، وناقضت نتائج الاستكشاف المكثف نظرية الكارثة الكونية التى يدعى فليكوفسكى أنها حدثت من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، كما شهدت الأعوام الأخيرة طفرة كبيرة فى فهم وإدراك الطبيعة الفيزيقية للكواكب، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى الفحص، والبحث المباشر عن طريق

رحلات سفن الفضاء الموجهة إلى تلك الكواكب، وإلى الرصد من الأرض بأجهزة متقدمة لدعم نتائج الرحلات الفضائية، وتم التوصل إلى إجابات حاسمة لكثير من التساؤلات التى وردت فى كتاب عوالم فى تصادم والخاصة بالجوانب الفيزيقية والكيميائية للزهرة والمريخ وقمر الأرض، وتبين من اكتشاف تلك الحقائق عدم توافقها مع كل ما ادعاه فليكوفسكى بما فيها تنبؤاته العلمية.

لا يوجد دليل فلكى واحد فى صالح فليكوفسكى، بل على العكس تماماً، كل ما بدا صحيحاً ومقنعاً عام ١٩٥٠، اتضح بعد الاكتشافات الحديثة خطؤه بأجمعه.

وأى امرئ يسعى لإثبات حدوث كوارث كونية قريبة خلال الآلاف الأخيرة من عمر الأرض، عليه أن يحاول إثبات ذلك من خلال مجالات أخرى بعيدة عن مجال علم الفلك، وعليه أن يبحث عن أدلة غير فلكية، وحتى لو وجد تلك الأدلة، فإنه من الحكمة أن لا ينسى أن هناك استحالة فى التوفيق بين ما يجده من أدلة، وبين الحقائق الفلكية القاطعة التى ستنفى ذلك بكل يقين.

فهرس الكتاب الثانى
العلماء يواجهون فليكوفسكى

تهـويــــد التــاريـــــخ

عصــور فــى فوضــى

المجلد الأول - الجزء الأول

رؤى نقدية

الفهرس